

# الناسي الفلسفة عند الجاحظ

تأليف  
الدكتور علي بومام



دار مكتبة الإسلام





# المناحي الفلسفية عند الجاحظ

تأليف  
الدكتور علي بو ملحم

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

دار ومكتبة الهلال

جميع الحقوق محفوظة للناسر  
الطبعة الأخيرة

2002 م

دار ومكتبة الهلال

بيروت - بنر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية

تلفون: ٨٢٦٩٨١ - ٨٢٠٦٧٧ - فاكس: ٦٠٢٢٨٦ - مفتاح الخط: ٠٠٩٦١١

ص.ب: ٥٠٠٢ / ١٥ - برقياً: مكتهلل

## كلمة شكر

اقدم شكري الى استاذي الاب الدكتور فريد جبر .

فهو الذي أوصاني بالموضوع مشدداً على اهمية التنقيب عن الآراء الفلسفية في الأدب العربي .

كما اشكره ، مرة اخرى ، لإشرافه على هذا العمل في فترة عصيبة ، فقد اعطاه الكثير من وقته وجهده .

لقد طبع هذا البحث مجتزأ : طبع جزء منه تحت العنوان ذاته ، وطبع جزء آخر ملحقاً لكتاب « رسائل الجاحظ الكلامية » . وقد رأينا من الخير اخراجه كاملاً في هذه الطبعة .



## مختصرات واصطلاحات

- ج - جزء .
- ت - تاريخ .
- ط - طبعة .
- د . ت - دون تاريخ .
- ص - صفحة .
- ع - عدد .
- م - ميلادي .
- مج - مجلد .
- هـ - هجري .
- x - معنى الكلمة اللغوي .



## المقدمة

السؤال الأول الذي يطرح هو التالي : هل الجاحظ فيلسوف ، أو يمكن اعتبار ما كتبه فلسفة ؟ <sup>(١)</sup>.

إذا اعتبرنا الفلسفة نظاماً فكرياً متناسكاً محكم البناء والتصميم ، لا نستطيع أن نعد الجاحظ فيلسوفاً لأنه لم ينسق افكاره تنسيقاً دقيقاً شاملاً على غرار ارسطو وديكارت أو كانط ، بحيث يكون مذهباً منسقاً خاصاً به .

وكذلك الأمر فيما اذا فهمنا الفلسفة على انها مجموعة الدراسات التي ترجع جميع المعارف البشرية الى عدد محدد من المبادئ الأساسية وتسعى الى تكوين نظرة شاملة عن العالم . فإننا لا نجد عند الجاحظ نظرة عامة أصيلة للعالم وتطور المجتمعات البشرية ، وليس عنده شيء مما ندعوه فلسفة العلوم أو فلسفة التاريخ أو فلسفة القانون على النحو الذي نراه عند ابن خلدون وكونت وهيغل وماركس .

---

١ - حول معاني فيلسوف وفلسفة ، راجع على سبيل المثال :

Lalande , vocabulaire technique et critique de la philosophie < Paris , 8em ed., 1960 > . PP.771-777

بيد ان الفلسفة اتخذت عند اليونان معنى المعرفة العقلية أو العلم باوسع معانيه . وقد قسم ارسطو الفلسفة الى قسمين : الفلسفة الأولى أو الالهيات ، والفلسفة الثانية أو الطبيعية . وفي هذا المعنى يمكن اعتبار ما كتبه الجاحظ ابحاثاً فلسفية لانه عالج موضوعات ميتافيزيقية وطبيعية متعددة : تكلم على الله ، خالق الكون ومنظمه من حيث وجوده وصفاته وإدراكه وعلاقته بالإنسان ، كما تحدث عن بعث الرسل ودورهم في ارشاد البشر ودلائل صدقهم ، واهتم بالطبيعة فدرس ما فيها من كائنات مختلفة ، جماد وحيوان وإنسان ، فوجد فيها طبائع تسيروها ينبغي الاعتماد عليها لفهمها ، كما وجد فيها من دقة الصنعة ما يدل على حكمة الله ووجوده . وبذلك يكون قد ربط ربطاً محكماً بين قسمي الفلسفة المذكورين .

وينطبق ايضاً على الجاحظ المعنى الذي اتخذته الفلسفة في العصور الحديثة ، إذ اتجهت اتجاهين أساسيين : الاتجاه الأول المسمى بالفلسفة النقدية ، وهو ينصب على موضوع المعرفة لاكتشاف اسسها وماهيتها وطرقها ، وللوصول الى اليقين والحقيقة . والاتجاه الثاني المدعو بفلسفة القيم التي تشمل الدراسات ذات الأحكام القيمية في الأخلاق والجماليات . لقد عالج الجاحظ موضوع المعرفة معالجة جادة مستوفية ، إذ تطرق الى طبيعتها ووسائلها وطرقها ، ومعنى اليقين والشك والظن ، وحدود العلم البشري . وفي مجال الأخلاق جال جولات لا بأس بها ، فحاول أن يدرك الاسس التي تقوم عليها الأخلاق ، بملاحظة دقيقة لسلوك الناس ، وتحليل عميق لنفسياتهم . وفي مجال علم الجمال ترك ابحاثاً واسعة تناولت مفهوم الجمال ومظاهره في المرأة والشعر والخطابة واللغة .

غير أن اهتمام الجاحظ بموضوعات الفلسفة أو الكتابة فيها لا يكفيان لعدده فيلسوفاً ، إذ لا بد من توافر شرطين هما : أن تكون تلك الكتابات ذات قيمة ، وأن تكون ذات طابع عقلاني وأيملة الى الآراء التي يحتملها - بشكل عام - الفلاسفة .

ان آثار الجاحظ تنطوي على قيمة فكرية ترجع الى الشمول والأصالة . لقد فكر

في جميع المسائل التي تصادف الإنسان ، واصدر حولها العديد من الآراء المنهجية والتعميرية السديدة . ان نظريته في المعرفة مميزة انفرد بها عن سائر المتكلمين والفلاسفة ، وقد أسهم في أبحاثه الجمالية بوضع أسس علم البيان في العربية ، وقدم ملاحظات طريفة فيما يتعلق بعلم نفس الحيوان وتأثير البيئة والتطور ، وصاغ نظرية خاصة في الإمامة .

أما الطابع العقلي فهو واضح القسما في كتابات الجاحظ : لقد كان معتزلاً يحكم العقل في ما يبحث ، ويخضع الأشياء والأمور للنقد ، ويجعل الشك طريقاً إلى اليقين ، ولا يروي غليله إلى الحقيقة سوى العيان والخبر الصادق الذي يثق به العقل . وإذا كان يسلم بأحكام الدين كما وردت في القرآن والسنة ، فلاعتقاده ان العقل عاجز عن كنه صفات الله وماهيته ، فهو يعرفه معرفة وجود لا معرفة احاطة ، ومع ذلك نلغي الجاحظ يفسر آيات القرآن على ضوء العقل ويرفض الكثير مما لا يقبله العقل من أساطير وخرافات تتعلق بالجن أو الإنسان أو الظواهر الطبيعية .

بناء على هذا ، نعني بالمناحي الفلسفية عند الجاحظ تلك الانجهاات الفكرية التي تنطلق من ميدان الفلسفة لا من ميدان الادب . ذلك أن الجاحظ لم يكن أديباً فقط ، وإنما كان مفكراً أيضاً ، اشرب بنظيره إلى ما بعد آفاق الأدب ، فاطل على ميادين الفلسفة المختلفة من طبيعيات والحيات وجماليات واخلاقيات واجتماعيات ، وراح يراقب ما يمتزك في ساحتها من مذاهب ، وما يجتدم عندها من جدل ، ودفعه فضوله إلى ابداء آرائه حول مسائل الفلسفة الأساسية . وقد نثر تلك الآراء في تضايف كتبه ، ولم يقدم على جمعها في صيغة المذهب الفلسفي المنتظم على نحو ما نعهد عند كبار الفلاسفة .

ان الغاية من هذا البحث هي التنشيش عن تلك الآراء المبعثرة في آثار الجاحظ وتنسيقها ، في محاولة لاستجلاء نظرة الجاحظ إلى الإنسان والكون .

لقد حمل الباحثون الناحية الفلسفية عند أبي عثمان وشغلوا بالجانب الأدبي فقط

اعتقاداً منهم انه اديب في الدرجة الأولى ، حتى لنسمع احدهم <sup>(١)</sup> يقول في دائرة المعارف الإسلامية <sup>(٢)</sup> « ان الجاحظ كان أولاً وقبل كل شيء من الأدباء . . وان تواليه ، حتى ما كان منها خاصاً بالكلام ، هي ادنى الى الادب منها الى العلم » ، ثم يضيف في تأكيد هذا الرأي : « صفوة القول أن الجاحظ كان قوي الملاحظة أكثر منه مفكراً ، وادياً أكثر منه فيلسوفاً ، وعرف الجاحظ بالفطنة وسداد ملاحظاته في أغلب الأحيان ، ومع ذلك فلا يمكن أن تسلك مؤلفاته الا في كتب الأدبيات ، أي كتب التهذيب وادب التسلية والعلوم » .

يتفق على ذلك معظم الباحثين أمثال فؤاد إفرايم البستاني في سلسلة روائعه ( ١٨ ، ١٩ ، ١٠ ) ، و خليل مردم في كتابه « الجاحظ » ، وحسن السندوي في كتابه « أدب الجاحظ » ، و شفيق كجبري في كتابه « الجاحظ معلم العقل والأدب » وطه الجاجري في كتابه « الجاحظ ، حياته وآثاره » ، ووديعه طه النجم في كتابها « الجاحظ والحاضرة الإسلامية » ، وجميل جبر في كتابه « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » . . .

لقد انصبت جميع هذه الدراسات على الناحية الأدبية وأهملت الناحية الفلسفية ، ولذا لم انتفع منها في بحثي .

أما كتاب شارل بلا « الجاحظ ومجتمع البصرة » فلأنني مدين له بالقدر الأكبر في الفصل المخصص للمؤثرات العامة في الجاحظ . أما سائر النواحي - خلا الإمامة <sup>(٣)</sup> - فلم يتطرق إليها ذلك المستشرق ، وهي تشكل صميم الموضوع .

لم يرتكب القدامى هذا الإهمال الذي ارتكبه المحدثون . لقد فطنوا الى الناحية

١ - لم يذكر اسم صاحب المقال للنشر في دائرة المعارف الإسلامية .

٢ - دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية ، ١٩٣٣) ، مع ٦ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

3 - Pellat , " L'imamat dans la doctrine de Gahiz " , in Studia Islamica vol xv, 1962, PP.23-52.

الفلسفة عند الجاحظ واعتبروه صاحب مذهب كلامي مستقل افترق به عن سائر اخوانه المعتزلة ، وعدوه احد اعلامهم الكبار . وللى ذلك اشار الخياط في كتابه « الانتصار » ، وابن المرتضى صاحب كتاب « طبقات المعتزلة » ، والشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » وعبد القاهر البغدادي في كتاب « الفرق بين الفرق » ، والقاضي عبد الجبار في كتاب « المغني » بيد ان هؤلاء الباحثين لم يتوسعوا في كلامهم على الجاحظ ، بل اكتفوا بالإشارة الى مذهبه وآرائه دون شرح وتفصيل .

ثمة شيء آخر حملني على دراسة الجاحظ هو منهجه الذي لا يمكن ان نبخس قدره بمعزل عن آرائه ومذهبه . ذلك المنهج هو اثنى شيء عنده . أن ما يبقى خالداً في الفكر ، ليس الآراء التي يودعها آثاره فحسب ، وإنما قبل كل شيء منهجه . إننا اليوم نستغرب كثيراً من آراء افلاطون وارسطو وافلوطين والغزالي وديكارت وهيغل لأنها غدت مغلوطة في مفاهيم العلم الحديث ، ولكن على الرغم من ذلك لا يزال هؤلاء المفكرون اعلام العقل البشري الافذاذ ، ومراتبهم العالية تركز على مناهجهم الخاصة . ان منهج الجاحظ الذي يتصف بالموضوعية والجدلية والشك ودقة الملاحظة وغيرها ، منهج قوي جدير بان يعتمد لذاته . وقد خصصت له الباب الأخير .

لقد حرصت في بحثي هذا ان اتفقت من قيود التقليد الجامدة ، ولكن مستلزماً الأطروحة وشروطها الدقيقة شكلت قيداً اعاق انطلاقي . وهكذا الفيتني مضطراً لبده البحث بفصل عن « المؤثرات العامة » في الجاحظ . وبدل الخضوع للتقليد الذي يقضي بأن ابحث كلا من النواحي الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية واليمنية على حدة ، فقد تكلمت على البيئة التي نشأ فيها الجاحظ نظراً لاعتقاده بعظم اثرها على الكائنات الحية ، ولاهتمامه بدراستها . ثم تطرقت الى القول في الرجال الذين اتصل بهم اتصالاً مباشراً أو غير مباشر ، وتركوا اثرأ في تفكيره . هؤلاء الرجال كانوا علماء لغة ، وفلاسفة ، وأصحاب فرق دينية ، وأدباء ، وخلفاء ، ووزراء . وقد مثلوا التيارات الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية في عصره .

لقد قدر للجاحظ أن يعاصر رواد المذاهب الفكرية وافذاذ العلماء وعظام الخلفاء العباسيين في القرنين الثاني والثالث للهجرة . اتصل بأبي الهذيل العلاف والنظام من شيوخ المعتزلة ، وعرف أحمد بن حنبل شيخ أهل السنة والجماعة ، وادرك هشام بن الحكم اكبر المتكلمين الشيعة ، وكان مقرباً من المأمون والمعتصم والوائق أقوى خلفاء بني العباس ، واخذ عن أبي عبيدة وإبي زيد الأنصاري وغيرهما من كبار علماء اللغة والرواية الخ . . . هؤلاء الرجال تكلمت عليهم من الناحية التي اثروا فيها بالجاحظ فقط لان الغاية هي تبيان ما اتفق عليه معهم وما اختلف عليه عنهم .

بعد هذا الباب التمهيدي شرعت بتناول مختلف المناحي الفلسفية عند الجاحظ . وقد رأيت أن ارجعها الى خمسة هي : المنحى الطبيعي ، والمنحى الكلامي ، والمنحى الجمالي ، والمنحى الاجتماعي ، والمنحى اللغوي .

ويعتبر المنحى الطبيعي أقواها أثراً ، وأكثرها أصالة ، وأوسعها نطاقاً ، إننا نجد طابعه واضحاً في سائر المناحي لان الجاحظ كان فيلسوفاً طبيعياً . وهذا المنحى يتناول العالم بأسره ابتداء من الكواكب وانتهاء بالجزء الذي لا يتجزأ مروراً بمختلف الكائنات من جماد وحيوان وإنسان .

وفي كلامه على الجماد نراه يهزأ من الفلاسفة الذين زعموا أن للكواكب عقولاً ونفوساً تحركها الكائنات الأرضية الحية . ثم يتحدث عن تركيب الأجسام الطبيعية ويتطرق الى مختلف القضايا التي أطلق عليها المتكلمون اسم دقيق الكلام كالجزء الذي لا يتجزأ ، والكمون ، والمداخلة ، والمجاورة ، والجوهر ، والعرض ، والطفرة الخ . . .

وفي حديثه عن الحيوان توسع أبو عثمان وأسهب بحيث كرس سفرأ ضخماً له . ويبدو أن الحيوانات كانت تثير اهتمامه ، وهو لم يكتف بوصفها وجلاء طبائعها ، بل يبين حكمة الله في خلقها ، وجعلها دليلاً على وجوده ونهايته ، كما شاء أن يباري

ارسطو في هذا الموضوع ويصحح بعض أخطائه . علاوة على هذا - وهذا هو الهام برأينا - هو تطرقه الى معالجة علم نفس الحيوان ، وتأثير البيئة في الحيوانات ، وتطورها وأصلها ، وتأقلمها . وهذه قضايا لم تنضج الا في الفلسفات المعاصرة عند مارك ودارون وسبنسر وغيرهم .

وعندما تحدث عن الإنسان عرفه بانه عالم صغير ، ونظر إليه نظرة خاصة . فهو سيد المخلوقات وارقاها ، وهو يمتاز عنها بعقله . وتوقف عند عملية التفكير عند الإنسان واتى بنظرية في المعرفة مؤداهاً « أن المعرفة طباع » ، هذه النظرية عارض بها المعتزلة وسائر الفرق وتعرض بسببها لحمولات عنيفة شنت عليه كما يبدو في كتاب المغني للقاضي عبد الجبار .

والمحنى الفلسفي الثاني الذي عاجلناه هو علم الكلام . كان الجاحظ من اقدم من استعمل هذا الاصطلاح في معناه الواسع وهو البحث بالعقائد الدينية ومسائل الفلسفة .

في هذا الباب تحدث الجاحظ عن الله وصفاته ووجوده ومعرفة ، كما تحدث عن النبي وصفاته ومعجزاته . وبحث موضوع الإمامة وضرورة وجود الإمام وطريقة إقامته ، وأتى برأي طريف خالف به الشيعة ، وأهل السنة والجماعة ، والخوارج ، والمعتزلة ، وهو أن اختيار الإمام لا ينبغي أن يترك لعامة الشعب ، كما لا ينبغي أن يقوم على الوراثة والوصية بل يجب ان يعهد به الى نخبة من المفكرين العقلاء .

وفي نطاق علم الكلام يحدد الجاحظ موقفه من مختلف الفرق الكلامية ، فيشيد بالمعتزلة ورجالاتهم ، ويعتبرهم المدافعين عن الإيمان ، ويسخر من الشيعة مع تقديره للإمام علي بن ابي طالب ، ويهاجم الحشوية أو المحدثين أصحاب الإمام احمد بن حنبل الذين يتهمهم بالتحجر والتزمّت والتضييق على المعتزلة . ولا ينجو من تهجمه اليهود والنصارى والفلاسفة والدمريون . ويتهني أبو عثمان الى موقف واضح من الفرق هو تأييده المطلق للمعتزلة ، وتفضيلهم على جميع أصحاب الفرق الأخرى ،

وتسفيه آراء خصومهم جميعاً دون استثناء وتصريب معتقداتهم . وقد اتهمه بعض الباحثين بالاضطراب والتلون في مذهبه ، وعدم الاستقرار على رأي واحد . أما هو فقد رد على هذه التهمة في مقدمة كتاب الحيوان .

وعندما نصل الى المنحى الثالث وهو الذي اطلقنا عليه اسم المنحى الجمالي نلقي الجاحظ يقدم لنا نظرية للجمال والفن . فيحدد الجمال تحديداً موضوعياً ينطلق من الأشياء المحسوسة ، قوامه التناسق بين أعضاء الجسم . ثم يبحث في البلاغة والبيان ويسهم في وضع أصول علم البلاغة العربية تلك الأصول التي اعتمدت فيما بعد عند البيانين .

ويعرف البيان تعريفاً دقيقاً واسعاً ويبحث في عناصره من مبنى ومعنى ويتحدث عن وسائله المختلفة من لفظ وخط ونصب وإشارة . ويقف ملياً عند اللفظ ليبين ماهيته وعيوبه ومخارجه .

وهو يعتبر الفن وليد المهوبة أو الطبع ، ولا يمكن أن يكتسب اكتساباً عن طريق الدراسة والتعليم . غير أن الممارسة والثقافة تشحذان المهوبة الفنية وتنميانه .

ويتناول فنين من فنون الأدب هما الخطابة والشعر ، ويسهب في البحث عن أصول الخطابة ، وأنواعها ، ومفاهيمها عند مختلف الأمم ، وحظ سائر الشعوب منها وتفوق العرب فيها .

أما الشعر فيحدد معناه تحديداً واضحاً ، ويشير الى أنواعه المختلفة ، ويضع مقياساً لتقسيم الشعراء الى طبقات أو مراتب . ويذكر عدداً كبيراً من الشعراء ، ويستشهد بآلاف الأبيات من الشعر في كتبه .

الى جانب ذلك نجد عند الجاحظ انجهاً لغوياً ، ويمكن أن نعهده من رواد فقه اللغة في العربية ، وقد سبق ابن فارس والثعالبي والسيوطي والزحصري الى الكلام على أصل اللغة وخصائصها .

وعندما نصل الى المنحى الاخلاقي والاجتماعي نجد الجاحظ ، كما في سائر المناحي ، وضعياً لا يتعلق بالمشاليات ، ولا يطالب الإنسان بالتفوق على الذات أو بتجاوز طبيعته .

وفي مجال الأخلاق يؤثر إرضاء غرائزه ، والعمل بمقتضى نزعاته الطبيعية وبذلك تتحقق سعادته . ويرسم أسس السلوك الفردي ، فينبه على غريزتي الرغبة والرغبة ، لان الانسان بنظره يصدر عن هاتين الغريزتين في سلوكه . وعندما يتحدث عن الفضائل الخلقية يمجدها ، ويبين شروطها ، وأهمها الإحسان ، والصدق ، والشجاعة والصدقة .

أما في مجال الاحتماع فيتبنى الرأي القائل بأن الإنسان مدني بالطبع ، وان الحاجة الى التعاون مع بني جلدته هي التي ترغمه على الاجتماع . وأولى المؤسسات الاجتماعية العائلة التي تبنى على العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة لحفظ النوع . ان الجاحظ من الداعين الى تعزيز هذه المؤسسة على الرغم من انه لم يؤسس عائلة . ولهذا السبب نراه ، مثلاً ، يشن حملة ضد الخصاء ويعتبره جريمة شنعاء ، ويبين عواقبه الوخيمة على النفس والجسم والمجتمع .

وكذلك يدعو الجاحظ الى تعزيز مؤسسة اجتماعية أخرى هي الدولة . إنها ضرورية لحفظ الأمن في الداخل ودرء الخطر من الخارج . وهو يطيل الكلام على رئيس الدولة وصفاته . ويلتفت الى الأحداث التي مرت بالأمة منذ الجاهلية حتى أيامه والتطورات التي حصلت في المجتمع ، وهو يهتم بوصف أوضاع مجتمعة أكثر من اهتمامه بوضع اسس الإصلاح . والجديد عنده هو دعوته الى نبذ العصبية القومية ، وإلى التعاون بين مختلف الأمم التي ، مهما اختلفت لغاتها ومزايها وعاداتها والوانها ونزعاتها ، تشترك في رابطة تجمعها وتواخي بينها هي الانتماء الى النوع الإنساني . لذا لا ينبغي أن تناصب كل أمة سائر الأمم العداء ، وتفخر عليها بمزايا حقيقية أو مزعومة ، لان لكل شعب مزاياه وصفاته .

وأخيراً ، ننتهي الى الباب السابع الذي خصصناه للكلام على منهجية الجاحظ من الناحيتين : الفكرية والتعبيرية . ورصدنا لها خصائص تلك المنهجية التي تمثل ابرز وجوه أصالته ، وتعتبر الدعامة التي ترتكز عليها منزلته وخلوده .

انطلقت في بحثي من مؤلفات الجاحظ ذاتها ، وشددت على أن اتناول الجاحظ من خلال ما كتب هو بالذات ، ولكن هذا لا يعني اني لم أعد الى ما كتب عنه الأقدمون والمحدثون . كنت أعمد الى النصوص التي خلفها الجاحظ فأقرأها واتفهمها واستنبط ما انطوت عليه من أفكار ، وبعدئذ أعود الى المراجع لأقابل ما استنبطه بما توصل إليه سواي فأستدرك ما فات أو ما سهوت عنه ، أو أسد نقصاً ، أو أجلو غامضاً ، أو أصحح خطأ .

لقد واجهتني صعوبات جمة كلفتني جهداً للتغلب عليها . منها كثرة الكتب التي خلفها الجاحظ ، وجاوز عددها مايتي كتاب ورسالة . إن قراءة هذا التراث الضخم ودراسته دراسة متأنية لاستخلاص ما فيه من أفكار فلسفية تتطلب وقتاً طويلاً وصبراً عظيماً .

أضف الى ذلك امتزاج الفلسفة بالأدب والتاريخ واللغة والطبيعة والجغرافيا والاجتماع في تلك الكتب . فالجاحظ لم يفصل بين مختلف هذه العلوم فيخصص لكل منها كتاباً مستقلة بحيث يمكننا أن نتناول الكتب الفلسفية التي هي مادة موضوعنا ونعكف على تمحيصها ونترك ما عداها . يبدو ذلك واضحاً ، عل سبيل المثال ، في كتب الحيوان ، والبيان والتبيين ، والتربيع والتدوير . . فهو ينتقل بالقارئ من باب الى باب ومن موضوع الى آخر دون فاصل يفصلها . ويشبه عمل الباحث عن فلسفة الجاحظ عمل المتقب عن كنز مدفون في قطعة أرض واسعة .

ويزيد من تعقيد الأمور عدم دقة المصطلح الفلسفي لدى الجاحظ ، وغلبة الأسلوب الأدبي على كتابه . إنه أسلوب فريد من نوعه ، يتسم بالاستطراد والتكرار والترادف المعنوي واللفظي ، كما يتسم بمزج الجد بالهزل ، والخيال بالواقع ، والتجرد

بالذاتية ، والجدل بالعرض ، والقصة بالخطاب الخ . . . ومن شأن هذا الأسلوب الحؤول دون كشف المعاني الفلسفية بجلاء لأنه يخلع عليها براقع واصباغا تخفي حقيقتها .

وكما أن صعوبات البحث تعود الى كتب الجاحظ ، فكذلك نقائص العمل متسببة عن تلك الكتب . لقد ضاع قسم كبير من مؤلفات الجاحظ ، والقسم الباقي منها ( حوالي الثلث ) ، بعضه ناقص ، وبعضه منحول ، وبعضه تام وصحيح ويتبين من الكشف الذي أجراه شارل بلا أن الجاحظ ترك نحو مائتي كتاب ، منها ثلاثون كتاباً وجدت كاملة ولكن بعضها منحول ، ومنها خمسون كتاباً وجدت ناقصة ، أما الباقي فهو ضائع ، لم يكشف بعد .

من بين الكتب الضائعة عدد يدخل في صميم موضوعنا مثل كتاب الوعد والوعيد وكتاب المعرفة ، وكتاب فضيلة المعتزلة الخ . . . وقد وردت أساؤها في كتب التراجم القديمة مع اشارة الى عمتواها أحياناً . ولا شك في أن فقدانها يشكل نقصاً في عملنا .

أما الكتب التي وصلنا منها مختارات أو نتف فلا ينبغي الاعتماد عليها الا بحذر شديد ومعظمها مثبت على هامش كتاب الكامل للمبرد .

وأما الكتب المنحولة فهي تشكل إحراجاً للباحث لان الآراء حولها متضاربة ، فالبعض يقول إنها صحيحة النسبة للجاحظ ، والبعض يقول إنها منحولة مثل كتاب التاج ، وكتاب تهذيب الأخلاق ، وكتاب الحنين الى الأوطان ، وكتاب الدلائل والاعتبار الخ . . . وهذا ما حملني على معالجة النحل بالنسبة لبعض الكتب التي تدخل في صميم عملنا . ولا بد من الإشارة الى أن الجاحظ يتحمل قسطاً من مسؤولية النحل لانه - كما يعترف - كان يؤلف الكتب والرسائل وينسبها ، لتروج ، الى غيره كابن المقفع ، في مطلع حياته الأدبية <sup>(١)</sup> .

---

١- فصل ما بين العداوة والحسد (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٣٥١) .

أهم الكتب التي اعتمدت عليها بشكل رئيسي هي الحيوان ، والبيان والتبيين ،  
والبخلاء ، والرسائل التي وردتنا كاملة .

ويعتبر « الحيوان » أهم مؤلفات الجاحظ . يقع في سبعة أجزاء ضخمة ، وهو ،  
وان كان يدور حول اخبار الحيوانات ووصف طبعاتها ، إلا انه ينطوي على الكثير من  
الأفكار الفلسفية <sup>(١)</sup> ، ففيه كلام عن اقسام العالم وتكوينه ، والجزء الذي لا يتجزأ  
والجواهر والاعراض والهوى والألوان والكمون والمداخلة ، وفيه أخبار عن الديانات  
والفلاسفة ، وفيه آراء في الغريزة والتطور وتأثير البيئة والمعرفة ، هذا الى جانب  
تطبيقات للمنهج العلمي التجريبي ، وآراء في البيان والفن واللغة والاجتماع ، مما  
يجعل هذا الكتاب شبه موسوعة . وقد اشار الجاحظ الى قيمته بقوله : « وهذا كتاب  
تستوي فيه رغبة الأمم ، وتشابه فيه العرب والعجم ، لانه ، وان كان عربياً إغريباً ،  
وإسلامياً جمعياً ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع بين معرفة السماع وعلم  
التجربة ، واشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس  
الغريزة » <sup>(٢)</sup> .

أما « البخلاء » فهو أطرف كتب الجاحظ وأحكمها نظاماً . يبدو في ظاهرة  
كتاب أدب وظرف واخبار عن البخلاء ، ولكنه في باطنه ينطوي على فلسفة اجتماعية  
وأخلاقية عميقة . فيه تحليل لنفسية البخلاء والكرماء ، وعرض لأساليب الاقتصاد ،  
والبحث عن مصادر الأخلاق أو السلوك البشري . كل ذلك مصوغ بقلب جدلي  
وقصصي متع <sup>(٣)</sup> .

فإذا انتهينا الى كتاب البيان والتبيين وجدناه الكتاب الثاني الذي يلي « الحيوان »  
من حيث الحجم والأهمية . يقع في أربعة أجزاء متوسطة الحجم ، وينطوي على

---

١ - راجع حول التعريف بكتاب الحيوان ومحتواه وقيمه ، علي بو ملحم ، معجم الجاحظ الفكري ، المقدمة ، ص ج - ط .

٢ - الحيوان ، ج ١ ، ص ١١ .

٣ - راجع حول التعريف بكتاب البخلاء ومحتواه وقيمه : علي بو ملحم ، معجم الجاحظ الفكري ، المقدمة ، ص ي -  
يد .

نظرية الجاحظ الجمالية أو البيانية بشكل أساسي ، ولكنه يضم أيضاً آراء في الزهد والتصوف وأخبار الزهاد وأصحاب البيان . ونقع فيه على فصل يدور حول النزعات الشعبية ومزاعمها والرد عليها وموقف الجاحظ منها <sup>(١)</sup> .

وابرز رسائل الجاحظ « الترييع والتدوير » ، وهي رسالة ذات طابع عام كالحَيوان ، تبدو لأول وهلة هجاء يقذف به الجاحظ أحد الكتاب في عصره ( احمد بن عبد الريحاب ) ، ولكنها ذات قيمة فلسفية هامة ، إذ تنطوي على مائة مسألة بطرحها أبو عثمان عل ذلك الكاتب الشيعي الجاهل الذي يعيا عن الإجابة . منها مسألة الإمامة عند الشيعة ، ومنها بعض معتقداتهم حول الرجعة والبداء ومنها الدعوة الى الاعتزال ، ومنها مسألة ماهية العلم وحصوله في الذات ، ومسألة الجهال ومفهومه ، ومسألة الهوى وتكون الأجسام الخ . . . <sup>(٢)</sup> .

أما الرسائل الباقية والتي يناهز عددها الثلاثين فيمكن توزيعها إلى ثلاث فئات .

١ - رسائل ذات طابع سياسي اجتماعي أخلاقي : النابتة ، مناقب الترك ، فضل هاشم على عبد شمس ، فخر السودان على البيضان ، الحجاب ، اخلاق الكتاب ، صناعات القواد ، الحنين إلى الأوطان ، البلدان ، التبصر بالتجارة ، المعاد والمعاش .

٢ - رسائل ذات طابع كلامي : العثمانية ، رسالة الحكمين ، استحقاق الإمامة ، حجج النبوة ، نفي التشبيه ، الرد على النصارى ، الدلائل والاعتبار .

٣ - رسائل ذات طابع أدبي : كتمان السر وحفظ اللسان ، الجدة والمهزل ، العداوة والحسد ، النبذ ، القيان ، مفاخرة الجوّاري والغلمان .

---

١ - راجع حول كتاب البيان والتبيين وقيمه ومحتواه : علي بو ملحم ، معجم الجاحظ الفكري ، المقدمة ص ٥٥ - ٥٦ .

٢ - راجع حول رسالة الترييع والتدوير ومحتواها : علي بو ملحم ، معجم الجاحظ الفكري ، المقدمة ، ص ٦٠ - ٦١ .

الرسائل الأربع الأولى تعكس الاتجاه السياسي للجاحظ . فالنابذة تعبر عن عداوة الجاحظ لبني أمية حيث نراه يشن حملة عنيفة على خلفائهم فيتهمهم بخذل عثمان ويعدد مساوئهم وجرائمهم في عهد معاوية وعبد الملك بن مروان وسواهما .

وفي « فضل هاشم على عبد شمس » يشيد بمزايا بني هاشم ومن ضمنهم طبعاً العباسيون ، ويوضح تفوقهم على عبد شمس التي ينتمي إليها الأمويون .

وفي « فخر السودان على البيضان » يعدد الجاحظ مزايا أبناء العرق الأسود - وفي عدادهم العرب - مشدداً على شاعريتهم وشجاعتهم وكرمهم .

وفي « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » يسوي بين الأمم المختلفة ويجعل لكل أمة مزايا خاصة وإن كان ينوه بشجاعة الأتراك التي تضارع بلاء الخوارج من العرب . وهو يعبر بذلك عن سياسة العباسيين الذين احلوا العصية الدينية مكان العصية القومية حفاظاً على لحمة دولتهم التي تضم شعوباً مختلفة .

أما رسائل « التبصر بالتجارة » و « اخلاق الكتاب » و « صناعة القواد » و « الحجاب » فتبين اهتمام الجاحظ بدراسة مختلف فعاليات المجتمع وفتاته . فرسالة « التبصر بالتجارة » تعرض للأسعار والسلع الرائجة ومصادرها وقيمتها . ورسالة « اخلاق الكتاب » تتكلم على تلك الطبقة الاجتماعية التي لعبت دوراً هاماً في عصر الجاحظ بحكم قربها من الحكام والخلفاء . ورسالة « الحجاب » تصف أيضاً آداب هؤلاء الخدم الذين يعيشون قريباً من أولي الأمر . وكذلك رسالة « القواد » الذين لا بد منهم لقيام الدولة .

وتظهر رسالة « الحنين إلى الأوطان » و « رسالة البلدان » اهتمام الجاحظ بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان والروابط التي تنشأ بين الأرض ومن يقيم عليها . فلكل بيئة أو إقليم مزايا خاصة ( رسالة البلدان ) ، والناس شديداً التعلق بأوطانهم ( الحنين إلى الأوطان ) .

وتعتبر رسالته « المعاد والمعاش » أهم أثر خلفه في الأخلاق إلى جانب « البخلاء ». وفيها يبحث الجاحظ عن منابع السلوك البشري ، ويعدد الفضائل التي يجب أن يتحلّى بها المرء .

ونجد نظرية الجاحظ حول الإمامة في تضاعيف رسائل « العثمانية » ، و« الحكمين » و« استحقاق الإمامة » . في العثمانية يصور الجاحظ وجهتي نظر الشيعة وأهل السنة والجماعة حول الصفات التي ينبغي أن تتوافر في الإمام . ورسالة « الحكمين » تدور حول الحكم على الإمام علي وموقف أنصاره وخصومه منه وتنتهي بتأييد الجاحظ له وتنديده بالشيعة وخصومهم على حد سواء .

أما رسالة « استحقاق الإمامة » فتبسط نظرية الإمامة بشكل واضح : ضرورة الإمام ، وصفاته ، وطريقة اختياره ، وواجباته . . .

أما رأيه في النبوة فيتمثل في رسالة « حجج النبوة » وفيها يوضح الجاحظ معنى الحجة بنوعيهما : العيان الظاهر والخبر القاهر . ويبحث في شروط الخبر الصحيح ، ويقول بضرورة إرسال الأنبياء لتعليم الناس . ثم يتحدث عن المعجزة ومعناها ويعتبر القرآن معجزة النبي محمد .

وللجاحظ رسالتان أخريان ذواتا طابع كلامي هما « نفي التشبيه » و« الرد على النصارى » . الأولى وجهها إلى القاضي محمد بن أبي دؤاد يحرضه فيها على العامة الذين وقعوا في التشبيه وأزعجوا المعتزلة ، ويدعوه إلى نصره المتكلمين الذين يذودون عن الدين . والثانية يهاجم فيها النصارى الذين يزرعون الشكوك في نفوس المسلمين عندما يقولون أن المعلومات التي وردت في القرآن حول المسيح وبعض عقائدهم غير صحيحة .

وفي رسالة « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » التي يعتبرها البعض منحولة يبحث الكاتب في البراهين على وجود الله وحكمته وتدبيره شؤون العالم .

وأخيراً نصل الى الرسائل ذات الطابع الأدبي . وهي لا تتضمن مادة فلسفية وافرة ولكنها تخطيط اللثام عن نفسية الجاحظ وتصور لنا المجتمع العباسي . ففي رسالة « الجد والهزل » التي وجهها أبو عثمان الى ابن الزيات ، يكشف الكاتب عن علاقته بهذا الوزير . وفي رسالة « القيان » يبين نظيرته الى الجمال عند المرأة ، ومنزلتها في نفسه ، والمعاملة التي ينبغي اتباعها معها . وفي رسالة مفاخرة الجوارى والغلمان يرسم الجاحظ لوحة عن الانحلال الجنسي في عصره . وفي رسالة النبذ تعبير عن انهماك ذلك المجتمع في الشراب واللذة .

أما رسالة « كتمان السر وحفظ اللسان » فذات قيمة ادبية وخلقية معاً . فهو يدعو فيها الى الإقلال من الكلام أو القصد فيه ، ويبين أن المرء مطبوع على الكلام والاختبار والاستخبار ، فيعسر عليه الكتمان ويعتريه الكرب إذا كتم سره . ولذلك كان حفظ اللسان دلالة على رجاحة العقل والحلم .

وكذلك رسالة « فصل ما بين العداوة والحسد » يحاول فيها الجاحظ أن يبين الفرق بين هاتين الرذيلتين ويندب للاقلاع عنهما . ويرى الحسد آلم وأذى وأوجع وأوضع في العداوة ، وأن الحسد لا يكون إلا في فساد الطبع وهو أخو الكذب ، والعداوة تضعف ولكن الحسد غرض دائماً .

ان الرسائل التي طبعت توزعتها ست مجموعات رئيسة هي :

١ - مجموعة الفصول المختارة ، من اختيار عبدالله بن حسان ، طبعت على هامش كتاب الكامل للمبرد بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ ، تضم ثمان عشرة رسالة .

٢ - مجموعة ساسي ، جمعها محمد ساسي بعنوان : « مجموعة رسائل لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ » ، طبعت في مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ، وتحتوي على إحدى عشرة رسالة .

٣ - مجموعة فنكل بعنوان « ثلاث رسائل للجاحظ » ، طبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ .

٤ - مجموعة حسن السندوي بعنوان « رسائل الجاحظ » . طبعت في المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣ م . وأعيد طبعها تقريباً باسم آثار الجاحظ ، في مطبعة النجوى ببيروت سنة ١٩٦٩ م وتضم نحو ١١ رسالة .

٥ - مجموعة الحاجري وكراوس ، بعنوان « مجموع رسائل الجاحظ » ، نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٣ في مصر ، وتضم أربع رسائل .

٦ - مجموعة عبد السلام هارون ، باسم « رسائل الجاحظ » طبع مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٦٥ م . وتضم سبع عشرة رسالة ، وتقع في جزأين .  
للاطلاع على كتب الجاحظ لدينا خمسة مراجع أساسية هي :

١- كتاب الفهرست لابن النديم ، مطبعة دانشگاه في طهران ، سنة ١٩٧١ .  
أورد أسماء سبعة وتسعين كتاباً ، وأربعاً وعشرين رسالة .

٢- كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي ، دار المشرق ، بيروت ، الجزء ١٦ ،  
أثبت أسماء مائة وثلاثة وعشرين كتاباً .

٣- أدب الجاحظ ، تأليف حسن السندوي ، طبع في القاهرة ، سنة ١٩٣١ م .  
يتضمن تقريباً لائحة بالكتب الواردة في معجم الأدباء .

٤- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٩ ، الجزء الثالث ، أثبت له مائة وستة وسبعين كتاباً .

٥ - كشف بآثار الجاحظ ، لشارل بلا ، نشر في مجلة ارايكا ، العدد ٣ سنة ١٩٥٦ <sup>(١)</sup> احصى له مائة وثلاثة وتسعين كتاباً ، وأفاد من المصادر التي سبقت ،  
ولكنه لم يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم .

---

1 - Pellat " Essai d'inventaire de l'oeuvre Gahizienne " , in Arabica , vol. III, 1956. PP.147-180.

يعتبر كشف بلا أوفى المراجع عن كتب الجاحظ ، وهو عبارة عن لائحة باسماء تلك الكتب مرتبة حسب الحروف الهجائية ، وللى جانب كل اسم إشارات للى المصادر التي ورد فيها ذلك الاسم ، وما إذا كان الكتاب موجوداً أو ضائعاً أو مجتزأ أو مطبوعاً أو منحولاً .

ويقسم بلا مؤلفات الجاحظ لى فئتين <sup>(١)</sup> : الفئة الأولى سماها كتب الأدب الجاحظي مثل « الحيوان » « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « والفئة الثانية تضم المؤلفات الأصلية حيث تظهر موهبة الجاحظ الأدبية ونوع من الجهد الفكري ، مثل « المعاد والمعاش » و « الجد والهزل » و « العثمانية » و « النابتة » و « الرد على النصارى » و « القيان » ، ولا يبدو هذا التقسيم دقيقاً لأن كتب « الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » لا تقل أصالة عن سائر كتبه .

ويقول بلا ان مذهب الجاحظ الكلامي لا يبدو مشتملاً على اشياء أصيلة ، وقد ضاعت معظم كتاباته التي عرضت ذلك المذهب ، وإنه ينتظر بحثاً حول هذا الموضوع . وعلى الرغم من ان منزلة الجاحظ في تطور الفكر الإسلامي لا ينبغي أن تهمل ، فإننا يجب أن نهتم به ككاتب وأديب ، في الغالب ، لان الأدب عنده لا يتوارى أمام الفكر <sup>(٢)</sup> .

إن كلام بلا ظاهر التناقض ، فهو يقول من جهة ان معظم كتابات الجاحظ الكلامية قد ضاعت ، ثم يحكم من جهة ثانية على مذهب الكلامي بعدم الأصالة . فكيف عرف أن مذهب الكلامي غير أصيل وهو لم يطلع على كتبه التي عاجلت هذا الموضوع بسبب ضياعها ؟ .

---

1 - E I > , vol. II, P. 396.

2 - E I > , vol. II, P. 397.

ويقول من ناحية ان فكر الجاحظ لا ينبغي أن يهمل ، ثم يعلن من ناحية أخرى انه يجب الاهتمام به كأديب نظراً لغلبة الأدب على الفكر عنده .  
أما أمنية بلا ، وغيره من الذين كتبوا في أدب الجاحظ ، أن يروا بحثاً حول فكر الجاحظ ، فربما تحققت في عملنا هذا .  
وأما أصالة الجاحظ فقد ظهرت في نواح عديدة ، وسوف نسمى الى ابرازها في الطبيعيات ، وعلم الكلام ، والأخلاق ، والجماليات ، وبصورة عامة في فصل الجاحظية .



## **الباب الأول**

---

### **المؤثرات العامة**



يمكن القول ان آثار الجاحظ تشبه مرآة انعكست فيها اوضاع عصره من النواحي الطبيعية والاجتماعية والسياسية والأدبية والفلسفية ، وقد حاولنا في هذا الباب أن نرسم صورة لذلك العصر من خلال كتبه مبرزين العوامل التي أثرت في تفكيره .

وفي سبيل ذلك بحثنا في خمسة فصول المؤثرات العامة وفقاً للشكل التالي :

- الفصل الأول : بيتا البصرة وبغداد من الناحيتين الطبيعية والاجتماعية .

- الفصل الثاني : في عصر الجاحظ من الناحية السياسية ، الخلفاء والوزراء والقضاة الذين اتصل بهم .

- الفصل الثالث : في مناهل فكر الجاحظ المختلفة ، من بيت وكتاب ومسجد وناد ورواة ولغويين ومتكلمين وكتب .

- الفصل الرابع : في أصل الجاحظ وشخصيته .



## الفصل الأول

### بيئتا البصرة وبغداد من الناحيتين

### الطبيعية والاجتماعية

أ - إن النظرية القائلة بأن الإنسان هو ابن بيئته تجد تطبيقاً حياً لها في الجاحظ ونتاجه . لقد جاء نتاجه ثمرة للعصر العباسي الأول والربع الأول من العصر العباسي الثاني بمختلف فعالياته السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية والعلمية . إننا نلقي في آثاره صورة واضحة لتلك البيئة بوجهيها الطبيعي والاجتماعي . وقد ادرك الجاحظ نفسه مدى تأثير البيئة على الإنسان والحيوان ، وكان في أوائل المفكرين الذين تكلموا على هذا التأثير في جسم الإنسان وسلوكه <sup>(١)</sup> . ولعل هذا هو الذي حدا المستشرق الفرنسي شارل بلا على القول بأن الجاحظ نتاج صاف للبصرة <sup>(٢)</sup> . ويؤخذ على هذا الرأي إغفاله تأثير بغداد في الجاحظ ، تلك المدينة العظيمة التي كانت عاصمة الدنيا آنذاك والتي سلخ فيها أبو عثمان نحو نصف عمره ، وفيها صنف أكثر كتبه فضلاً عن

---

١ - أنظر آراء الجاحظ بهذا الصدد في الباب الثاني ، الفصل الثالث من هذا البحث .

٢ - بلا ، الجاحظ وبيئته البصرة (ترجمة إبراهيم الكيلاني ، دمشق ١٩٦١) ص ١٠ - ١١ .

ان الأخذ بنظرية تأثير البيئة التي اعتمدها بلا ، تحتم عليه السير بها الى نهاية المطاف والقول بأن الجاحظ تلقى تأثير بغداد كما تلقى تأثير البصرة .

ب - إن البصرة ، مسقط رأس الجاحظ ، كانت مدينة حديثة بالنسبة لعصره ، أسست بين سنتي ١٤ - ١٦ هـ حسب رواية المسعودي <sup>(١)</sup> . وكان الهدف من تأسيسها اتخاذها نقطة انطلاق للحملات العسكرية التي كان بجهازها العرب على بلاد فارس وما وراءها ، وللقضاء على الثورات التي كانت تشب في الداخل . كان موقعها الى الجهة الغربية من مدينة البصرة الحالية ، وعلى بعد أربعة فراسخ من الأبله الواقعة على دجلة « وقد بنيت على أرض جرداء غير ذات زرع . محرومة من الري ، وواقعة على بعد أربعة فراسخ من أقرب بلد سبق وجوده بحري المسلمين الا وهو الأبله » <sup>(٢)</sup> . وكان جند القائد عتبة بن غزوان هم الذين شكلوا نواة سكان البصرة عندما قدمها عام ١٤ هـ وعسكر فيها <sup>(٣)</sup> .

اتخذت المدينة شكل الطيلسان ، وشق إليها من دجلة نهران : نهر الأبله ونهر معقل ، فإذا اجتمعوا عليها وتشعبت إليها انهار الى ناحية عبادان وناحية المذار وبلغت مساحتها في القرن الأول الهجري نحو فرسخين في فرسخين <sup>(٤)</sup> .

وذكر الجاحظ من أنهار البصرة التي شقت من الفرات نهرا اسمه فيل بانان وآخر اسمه أم عبدالله <sup>(٥)</sup> ، مما يدل على كثرة الأنهار التي جرت من الفرات الى البصرة .

ولم يمض نصف قرن على تأسيس البصرة حتى اكتظت بالسكان . ويذكر

---

١ - المسعودي ، مروج الذهب (منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ٩١٧٣ ، د . ط) ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

٢ - بلا ، الجاحظ ومجتمع البصرة ، ص ٢٦ .

٣ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

٤ - بلا ، الجاحظ ومجتمع البصرة ، ص ٢٩ .

٥ - الحيوان ، ج ٧ ، ص ٨٢ البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

الجاحظ أسماء عدد من المساجد التي شيدت فيها كانت قائمة في زمانه . منها مسجد محمد بن رغبان حيث كان يتردد ويسمع احاديث الشيوخ والعلماء <sup>(١)</sup> ، ومسجد بني مازن الذي يقع في سكة بني مازن <sup>(٢)</sup> .

الى الغرب من البصرة يقع المريد وهو سوق واسعة يؤمها البدو لبيع مواشيهم وإناخة قوافلهم . وإلى جانب ذلك كان الشعراء يفدون إلى هذا المكان لإنشاء قصائدهم ، ويأتي النحاة واللغويون والرواة لإلتقاط الشواهد اللغوية وسماع اللغة الفصحى من الاعراب <sup>(٣)</sup> .

وفي عهد زياد بن ابيه ( ٦٧٥ م ) شقت أقنية السقي وأقيمت المشروعات الزراعية ، وغرست اشجار النخيل في مساحات كبيرة امتدت من عبادان الى عديسي على مساحة مائة فرسخ ونيف . وإلى الشمال تمتد بين البصرة و واسط مستنقعات أطلق عليها اسم البطائح يقطنها الزط والزنج ، وتتج هذه المستنقعات القصب والرز والسك . ويكثر البعوض في هذه المنطقة بسبب المستنقعات وقد وصفها الجاحظ فقال : « ومن العجب أن بين البصرة وواسط شطرين : فالشطر الذي يلي الطف وباب طنج يبيت أهله في عافية وليس عندهم من البعوض ما يذكر ، والشطر الذي يلي زقاق الهفة لا ينام أهله من البعوض . فلو كان هذا ببلاد الشام أو بلاد مصر لادعوا الطلسم . وحدثني إبراهيم النظام فقال : وردنا فم زقاق الهفة في أجمة البصرة فأردنا النفوذ فمئنا صاحب المسلحة ، فأردنا التأخر الى الهوز الذي خرجنا منه فأبى علينا <sup>(٤)</sup> .

ويشير الجاحظ الى النخيل الذي كان يغطي مساحات واسعة من الأراضي على

---

١- المصدره ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

٢- المصدره ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

٣- بلا ، الجاحظ وجميع البصرة ، ص ٣٦ ، باقوت ، معجم الأدباء (دار للشرق ، بيروت ، د. ت. ، د. ط. ) ج ١٦ ، ص ٧٤ .

٤- الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٩٩ .

مقربة من البصرة والتي تسقط عليها الغربان في فصل الخريف وتختار المصرومة منها مكاناً تجثم عليه دون غيرها (١) .

والى الغرب من البصرة تمتد البوادي المترامية الأطراف في الجزيرة العربية .

والى الجنوب يقع البحر الذي بني عليه مرفأ يربط البصرة بالشرق والجنوب والشمال ويمدها بثروة حيوانية من السمك اللذيذ الذي يذكر الجاحظ بعض أنواعه وزمن وفادته : « وهذا بحر البصرة والابلة يأتيهم ، ثلاثة أشهر معلومة معروفة من السنة ، السمك الاسبور فيفرحون وقت مجيئه ويستظرونه » (٢) .

وعلى ضفاف الأنهار التي جرت من دجلة الى البصرة اقيمت القصور وسط البساتين الخضراء التي يقصدها الناس ايام الجمع والأعياد واوقات الراحة للتنزه والاستراحة .

وعلى الرغم من وفرة الأنهار التي شقت بين دجلة والبصرة ، نجبرنا الجاحظ ان الناس ظلوا يعانون مشكلة المياه الصالحة للشرب . ذلك أن مياه الجوف والأنهار كانت ملحة بسبب ملوحة التربة ، فكان الناس مضطرين الى نقل المياه العذبة من النهر الذي يبعد نحو اربعة فراسخ ، كما يفهم من نادرة الشيخ وماء الوضوء (٣) .

أما مناخ البصرة فرديء بارد في الشتاء ، حار كثير التقلب في الصيف .

وأما سكان البصرة فكانوا خليطاً عجيباً من مختلف الأمم والقبائل . والراجح ان اهل الابلة كانوا في معظمهم من الفرس ، ويقول المؤرخون انه كانت تقيم فيها حامية مؤلفة من خمسمائة جندي من الاساورة الايرانيين قبل الفتح العربي . بينما كان أهل

---

١- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ .

٢- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

٣- البخلاء ، ص ٢٩ .

السواد في معظمهم من الانباط الذين كانوا قبل الفتح العربي وبعده لا يهتمون بالصراع السياسي ، وإنما انصرفوا الى الاعمال الزراعية <sup>(١)</sup>.

وعندما نزلها العرب مع الفتح وبعده قسموها دوائر خمساً ، نزلت كل قبيلة في دائرة ، واطلقوا عليها فيما بعد اسم الاخماس . تلك القبائل هي : أهل العالية من كنانة وقريش وبجيلة وقيس عيلان ومزينة واسد ، وبنو تميم مؤسسو البصرة الحقيقيون الذين لعبوا دوراً خطيراً في سياستها ، وعبد القيس التي عرف ابناؤها بالشغب والتتن ، والازد الذين نزلوا البصرة متأخرين زمن معاوية ، وبكر وائل اعداء تميم الالاء <sup>(٢)</sup>.

بعد استقرار العرب في البصرة وفدت اليها أجناس مختلفة سكنوا مع العرب وشكلوا عناصر دخیلة على اهلها منهم الموالي ، والایرانيون ، والسندیون ، والهنود الذين دعوا بالزط واستقروا على شواطئ الخليج قبل الفتح الاسلامي بتدبير من بهرام جور واعتنقوا الإسلام واختلطوا بتميم وحاربوا في صفوفهم وقاموا بشورات عديدة . ويزعم بعضهم انهم أجداد الفجر الحاليين <sup>(٣)</sup> . وذكر الجاحظ بلدة اسمها الزط تقع الى الشمال من البصرة عرفت بعظم بموضها <sup>(٤)</sup> . كما اشار الى وجود السندیين في البصرة ، وقال انهم يعملون في حقل الصيرفة حتى انك لا ترى صيرفياً الا وصاحب كيسه سندی <sup>(٥)</sup> . ثم منهم الزنج ، وهم زنوج كان يؤتى بهم رقيقاً من الساحل الشرقي في أفريقيا ، عملهم استصلاح الاراضي ، ولهذا لم يتهافتوا على المدينة ، بل طلبوا ملتصقين بالمزارع والحقول . وهذا ما يستفاد من كلام الجاحظ « وقد علمنا ان الزنج اذا اخرجوا من بلادهم فما يحصل بالبصرة عندنا منهم الا اليسير » <sup>(٦)</sup> . وذلك ما

١ - بلا ، الجاحظ ويجمع البصرة ، ٥٠ - ٥١ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٥٣ - ٥٤ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٧١ - ٧٥ .

٤ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ .

٥ - المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ .

٦ - المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ١٣٥ .

اتاح لهم الحفاظ على خشونتهم . وقد قاموا بعدة ثورات بين سنتي ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ أدت إلى إحراق البصرة وتدميرها وتهديد العاصمة بغداد ذاتها بالاجتياح<sup>(١)</sup> .

هذا التركيب البشري الغريب أثر في تاريخ البصرة السياسي والفكري . فبعد مقتل عثمان انقسم أهل البصرة ثلاث فئات : فئة أيدت علياً ، وفئة ناصرت عائشة التي كانت تطالب بدم عثمان ، وفئة وقفت على الحياد وهم نواة المرجئة والخوارج والمعتزلة . ولما نشبت معركة الجمل بالقرب من البصرة قتل حوالي خمسة آلاف من ابنائها ، مما أحدث نقمة على العلويين . ولكن البصريين لم ينحازوا رغم ذلك إلى معاوية الذي أصبح خليفة بعد مقتل علي . وإذا كانوا قد خضعوا عنوة لواليه زياد ابن ابيه فإنهم لم يلبثوا أن أعلنوا الثورة ضد ابنه يزيد .

وعندما انهارت الدولة الأموية وقامت على أنقاضها الدولة العباسية لم يتقرب البصريون من أصحاب السلطان الجدد ، ومعنى ذلك أن البصرة غلب على تاريخها موقف المعارضة لجميع العهود ، ومرد ذلك إلى تغلغل العناصر المناوئة للسلطة في صفوف ابنائها ومنهم الخوارج والزنج والمعتزلة .

وأدى هذا الاختلاط والاحتكاك بين اجناس مختلفة ، وأقوام متعددة ، وذهنيات متفاوتة ، وثقافات متباينة ، إلى انفتاح العقول ونمو الوعي الثقافي وتقدم في مضمار الحضارة تجل بكثرة العلماء والمفكرين والأدباء الذين أنجبتهم البصرة ، وبانتشار الجوامع والأندية ، وبحرية الرأي ، والإقبال على الجدل والمناظرة .

ففي هذه المدينة العجيبة قضى الجاحظ نصف عمره متقلداً بين أسواقها ومساجدها ، مختلطاً بأهلها من عرب وعجم وموال .

وانتقل أبو عثمان إلى بغداد عاصمة الخلافة في مطلع القرن الثالث الهجري<sup>(٢)</sup>

---

١ - بلا ، الجاحظ ويجمع البصرة ، ص ٧٨ .

٢ - المصدر عينه ، ص ١٣ .

ولم يكن قد مضى على بناء هذه المدينة سوى نصف قرن ونيف من الزمان . لقد بناها أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني سنة ١٤٥ هـ ، وجعلها عاصمة له بدل الهاشمية التي كان قد بناها في أوائل العصر العباسي قرب الكوفة ، وكره سكنائها بعد وقعة الراوندية (٧٥٤م) فيها ولمجاورتها الكوفة التي يغلب على أهلها التشيع .

وقد راعى المنصور في اختيار موقع عاصمته حسن المكان وطيب المناخ ، إذ حضر الى هناك واختبر المكان ليلاً ونهاراً فاستطابه <sup>(١)</sup> . كما راعى الناحية السياسية ولهذا تخلّى عن الهاشمية القريبة من الكوفة لان اهل الكوفة شيعة يسمعون الى نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين ، فهو لا يأمنهم على نفسه وكانوا قد افسدوا عليه جنده .

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن أهل البصرة الذين كانوا قد توزعهم الخوارج والمرجئة وأهل السنة ، وعن أهل الشام الذين كانوا يميلون الى الأمويين ، وراعى أخيراً العاملين : الاقتصادي والعسكري . فالضرائب تندفق على الخليفة من الهند والصين والبصرة عبر دجلة ، ومن الرقة والشام عبر الفرات ، ومن خراسان وبلاد العجم عبر شط تامرا . ثم انه في بلد حصين لا يصل اليه عدوه الا على جسر أو قنطرة بسبب الأنهار المحيطة ببغداد ، ولانه متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ، وقريب من البر والبحر والجبل <sup>(٢)</sup> .

وجاء شكل المدينة مدوراً يتوسطها قصر الخليفة ، واحيطت بسور ضخمة عرضه من الأساس خمسون ذراعاً وفي اعلاه عشرون ذراعاً <sup>(٣)</sup> .

وكما هو الحال بشأن المدن الكبيرة التي تتخذ عواصم للدول ، لم تلبث بغداد ان اتسعت لتستقبل اعداداً غفيرة من الناس الذين اقبلوا عليها لاسباب عديدة سياسية

---

١- ابن طباطبائي أو ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الإسلامية (مطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٠) ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

٢- المصدر عينه ، ص ١٦٢ .

٣- المصدر عينه ، ص ١٦٣ .

وتجارية وثقافية ودينية . ثم نشأت حولها الضواحي والقرى التي تقع وسط البساتين ، يؤمها عشاق المتعة وطلابها . وقد ذكر المؤرخون من أماكن اللهو في بغداد شط الصراة ، ومطالع الفرات ، والزبيدية ، وبصري ، وارنا ، والقفص ، والردان ، وقطربل والكرخ <sup>(١)</sup> .

ج - رسم لنا الجاحظ صورة عن المجتمع العباسي الذي تهالك على اللذات وانتشر فيه المجون والتهتك . ولعبت القيان دوراً هاماً في الانحلال الخلقي . وهو يصف وصفاً حياً الحركات التي تقوم بها القينة لإغواء الرجل ، وكأنها تنصب له حباثل ليقع في شركها : « إذا رآها الرجل ابتسمت له وغازلته وأبدت له الاهتمام والشوق ، فإذا وقع في شركها مضت فيما كانت قد شرعت به ، وأوهمت أنه تيمها ، ثم هي إذا ابتعدت عنه كاتبته تشكو إليه حزنها لفراقه ، وتقسم له أنه شجيبها وشجوها في ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ولا تطيق فراقه » <sup>(٢)</sup> .

وهناك صفة أخرى عرفت بها القينة هي الخيانة والغدر وعدم الإخلاص ، فربما « اجتمع اليها ثلاثة أو أربعة رجال فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالآخرى ، وتغمر هذا بذلك ، وتعطي الواحد سرها والآخر علانياتها ، وتوهم أنها له دون الآخر ، وإن الذي تظهر خلاف ضميرها . . . » <sup>(٣)</sup> .

والصفة الثالثة المميزة في القينة هي الإباحية والزنا . ويعود سبب ذلك برأي الجاحظ إلى سوء التربية البيئية وفساد المجتمع ، ويبدو الانحراف الخلقي واضحاً في رسالة اسمها « مفاخرة الجوّاري والغلمان » نجد فيها حواراً يجري بين شخصين أحدهما يفضل الجوّاري والآخر الغلمان ، ويسوق كل منهما أدلة على مزايا من يفضل يستقيها من القرآن والسنة والشعر والتجربة . فإذا عاب صاحب الغلمان المرأة ذكر

١ - مجلة المورد ، مج ٣ ، عدد ٤ ، ١٩٧٤ ، ص ١٨ .

٢ - كتاب القيان ، (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٧١ - ١٧٢) .

٣ - المصدر عينه ، ص ١٧٥ .

بانها اذا تزوجها الرجل شييت رأسه ، وسهكت ربحه ، وسودت لونه وكثر بوله . وهن مصايد ابليس وحبائل الشيطان ، يتعن الفتى ، ويكلفن الفقير ما لا يجد ، وكم من تاجر مستور قد فلسه امرأة حتى هام على وجهه أو جلس في بيته أو أقامته من سوقه ومعاشه . وينسب الى النبي قوله : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » أما صاحب الجواري فيجيب بحديث نبوي يقول : « تزوجوا فإني مكائر بكم الأمم » ، وإن النبي كان أكثر أهل عصره نساء ، وكذلك كان الأنبياء قبله <sup>(١)</sup> .

وقد يحتج صاحب الغلمان بأن الشعراء الظرفاء تغزلوا بالغلمان ووصفوههم وصفاً جيداً وقد موههم على الجواري في الجد والهزل ، منهم أبو نواس ، ويوسف لقوه ، وغيرها .

فيجيبه صاحب الجواري أن هؤلاء الغزلين بالغلمان كالحكمي والرقاشي والبالبة ونظرائهم من الفساق والمرغوب في مذهبهم قد مدحوا ما ذمه الله ( اللواط ) ومع ذلك فأين غزل هؤلاء من غزل الأوائل بالنساء أمثال جميل بثينة وسواه <sup>(٢)</sup> .

د - عدا المجنون والانحلال الخلقي عرف المجتمع العباسي - ولا سيما في بغداد - ظاهرة أخرى هي الشعوبية . وهي تعني تعصب كل شعب لقوميته وحضارته ضد العرب ، وقد نجمت عن تعدد الشعوب التي ضمها المجتمع العباسي . لقد تألف ذلك المجتمع من عرب وفرس وهنود وروم وزنج الخ . . . وبما أن العرب يمثلون الأمة الحاكمة ، لهذا اتجهت الشعوبية ضدهم ، فحاول أبناء الشعوب الأخرى أن يثبتوا للعرب هوياتهم ووجودهم ، ويبينوا لهم أنهم ليسوا أفضل من سائر الأمم ، بل ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا إن العرب احط من سائر الأمم حضارة ومزايا .

وقد عكست لنا كتب الجاحظ هذه الظاهرة ايضاً . فقال إن الشعوبية قائمة

١ - المصدر عينه ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

٢ - كتاب القيان ، ( ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١١٣ ) .

على العصية القومية ، وقد ابغض الشعوبية العرب لانهم فتحوا بلادهم وقتلوا المجوس ونشروا الاسلام في اصقاع الأرض . وان كره الاعاجم للعرب قادم الى كره ما للعرب من لغة وبلاد وإسلام ، لأن العرب هم الذين جاءوا بالإسلام وكانوا السلف والقدوة<sup>(١)</sup> .

لقد طعنت الشعوبية على العرب اخذهم المخرصة عند الكلام أو الخطابة ، والإشارة بها والاعتماد عليها<sup>(٢)</sup> . وحجتهم في ذلك قولهم ان العصا وجدت للقتال لا للخطابة ، وانه ليس بين الكلام والعصا سبب ، وإنما تشغل السامع وتصرف خواطره عن كلام الخطيب ، وهي لا تنفع الخطيب في شيء فلا تشحذ ذهنه ولا تجلب له اللفظ<sup>(٣)</sup> .

ورموا العرب بضعف ملكتهم الخطابية . وفي رأيهم أن اخطب الشعوب الفرس ، وشاهدهم كتاب كاروند الذي يضم روائع الخطب . وقد امتاز الفرس علاوة على الخطابة بالأدب والعلم والمعاني الشريفة ، وشاهدهم كتاب سير الملوك ، وقد تفوق اليونان على العرب بالخطب والحكم وكتب المنطق ، كما تفوق الهنود بالحكم والسير .

واتهموا العرب بجهلهم فنون الحرب والآلات كالمنجنيق والدبابات والخنادق ، وبعدم اجادتهم تنظيم الجيوش وقيادة العساكر ، وعدم قدرتهم على القتال بالليل ، وعدم استخدامهم الركاب على الخيل<sup>(٤)</sup> .

كان الفرس اقوى الفئات الشعوبية واشدها تعصباً لقوميتها وتراثها . وهم يدلون على العرب بان دعاة العباسيين منهم ، وعلى أكتافهم قامت الدولة العباسية ،

---

١- الحيوان ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ ، البخلاء ، ص ٢٢٨ .

٢- البيان والبيان ، ج ٣ ، ص ٣٥-٣٦ .

٣- المصدرهيه ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

٤- البيان والبيان ، ج ٣ ، ص ٤١-٤٢ .

وبسبب قهرهم انهارت الدولة الأموية . وهذا ما دفعهم الى القول : « ونحن فتحنا البلاد ، وقتلنا العباد ، وابعدنا العدو في كل واد . ونحن أهل هذه الدولة وأصحاب هذه الدعوة ، ومنبت هذه الشجرة ، ومن عندنا هبت هذه الرياح » (١) .

ويعمضي الفرس بذكر مفاخرهم فيعتدون بأجسامهم الضخام وقاماتهم الطويلة ومناكبهم العظام وجباههم العراض واعناقهم الغلاظ وسواعدهم الطوال وشعورهم المدلاة ، كما يعتدون بكثرة عددهم وقوة أبدانهم وهول قطرهم (٢) .

ويفتخرون بالذكاء ورجاحة الرأي والحلم والبعد عن الطيش ، ويتباهون بأدبهم وحكمتهم وعلومهم الهندسية والحسابية ، ومهارتهم الصناعية ، ونبوغهم في الموسيقى ، والفقه ، والرواية (٣) .

أما الأخلاق والشيم فلا يفتخرون الى أي منها . لقد جمعوا الأمانة والفقه الى النزاهة والقناعة والصبر الى ما سواها من المزايا (٤) .

أما الترك فلم يكونوا كما الفرس من غلاة الشعوبية . ولهذا لم يتركوا نتاجاً فكرياً يعبر عن نزعتهم . ويبدو أن سبب ذلك يرجع الى ظهورهم المتأخر على مسرح الأحداث في الدولة العباسية ، ولأنهم لم يكونوا أمة متحضرة وذات حضارة عريقة لتفاخر بها ، لقد اشتهروا بانهم رجال حرب اشداء وبهذه الصفة نراهم يعتدون ويفاخرون . ويشير الجاحظ الى ان المعتصم هو الذي قهرهم واعلى شأنهم وأدخلهم الجيش واعتمد عليهم في الحروب التي شنّها ضد الروم (٥) .

---

١ - مناقب الترك (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٥) .

٢ - المصدر عينه ، ص ١٨ .

٣ - المصدر عينه ، ص ١٩ - ٢٠ .

٤ - المصدر عينه ، ص ١٩ .

٥ - مناقب الترك (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٦) .

يزعم الترك انهم أشد الخلق بأساً وفروسية ، وإذا كان العرب يعتبرون الخوارج اشجع الناس وأقدرهم على القتال ، فالترك يفوقونهم جرأة واقداماً في المعارك <sup>(١)</sup> .

وإذا عرف الخوارج بالتجدة فلاستواء حالتهم في الديانة واعتقادهم أن الجهاد واجب ديني . أما التركي فلا يقاتل على دين أو تأويل أو ملك أو خراج أو عصبية أو حرمة أو حية أو عداوة أو وطن إنما يقاتل على السلب فقط ولهذا فهو لا يخاف الوعيد إذا هرب ولا يرجو الوعد إذا أبلى <sup>(٢)</sup> .

وثمة ميزة يمتاز بها الأتراك عن سواهم - بنظر الجاحظ - هي اتفاقهم فيما بينهم ووحدة كلمتهم . ان خواطبرهم واحدة ودواعيهم مستوية وليسوا أصحاب تأويلات أو تفاخر أو تناشد . ان مهمم الوحيد احكام أمرهم <sup>(٣)</sup> .

ومن الناحية الخلقية يتحلى الترك بصفات حميدة . فهم لا يعرفون الملق ولا النفاق ولا السعاية ولا الرياء ولا البذخ ولا يعرفون البدع ولا تفسدهم الأهواء . وهم يفضلون سائر الأمم بحبهم لأوطانهم <sup>(٤)</sup> .

عدا الفرس والترك ضم المجتمع العباسي شعباً آخرهم السودان الذين اتى بهم العرب من بلاد افريقية رقيقاً وسيياً ، وعملوا في بيوتهم عبيداً وموالي ، ثم تولد منهم بالتزاوج مع العرب جيل هجين بغضه أسود وبعضه قريب من ذلك . وكان الجاحظ نفسه أسود اللون ومن هذا الجيل المولد على الأرجح . ويبدو ان هؤلاء استفحل أمرهم في القرن الثالث الهجري فشعروا بحقوقهم ورأوا أن العرب بخسهم أياها وظلموهم واستغلوهم واحتقروهم . وكان قسم منهم سموا بالزنج يعملون في استصلاح الأراضي الزراعية في جنوب العراق ، أفاد من نعمتهم علي بن محمد العلوي فادعى الإمامة ووعدهم بتخليصهم من أوضاعهم السيئة ، فانقادوا له واعلنوا الثورة واجتاحوا جنوب

١- المصدر عينه ، ص ٤١ .

٢- المصدر عينه ، ص ٥١-٥٢ .

٣- المصدر عينه ، ص ٥٥ .

٤- المصدر عينه ، ص ٦٢ .

العراق وأحرقوا البصرة وزحفوا نحو بغداد إلى أن نهض اليهم الجيش العباسي واحبط ثورتهم .

وكتب الجاحظ رسالة عنوانها « فخر السودان على اليبضان » يبين فيها فضائل السودان . فهم لا يقلون ذكاءً ونبوغاً عن اليبضان وقد انجبوا رجالات عظاماً أمثال لقمان الحكيم ، وسعيد بن جبير المحدث المشهور الورع الصادق الحديث ، وبلال الحبشي مؤذن الرسول ، ومكحول الفقيه ، والحيقطان الشاعر الحكيم ، وجليبيب الفارس المغوار الذي استشهد في قتال المشركين بجانب الرسول (١) .

وربما كان الحيقطان الشاعر من أقدم الشعوبين السود . وقد أثبت له الجاحظ قصيدة يرد فيها على جرير الذي هجاه بسواد لونه فأجابه : « ان سواد اللون لا يضيرني طالما أنا شريف النفس كريم شجاع ، وان قوم النجاشي السود حذبوا على المسلمين ، وقد غزوا بلاد العرب قبل الإسلام وتغلبوا عليهم . ثم ان قوم جرير أجلاف يعيشون مع الضأن ويرعونهم ويعاشرونه . كما يحتاج عليه بان لقمان الحكيم من السودان وانه مضرب المثل في الحكمة والبصر (٢) .

ويثبت الجاحظ قصيدة ثانية يعزوها لشاعر آخر من السودان اسمه سنيح بن رباح شار الذي رد ايضاً على جرير مبيناً محاسن السودان ، وهو الذي قاد فتنة الزنج أيام مصعب بن الزبير في العراق وفتك بجيشه . وفيها يذكر أبناء الزنجيات الأبطال أمثال عنترة الفوارس وسليك بن السلكة (٣) .

والسودان أطيع الخلق على الرقص الموقع الموزون والضرب بالطبل ، ولغتهم جميلة عذبة وهم أذرب الناس لساناً والرجل منهم يتحدث طول النهار لا يحصر (٤) .  
وهم أشد البشر ابداناً وأعظمهم قوة وقد يرفع الرجل منهم الحجر الثقيل الذي

١ - فخر السودان على اليبضان (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٧٩ - ١٨٢ .

٢ - المصدر عينه ، ص ١٨٣ .

٣ - المصدر عينه ، ص ١٩٠ .

٤ - المصدر عينه ، ص ١٩٥ .

تعجز عن رفعه الجماعة من الإعراب . وهم اسخى الخلق ومضرب المثل في العطاء <sup>(١)</sup> ولا ينبغي أن يفخر العرب عليهم لانهم منهم <sup>(٢)</sup> .

هـ - وما دمنا بصدد الكلام عن الناحية الاجتماعية في العصر العباسي فلا بد لنا من الإشارة الى الصراع الذي كان قائماً بين هاشم وعبد شمس . وقد الف حوله الجاحظ رسالة اسمها « فضل هاشم على عبد شمس » يتضح منها أنه يؤيد الهاشميين . والرسالة تصور بوضوح العداء المستحكم بين هذين البيتين القرشيين منذ العصر الجاهلي والذي استمر وتعمق في الإسلام وادى الى انشقاق العرب الى حزين على الصعيدين السياسي والديني . لقد انتصر الهاشميون بانتصار الدعوة الإسلامية باعتبار ان النبي منهم ، ثم انهزموا عندما تمكن الأمويون من تأسيس دولتهم على اثر مصرع علي بن أبي طالب ، ثم عاد الهاشميون الى سدة السلطة بعد سقوط الدولة الأموية ، ولكن الفكرية الأموية لبست لباس العثمانية والبكرية . بينما اتخذت الدعوة الهاشمية شكل الذهنية الشيعية والعباسية .

يقول بنو هاشم انهم كانوا في الجاهلية أشرف مكانة من بني عبد شمس لانهم تولوا مع بني عبد الدار وعبد العزى اللواء والسقاية والرفادة وزمزم والحماية <sup>(٣)</sup> .

ثم ان بني هاشم أول من اخذوا الإيلاف لقريش . وهم الذين ابرموا حلف الفضول وهو في رأي الجاحظ اشرف حلف كان في العرب كلها ، وأكرم عقد عقده قريش في قديمها وحديثها قبل الإسلام . حضره النبي وهو غلام في منزل عبدالله بن جدعان حيث اقسم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزة وبنو زهرة وبنو تميم بن مرة على منع ظلم الضعيف <sup>(٤)</sup> .

ويفضل العباسيون الأمويين في استحقاق الخلافة ، انهم ورثوها بحق العصبة

---

١ - فخر السودان على اليفهان (من رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٩٥ - ١٩٦) .

٢ - المصدر عينه ، ص ٢١٦ .

٣ - فضل هاشم على عبد شمس (آثار الجاحظ ، ص ١٩٣) .

٤ - المصدر عينه ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

والعمومة إذ إنهم قرشيون ، وللسابقة ، وللوصية ، والأمويون ليس لهم شيء من كل هذا<sup>(١)</sup> .

هذا مجمل احتجاجات الهاشميين . أما احتجاجات الأمويين فتتلخص في أن دهاة الناس منهم وهم أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وزباد بن أبيه ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . ويعتبرون أهل الفتوح منهم أمثال معاوية وعبد الملك ومسلمة ، فهم الذين فتحوا فارس والهند وأفريقية ، وأن الشعراء منهم أمثال يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ، وخالد بن يزيد بن معاوية الخطيب والشاعر والعالم الذي كان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة<sup>(٢)</sup> .

بيد أن هذه المفاخر التي تدعيها أمية لا تلبث أن تنهات بفعل الردود المفحمة التي يجابههم العباسيون بها . ان ميل الجاحظ إلى الهاشميين ظاهر ، وقيمة الرسالة تكمن في أسلوبها الجدلي المتمتع وفي وصفها للعقلية العربية في عصر الجاحظ والمقاييس التي تقوم بها أمور السياسة والاجتماع .

و- وآخر ظاهرة اجتماعية تعرض لها الجاحظ في العصر العباسي كانت الزهد . لقد جاءت حركة الزهد ردة فعل للمجون ، ان ذلك المجتمع المعقد ضم المساجد المكتظة بالمصلين الذين يتعبدون ويسمعون المواعظ من على المنابر يسديها الزهاد والعلماء إلى جانب الخانات التي كانت تعج بالعلماء والقيان والمتهتكين من طلاب اللذة ، وتضج بالغناء والرقص والشرب والدعارة ومئات ألوان الفسق والفجور .

كان الجاحظ يشاهد المجان وعينهم كما كان يشاهد الزهاد وورعهم . وكما تحدث عن هؤلاء فقد تحدث عن أولئك . وقد خصص جزءاً من كتاب البيان والتبيين سماه « كتاب الزهد » لهذه الغاية ، عدا الإشارات العابرة التي نجدها في تضاعيف كتبه .

١ - المصدر عينه ، ص ٢٠٢

٢ - فضل عاشم هل عبد شمس (آثار الجاحظ ، ص ٢١٦-٢١٧) .

وهو يهتم برواية كلام النساك في الزهد وذكر اخلاقهم ومواعظهم . ويستعمل كلمة النسك بمعنى التعبد والقيام بالشعائر الدينية . هذه الشعائر اختلفت باختلاف الفرق والأديان ، وقد لخصها الجاحظ بقوله : « ان لكل صنف منهم ( من أهل الأديان والفرق ) نسكا يعتمدون عليه في الجمال . . . فنسك المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمي الناس بالرية ، ونسك الخارجي إظهار استعظام المعاصي ثم لا يلتفت إلى مجاوزة المقدار في ظلم العباد ، ونسك الخراساني أن يحج وينام على قفاه ، ونسك الرافضي ترك النبيذ ، ونسك اليهودي التشدد في السبت وإقامته ، والصوفي المظهر للنسك من المسلمين اذا كان فسلاً (\*) يفيض العمل تصوف واطهر تحريم المكاسب ، واذا كان النصراني ندلاً مبغضاً للعمل ترهب وليس الصوف » (١) .

ينطوي كلام الجاحظ على نقد لاذع للنساك جميعاً على اختلاف انتماءاتهم الدينية والمذهبية ، سواء كانوا متكلمين أو شيعة أو خوارج أو صوفية أو مسيحيين أو يهوداً . إنه يرمي المتكلمين بالغلو في اتهام الناس بالريب ، والخوارج بالإسراف في استعظام المعاصي التي يرتكبها خصومهم بينما لا يرون الآثام والمظالم التي ينزلونها بالناس ! .

أما أهل خراسان فهم لا يفهمون من الدين سوى الحج والنوم على القفا ، ولا يهتم الشيعة من فرائض الدين الا بتحريم النبيذ . ويصب جام غضبه على المتصوفة . إنهم في نظره جماعة من فاقدي المروءة يكرهون العمل ، ولذلك يجرمون المكاسب ويזהدون بها دلالة على تقاهم . أما اليهود فأية تعبدتهم إقامة يوم السبت والتشديد فيه . في حين يهرب النساك المسيحيون من العمل باللجوء إلى الترهيب ولبس الصوف .

ان موقف الجاحظ واضح من حركة الزهد والتصوف ، فهو لا يقرها ولا يؤيدها ، بل يهزأ من أصحابها ، ويعتبر تصرفاتهم وشعائرتهم لا تمت الى الإيمان

\* الفصل ، ج فصول وإسفال : النذل الذي لا مروءة له ولا جلد (إين منظور ، لسان العرب) .

١ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

بصلة ، ولا تزيد فيه فتيلاً . ولعل الكلام التالي الذي ساقه على لسان احد الأعراب يعبر عن موقفه هذا حيث يقول : « وذكر عند إعرابي رجل بشدة الاجتهاد وكثرة الصوم ، وطول الصلاة ، فقال : هذا رجل سوء ، أوما يظن هذا أن الله يرحمه حتى يعذب نفسه هذا التعذيب ؟ » (١) .

ويمكن أن نستنبط من الأقوال التي يسردها الجاحظ ، وينسبها إلى أعلام الزهد في القرنين الأول والثاني الهجري أمثال الحسن البصري وعامر بن القيس ومرة الهمداني وأبي الدرداء وأبي عبد الحميد ، وعمر بن عبد العزيز - مقومات الزهد الأساسية وهي الرغبة عن خيرات الدنيا ، ولذاتها (٢) ، وتفضيل الآخرة على الدنيا (٣) ، وقصر الحياة وزوالها (٤) ، وعدم الاحتفال بالمال وجمعه (٥) ، والتقشف والفقر والقناعة ، والإكثار من الصلاة والصوم (٦) ، وعدم الاهتمام بأمور السياسة ومشاكل الناس الاجتماعية (٧) ، والانزواء بعيداً عنهم في البيت ، والتمسك بالصبر (٨) ، وتقوى الله والخوف منه (٩) ، والتوبة وطلب المغفرة عن الذنوب (١٠) .

وبلاحظ من هذه الأقوال التي رواها الجاحظ لأعلام الزهد ، أن مفاهيم الخوف والتوبة والفقر والصبر والحب كانت لا تزال بسيطة غير معقدة عندهم ، ولم تتخذ أبعاداً فلسفية على النحو الذي نجدها عليه ، منذ عصر الجاحظ ، مع متصوفة

١- البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ١٣٥ .

٢- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١٣٩ .

٣- البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

٤- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١٣٠-١٣١ .

٥- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

٦- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

٧- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

٨- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

٩- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

١٠- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١٤٢-١٤٣ .

القرن الثالث الهجري ، أمثال ذي النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، وأبي يزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٣٤ هـ والحارث المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ ، وسري السقطي المتوفى سنة ٢٥٧ هـ . وسهل التستري المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وسواهم من مشاهير الصوفية . والغريب هو عدم تعرض الجاحظ لهم ، وإهماله أياهم على الرغم من نمو حركة التصوف في عصره ، وورود هذا المصطلح على لسانه في أماكن عديدة من كتبه .

لقد أهمل الجاحظ أعلام الصوفية هؤلاء ، بينما ذكر أسماء زهاد عصره في البصرة أمثال عامر بن عبد القيس ، وعائلة بن عبده العنبريين ، وعثمان بن أدهم ، والأسود ابن كلثوم ، وصلة بن أشيم ، ومذعور بن الطفيل ، وجعفر وحرب المنقرين ، ومعاذة العدوية ، ورابعة القيسية . كما عدد بعض زهاد الكوفة أمثال عمرو بن عتبة ، وهمام بن الحارث ، والربيع بن خيثم ، وأويس القرني <sup>(١)</sup> .

وليس لدي الآن تحليل لهذه الظاهرة سوى ما ذكرت من ازدياد الجاحظ للمتصوفة . ومن الخير أن نشير بصدد التصوف الى ما يذهب اليه عبد الرحمن بدوي من أن « أقدم ما وصلنا من مؤلفات ذكرت اسم الصوفي والصوفية هو كتاب البيان والتبيين للجاحظ » <sup>(٢)</sup> .

كان تأثير البيئة على الجاحظ كبيراً ، حتى إنه لم يعالج الفلسفة مباشرة ، بل من خلال وصفه لمجتمعه الذي كانت تروج فيه الآراء ، فعرض لهذه الأخيرة نقلاً وتناولاً إذ ذاك بالعدل والتجريح .

---

١ - المصدر منه ، ج ٣ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

٢ - عبد الرحمن بدوي ، تاريخ التصوف الإسلامي (الكويت ، ط ١ ، ١٩٧٥) ، ص ٨ .

## الفصل الثاني

### عصر الجاحظ

أ - الزمان كالمكان عن العوامل المؤثرة في شخصية الإنسان وتفكيره . لقد عمر الجاحظ طويلاً ، اذ امتدت حياته على مدى قرن من الزمان ، حفل بالاحداث العظام ، اتخذ منها أبو عثمان مدرسة تلقى فيها الدروس والعبر ، وتحرك قلمه ليسجل انطباعاتها في نفسه وخارجها .

لم يعرف بالضبط سنة ولادته ، قيل إنه ابصر النور في البصرة سنة ١٥٠ هـ ، وقيل سنة ١٥٥ هـ ، وجعلها بعضهم سنة ١٥٩ هـ ، وارتقى آخرون الى سنة ١٦٠ هـ وبلغ بها نفر سنة ١٦٣ هـ أو ١٦٥ هـ . والأرجح أن يكون عام ١٦٠ هـ هو تاريخ ميلاده الصحيح <sup>(١)</sup> .

وإذا اختلف الدارسون في سنة الولادة ، فإنهم متفقون على سنة الوفاة . لقد إجمعا على أن الجاحظ توفي عام ٢٥٥ هـ في المدينة التي ولد فيها أي البصرة . يلاحظ أن الجاحظ جاء الى الوجود بعيد قيام الدولة العباسية ، وأن حياته

---

١ - بلا ، الجاحظ ومجتمع البصرة ، ص ٩١ ، ونسب ياقوت الى الجاحظ قوله : أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة حسين ومائة ، وولد في آخرها . أنظر ياقوت ، معجم الألباء ، ج ١٦ ، ص ٧٤ .

امتدت سحابة العصر العباسي الأول ومطلع العصر العباسي الثاني . هذه الحقبة من تاريخ العرب هي أزهى الحقب واخصبها عطاء ، لأنهم استطاعوا فيها أن يقطعوا اشواطاً بعيدة في مضمار الرقي ، وان يبنوا حضارة عريقة ، وأن ينجبوا نوابغ في العلوم والآداب والفلسفة .

تأسست الدولة العباسية على انقاض الدولة الأموية . واسهم الفرس اسهاماً فعالاً في بنائها ، وصبغوها بصبغتهم المميزة من الوجهتين السياسية والاجتماعية . وقد أدرك الجاحظ هذه الحقيقة وعبر عنها بقوله : « وقد يجب أن نذكر بعض ما انتهى إلينا من كلام خلفائنا من ولد العباس ، ولو أن دولتهم عجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية إعرابية ، وفي أجناد شامية »<sup>(١)</sup> .

وارتقى سدة الخلافة اثر سقوط الأمويين أبو العباس السفاح ، ولكن خلافته لم تدم سوى أربع سنوات ، إذ توفي عام ١٣٦ هـ ، فبويغ أخوه أبو جعفر المنصور ، فأسس بغداد وجعلها عاصمة الدولة سنة ١٤٥ هـ ، ثم بنى مدينة الرصافة لابنه المهدي على الجانب الآخر من النهر بعد وثوب الجند عليه ، ليأمن شرهم . ويعتبر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، كان حازماً ، عاقلاً ، عالماً ، مقتصداً ، حسن التدبير ، راغباً عن اللهو ، ماكراً ، يقطاً ، قضى على مناوئيه ، فأخذ ثورة الراوندية الذين أهوه ، وتخلص من محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية ، وكان هذا قد اعتصم بالمدينة وأعلن نفسه خليفة . وكذلك قضى على عمه عبدالله بن علي الذي طمح الى الخلافة ودعا الى مبايعته بالشام ، فوجه المنصور إليه أبا مسلم الخراساني فحاربه حتى هزمه . وأخيراً جاء دور أبي مسلم ذاته ، وكان المنصور يخاف من سطوته ونفوذه . ويروي الجاحظ حكاية المكيدة التي دبرها المنصور للإيقاع بأبي مسلم : « دعا المنصور بأبي مسلم فلما نظر إليه داخلاً قال :

١ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

قَدْ أَكْتَفْتِكَ خَلَاتٍ ثَلَاثَ جَلْبَسْنَ إِلَيْكَ مَحْذُورَ الْحِجَامِ  
خِلَافُكَ وَامْتِنَاعُكَ تَرْتَمِينِي وَقُودُكَ لِلجَاهِرِ الْعِظَامِ  
ثُمَّ وَثَبَ إِلَيْهِ ، وَوَثَبَ مَعَهُ بَعْضُ حَشَمِهِ بِالسُّيُوفِ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَثَبَ ، فَبَدَرَهُ  
الْمَنْصُورُ بِضَرْبِهِ ضَرْبَةً طَوَّحَهُ فِيهَا ثُمَّ قَالَ :

إِشْرَبْ بِكَأْسٍ كُنْتَ تَسْقِي بِهَا أُمَّرَّ فِي الْخَلْقِ مِنَ الْعَلَقَمِ  
زَهْمًا إِنْ السُّدَيْنَ لَا يُقْتَضَى كَذَّبْتَ فَاسْتَوْفِ ابْنُ الْمَجْرَمِ  
ثُمَّ أَمَرَ فَحُزَّ رَأْسُهُ ، وَبُعِثَ بِهِ إِلَى أَهْلِ خِرَاسَانَ وَهُمْ بِيَابَهُ ، فَجَالُوا حَوْلَهُ  
سَاعَةً ، ثُمَّ رَدَّ مِنْ شَغْبِهِمْ انْقِطَاعَهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ ، وَإِحَاطَةَ الْأَعْدَاءِ بِهِمْ ، فَذَلُّوا  
وَسَلِمُوا لَهُ <sup>(١)</sup> .

وعلى الرغم من استبداد المنصور وبطشه وغدره فإن الجاحظ يراه داهياً ،  
وأريباً ، مصيباً في رأيه سديداً ، مقدماً في علم الكلام ، ومكثراً من كتب الآثار ، وله  
كتاب في الكلام يدور في أيدي الوراقين <sup>(٢)</sup> .

وكان المنصور بعيد النظر خبيراً بالشؤون السياسية ، اختط لنفسه نهجاً سار  
عليه والتزمه التزاماً دقيقاً . وإذا شئنا معرفة ذلك النهج السياسي الحكيم ، اعفانا هو  
مؤونة البحث عنه في كلامه الذي خاطب به بعض أنسابه من ولد العباس ، إذ  
اجتمعوا عنده ، فذكروا خلفاء بني أمية وسيرتهم وتدابيرهم ، والسبب الذي به سلبوا  
عزهم ، فقال المنصور : « أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي ما صنع ، وأما سليمان  
فكانت همته بطنه وفرجه ، وأما عمر بن عبد العزيز فكان أعور بين عميان ، وكان  
فتى القوم هشام ، ولم تنزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان ، يحوطونه

١- البيان والبيان ، ج ٤ ، ص ٦٥-٦٧ .

٢- البيان والبيان ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

ويحفظونه ، ويصونون ما وهب الله لهم ، مع تسامحهم معالي الأمور ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم الى ابنائهم المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله عز وجل - جهلاً منهم باستدراجهم ، وأما منهم لكره ، مع اطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق الله تعالى ، وحق الرئاسة وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العز ، والبهم الذل ، ونفى عنهم النعمة <sup>(١)</sup> .

غير أن المنصور كان يصانع كل من لا يجد فيه خطراً على دولته ، كما كان يعفو عن كل مسيء إذا توسم فيه الفائدة للكره ، نظير صنيعة بمعن بن زائدة الذي كان يطلبه ، فلما أحاط به الراوندي وهما بقتله ، بادر معن إلى نجدة المنصور ، وأبلى بلاء حسناً في الدفاع عنه . وكان المنصور لا يعرفه ، فقال له : من أنت ؟ أجاب معن : طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة . فقال : قد أمنك الله على نفسك وأهلك ومالك ، ومثلك يصطنع . ثم إنه أحسن إليه وولاه اليمن <sup>(٢)</sup> .

وخلف المهدي أباه المنصور سنة ١٥٨ هـ . وكان يشبهه في الفطنة ، وكان حازماً في الدفاع عن الدين ، ولهذا حارب الملحدين والزنادقة حرباً لا هوادة فيها ، وكان يجلس في كل يوم لرد المظالم ، يحيط به القضاة ، وفي أيامه خرج المقتع الخراساني فأرسل إليه المهدي جيشاً حصره في قلعة بخراسان مدة طويلة حتى قضى عليه . وقد أشار الجاحظ إلى خروج المقتع في خراسان ، وادعائه الربوبية ، وقوله بالتناسخ « وكان المقتع الذي خرج بخراسان يدعي الربوبية ، لا يدع القناع في حال من الحالات . وجهل بادعاه الربوبية من طريق التناسخ ، فادعاهما من الوجه الذي لا يختلف فيه الأحمر والأسود ، والمؤمن والكافر ، أن باطله مكشوف كالنهار ، ولا يعرف في شيء من الملل والنحل القول بالتناسخ إلا في هذه الفرقة من الغالية . وهذا المقتع كان

١ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

٢ - البيان والبيان ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

قصاراً من أهل مرو ، وكان أهور ، ألكن ، فما أدري أيها أعجب : أدعواه بانه رب ،  
أو إيمان من آمن به وقتل دونه ؟ . وكان اسمه عطاء <sup>(١)</sup> .

ومع ذلك كان المهدي مولعاً بالقيان وسباع الغناء ، وكان معجباً بجارية يقال  
لها جوهر اشتراها من مروان الشامي ، ودخل عليه هذا الأخير يوماً وجوهر تغنيه فقال  
مروان :

أَنْتِ يَا جَوْهَرُ عِنْدِي جَوْهَرَةٌ      فِي بِيَاضِ الدَّرَةِ الْمَشْتَهَرَةِ  
فَإِذَا غَنَتْ فَتُضَارُّ أَضْرَمْتُ      قَدْ حُتَّ فِي كُلِّ عَيْنٍ شَرَّةُ  
فَدَبَّتِ الْغِيْرَةُ فِي قَلْبِ الْمَهْدِيِّ ، وَأَمْرٌ بِمَرْوَانَ فَدَعَ <sup>(٢)</sup> فِي عُنُقِهِ لِي أَنْ أَخْرِجَ ثُمَّ  
قَالَ لِلْجَوْهَرِ : أَطْرِبِي ، وَعِنْدَمَا انْتَهَتْ مِنَ الْإِنْشَادِ قَالَ الْمَهْدِيُّ الْآيَاتِ التَّالِيَةَ الَّتِي  
تَدُلُّ عَلَى شَاعِرِيهِ :

الْأَيُّهَا جَوْهَرُ الْقَلْبِ	لَقَدْ زِدْتِ عَلَى الْجَوْهَرِ
وَقَدْ أَكْمَلْتُكَ اللَّهُ	بِحَسَنِ السُّدْلِ وَالْمَنْظَرِ
إِذَا مَا صَلَّتِ يَا أَحْسَنَ	خَلَقَ اللَّهُ بِالْمَرْمَرِ
وَغَنَيْتِ فَفُتِّحَ الْبَيْتُ	مَنْ رَجَحَ بِالسُّعْبَرِ
فَلَا وَاللَّهِ مَا الْمَهْدِيُّ	أَوْلَى مِنْكَ بِالسُّنْبَرِ
فَإِنْ شَبَّتِ فَمَيَّ كَفْتُكَ	خَلَعَ ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ <sup>(٣)</sup>

وخلف الهادي أباه المهدي سنة ١٦٩ هـ ، ولكنه قتل بعد سنة من ولايته  
بمؤامرة دبرتها أمه الخيزران بسبب تفضيقه عليها . فتولى أخوه هارون الرشيد الحكم

الـ

١- البيان والبيان ، ج ٣ ، ص ٩٨-٩٩ .

٢- دح ، : دفع (لن منظور ، لسان العرب) .

٣- البيان والبيان ، ج ٤ ، ص ٦٨ .

سنة ١٧٠ هـ . وكان هذا الخليفة فاضلاً عالماً ، كريماً يَجْزِلُ العطاء للعلماء والفنانين ، وقد استوزر يحيى البرمكي ، ثم استعان بولديه الفضل وجعفر ، وقلدهما الوزارة ، ولكن الرشيد نكبهما واستوزر بدلهما الفضل بن الربيع . وقبل موته أوصى بالخلافة لابنه الأمين وبولاية العهد لابنه المأمون ، فنشب الخلاف بين الأخوين . ووقعت الفتنة في بغداد ، وانتهت بزحف المأمون من خراسان على بغداد واحتلالها بعد معارك عنيفة ، وبمصرع الأمين ، وبمبايعة المأمون بالخلافة سنة ١٩٨ هـ<sup>(١)</sup>.

كان المأمون أول خليفة عباسي اتصل به الجاحظ ، والأرجح أن يكون اتصاله به قد تم بعد اعتلائه سدة الخلافة وانتقاله الى بغداد أي في بداية القرن الثالث الهجري . وقبل هذا التاريخ كان الجاحظ بعيداً عن قصر الخلافة في بغداد ، يعيش في البصرة منصرفاً الى تحصيل العلم ، وكسب الرزق ، مغموراً يحاول شق طريقه في عالم التأليف والفكر والأدب ، دون أن تلقى مؤلفاته رواجاً كما يجزينا . واتصال الجاحظ بالمأمون يعتبر حدثاً بالنسبة للجاحظ ، إذ به ينتهي عهده الأول في البصرة : عهد التحصيل ، والفاقة وخمول الذكر ، ويبدأ عهده في بغداد ، عهد العطاء ، والغنى والشهرة . في هذا العهد الذي استمر نحو نصف قرن من الزمان عاش الجاحظ مقرباً من قصر الخلافة ، حائزاً على رضا أصحاب السلطان يخدمهم بقلمه ويحظى منهم بالرعاية والعطف والأموال والهبات .

ويجزي الجاحظ أن المأمون أمر بتأليف كتب تعالج موضوع الخلافة فاستجاب له أبو عثمان وصنف كتاباً في الإمامة ، فكلف المأمون اليزيدي ( ٢٥٥ هـ ) بالنظر فيها وتقديم تقرير عنها . ويستفاد من كلام الجاحظ أن الخليفة وجد هذه الكتب على ما أمر به عندما اطلع عليها ، ويبدو ان هذه الكتب كانت السبب في إتصال الجاحظ بالمأمون . وعندما صار اليه قال له مقررطاً مصنفاته تلك : « وقد كان من يرتضي عقله

١ - الطبري ، تاريخ الرسل والملوك (دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ ، ط ٢ ) ، ج ٩ ، ص ١٢٧ .

ويصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة فقلنا له : قد تربي  
الصفة على العيان فلما رأيتهما رأيت العيان قد أربى على الصفة<sup>(١)</sup> .

لم يقنع المؤرخون برواية الجاحظ التي تشير إلى سبب اتصاله بالمأمون ، فذهبوا إلى  
أن معتزلة كثرامة بن اشرس وغيره هم الذين مهدوا الطريق له إلى البلاط . وكانوا ذوي  
حظوة عند المأمون اتخذهم مستشارين له وأعواناً . وقالوا ان المأمون لم يقتصر على إبداء  
إعجابه بكتب الجاحظ وإنما عينه رئيساً لديوان الرسائل ، غير أن الجاحظ لم يمكث في  
منصبه الهام هذا سوى ثلاثة أيام ، إذاستغنى منه<sup>(٢)</sup> .

أصبح الجاحظ في عهد المأمون من الرجال المقربين يتردد إلى أولي الأمر ويجتمع  
بهم ويطلع عن كتب على ما يجري في أروقة الخلافة من مناظرات ولقاءات وأحاديث .  
وقد رسم في كتبه صورة دقيقة عن ذلك الخليفة العظيم . فهو عالم متفلسف واسع  
الثقافة عميق المعرفة قوي الحجة بارع الجدل يناظر الأدباء والفلاسفة ويفوقهم علماً  
وقدرة على الإقناع . انه مثلاً يخطئ سهل بن هارون الذي سمعه يقول : « ان من  
أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه ، وانه قد يرغب عن بعض العلم  
كما يرغب عن بعض الحلال » ، فيجيبه قائلاً : « قد يسمى بعض الشيء علماً وليس  
بعلم . فإن كنت هذا اردت فوجهه الذي ذكرناه . ولو قلت : العلم لا يدرك غوره  
ولا يسبر قمره ولا تبلغ غايته ولا تستقصى أصنافه ولا يضبط آخره ، فالأمر على ما  
قلت ، فإذا فعلت ذلك كان عدلاً وقولاً صدقاً ، وقد قال بعض العلماء : اقصد من  
أصناف العلم ما هو أشهى على نفسك وأخف على قلبك ، فإن نفاذك فيه على حسب  
شهوتك له وسهولته عليك . وقال أيضاً بعض الحكماء : لست أطلب العلم في بلوغ  
غايته والوقوف على نهايته ، ولكن التماس ما لا يسع جهله ولا يمس بالعاقل إغفاله .

١- البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

٢- باقرت ، معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ٧٨-٧٩ .

وقال آخرون : « علم الملوك النسب والخبر وحمل العفة ، وعلم التجار الحساب والكتاب ، وعلم اصحاب الحرب درس كتب المغازي وكتب السير ، فاما أن تسمي الشيء علماً وتنتهى عنه من غير أن يكون يشغل عما هو انفع منه ، بل تنتهي نهياً جزماً وتأمر أمراً حتماً ! والعلم بصر وخلافه العمى ، والاستبانة للشر ناهية عنه ، والاستبانة للخير أمرة به » (١) .

يتضح من كلام المأمون مذهبه الفكري الحر . فهو يدعو الى العلم مهما كان نوعه وموضوعه لأنه بمثابة البصر ، يميز به الإنسان الخير من الشر ، ولا ينبغي أن يجرم منه أحد . وهو مع ذلك يعترف بأن إدراك غايته شيء عسير لأنه بحر لا يعرف غوره . ولهذا ينبغي أن يهتم المرء بما هو شهوي على قلبه من العلوم ، كما يشير الى ضرورة التخصص في العلم . ولا شك في أن رد المأمون على سهل بن هارون قد بلغ غاية البلاغة . وقد اعترف ابن النديم بعلم المأمون فقال عنه « أعلم الخلفاء بالفقه والكلام . . . له في الكتب كتاب الإسلام والتوحيد ، وكتاب اعلام النبوة » (٢) .

ثم ان المأمون خليفة المسلمين حقاً يدافع عن الإسلام ، وقد اثبت الجاحظ مناظرة طريفة جرت بينه وبين أحد المرتدين ، أسلم ثم ارتد الى النصرانية وعندما سأله المأمون عن سبب ارتداده قال : أوحشني كثرة ما رأيت الاختلاف فيكم ! فرد المأمون قائلاً : « لنا اختلافان : احدهما الاختلاف في الأذان وتكبير الجنازات ، والاختلاف في التشهيد ، وصلاة الأعياد ، وتكبير الشريق ، ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك . وليس هذا باختلاف ، إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة . . . والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا مع أجمعنا على اصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر . فإذا كان

١ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧١ .

٢ - ابن النديم ، الفهرست (المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٣٤٨ ، د. ط. ) ص ١٦٨ .

الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب ، فقد ينبغي ان يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله ، كما يكون متفقاً على تنزيله ، والا يكون بين النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات ، وينبغي لك أن لا ترجع الا إلى لغة لا إختلاف في تأويل الفاظها . . . (١) .

نستدل من كلام المأمون على سعة صدره وتبحره بأمور الفقه والكلام ونظرته المتساعمة الى مظاهر الاختلاف بين المسلمين . لقد عزا الاختلافات الكثيرة إلى سببين : الأول هو الشكل كالقراءات والتشديد والأذان وتكبير الجنائز وصلاة الأعياد . والآخر هو التأويل الذي اعتبره ظاهرة طبيعية عائدة إلى طبيعة اللغات التي لا تخلو من ألفاظ مبهمة تحتاج إلى شرح وتفسير . وهو يرى أن هذا الاختلاف ليس ذا خطر لانه لا يتناول وجود الكتاب والسنة وإنما يتعلق بفهمهما . هذا المفهوم للتأويل لا يختلف عن المفهوم الذي سنجد عند المتأخرين أمثال ابن رشد (٢) .

ان سياسة المأمون القائمة على الحرية والإقناع والحوار وفرت للناس الأسباب التي أدت إلى التعبير عن آرائهم مما أدى إلى كثرة الفرق وسفور الزنادقة عن وجوههم والتقلب بين المذاهب . يؤكد ذلك الحوار الذي أجراه المأمون مع أحد الزنادقة واثبه الجاحظ (٣) .

قدم المأمون أهل العلم ورجال الفكر والأدب أمثال الجاحظ وثمامة بن اشريس المتكلم المعتزلي ، وبخيتشوع بن جبريل وسلموية وابن ماسويه أشهر أطباء العصر ، وسهل بن هارون وأبا العتاهية وغيرهما من الأدباء والشعراء . وكان يناقشهم في المسائل

١ - أثبت تلك المناظرة في البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٢ - ٧٤ .

٢ - يقول ابن رشد : « ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية » أنظر : ابن رشد ، فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (دار المعارف بمصر ، تحقيق محمد عيانة ، ١٩٧٢ ، د . ط .) ص ٣٢ .

٣ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ .

العويصة وكثيراً ما يخالفهم الرأي ، ويتسامح معهم فيما يصدر عنهم من اختلاف عن رأيه ! لقد هجاه دعل الخزاعي فأخبره احدهم بذلك فأجابه : « من أقدم على هجاء أبي عباد كيف لا يهجوني ؟ ومعنى ذلك أن من أقدم على هجاء أبي عباد المعروف بحدته ونزقه ، كيف لا يقوم على هجاء المأمون المعروف بحلمه وعفته للصنف » (١) .

والخلاصة ان المأمون كان عالماً فطناً حكيماً كريماً تميز عهده الذي استمر عشرين سنة بالأمور التالية :

١ - اهتم بالفلسفة والعلوم ، وأمر بنقل الكتب الأجنبية الى العربية ، وأرسل من أجل ذلك البعثات للتفتيش عنها في مظانها ، وأسس بيت الحكمة وجعله مركزاً للترجمة والبحث .

٢ - مال الى المعتزلة ، وأيدهم بقولهم في خلق القرآن ، وأمتحن الناس في ذلك فأشخص الفقهاء وطلب منهم أن يعلنوا موقفهم من هذه المسألة ، واكفر من قال منهم ان القرآن غير مخلوق ، ومنهم أحمد بن حنبل .

٣ - نقل الدولة من بني العباس الى أولاد علي بن أبي طالب وأمر الناس بتغيير لباس السواد بلباس الخضرة . وبرر عمله هذا بأنه نظر الى أعيان البيتین المذكورين ، فلم ير فيهم أصلح ولا أفضل ولا أروع من علي بن موسى الرضا ، فعهد إليه بذلك ، وكتب كتاباً بخطه والزم الرضا ، فامتنع هذا ثم قبل ووقع الكتاب امتثالاً للأمر (٢) .

ولما توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ خلفه أخوه المعتصم ، فسار سيرته في تكريم رجال الفكر والأدب ، وفي تقريب المعتزلة ، ولكنه بالغ في محنة خلق القرآن حتى انه أقدم على جلد الإمام أحمد بن حنبل لرفضه القول بخلق القرآن .

كان المعتصم رجل شدة وحرب ومروءة . جرت بينه وبين الروم معارك طاحنة

١ - ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الإسلامية ، ص ٢٢٦ .

٢ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ .

حالفه فيها النصر ، اشهرها معركة عمورية . وا قدم على عمل كان له أخطر الأثر على مستقبل الدولة العباسية هو الإكثار من العنصر التركي في جيشه ، والاعتماد عليه دون سائر العناصر ، مما أدى الى غلبة الأتراك على العسكر واستبدادهم بالخلفاء وعيبتهم بمقدرات السلطة والشعب منذ عهد المتوكل حتى قيام الدولة البويهية عام ٣٣٢ هـ . وهو الذي بنى سامراء ونقل اليها الجند الأتراك بعدما ضج الناس من أذاهم في بغداد . ويروي المؤرخون خبراً طريفاً عن بنائها<sup>(١)</sup> .

هذه المدينة التي اتخذها المعتصم مقره الثاني بعد بغداد لم تستهو الجاحظ فلم يذكرها الا نادراً وربما قدمها بزيارات .

أهم ما يلفت النظر في عهد المعتصم بالنسبة للجاحظ علاقته بأحد الوزراء المدعو محمد بن عبد الملك الزيات الذي ترك أثراً عظيماً بتناجه . كان ابن الزيات أديباً متضلماً باللغة ، وقد رفعه أدبه الى كرسي الوزارة حسب رواية ابن الطقطقي صاحب تاريخ الدولة الإسلامية . اتخذ المعتصم الفضل بن مروان وزيراً له ، ولكن جهله ورداءة سيرته حملت المعتصم على مصادرة ماله وعزله ، واستوزر مكانه أحمد بن عمار الذي كان طحاناً جاهلاً بأداب الوزارة . وقيل ان المعتصم سألته عن معنى كلمة كلاً الواردة في بعض الرسائل فلم يدر ، فدعا محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان أحد خواصه واتباعه فسأله عن الكلاً فقال : أول النبات يسمى بقلاً ، فإذا طال قليلاً فهو الكلاً ، فإذا يبس وجف فهو الحشيش . فقال المعتصم لأحمد بن عمار : أنظرت في

---

١ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ ، ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الإسلامية ، ص ٢٣١ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ١٨ - ٢٢ : ( لما استكثر المعتصم من المايك ضاقت بهم بغداد وتآذى بهم الناس وزاحمهم في دورهم وتعرضوا للنساء ، فكان في كل يوم ربما قتل منهم جماعة ، فركب المعتصم يوماً فلقبه رجل شيخ ، فقال للمعتصم : يا ابا اسحق فاراد الجند ضربه ، فمتمهم المعتصم وقال له : ما لك يا شيخ ؟ فقال : لا جزاك الله خيراً عن الجوار جاورتنا مدة فرأيناك شر جار ، جتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فاستكتمهم بيتنا ، فابتعت بهم صبياننا ، وارملت نساننا . واللهم لنقاتلنك بسهام السحر ، يعني الدعاء ، والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ، ولم ير راكباً إلا في يوم مثل ذلك اليوم ، فركب وصل بالناس العيد ، وسار الى موضع سامراء فبناها ، وكان ذلك في سنة ٢٢١ هـ .

الدواوين ، وهذا يعرض علي الكتب . ثم استوزره وصرف ابن عمار صرفاً جليلاً<sup>(١)</sup> . وبقي ابن الزيات في الوزارة حتى وفاة المعتصم فلما تولى الواثق الحكم أقره في منصبه ، فلما خلف المتوكل قبض عليه وقتله بسبب سوء معاملته إياه زمن الواثق<sup>(٢)</sup> .

اتصل الجاحظ بابن الزيات فقربه وتوثقت علاقته به ، واقطعه أربعمائة جريب في الأعمالي<sup>(٣)</sup> ، وهي مساحة تدر عليه مالاً وفيراً ، وتؤمن له عيشاً رغيداً ، هذا عدا الجواهر التي كان ينالها من الوزير علي الكتب التي كان يهديه إياها . لقد أهدها كتاب الحيوان أو جزءاً منه فأجازه بخمسة آلاف دينار<sup>(٤)</sup> .

بيد أن علاقة الجاحظ بابن الزيات لم تكن دائماً علاقة مودة وصفاء ، وإنما كان يتخللها الجفاء والشحناء . يدلنا على ذلك رسالة وجهها الجاحظ لى ابن الزيات يعاتبه فيها على جفائه ، ويتهمه بتدبير حبسه وقتله ، ويسأله الرفق به . ونحن لا نعرف سبب هذه العداوة التي أظهرها الوزير للجاحظ ، والجاحظ نفسه يتجاهل سرها وإن كان يلمح إلى أن ابن الزيات غضب عليه لتفضيله النخل على الزرع وعدم دفع الإتاوة أو تحمل الجزية . ويرفض الجاحظ أن يكون قبل هذا الذنب يستحق مثل هذه الموجدة من الوزير ، ويدعو صاحبه إلى التزام جانب العدالة في أحكامه والتثبت من أدلة الاتهام ، والتمييز بين المفوة والإصرار والخطأ والعمد . ويطلب منه العفو لأن العفو أمثل من الانتقام ، ولأن الجاحظ وابن الزيات من أصحاب نحلة واحدة هي الاعتزال ، وللعجور ، ولكبر سنه ، وللخدمات الكثيرة التي أداها الجاحظ لابن الزيات في الماضي<sup>(٥)</sup> .

ويعتبر عهد الواثق الذي خلف المعتصم سنة ٢٢٧ هـ ، عهد عز وفير بالنسبة

١ - ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الإسلامية ، ص ٢٣٣ .

٢ - الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ١٥٤ .

٣ - ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١ ، د.ط.) ، ص ٦٩ .

٤ - معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ١٠٦ .

٥ - رسالة في الجدل والمزلة (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٣١-٢٧٨) .

للجاحظ وسائر المعتزلة ، إذ كانت مكانتهم عالية وعقيدتهم محترمة ، لقد غلب عليه القاضي أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة ، ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، وكلاهما معتزليان . فكان لا يصدر إلا عن رأيها ولا يخالفهما فيما رأياه <sup>(١)</sup> . وتابع والده في محنة خلق القرآن .

ولكن الحال تغيرت بعد موت الواصل وتسلم المتوكل سدة العرش سنة ٢٣٢ هـ . ولقد أحدث المتوكل انقلاباً في سياسة الدولة ، فغضب على الشيعة ، وضيق عليهم ، وأمر بحرق قبر الحسين <sup>(٢)</sup> ، كما أبعد المعتزلة وقرب أهل السنة والجماعة ، ونهى عن الكلام في القرآن ، وأطلق من كان مسجوناً بسبب هذه التهمة ، وكساهم « وكتب الى الآفاق كتاباً ينهى عن المناظرة والجدل فأمسك الناس » <sup>(٣)</sup> ، وغضب على أهل الذمة وضيق عليهم <sup>(٤)</sup> .

عملاً بهذه السياسة الجديدة نكب المتوكل ابن الزيات كما نكب محمد بن أبي دؤاد ، فعزل القاضي من منصبه وصادر أمواله واحضره الى بغداد فلم يقيم الا قليلاً ومات وعين مكانه اكثم التميمي المتعصب لاهل السنة <sup>(٥)</sup> .

إتصل الجاحظ بالمتوكل ، وكان سبب ذلك الإتصال انه ذكر لتأديب بعض أولاده ، فاستدعاه الى القصر ، فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه <sup>(٦)</sup> . ومعنى ذلك أن اتصال الجاحظ بالخليفة كان عابراً ، فلم تتوثق علاقته به كما توثقت بأسلافه ، أي المأمون والمعتصم والواصل . لم يبال المتوكل بالجاحظ ، بل كرهه واشمأز من بشاعته وأمر بإبعاده . ولا نظن ان بشاعته وحدها كانت السبب في

١ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٦٤ .

٢ - الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ٢٣٠ .

٣ - البغوي ، التاريخ ، (دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، د. ط.) ج ٢ ، ص ٤٨٥ .

٤ - الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ، ص ١٧٣ .

٥ - البغوي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

٦ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ( النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٤٨ ، ط. ١ ) ج ٣ ، ص ١٤١ .

أقصائه عن قصر الخلافة ، فلا بد من أسباب أخرى أهم منها دفعت المتوكل الى ذلك الموقف من الجاحظ .

وإذا لم يحالفه الحظ في التقرب من الخليفة ، فقد وفق الى كسب ود المقرين اليه أو أصحاب السلطة أمثال احمد بن أبي دؤاد ( ٢٣٩هـ ) وابنه محمد ( ٢٣٩هـ ) والفتح ابن خاقان ( ٢٤٧هـ ) وإبراهيم بن عباس الصولي ( ٢٤٣هـ ) .

أما أحمد بن أبي دؤاد فقد كان يشغل منصب قاضي القضاة منذ عهد المعتصم ، ولم يكن الجاحظ على علاقة حميمة به لانه كان منقطعاً الى ابن الزيات ، مما أوغر صدر القاضي ، فلما فتك المتوكل بابن الزيات خاف الجاحظ وهرب الى البصرة متوارياً عن أنظار القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، فلاحقه رجال القاضي حتى قبضوا عليه وساقوه مكبلاً الى سيدهم في قميص سمل وفي عنقه سلسلة . فلما مثل بين يديه قال القاضي : « ما علمتك الا متناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة ، معدنا للمساوى ، وما فتني باستصلاحي لك ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك ورداءة طبيعتك وسوء اختيارك وغالب ضعفك ، فقال الجاحظ : خفض عليك إيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر علي خير لي من أن يكون لي عليك ، ولأن اسيء وتحسن احسن في الأحداثة عنك من أن احسن فتسيء ، ولأن تعفو عني في حال قدرتك اجمل لك من الانتقام مني ، فقال : احمد الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام ، فحل عنه الغل والقيد وأحسن اليه وصدره في المجلس وقال : هات الآن يا أبا عثمان حديثك<sup>(١)</sup> .

وانقطع الجاحظ الى القاضي منذ ذلك الحين وقدم اليه كتاب البيان والتبيين فأجازه بخمسة آلاف دينار<sup>(٢)</sup> . والراجع انه قدم اليه جزءاً من هذا الكتاب الذي انتهى من تصنيفه بعد كتاب الحيوان ، وجاء بحثاً في فلسفة اللغة والأدب ولم يتعرض للمسائل الكلامية والسياسية .

---

١- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٦٩- ٧٠ باقوت ، معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ٧٩ . المرتضى ، الأمالي (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ ، د . ط .) ج ١ ، ص ١٩٥ .

٢- باقوت ، معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ١٠٦ .

غير أن القاضي أصيب بالفالج وتخلّى عن منصبه لابنه محمد فقرب الجاحظ وحظى لديه وكتب له عدة رسائل منها « رسالة المعاد والمعاش » ورسالة في نفي التشبيه ورسالة الفتيا .

أما الرسالة الأولى فتدور حول الآداب أو الأخلاق التي أجمعت الأمم على محاسنها والتي تنفع المرء في معاشه ومعاده ، أي في دنياه وآخرته . كتبها بأسلوب جعل فيه من نفسه مرشداً يعظ القاضي ويدله على محامد الأخلاق .

ولم يقف الجاحظ عند الخلال الحميدة التي ينبغي أن يتحلّى بها المرء وإنما ذهب أبعد من ذلك محاولاً سبر أغوار النفس الإنسانية التي اعتبرها منبع الأخلاق . وهو يقول إنسجماً مع فلسفته العامة إن الأخلاق طباع ، كما قال ان المعارف طباع . وذهب الى أن سلوك الإنسان يرد الى طبعين هما الرغبة والرغبة وعنهما تصدر جميع الصفات كالإيثار والعدل والإقتصاد والصداقة والشجاعة ، التي يتكلم عليها بتوسع<sup>(١)</sup> .

وأما الرسالة الثانية « في نفي التشبيه » فتتضمن تحريضاً على المشبهة وذمّاً لهم ، وتصدر عن رغبة في الكسب والتزلف . ونرى الجاحظ كثير التذمر من العوام الذين اشتد اذاهم على المتكلمين والخاصة ، وهؤلاء قالوا بالتشبيه فوقعوا في الإثم والفحش ، وهم يتألفون من المقلدين والسفلة والطفام والذين ينطبق عليهم قول واصل بن عطاء : « ما إجتمعوا إلا ضروا ولا تفرقوا إلا نفعوا » وقول علي بن أبي طالب « نعوذ بالله من قوم إذا إجتمعوا لم يملكوا<sup>(٢)</sup> » وإذا تفرقوا لم يعرفوا<sup>(٣)</sup> .

وربما عنى هؤلاء العوام الحشوية الذين حرّموا الكلام واعتبروه بدعة حتى إنهم اسقطوا شهادة المعتزلة وأخافوا علماء الكلام . وبما أن التشبيه يخالف عقيدة المعتزلة

١ - رسالة المعاد والمعاش (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٩٥).

٢ - لم يملكوا : لم يجمعوا على رئيس .

٣ - رسالة في نفي التشبيه (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٨٣).

الذين شددوا على التوحيد المتزه ، لهذا يدعو الجاحظ القاضي إلى الضرب على أيديهم قائلاً : « وهذا المذهب يتحلل طريقنا ويسلك سبيلنا ، جور شديد ومذاهب قبيحة وتقرب فاحش . وليس ينبغي لديان أن يواد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم وأبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . فمتى إذن تزول التقية ويجب إظهار الحق والنصرة للدين والمباينة للمخالفين ؟ أحين يموت الخصم ويبد اثره ويهلك عقبه ويقل ناصره ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السلامة ، وكيف يكون القائم حينئذ بالحق مطيعاً والله معظماً » (١) .

ويرى الجاحظ أن واجبه كرجل فكر وصاحب عقيدة أن ينشر ما عنده من الأفكار بغية إصلاح الناس وهدايتهم إلى الحق : « حرام على كل متكلم عالم وفقية مطاع وخطيب مفوه أن كان عنده من الأمر شيء إلا أن يأتيهم به ويذكرهم بما عنده قل ذلك أو كثر . » (٢) .

وبهذا الدافع ، أي بصفته ملتزماً بمبدأ ، صف الجاحظ كتابه في التشبيه سائلاً القاضي أن ينشره بين الناس ليفيدوا منه وليطلعوا عليه . ان هذه الرسالة خطيرة الشأن تبين لنا جملة حقائق أهمها :

- ١- اشتداد الصراع بين المعتزلة من جهة وأهل السنة من جهة ثانية .
- ٢- التزام الجاحظ بالاعتزال واندفاعه لنشره والدفاع عنه والنضال في سبيله ، واللجوء إلى مختلف الوسائل لبلوغ غايته بما في ذلك تحريض السلطة على الخصوم .
- وأما رسالة الفتيا فليست سوى كلمة إهداء يقدم بها إلى القاضي محمد بن أبي دؤاد كتاباً صنفه في موضوع الفتيا لم يصل إلينا . وموضوعه كما يقول الجاحظ ليس كلاماً في الطفرة والمداخلة ولا في الجوهر والعرض ، بل هو بحث في الكتاب والسنة . وهو يرى أن أكثر الكتب نفعاً وأحسنها موقعاً كتب الله ، التي تنطوي على الرحمة

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

٢- رسالة في التشبيه (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٩١-٢٩٢) .

وهو يرى أن أكثر الكتب نفعاً وأحسنها موقعاً كتب الله ، التي تنطوي على الرحمة والهدى والاختبار عن كل عبرة ، والتعريف بكل حسنة وصيئة<sup>(١)</sup> .

بعد وفاة القاضي محمد بن أبي دؤاد سنة ٢٣٩ هـ ، راح الجاحظ يفتش عن سند آخر من أولي الأمر يفنيء إلى ظله ويأوى إليه في الملمات ، فوجد ذلك السند متمثلاً بشخص الفتح بن خاقان الذي وزر للمتوكل وقتل معه سنة ٢٤٧ هـ . كان الفتح أديباً شاعراً ذكياً مهتماً كالجاحظ بجمع الكتب شغوقاً بمطالعتها<sup>(٢)</sup> ، وكان له مكتبة عامرة ، وترك مؤلفات عديدة أهمها كتاب اختلاف الملوك وكتاب الروضة والزهر وكتاب الصيد والجراح .

أهدى الجاحظ الفتح بن خاقان كتاب « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » . وهو يرمي ، كمادته من إهداء الكتب ، إلى التقرب من الفتح ونيل أنعامه باعتباره من أصل تركي . والرسالة تدور كما يتضح من عنوانها حول مناقب الترك ، ولكنه لم يخصص سائر العناصر التي يتكون منها المجتمع العباسي من خراسانيين وعرب ونبويين حقوقهم . فأنبت مناقب كل عنصر منهم ، وركز على الخلة التي اشتهر بها الأتراك وهي الفروسية التي اسهب في شرحها والتنويه بها . وقد زعم أن عنايته في تصنيف هذا الكتاب هي التأليف بين قلوب هذه الشعوب إن كانت مختلفة ، وزيادة الإلفة بينهم إن كانت مؤتلفة ، والاختبار عن اتفاق اسبابهم لتجميع كلمتهم<sup>(٣)</sup> .

ويصرح أنه لا يريد أن يبالغ في المديح أو يسرف في الهجاء لأن الكتاب إذا شابه الكذب والتزيد بدا عليه التكلف وأضحى كلامه معجوجاً مستكراً . ويرى أن أنفع المدائح للمادح والممدوح وأحسنها هي تلك التي تتعد عن الكذب وتوافق الواقع . وفي هذا المبدأ خالف الجاحظ سنة الشعراء المداحين الذين اسرفوا في التملق والكذب .

١ - رسالة في الفتن (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢١٦) .

٢ - للزنتس ، الأمالي ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

٣ - مناقب الترك (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٩) .

ونخبرنا أنه كتب هذه الرسالة أيام المعتصم ولكنها لم تصل إلى الخليفة لأسباب لم يذكرها يطول شرحها بزعمه . فرأى مناسباً أن يهديها إلى الفتح بن خاقان لأن الحاجة إليها لا تزال ماسة . والجاحظ في ذلك يصدر عن منهجه السياسي الذي اعتمده طيلة حياته ولم يجد عنه ، وهو يقضي بالتعرب إلى الدولة ورجالها وعدم الاعتماد عنهم أو مهاجمتهم . وبما أن المعتصم هو الذي قدم العنصر التركي وأكثر منه في جيشه فقد ألف الجاحظ هذا الكتاب الذي يرضي نزعة المعتصم ويؤيد سياسته ، وبما أن الفتح ابن خاقان تركي الأصل فقد وجد صاحبنا من الملائم إهداء هذا الكتاب أيضاً .

ونستطيع بناء على هذا أن نفسر الدافع الذي حمله على تصنيف رسالتين هامتين آخرين في هذا العهد هما : « رسالة في ذم الكتاب » و « رسالة في الرد على النصارى » . فالمؤرخون يخبروننا أن المتوكل قد سخط على الكتاب ونكبهم وراح يستبدل الواحد منهم بالآخر . وقال لاسحق بن إبراهيم : إنظر لي رجلين ، أحدهما لديوان الخراج والآخر لديوان الضياع فقال : هما عندي : يحيى بن خاقان وموسى بن عبد الملك بن هشام . وكان يحيى محبوباً مثل إسحق بأموال كان يطلب بها في ولاية فارس ، وموسى محبوباً أيضاً . فأحضرهما فولى يحيى بن خاقان ديوان الخراج وموسى ديوان الضياع . وعندما سخط المتوكل على محمد بن الفضل كاتب ديوان التوقيع عين مكانه عبيد الله بن يحيى بن خاقان (٢٤٧ هـ) ، وكذلك سخط على نجاح بن سلمة الكاتب لأنه كان يتنضح بأموال الناس فقبض عليه وسلمه إلى موسى بن عبد الملك بن هشام صاحب ديوان الضياع فعذبه الأول أياماً حتى توفي وصودرت ضياعه ودوره وأمواله<sup>(١)</sup> .

مجاراة لسخط الخليفة ألف الجاحظ رسالته الشهيرة في ذم أخلاق الكتاب . وفيها يشن عليهم حملة لا تترك لهم عمدة ولا تستر عيباً . يستعرض تاريخهم فيجده حافلاً بالمخازي . منهم أول مرتد في الإسلام عبدالله بن سعد أبي سرح . ومنهم

١ - البغوي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ - ٤٩٢ .

معاوية بن أبي سفيان الذي استكتبه النبي خلفاً لعبد الله المذكور فكان أول من غدر في الإسلام بإمامه وقضى على الإيمان بآثامه . ومنهم زياد ابن ابیه الذي كان شر ناشئ . في الإسلام اذ نقضت في دعوته السنة وظهرت في عهده الجبرية . ثم استكتب الخليفة عثمان بن عفان مروان بن الحكم فخانه في خاتمه واشعل الرعية حرباً عليه . وكتب سالم لهشام بن عبد الملك فكان أشد الناس غلطاً وأضعفهم رأياً ، وكتب عبد الحميد لبني مروان فتحامل على نصر بن سيار حتى ثارت به خراسان وزالت دولة الأمويين . وكتب عبدالله بن المقفع لبني العباس فاغرى بهم عبدالله بن علي ففطن له وقتل وهدم البيت على صاحبه . . (١) .

بعد هذه الصفحة التاريخية السوداء ينتقل الجاحظ الى صفحة اخلاق الكتاب فيجد طبائعهم لثيمة ، فهم يبغيضون بعضهم البعض ، وهم قاصرو الثقافة ضيفو أفق التفكير بحيث ان أحدهم « إذا صارت الدواة أمامه وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر ولاردشير عهده ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه وصبر كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليله ودمنة كثر حكمته ، ظن أنه الفاروق(\*) الأكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم والتأويل ، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلل والحرام ، وعلي بن أبي طالب في الجرأة على القضاء والأحكام ، وأبو الهذيل العلاف في الجزء والطفرة ، وإبراهيم بن سيار النظام في المكائيات والمجانسات ، وحسين النجار في العبادات والقول بالإثبات ، والأصمعي وأبو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالأنساب . . . » (٢) .

وهو يرميهم بتهمة خطيرة هي الزندقة فهم يطعنون على القرآن في تأليفه ، ويزرون عليه تناقضه ، ويكذبون الأخبار ، ويهجنون ناقليها « ولم ير كاتب قط جعل

١ - رسالة في ذم أخلاق الكتاب (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ وما بعدها) .

• - الفاروق : لقب الخليفة عمر بن الخطاب .

٢ - رسالة في ذم أخلاق الكتاب (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢) .

القرآن سميره ولا علمه تفسيره ولا التقيه في الدين شعاره ولا الحفظ للسنن والآثار  
عماده» (١) .

والغريب هو أن المعتزلة يشاطرون الجاحظ رأيه في الكتاب . فهو يجربنا أن ثمامة  
بن اشرس سئل يوماً عن عمرو بن مسعدة فأجاب : « ما رأيت قوماً نفرت طبائعهم  
عن قبول العلوم وصغرت همهم عن لطائف التمييز ، فصار العلم سبب جهلهم ،  
والبيان علم ضلالتهم ، والفحص والنظر قائد عينهم ، والحكمة معدن شبههم أكثر  
من الكتاب » ثم يذكر الجاحظ رأى أحد شيوخ المعتزلة ، أبي بكر بن الصم  
(٢٣٧هـ) ، في ابن المقفع حيث يقول : « ما رأيت شيئاً الا وقليله أخف من كثيره إلا  
العلم ، فإنه كلما كثر خف محمله . قد رأيت عبد الله بن المقفع في غزاة علمه وكثرة  
روايته كما قال الله عز وجل ذكره : ﴿ كمثل الخمار يحمل أسفاراً ﴾ . قد اوهنه علمه  
وأذهله حلمه وأعمته حكمته وحيرته بصيرته (٢) . ويعقد شيوخ المعتزلة اجتماعاً يضم  
بشر بن المعتز والمردار وثمامة والعلاف وآخرين ، فيتذاكرون العوام واستحواذ الفتنة  
عليهم في التقليد ، وعدم اقرارهم بالحقيقة ، وتعلقهم بالظواهر ، ويتهونون للإجماع  
على القول ان الدليل على ندالة طبع العوام هو اكبارهم للكتاب (٣) .

ويبلغ من حقد الجاحظ على الكتاب انه ألف رسالة ثانية طويلة في واحد منهم  
هو أحمد بن عبد الوهاب اسمها « رسالة الترييع والتدوير » يهزأ فيها منه ويصوره  
تصويراً كاريكاتورياً . فهو مربع مدور ولكنه جاهل احمق لا يفهم شيئاً ويدعي معرفة  
كل شيء ثم يطرح عليه مائة مسألة ومسألة في الفلسفة والطبيعات والتاريخ واللغة  
فلا يجد جواباً .

وهكذا يمكن أن نعزو نقمة الجاحظ على الكتاب الى الأسباب التالية :

١- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

٢- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

٣- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

١- مجازاة المتوكل في سخطه على الكتاب .

٢- التأثير بموقف المعتزلة وظنهم السيء بهم .

٣ - عامل شخصي يعود إلى تجربة الجاحظ في مطلع حياته مع الكتابة في الديوان .

لقد جعله المأمون رئيس الديوان ، ولكنه استعفى من منصبه بعد ثلاثة أيام لأنه على الأرجح لم يطلق حياة الدواوين وما تفرض من رصانة ووقار ومهابة وهو الإنسان القبيح المنظر الضاحك المزاج .

أما رسالة الجاحظ في الرد على النصارى فتعكس أيضاً سياسة الدولة في عهد المتوكل . لقد غضب هذا الخليفة على أهل الذمة فضيق عليهم وأمر النصارى سنة ٢٣٥ هـ بأن يلبسوا ثياباً مميزة عسلية اللون ، ومنعهم من ركوب الخيل والبراذين والاقتصار على ركوب البغال والحمير بركب (\*) الخشب والسروج ذات الأكر ، كما أمر بأن يضعوا على أبوابهم خشباً فيها صور الشياطين<sup>(١)</sup> .

لم يكن المتوكل أول من أصدر تعليمات خاصة بشأن لباس أهل الذمة وركوبهم . فلقد سبقه هارون الرشيد الذي أمر بأن يؤخذ أهل الذمة في مدينة السلام بمخالفة هيتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ، فأخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط ، وبأن تكون قلائسهم مضربة ، وأن يجعلوا شراك نعالهم متينة ، وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرايس مثل الرمانة من خشب ، وتضع نساؤهم من ركوب الرحائل ، ولا يركبن نصراني ولا يهودي على سرج بل على أكاف<sup>(٢)</sup> .

ويشير الجاحظ إلى أن العادة هي أن يلبس الذمي ثياباً مرقطة ويعطى براءة ذمة

١- البغري ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ ، تاريخ الطبري ، ج ٩ ، ص ١٧٣ .

٢- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٧١٣ .

\*- الركب جمع ركاب وهو ما يعلق بالسرح الذي يوضع على ظهر الدابة لتجعل فيه الرجل (ابن منظور ، لسان العرب) .

لدفعه الضريبة المفروضة عليه تعلق في عنقه أو تختتم بها عنقه ، وإن يحمل اسماً مميّزاً مثل ميثا أو شلوما أو آذين<sup>(١)</sup> .

بيد أن هذه الأوامر المضحكة لم تثمر الا قليلاً كما يقول آدم متر ، وقد كان أهل الذمة يأبون الخضوع لها بشجاعة<sup>(٢)</sup> .

غير أن حرية العقيدة كانت مصانة ، فلم يكره المسلمون أهل الذمة على التخلي عن عقيدتهم أو على اعتناق الإسلام . وقد كرس ذلك بعدة عهود صدرت عن الخلفاء أولها العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب لأهل القدس الذميين .

يهاجم الجاحظ النصارى ويعتبرهم خطراً على الإسلام لأسباب عدة ، منها قولهم أن القرآن باطل وأمر المسلمين فاسد ، وحجتهم في ذلك هي أن القرآن تضمن معلومات عن النصرانية غير صحيحة ككلام المسيح في المهد ، وقول المسيح للناس اتخذوني وأمي من دون الله آلهين<sup>(٣)</sup> .

ومنها ترويحهم كتب الزندقة بين المسلمين ، ويتم ذلك على أيدي أطباء النصارى ومنجميهم ومتكلسيهم الذين يغرون أغنياء المسلمين وظرفاءهم وبجائهم بمطالعتها والنظر فيها<sup>(٤)</sup> ، وقد أصبح النصارى منبت الزندقة لأن أكثر من قتل في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره هم الذين أبأؤهم وامهاتهم نصارى<sup>(٥)</sup> .

ويعتبرهم ، فوق ذلك ، أشد خطراً على الإسلام من اليهود والمجوس والصابئين ، وذلك لأنهم يعمدون لى المتناقض من أحاديث المسلمين والضعيف

---

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤١ .

٢- آدم متر ، الحفارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٣) . ج ١ ، ص ١٠٣ .

٣- رسالة في الرد على النصارى ، ص ١٠ .

٤- المصدر عينه ، ص ٢٠ .

٥- المصدر عينه ، ص ١٧ .

الإسناد من الروايات والمتشابه من الآيات ثم يسألون عنها عوام المسلمين وضعفاءهم<sup>(١)</sup>.

ويبرز الجاحظ من بعض عقائد النصارى التي يشبهون فيها الزنادقة . ويركز على تضارب آرائهم حول طبيعة المسيح على نحو ما نرى عند طوائف الملكية واليعقوبية والنسطورية . ويتهمهم بالقول بالثنيش والتجسيم ، ويساويهم في ذلك باليهود والرافضة والحشوية والناطقة<sup>(٢)</sup> .

وإذا رد النصارى على الجاحظ واتهاماته قائلين : السنا نحن أصحاب الكتاب الذي ذكره القرآن وتحدث عنا وعن معتقداتنا ، فلم لا تؤمن بكتابنا وما جاء فيه ؟ أجاب الجاحظ : ان هذا حق ، ولكن القوم — أي النصارى — أتوا من قلة المعرفة بالكلام من سوء الترجمة . والمشكلة في رأيه إنما تبحث عن التفسير والتأويل لآيات القرآن . ويقول ان النصارى لم يفهموا اللغة العربية جيداً وبالتالي لم يفسروا القرآن تفسيراً صحيحاً ، وينهي بحثه قائلاً : « وقد تعلم أن مفسري كتابنا واصحاب التأويل منا أحسن معرفة وأعلم بوجوه الكلام من اليهود ومتأولي الكتب ، ونحن قد نجد في تفسيرهم ما لا يجوز على الله في صنعه ولا عند المتكلمين في مقاييسهم ولا عند النحويين في عربيتهم . . . »<sup>(٣)</sup> .

ويورد أبو عثمان مثلاً على خطأ التفسير ، وهو تفسير ابراهيم بن سيار النظام لكلمة خليل الرحمن الواردة في القرآن . لقد فسر النظام وسائر المعتزلة هذه الكلمة بالحييب والولي والناصر . أما الجاحظ فيرى هذا التفسير خاطئاً ، ويعتقد أن الخليل في هذا الموضع من الحلة والاختلال لا من الحلة والخلال . وان ابراهيم الخليل حين صار في الله مختلفاً اضافة الله إلى نفسه وإبانه بذلك عن سائر أوليائه . . . »<sup>(٤)</sup> .

١- المصدر عينه ، ص ١٩ .

٢- المصدر عينه ، ص ٣٨ .

٣- رسالة في الرد على النصارى ، ص ٢٩ .

٤- المصدر عينه ، ص ٣١ .

وهناك شخصية ثالثة اتصل بها الجاحظ في هذا العهد هو إبراهيم بن العباس الصولي الذي اهدى اليه الجاحظ كتاب الزرع والنخل<sup>(١)</sup> ونال جائزة سنية عليه . وكان الصولي كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً كما يقول المسعودي تكسب في بادئ الأمر بالشعر وكان يميل إلى آل علي وإبراهيم أحق بالخلافة من غيرهم ، وانتهى إلى أن ولي ديوان الضياع ، وتوفي في خلافة المتوكل سنة ٢٤٣ هـ (٢) .

وعلى أثر مصرع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ تولى الخلافة ابنه محمد المتنصر الذي عرف بعقوفه وقسوته . لقد اشترك في المؤامرة التي أودت بوالده وكان سفاكاً للدماء ، غير أن خلافته لم تستمر سوى ستة أشهر إذ قتله القواد الأتراك بالسهم ونصبوا مكانه أحمد بن محمد بن المعتصم الملقب بالمستعين ، وكان هذا ضعيف الرأي والتدبير فكثرت الفتن في أيامه واغتاله الجند بعد أربع سنوات من توليه الحكم ، فخلفه المعتز بالله الذي كان أحكم رأياً . ولكن القواد الأتراك أصبحوا منذ عهد المتوكل الحكام الحقيقيين واغتصبوا السلطة من الخليفة فكان في يدهم كالأسير ان شاءوا أبقوه في الحكم وان شاءوا خلعوه وان شاءوا قتلوه . ويروي المؤرخون خبراً طريفاً يدل على ما انتهت اليه الخلافة من وهن فيقولون ان المعتز «عندما جلس على سرير الخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ! فقالوا له : فكم تقول انه يعيش ، وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك . فلم يبق في المجلس الا من ضحك . وصدق ما توقعه هذا الظريف بشأن المعتز إذ سرعان ما ثار به الأتراك وطلبوا منه مالاً فاعتذر اليهم وقال : ليس في الخزائن شيء . فانفقوا على خلعه وقلته ، فحضروا إلى بابه وقالوا له : أخرج الينا . فاعتذر بأنه شرب دواء ، فهجموا عليه

١- باقوت ، معجم الأبياء ، ج ١٦ ، ص ١٠٦ .

٢- المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

وضربوه بالدبابيس وحرقوا قميصه واقاموه في الشمس فكان يرفع رجلاً ويضع الأخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ثم جعلوه في بيت وسد عليه حتى مات بعد أن اشهدوا عليه أنه خلع نفسه وذلك سنة ٢٥٥ هـ (١).

هذه صورة واضحة عن حالة الخلفاء العباسيين منذ عهد المتوكل ، إنهم العوبة بيد القواد الأتراك ، معظمهم خلع أو قتل ، لا يملكون من الأمر شيئاً . ونشير هنا أن صاحبنا الجاحظ مات في السنة التي قتل فيها المعتز وخلف المهدي أي سنة ٢٥٥ هـ وبذلك يكون قد عاصر اثني عشر خليفة أولهم المهدي وآخرهم المهدي .

ز - غير أن الجاحظ الذي شهد عهد شباب الدولة العباسية وعنفوانها أو عهد الخلفاء العظام كالرشيد والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، عندما رأى نجم الخلافة يميل إلى الأفوال وأحس بيوادر الضعف تسري في عروقها آثر أن يبتعد عن العاصمة بغداد ، فتركها قبل مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ وعاد إلى مسقط رأسه البصرة حيث قضى السنوات القليلة الباقية من عمره منصرفاً إلى التأليف . وقد تمكن خلالها من إكمال كتاب الحيوان الذي كان قد بدأه ببغداد في عهد المعتصم وأتم تصنيف كتاب البيان والتبيين بعد فراغه من كتاب الحيوان وكان قد بدأه في عهد المتوكل .

وبما يلفت النظر طبيعة هذه المؤلفات . لقد غلب عليها الطابع العملي والأدبي وضعف فيها الطابع الكلامي . وكان الجاحظ تعب من الجدل والخصومات المذهبية فأوى إلى بيته في موطنه الأول بالبصرة مبتعداً عن السياسة والمباحكات الكلامية منصرفاً إلى الأبحاث العلمية ، وقد المح إلى ذلك في مطلع الجزء السابع من كتاب الحيوان (٢) .

وقد يأخذنا العجب من نشاط الجاحظ ومثابرته على الإنتاج رغم شيخوخته ومرضه ، وإذا كان كتابا الحيوان والبيان والتبيين يعتبران قمة نتاجه حرنا بشأن هذا

---

١ - ابن الطفطفي ، تاريخ الدول الإسلامية ، ص ٢٤٣ .

٢ - الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٠ .

الإنسان الذي أعطى خير ما عنده في سن الهرم والضعف ، ولكن عجبنا وحيرتنا يتبددان اذا ما علمنا انه الف القسم الأوفر من هذين الكتابين في بغداد قبل إصابته بالمرض ، وان ما انجزه في البصرة أو في السنوات الأخيرة من عمره الطويل يشكل القسم الأصغر المتبقي .

لقد مات الجاحظ مصاباً بمرضين هما الفالج والقرص اللذان الما به ، ولا ندري بالضبط تاريخ إصابته بهما . ويورد صاحب كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء خبر إصابته بالفالج ويعزو ذلك الى جمعه بين اللبن والسمك . وقد يكون من المفيد ايراد الخبر : « ونقلت من خط المختار بن حسن بن بطلان أن أبا عثمان الجاحظ ويوحنا بن ماسويه قد اجتمعا بغالب ظني على مائدة إسماعيل بن بلبل الوزير ، وكان في جملة ما قدم مضيرة بعد سمك . فامتنع يوحنا من الجمع بينهما . قال له أبو عثمان : أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له . فإن كان احدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وان كانا من طبع واحد فلتحسب أنا قد أكلنا من احدهما الى أن اكتفينا . فقال يوحنا : والله ما لي خبرة بالكلام ولكن كل يا أبا عثمان وأنظر ما يكون في غد . فأكل أبو عثمان نصرة لدعواه ففلج في ليلته » فقال : هذه والله نتيجة القياس المحال . والذي ضلل أبا عثمان اعتقاده أن السمك من طبع اللبن . ولو ساعناه في انها من طبع واحد لكان لامتزاجهما قوة ليست لأحدهما »<sup>(١)</sup> .

ان الذين ترجعوا للجاحظ أشاروا الى مرضه . ويذهب ابن خلكان الى أن إصابته بالفالج حدثت في آخر عمره ، وهذا مخالف لرواية ابن أبي أصيبعة السالفة الذكر ولرواية المسعودي<sup>(٢)</sup> . ونقل عنه قوله في مرضه : « اصطلحت على جسدي الأضداد ،

١- ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء (مكتبة الحيلة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، د. ط. ) ص ٢٥٣-٢٥٤ .

٢- نقل للمسعودي عن لسان يموت بن المزرع ابن أخت الجاحظ قوله : أنا في هذه العلة المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف وأعظمها نيف وسبعون سنة يعني عمره . أنظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

أن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي وكان يقول : أنا من جانبي الأيسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ما علمت به ، ومن جانبي الأيسر مقرس فلو مر به الذباب لألت ، ولي حصاة لا ينسرح لي البول معها وأشد ما علي ست وتسعون سنة<sup>(١)</sup> .

وهذا الكلام يدل على مرض ثالث عانى منه أبو عثمان هو الرمل أو تجمع الحصى في المجاري البولية إلى جانب المرضين الآخرين أعني الفالج والنقرس ، فإذا اجتمعت هذه الأمراض مع ثقل السنين الست والتسعين ، كما يقول ، أعطتنا شيخاً ضعيف الجسم مسترخي العضلات ، شاحب اللون ، سائل اللعاب ، مائل الشدق ، عاجزاً عن الإفصاح عن أفكاره متخاذل الأعضاء فاسد الأخلاط كما وصف نفسه في مقدمة كتاب البغال الذي ألفه في أخريات أيامه<sup>(٢)</sup> وهي الحالة التي اصطلاح على تسميتها بارذل العمر . وكأن هذه الأمراض لم تكن كافية لامتته ، وإنما لقي حتفه من انهيار اكدهاس الكتب عليه وهو جالس بينها<sup>(٣)</sup> .

---

١- ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، المرتضى ، الأمالي ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

٢- البغال ، (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٢١٥) .

٣- آدم متر ، الحصار الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٢٤ ، ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٦٩ .



## الفصل الثالث

### مناهل فكر الجاحظ

#### أ- البيت :

يعتبر البيت مدرسة الإنسان الأولى ، فيه يتلقى مبادئ الأخلاق ، ويتعلم اللغة من ذويه ، وتتحدد تصوراته للعالم . لقد نشأ الجاحظ في أحضان أسرة مغمورة ليست ذات شأن اجتماعي أو علمي . فلم يذكر المؤرخون شيئاً عن والده ، فلو كان سرياً أو عالماً للفتوا إليه الانظار ولتحدثوا عنه ، ولكنهم أشاروا مرة واحدة إلى أمه بأنها كانت تلومه على اهتمامه بجمع الكتب والمطالعة ، وتطلب منه أن يتصرف إلى عمل يدر عليه الرزق . وعندما عاد يوماً إلى البيت لتناول الطعام ، قدمت له طبقاً تكدست عليه الكتب بدل الأطعمة . فقال لها : ما هذا ؟ أجابت : هذا الذي نجى به . وفخرج مغتماً ، وجلس في الجامع ومويس بن عمران جالس ، فلما رآه مغتماً قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث ، فادخله المنزل ، وقرب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره . فانكرت الأم ذلك وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدمتها لي <sup>(١)</sup> .

---

١- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ١٨ .

ان هذا الخبر الذي اورده ابن المرتضى يميظ اللثام عن جملة حقائق : فهو يدلنا على أن والد الجاحظ مات وهو لا يزال حدثاً ، وكانت أمه هي التي تتولى تربيته وإعالتة ، وهذا ما يؤخذ من قوله : « وروي أنه كان في حديثه مشتغلاً بالعلم وأمّه تمونه ، فجاءته يوماً بطبق عليه كرايس . . »<sup>(١)</sup> ويشير الخبر الى أن أسرة الجاحظ كانت فقيرة ، فكانت أمه تقتضيه أن يعمل وهو لا يزال حدثاً ليكسب لقمة العيش ويبدو أن ذلك العمل الذي كان يرتزق منه هو بيع السمك والخبز في سوق سيحان بالبصرة<sup>(٢)</sup> . وتفيد القصة أيضاً أن أمه كانت جاهلة لا تقدر العلم ، ولهذا لم تكن راضية عن اهتمام ابنها بجمع الكتب وقراءتها .

ويتضح من القصة أيضاً أن الجاحظ كان منذ نعومة أظفاره شغوفاً بالعلم وفي سبيل ذلك كان يجمع الكرايس ويقتنيها ، وكان يرتاد الجوامع ليتزود بالمعارف ، ويزكي ما نذهب اليه قول أبي هيفان ( ٢٥٧هـ ) : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته . . . وكان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر »<sup>(٣)</sup> . وأخيراً يستفاد من القصة أن الجاحظ تعرف على المعتزلة منذ صباه ، ومنهم موسى بن عمران الذي حذب عليه فسحا عليه بالمال والغذاء .

## ب- الكتاب :

ولا بد من أن تسبق رحلة جمع الكرايس هذه التي أشار اليها صاحب طبقات المعتزلة ، مرحلة تعلم مبادئ القراءة والكتابة ، لانه من الطبيعي الا يسمى الى جمع

١- المصدر عينه ، ص ١٨ .

٢- باقوت ، معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ٧٤ .

٣- باقوت ، معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ٧٥ .

الكتب إلا من يحسن قراءتها . ولقد اعفانا الجاحظ من البحث عن المكان الذي تلقى فيه مبادئ العلم . فقال انه الكتاب الذي يقع في الحي حيث تسكن عائلته في البصرة ، وانه أمضى فيه زمناً ، وانه كان له فيه رفاق على مقاعد الدرس منهم صبي اسمه مهدي من أولاد القضاة ، وانه كان يستعمل اللوح للكتابة ، وهو يذكر أن هذا الصبي تعرض لحادث اليم في سني الدراسة اذ عضه كلب شرس ادماه ونهش لحمه ، ولكنه لم يمض فعاذ إلى الكتاب بعد شهر وقد تماثل للشفاء<sup>(١)</sup> .

لم نخبرنا الجاحظ عن نظام التدريس في ذلك الكتاب ، وعن المواد العلمية التي كانت تدرس ، ولكنه تحدث عن مكانة المعلمين الاجتماعية في عصره . إنها مكانة وضيفة دعت الناس إلى السخرية من المعلمين والتندر عليهم ورميهم بالحمق . ولكنه ، وان ذكر بعض نوادر المعلمين ، لم يمار العامة في نظرتهم تلك ، بل حاول أن يصححها . وهو يقسم المعلمين الى طبقات : فمنهم من تولى تعليم أولاد الملوك ، ومنهم من تولى تعليم أبناء الخاصة ، ومنهم من تولى أبناء العامة بالتربية والتعليم في الكتاتيب . ولا يجوز برأيه أن يكون المعلمون الذين يضطلمون بتربية أبناء الملوك والخاصة حمقى . أما معلمو الكتاتيب فهم في ذلك مثل غيرهم : منهم فقهاء وشعراء وخطباء أمثال الكميث بن زيد ، وعبد الحميد الكاتب ، وقيس بن سعد ، وعطاء بن أبي رباح ، وحسين المعلم ، وأبي سعيد المعلم ، ومنهم الحمقى الذين تصدر عنهم بعض التصرفات الغريبة التي حملت الناس للتندر عليهم .

ويذكر الجاحظ بالخير والتقدير اثنين من هؤلاء المعلمين الذين عرفهم أيام الصبا هما أبو الوزير وأبو العدنان . ويقول عنهما انها كانا أروى الناس لصنوف العلم في البصرة وأحسنهم بياناً<sup>(٢)</sup> .

١- الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٤ .

٢- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٩ - ١٨١ .

## ج - المساجد والنوادي :

خرج الجاحظ من الكتاب ليتابع تحصيله في معاهد ارحب افقا وارقى علما هي المساجد والأندية . وكانت المساجد والأندية تملأ البصرة وتشبه الجامعات وقاعات المحاضرات اليوم . وكان العلماء يعقدون حلقات التدريس في زوايا المساجد وباحاتها والطلاب يجلسون حولهم بشكل حلقات ينصتون إليهم ويدنون ما يسمعون . وقد نجد في المسجد الواحد عدة حلقات : هذه حلقة للنحو ، وتلك حلقة للغة والغريب ، وثالثة للرواية والشعر ، ورابعة للكلام ، وخامسة للفقهاء الخ . . . وينبغي أن يكون الجاحظ قد وجد فيها ضالته المنشودة ، فراح يختلف على تلك الحلقات منتقلا من واحدة الى أخرى يسمع ويعي ، حتى حصل ثقافة واسعة متنوعة امدته بتلك المعارف الموسوعية التي ملأ بها بطون كتبه .

وكان الجاحظ يرتاد الأندية الثقافية في البصرة يسمع المحاضرات والمناظرات التي تعقد ، ومنها منزل مويس بن عمران ( ٢٤٦ هـ ) الذي جعله صاحبه ناديا يؤمه كبار المفكرين في زمنه كالنظام وأبي هزبل العلاف ، يتحادثون ويتناقشون في مختلف الموضوعات الكلامية والفلسفية والعلمية بروح رياضية سمحة<sup>(١)</sup> .

بالإضافة إلى المساجد والنوادي كان الجاحظ يرتاد سوق المربد بالقرب من البصرة حيث يتلفق الفصاحة شفاهاً من الأعراب الذين يحضرون إلى ذلك المكان للتجارة وإنشاد الشعر والقاء الخطب<sup>(٢)</sup> .

من هؤلاء الأساتذة الذين افاد منهم الجاحظ رواة ولغويون أمثال أبي عبيدة والأصمعي وأبي عمرو والشيباني وخلف الأحمر وابن الأعرابي وأبي زيد الأنصاري ، وعلماء كلام أمثال أبي الهذيل العلاف والنظام وبشر بن المعتمر وثيامة بن اثرس وهشام بن الحكم وضرار بن عمرو وأحمد بن حنبل . . . وستكلم باختصار عن أثر هؤلاء في فكر الجاحظ<sup>(٣)</sup> .

١ - طه الهاجري ، الجاحظ : حياته وآثاره ، ( دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ ، ج ١ ، ط ١ ) ، ص ١٠٢ - ١٣٠ .

٢ - المصدر عينه ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

٣ - لحسن ياقوت الحموي روافد ثقافة الجاحظ بقوله في معجم الأدباء : « سمع من أبي حنيفة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري ، وأخذ النحو من الأخص وكان حديقه وأخذ الكلام من النظام ، وتلفق الفصاحة من العرب شفاها في المربد » . ج ١٦ ، ص ٧٤ .

## د - الرواة واللغويون :

في طليعة هؤلاء أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي بالولاء ( ١١٠ - ٢١٠ هـ ) ؛  
روى عنه الجاحظ الأشعار والأخبار واللغة والطبيعات ، وذكره عشرات المرات ،  
واعترف بسعة علمه فقال عنه انه ليس في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجمع  
العلوم منه . وقال عنه ابن قتيبة « كان شعار الغريب أغلب عليه واخبار العرب  
وايامها ، وكان مع معرفته لا يقيم البيت اذا انشدته حتى يكسره ، وكان يخطئ اذا قرأ  
القرآن نظراً ، وكان يبغض العرب ، وقد ألف في مثالبها كتاباً ، وكان يرى رأى  
الخوارج » <sup>(١)</sup> . استقدمه الرشيد من البصرة إلى بغداد ، عندما سمع بعلمه ،  
وأكرمه . ألف عشرات الكتب التي استفاد منها الجاحظ مثل كتاب مجاز القرآن  
الكريم ، وكتاب التاج ، وكتاب الموالي ، وكتاب الحمام ، وكتاب الحيات ، وكتاب  
العقارب ، وكتاب الزرع ، وكتاب لصوص العرب <sup>(٢)</sup> . من أسماء هذه الكتب نستدل  
على مدى تأثير الجاحظ بهذا العلم الموسوعي من حيث الموضوعات والمصادر . ان  
كتاب الحيوان الذي ألفه الجاحظ يضم أبحاثاً عن الحمام والحيات والعقارب والإبل  
والخيل ، وهي الموضوعات ذاتها التي عالجها أبو عبيدة . وللجاحظ ، كما لإبي عبيدة  
كتاب عن الزرع وآخر عن اللصوص وآخر عن القرآن ، ولو وقع بين أيدينا أحد هذه  
الكتب التي صنفها أبو عبيدة لأمكننا المقارنة ولحدودنا بدقة مدى افادة الجاحظ منه .  
وثمة موضوع اهتم به كل منهما هو اللحن في اللغة عالجها الجاحظ في كتاب البيان  
والتبيين ، وصنف فيه أبو عبيدة كتاب « ما تلحن به العامة » .

أما الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي ( ١٢٣ - ٢١٦ هـ ) فقد  
كان كأبي عبيدة إماماً في الأخبار والنوادر ، وكان أنشد منه بالشعر وأعلم منه بالنحو

١ - ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٣٢٣ إين التليم ، الفهرست ، ص ٧١ .

٢ - المصدر هـ ، ج ٤ ، ص ٣٢٦ .

وكان استاذاً للجاحظ الذي اتصل به واخذ عنه الأشعار والأخبار والنوادر والمعارف الطبيعية عن الحيوانات . وقد روى عنه أكثر من مائة مرة في كتاب الحيوان وحده . لقد وضع الأصمعي عشرات الكتب عن الحيوان واللغة والشعر والنوادر افاد منها الجاحظ وضمن الكثير منها صفحات كتبه . من تلك الكتب : كتاب خلق الفرس ، وكتاب الخيل ، وكتاب الأمل ، وكتاب الشفاء ، وكتاب الألفاظ ، وكتاب النوادر ، وكتاب أصول الكلام ، وكتاب نوادر العرب <sup>(١)</sup> . وإذا كانت كتب الأصمعي عن الحيوانات تهتم بالناحية اللغوية كما يتضح من خبره مع أبي عبيدة في مجلس الرشيد بصدد كتاب الخيل وتسميته أعضاء هذا الحيوان وانشاد الأشعار التي قيلت في ذلك <sup>(٢)</sup>، فإن الجاحظ مدين للأصمعي بهذه الأشعار التي لا تحصى والتي ضمنها كتبه المختلفة . وكذلك استبقى من كتب استاذه أو استفاد شفاها العديد من النوادر والاشتقاقات اللغوية وغيرها التي نشرها في تضاعيف مؤلفاته ولا سيما كتابا الحيوان والبيان والتبيين .

وافاد الجاحظ أيضاً من علم آخر من أعلام اللغة والرواية هو ابن الأعرابي محمد ابن زياد ، مولى بني هاشم في الكوفة ( ١٥٠ - ٢٣١ هـ ) وقد كان له حلقة يحضرها خلق كثير من المستفيدين ، أمل عليهم أحياناً من الكتب . وكان يزعم أن أبا عبيدة والأصمعي لا يحسنان شيئاً . ومن تصانيفه كتاب النوادر ، وكتاب صفة الخيل ، وكتاب صفة الزرع ، وكتاب الخيل ، وكتاب معاني الشعر ، وكتاب الألفاظ وكتاب الذباب . وهذه كتب تعالج موضوعات عالجهما الجاحظ أيضاً في كتبه . اجتمع به الجاحظ وسمع منه وروى عنه عشرات المرات ، يقول مثلاً : انشدني ابن الأعرابي لابن دعيمي العجلي :

١ - ابن خلكان وفیات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ .

٢ - المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

سوى انكم دريتم فجزئتم على ردية والضب يجبل بالتمر  
فجعل صيده بالتمر كصيده بالحباله (١).

عدا المعارف التي استقها الجاحظ من ابن الأعرابي عن الحيوانات ، روى له  
النوادر المختلفة عن الجن والأعراب . كما أفاد منه الكثير من الأشعار واللغة . ويبدو  
انه لم يكن يثق به كل الثقة ، ولهذا نسمعه يقول أحياناً : « وزعم ابن الأعرابي قال :  
دها أعرابي ربه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عفاريت الجن اللهم لا تتركهم في  
ولدي ولا جسدي ولا دمي ولا مالي ، ولا تدخلهم بيتي ، ولا تجعلهم لي شركاء في  
شيء من أمر الدنيا والآخرة » (٢) .

وفي مكان آخر يخطي الجاحظ ابن الأعرابي في تفسير بيت شعر رواه للعين بنجر  
فيه انه قرى أضيافه لحم كلب . فقال ابن الأعرابي : إنها وصف اللعين تيساً . فقال  
الجاحظ معقياً على الخبر : « فهذا الشعر وما اشبهه يدل على أن اللعين قراهم كلباً ولم  
يقرهم تيساً ، وإن الصواب خلاف ما قال ابن الأعرابي » (٣) .

غير أن الجاحظ كان معجباً بخلف الأحمر ( ١٨٠ هـ ) ، مولى أبي بردة وامتاز  
الأصمعي ، وقد اشتهر خلف برواية الشعر ونحله . هذا الإعجاب يستفاد من كلامه  
حيث يقول : وقد جلست إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك عمرو  
بن كركرة ، مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر  
في النسيب فانشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله ، (٤) .

لم يرو الجاحظ له كثيراً ، ومعظم ما رواه عنه على لسان الأصمعي : قال

١- الحيوان ، ج ٦ ، ص ٦٢ .

٢- المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

٤- البيان والبيان ، ج ٤ ، ص ٩١ .

الأصمعي قال خلف الأحمر . . . عما يدل على أنه لم يتصل به طويلاً ، وهو يشير إلى أنهم ولدوا على لسانه كثيراً من الأشعار<sup>(١)</sup> .

واخذ الجاحظ أيضاً عن أبي عمرو الشيباني (٩٦-٢٠٦ هـ) الكوفي ، وكان من أئمة اللغة والشعر والحديث ، وكان على عكس خلف الأحمر ثقة . وقد وضع عدة كتب أهمها كتاب الخليل ، وكتاب النوادر ، وكتاب الإبل ، وكتاب خلق الإنسان وكتاب اللغة<sup>(٢)</sup> . ويظهر أن الجاحظ لم يكن راضياً عن بعض أحكامه في الشعر : «وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته هذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلاً حتى أحضره دواة وقرطاساً حتى كتبهما له . وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ، ولولا أن ادخل في الحكم بعض الفتك ، لزعمت أن أبا لا يقول شعراً أبداً وهما قوله :

لا تحسبن الموت — موت البلى      فإنما الموت — سؤال الرجاء  
كـلامهما — موت ولكن ذا      أفقطع من ذلك لـذـل السؤال<sup>(٣)</sup>

ومن أساتذة الجاحظ الكبار أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (٢١٥ هـ) البصري ، غلب عليه الغريب واللغة والنوادر ، وكان قديراً ، وثقة في روايته وهو الذي فضح خلفاً للأحمر ونحله للشمر حيث يقول : «حدثني خلف الأحمر قال : أتيت الكوفة لاكتب عنهم الشعر ، فبخلوا علي به ، فكنت أعطيهم المنحول وأخذ الصحيح ، ثم مرضت فقلت لهم : ويلكم ، أنا نائب إلى الله ، هذا الشعر لي ، فلم يقبلوا مني ، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب»<sup>(٤)</sup> .

١- الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

٢- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٨٠-١٨١ .

٣- الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

٤- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٢٠-١٢١ .

عالمج أبو زيد الأنصاري في كتبه<sup>(١)</sup> الموضوعات ذاتها التي عالجها الجاحظ تقريباً . وروى له مراراً أخباراً عن الحيوان ومعلومات لغوية جمة . مثل عل ذلك : فقال أبو زيد : إذا كان الشتاء قطعت الينا الغربان ، أي جاءت بلادنا فهي قواطع الينا . فإذا كان الصيف فهي رواجع ، والطير التي تقيم بأرض شتاء وصيفاً أبداً فهي الأوابد ، والأوابد أيضاً الدواهي . يقال : جاء بأبدة أو أبداً الوحوش ، ومنها أوابد الأشعار ، والأوابد أيضاً الأبل إذا توحش منها شيء فلم يقدر عليه إلا بعقر . وانشد أبو زيد في الأوابد :

ومنهل وردنه التقاطاً طام فلم الق به فراطاً  
 الا القطسا أوابداً غطاطاً<sup>(٢)</sup>

وكثيراً ما يقول الجاحظ : انشدني أبو زيد النحوي لبعض القدماء كذا . ويورد الشعر الذي استشهد به .

هناك رواية آخر اتصل به الجاحظ وسمع منه هو محمد بن سلام الجمحي (٢٣٢ هـ) وهو مواطن بصري مثله ، صاحب كتاب « طبقات فحول الشعراء » الذي يعتبر مرجعاً هاماً في الشعر ، وروى له عشرات المرات أخباراً عن المتكلمين كهشام بن الحكم وعن الحيوانات كالديك والحيل ، وعن الأعراب ، وعن الريح والمطر ، وعن الشعر والشعراء والخطباء . ونسبته يقول بصدد الرواية « حدثني محمد بن سلام عن شعيب بن حجر قال . . . »<sup>(٣)</sup> .

ويروي الجاحظ كثيراً عن علي بن محمد المدائني ، وهو يختلف عن الرواة السابقين بأسلوبه القصصي وميله إلى النوادر المضحكة حول الجنس<sup>(٤)</sup> ، ونزغته

١- وقال ابن التديم ، الفهرست : له كتاب الأبل وكتاب خلق القرآن وكتاب النوادر . ص ٨١ .

٢- الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

٣- الحيوان ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

٤- قصة الجارية وأمها في الحيوان ، ج ٧ ، ص ٢٣٧ .

الاجتماعية النقدية<sup>(١)</sup> ، وكلها خصائص امتاز بها الجاحظ ، مما يدل على شدة تأثيره والتقاءه .

عدا هؤلاء الرواة الكبار وعلماء اللغة الأفذاذ ، ثمة رواة عديدون ذكرهم الجاحظ ولا مجال هنا لترجمتهم أمثال محمد بن عباد ، وأبي خالد النميري ، وفهد الأحزم ، وأبي اليقظان محيم بن حفص ، وأبي عقيل السواق ، وإبراهيم بن السندي ، وحموية الحريبي ، وأبي جراد النهراردي . وقد لا يسمي أحياناً من أخذ عنهم فيقول مثلاً :

«سمعت حديثاً من شيخ ملاحى الموصل»<sup>(٢)</sup> ، أو يقول : «حدثني صديق لي قال . أو يقول : خبر رجل من بني هاشم كان منهوماً بالصيد لهجا به كذا»<sup>(٣)</sup> .

بقي أن نقول ان معظم هؤلاء الرواة كانوا من المربدين والمسجدين كما يقول عنهم الجاحظ ، وكانوا واسعي الرواية حتى انهم لم يتركوا شعراً الا روهه ، ولم يعدوا من الرواة من لم يرو اشعار المجانين ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والارجاز القصار واشعار اليهود والأشعار المنصفة<sup>(٤)</sup> .

وكان رواة الأشعار يهتمون بكل شيء فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، وكان هم رواة الأخبار كل شعر فيه الشاهد والمثل . وكان هم عامتهم أن يقفوا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة والديباجة الكريمة والطبع المتمكن والسبك الجيد . حتى ان ابا عمرو الشيباني كان يكتب اشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر<sup>(٥)</sup> .

---

١ - قصة الكلين والعلب في الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .

٢ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

٣ - المصدر منه ج ٧ ، ص ٢٥٤ .

٤ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٩٠ - ٩١ .

٥ - المصدر منه ج ٤ ، ص ٩١ .

## هـ- المتكلمون والمفكرون الآخرون :

نتناول المتكلمين من الناحية التي أثروا فيها بالجاحظ ، ومعظم هؤلاء كانوا من المعتزلة : أبو الهذيل العلاف والنظام وبشر بن المعتمر وثمامة بن اشرس ، ومويس بن عمران . بيد أن الجاحظ عاصر كلا من هشام بن الحكم المتكلم الشيعي ، والإمام احمد بن حنبل المحدث ورئيس أهل السنة والجماعة وتأثر بهما ، وكذلك ناقش آراء ضرار بن عمرو الجبري المذهب وتكلم على الفليسوف الكندي .

### ١- أبو الهذيل العلاف : ( ١٣١ - ٢٣٥ هـ ) :

جعلته ابن المرتضى رأس الطبقة السادسة من المعتزلة ، وهو بصري المولد والمنشأ ، ولكنه قصد بغداد واتصل بالخلفاء وحظي لديهم .

يبدو أن الجاحظ غير معجب بابي الهذيل العلاف ، ولذا ناقضه في معظم آرائه حول الاستطاعة والتكليف والخبر وخلق القرآن ، وكثيراً ما كان يعرض به وينحاز الى جانب النظام في جدلها فيتهمه بالمرَاوغة وإثارة الشك على اليقين حيث يقول : «وقيل لأبي الهذيل : إنك إذا راوغت واعتلت - وانت تكلم النظام - فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه ! قال : خمسون شكا خير من يقين واحد» (١) .

ثم ان الجاحظ ينسب الى أبي الهذيل وإبي كلدة ومعمر وصحصح قولاً لا يبدي رضاه عنه يتعلق بدخول الحيوانات الجنة ، ملخصه أن الحيوانات التي تدخل الجنة هي تلك التي حسن منظرها ألد الناس . أما الحيوانات القبيحة المنظر فتصير بعد موتها الى النار (٢) .

ويرمي الجاحظ أبا الهذيل بالبطنة والشهوة الى الطعام ، حتى انه لا يستطيع أن

١- الحيوان ، ج ٣ ، ص ٦٠ .

٢- المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٣٩٥ .

يتمالك نفسه وهو يسمع أحدهم يصف له خروفاً معلقاً وسط يوم حار في البصرة ، من أن يصرخ به : ويلك قتلتي قتلتي .

وعلى الرغم من أن أبا الهذيل كان استاذ النظام ، وكان يصحب تلميذه معه في صفه ، فإن هذا التلميذ لم يكن باراً باستاذ ، فلم يلبث بعد أن قوي عوده أن ناصبه العداء وسفه آراءه وناظره في مسائل عديدة (١) .

ويقدم الجاحظ عن أبي الهذيل صورة رجل ساخر لاذع السخرية ينحدر أحياناً الى الفحش والبداءة ، وهذا الخبر يوضح تلك الصورة وقد روى الجاحظ عنه فقال : « وقال المريسي لأبي الهذيل بحضرة المؤمن بعد كلام جريء : كيف ترى هذه السهام ؟ قال : لينة كالزبدة ، حلوة كالشهد ، فكيف ترى سهامنا ؟ قال : ما أحسست بها ، قال : لأنها صادفت جماداً ، وانشد أبو الهذيل :

فاذا توهم ان يراها ناظر ترك التوهم وجهها مكلوما (٢)

غير أن الجاحظ يقدم لنا صورة ثانية عن أبي الهذيل مختلفة عن هذه الصورة . إنها صورة رجل ساذج يضحك منه الناس دون أن يدري لانه : « كان أسلم الناس صدراً وأوسعهم خلقاً وأسهلهم سهولة » (٣) . ثم إنه كان بخيلاً مشهوراً بامساكه ورغبته بالتكسب . وقد وصفه أبو عثمان وصفاً يبعث على الضحك ، ويظهر هذه الخلل فيه حيث يقول : كان أبو الهذيل أهدي الى مويس دجاجة . وكانت دجاجته التي اهداها دون ما كان يتخذ لمويس ، ولكنه بكرمه وبحسن خلقه أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها ، وكان يعرفه بالامساك الشديد فقال : وكيف رأيت يا أبا

١- المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ٧ .

٢- المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ١٦٦ .

٣- البهلاء ، ص ١٣٥ .

عمران تلك الدجاجة ؟ قال : كانت عجباً من العجب . فيقول : وتدرى ما جنسها ؟ وهل تدري ما سنها ؟ فان الدجاجة إنما تطيب بالجنس والسن . وتدرى بأي شيء كنا نسمنها ؟ وفي أي مكان كنا نعلفها ؟ فلا يزال في هذا والآخر يضحك ضحكاً تعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل . . . واقبل مرة على محمد الجهم وأنا واصحابنا عنده فقال : إني رجل متحرف الكفين ، لا أبقي شيئاً ، ويدي هذه صنّاع في الكسب ، ولكنها في الإنفاق خرقاء . كم تظن في مائة ألف دينار قسمتها على الإخوان في مجلس ؟ أبو عثمان يعلم ذلك . أسألك بالله يا أبا عثمان هل تعلم ذلك ؟ فقلت : يا أبا الهذيل ما نشك فيما تقول : فلم يرض باحضاري هذا الكلام حتى استشهدني ، ولم يرض باستشهادي حتى استحلطني <sup>(١)</sup> .

## ٢- النظام (١٦٠-٢٣١هـ) :

هو أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام ، ترب الجاحظ ومواطنه واستأذه ، صاحبه مدة طويلة وأعجب به وأخذ عنه الكلام . بصري المولد والنشأة مثله ، انتقل إلى عاصمة الخلافة واتصل بالخلفاء ولقي الحفاوة منهم . تأثر بهشام بن الحكم الذي خالطه وبأبي الهذيل العلاف الذي تتلمذ له <sup>(٢)</sup> .

كان الجاحظ يحترم استأذه النظام ويحمله ، وقد أورد ذكره عشرات المرات في كتبه واثبت آراءه في عدة مسائل كمسألة الكمون ومسألة الجزء الذي لا يتجزأ ومسألة الأعراض والجواهر ومسألة الطفرة <sup>(٣)</sup> . وكان يثق به ثقة كبيرة فنسمعه يقول عنه :

« وخبرني أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام ، وكنا لا نرتاب بحديثه أن حكى عن سباع أو عيان . . . <sup>(٤)</sup> . ويقول عنه في مكان آخر انه كان أضيق الناس بحمل السر <sup>(٥)</sup> .

١ - المصدر عنه ، ص ١٣٥-١٣٦ ، ٦٤ .

٢ - البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ١١١ .

٣ - راجع حول النظام : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية (لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٤٧) .

٤ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

٥ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ١٨٧ .

وقد افاد الجاحظ من النظام كثيراً في أبحاثه الطبيعية وأسلوبه الجدلي ، ورافقه مدة طويلة من الزمن . وبعثنا انه ذهب معه إلى مكان من الأمكنة ، أو التقاه في مجلس من المجالس ، أو ناظره في قضية من القضايا : « مضيت أنا وأبو اسحق النظام وعمرو بن نهوى نريد الحديث في الجبان وللتناظر في شيء من الكلام . . » (١) .

ومع ذلك لم ينج النظام من نقد تلميذه فنراه يرميه بسوء الظن والقياس على العارض والخطر والسابق الذي لا يوثق به ، مع اعترافه بصدقه ، وبابتعاده عن الزلل . ولنسمعه يصفه قائلاً : « فخبرتني أبو اسحق إبراهيم النظام - وقد كان جالساً حيناً - وكان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزيف والزلل في باب الصدق والكذب . ولم ازمع انه قليل الزيف والزلل على أن ذلك قد كان يكون منه وإن كان قليلاً ، بل إنها قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء ، وانت لست تريد هنا حياء البتة ، وذلك انهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس . وإنها كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وصورة قياسه على العارض والخطر السابق الذي لا يوثق بمثله . فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص ، ولكنه كان يظن ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فإذا اتقن ذلك وايقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه . ولكنه كان يقول سمعت ولا رأيت . وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه إنها حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو عن معاينة قد بهرته » (٢) .

وهناك آراء للنظام يوردها الجاحظ ولا يعلق عليها معارضاً أو مؤيداً ، وإن كان أسلوبه يدل على شكه فيها كأن يقول : « زعم أبو اسحق أن الطاعات إذا استوت استوى أهلها في العقاب ، وإن المعاصي إذا استوت استوى أهلها في العقاب ، وإذا لم

١ - البخلاء ، ص ٣٨ . الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

٢ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

يكن منها طاعة أو معصية استوتوا في التفضيل . وزعم أن اجناس الحيوان وكل شيء يحس ويألم في التفضيل سواء . وزعم أن أطفال المشركين والمسلمين في الجنة ، وزعم أنه ليس بين الأطفال ولا بين البهائم والمجانين فرق ، ولا بين السباع في ذلك وبين البهائم فرق . وكان يقول : ان هذه الأبدان السبعة والبهيمة لا تدخل الجنة ، ولكن الله عز وجل ينقل تلك الأرواح خالصة من تلك الأكاف فيركبها في أي الصور أحب <sup>(١)</sup> .

ونجبرنا الجاحظ أن النظام كان فقيراً ، وربما قاسى الجوع والعري وهام على وجهه ينشد غداء أو عشاء فما يقدر ، وربما أنعم عليه بعض الكرام بمبلغ من المال يسد به حاجته <sup>(٢)</sup> .

وبصدد الأحاديث النبوية كان النظام يعتمد كثيراً على التأويل حتى انه قال يوماً للجاحظ ، ان كل شيء لا أعرف تأويله من الحديث ان له مذهباً وان جهلته <sup>(٣)</sup> .

وكان النظام كالجاحظ ينكر الخرافات ولا يؤمن بوجود الجن ، ويزعم « ان أصل هذا الأمر وابتدائه ، أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ، ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعد عن الأنس استوحش ، ولا سيما مع قلة الانتقال والمذاكرين ، والوحدة لا تقطع ايامهم الا بالمنى أو بالتفكير ، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة . . . واذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتفضت اخلاطه فرأى ما لا يرى وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على الشيء الحقير انه عظيم جليل » <sup>(٤)</sup> .

ويذهب النظام الى أن الإنسان في الحقيقة هو النفس أو الروح أما البدن فليس سوى آلة لها أو قالب . وان الروح عنده جسم لطيف يشبه الهواء أو النسيم ، مشابه

---

١- الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٠٣ .

٢- المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٤٥١ .

٣- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ .

٤- المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ - ١٥٠ .

للبدن مداخل للقلب ، وهي مصدر القوة والحياة والاستطاعة والإرادة ، وهي مستطاعة بنفسها وإن الاستطاعة تسبق الفعل <sup>(١)</sup> .

وقال النظام أن الأجسام تنقسم إلى ما لا نهاية ، وأنه لا يوجد جزء إلا وله جزء ، أو أن كل جسم يتنصف أبداً <sup>(٢)</sup> . وقد شن المتكلمون حملة شعواء على النظام وتمسكوا بنظرية الجزء الذي لا يتجزأ ، وقالوا أن قول النظام يؤدي إلى إحالة كون الله محيطاً بآخر العالم ، ويتناقض مع قوله تعالى : { وأحصى كل شيء عدداً } <sup>(٣)</sup> .

وأحدث النظام نظرة الطفرة ، وعرض لها الجاحظ وشرحها في سياق كلامه عن الجزء الذي لا يتجزأ . وقد اضطر النظام إلى ابتداء نظرية الطفرة للدفاع عن نفيه الجزء الذي لا يتجزأ . ذلك أن القول بأن الأجسام تنصف إلى ما لا نهاية ، ينتج عنه القول أن قطع مسافة ما معناه قطع ما لا يتناهي من الأجزاء . وعندما اعترض أبو الهذيل العلاف على النظام قائلاً : أن النملة التي تمشي على صخرة من طرف إلى آخر تقطع ما لا يتناهي فكيف يقطع ما يتناهي ما لا يتناهي ؟ أجابه النظام بعد تفكير طويل : «إنها تقطع بعضها بالطفرة وبعضها بالمشي» <sup>(٤)</sup> .

ويذهب النظام إلى أنه لا يوجد في الطبيعة سوى أجسام ، ونفى وجود الأعراض حتى الألوان والطعوم والروائح اعتبرها أجساماً . وقد تحدث الجاحظ عن أقوال أصحاب الأعراض وأقوال أصحاب الأجسام مبيناً تهكم النظام بأصحاب الأعراض <sup>(٥)</sup> .

وقد توقف الجاحظ طويلاً عند نظرية الكمون وبسطها بإسهاب ، فتناول

---

١ - المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ١١١ - ١١٢ .

٢ - المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٥٤ .

٣ - من هزلاء البغدادى في الفرق بين الفرق (دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ط ١) ص ٢٣ .

٤ - ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٥٠ .

٥ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٥٣ - ٥٧ .

مفهوم الكمون وكيفيته ومظاهره مطبقاً ذلك على النار التي تكمن في الخشب ولا تظهر الا عندما يزول المانع الذي يحول دون ظهورها من رطوبة وغيرها . وقد رد على الاعتراضات التي أثارها خصوم النظرية من المتكلمين . وهي تقود إلى القول أن الله خلق العالم ، بما فيه من جماد وحيوان وإنسان في زمن واحد ، ولم يتقدم خلق آدم على خلق ذريته ، غير أن الله أكنم بعضهم في بعض ، فالتقدم والتأخر إنما يقع في ظهور الكائنات من مكانها دون حدوثها ووجودها (١).

يبد أن الجاحظ يعارض النظام في مسألة إعجاز القرآن . قال النظام إن نظم القرآن وبلاغته ليسا معجزة للنبي ودليلاً على النبوة . وإنما إعجازه كائن في الإخبار عن الغيوب الماضية والآتية ، ومن جهة صرف الدواعي عن معارضة ، ولو خلاهم الله لكانوا قادرين على أن يأتوا بمثله (٢) .

وكذلك يخالفه في الإجماع والإمامة . لقد ذهب النظام إلى أن الإجماع ليس حجة في الشرع ، وكذلك القياس في الأحكام الشرعية . وإنما الحجة في قول الإمام المعصوم . ثم إن الخبر المتواتر الذي يتناقله العدد الكثير يمكن أن يكون كاذباً ، وقال لا إمامة الا بالنص ، وقد نص النبي على إمامة علي بن أبي طالب ، ولذا رفض النظام خلافة عمر وأبي بكر وعثمان (٣) .

٣- بشر بن المعتمر الهلالي ( ٢٢٦هـ ) :

معتزلي من الطبقة السادسة ورئيس معتزلة بغداد ، وكوفي الأصل والمنشأ ، ولكنه قصد بغداد وأقام فيها . ونمي إلى الرشيد انه رافضي فأمر بحجسه ، فنظم شعراً يوضح مذهبه وأرسله إلى الرشيد :

١- الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٠ وما بعدها .

٢- آثار الجاحظ ، ص ٢٧٠ .

٣- الشهرستاني الملل والنحل (الباي الخليلي ، القاهرة ، ١٩٦١ ، د. ط. ) ج ١ ، ص ٥٧ .

لسنا من الرافضة الغلاة ولا من المرجئة الحفاة  
لا مفرطين بل نرى الصديقاً مقدماً والمرضى الفاروقاً  
تبراً من عمرو ومن معاوية إلى آخر ما ذكره . فلما بلغت الرشيد أفرج عنه .

وكان على خصومه مع هشام بن الحكم فهجاه بشعر قال فيه :  
تلعبت بالتوحيد حتى كأنها تحدث عن غول بيضاء سملق  
وذلك لأن هشام بن الحكم كان متغير الرأي في الله : فطوراً يقول انه نور يتلأل ،  
وتارة يقول : من حيث جنت رأيت ، ومرة يقول : هو مثل الإنسان <sup>(١)</sup> .

وكان بشر بن المعتمر شاعراً غزير المادة ، وله قصيدة تقع في أربعين ألف بيت  
رد فيها على جميع المخالفين ، وكان زاهداً عابداً داعياً إلى الله تعالى <sup>(٢)</sup> .

وذكر الجاحظ نقلاً عن موسى بن عمران أن بشر بن المعتمر كان خاصاً  
بالفضل بن يحيى ، وكان يجلس إلى مائدته ، وقد حظي عنده <sup>(٣)</sup> .

وقد أورد له قصيدتين « جمع فيها كثيراً من الغرائب والفرائد ونبه بهذا على وجوه  
كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة » <sup>(٤)</sup> التي تتمثل في طباع الحيوانات المختلفة  
وتثير العجب لدى الإنسان العاقل .

وكيف لا أعجب من عالم حشوته التأبيس (\*) والدغور (\*\*)  
وحكمة يبصرها عاقل ليست لله من دونها سر <sup>(٥)</sup>

١- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٥٤ .

٢- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٥٢ - ٥٤ .

٣- الحيوان ، ج ٦ ، ص ٩٠ - ٩١ .

٤- المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٢٨٤ .

٤- المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٢٨٦ .

• - من أبس : حفر وصغر (ابن منظور ، لسان العرب) .

•• - الدغور : المهجوم والفساد والحجب (ابن منظور ، لسان العرب) .

ونراه يتهجم على الخوارج وينعتهم بالغباء ويتنصل منهم ، كما يهزأ بالشيعة  
 الروافض الذين اعتزوا بالجفر اعزاز المسافرين بالسراب :

لست أباضياً غيباً ولا كـرافضي غـره الجفـر  
 كما يفرُّ الأَل من سبب سـفـراً فأودى عنده السـفـر  
 كلاهما وسع في جهلٍ ما فعـالـه عندها كـفر<sup>(١)</sup>

وكذلك نراه يتبرأ من الحشوية ، ويصفهم بالجفاء ورميهم الناس بالعيوب دون  
 أن يدروا معنى ذلك . وليس لهم رأي ولا قدرة ، ولا تنجح فيهم الحكمة ، وهم  
 متفرقو الأهواء لا يجتمعون على شيء الا الأذى واحتقار أهل التقى :

لسنا من الحشوي الجفـاء الأول عـابـوا الذي عـابـوا ولم يـدـرـوا  
 إن غبت لم يـسلمك من تـهمـة وان رنا فلحظـه شـزـر  
 أبلـسه خـب ضـغـن قلبـه لـه اختـيارٌ ولـه مـكـر  
 وانتحلوا جماعة باسمها وفارقوها فهم اليعـسر<sup>(٢)</sup>  
 لا تنجـ الحكـمـة فيهم كما ينـسـو عن الجـر ولـه القـطـر  
 قلـوبهم شتى فما منهم ثـلاثـة يـجمـعهم امـر  
 الا الأذى أو بهت أهل التقى وانهم اعينهم خـزـر<sup>(٣)</sup>

ان البراهين على وجود الله وحكمته تتجلى في جميع موجوداته ، ولكن فكر  
 الإنسان العجيب أهم تلك البراهين ، إذ به يهتدي الإنسان في سبل الحياة ، وبه

١ - المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ١٨٩ .

٢ - البحر : الجدي . (ابن منظور ، لسان العرب) .

٣ - الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٩٠ .

يعرف الغائب قياساً على الشاهد ، وبه يميز بين الخير والشر . ان هذه القوة في الإنسان قد خصه بهاربه وهي التي تسمو به إلى مرتبة التقديس والطهر :

لو فكر العاقل في نفسه	مدد هذا الخلق من العمر
لم ير الا عجباً شاملاً	أو حجة تنقش في الصخر
فكم نرى من الخلق من آية	خفية الجسان من مفر
ابرزها الفكر على فكرة	يحار فيها وضع الفجر
له در العقل من رائد	وصامت في العسر واليسر
وحاكم يقضي على غائب	قضية الشاهد للأمر
بذي قوى قد خصه ربه	يخلص بالتقديس والطهر <sup>(١)</sup>

يقول الجاحظ أن المعتزلة رووا الشعر رواية عامة ، أما بشر بن المعتز فكان أرواهم للشعر<sup>(٢)</sup>.

#### ٤- ثمامة بن اشرم النميري ( ٢١٣ هـ ) :

زعيم المعتزلة زمن المأمون والمعتصم والواثق ، وشيخ الطبقة السابعة أي طبقة الجاحظ . نشأ كالجاحظ في البصرة وتلمذ على أبي الهذيل العلاف . ثم قصد إلى الاتصال بالخلفاء ليتوصل بذلك إلى معونة أهل الدين « على حد تعبير ابن المرتضى ، ويقصد بهم المعتزلة . وأول الخلفاء الذين اتصل بهم هارون الرشيد ، وقصة اتصاله به تدل على حنكته واتجاهه إلى خدمة عقيدته الاعتزالية عن سبيل السياسة والتقرب من

١- المصدر عنه ، ج ٦ ، ص ٢٩١-٢٩٢ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٤ . إن أهم آراء بشر الكلامية ، حسب الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٦٤ ، والبغدادى ، الفرق بين الفرق ص ١٤٣ ، القول بالتوراة الذي ابتدعه وأخرط فيه ، والقول بأن الله لا يحب عليه رعاية الأصالح لعباده وإثابا عليه أن يمكن العبد بالقدرة ، وأن الإنسان العاقل يستطيع معرفة الله بالنظر قبل ورود السمع .

الخلفاء : « قال القاضي عن أبي الحسن في كتاب المشايخ في سبب اتصال ثمامة بالخلفاء ، ان محمد بن سليمان قطع يدي عيسى الطبري وكان زاهداً متكلماً من عباد الله الصالحين . فلما بلغ ثمامة قال : قتلني الله ان لم اقتله . وكان ثمامة قد تفرد بالعبادة ، فاتصل بالرشيد وتمكن منه لعلمه وفضل اذ به الى أن عادله في طريق مكة ، فكان يملأ اذنيه علماً وأدباً الى أن حج معه وحوله بتدبيره الى طريق البصرة في منصرفه وهجم به على سلاح لمحمد بن سلمان فكان من الرشيد ما كان » (١).

ثم اتصل ثمامة بن أشرس بالمأمون فقربه وجعله مستشاره وهو الذي أشار عليه بأحمد بن أبي خالد ليكون له وزيراً بدلاً منه ، كما أشار عليه بعد ذلك ببحي بن أكثم .

وكان ثمامة يحقر العامة لانهم جهلة يصدقون ما يسمعون ، وقد قصّ على المأمون خبره مع الرجل الذي يبيع دواء لبياض العين ، وعلى عينه غشاوة ، والناس مجتمعون حوله ، وعندها قال له ثمامة : لم لا تدأوي عينيك ؟ أجابه : إنك غبي ، ان عيني اشتكت في مصر فما ينفعها دواء بغداد ، فأقبلت الجماعة وقالوا : صدق الرجل ، أنت جاهل ، فضحك المأمون وقال : ما لقيت العامة منكم ؟ أجاب ثمامة : لقيت من الله أكثر (٢) .

ان هذه القصة تدل على العداوة التي استحكمت بين العامة والمعتزلة وعلى احتقار المعتزلة للعامة .

ولثمامة رأي في البخل ذكره له الجاحظ وهو انه طبع في بعض الناس يتبع من تأثير البيئة من أرض وماء . وقد يظهر أيضاً في الحيوانات التي تعيش مع الناس في تلك البيئة . وهذا ما يستفاد من خبر ديكة مرو التي تسلب الدجاجات الحب بدل أن تقدمها لها (٣) .

١- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٦٧ .

٢- المصدر عينه ، ص ٦٥- ٦٧ .

٣- البخله ، ص ٢٧ .

وينتقد ثامة مفهوم الخلف الشائع عن الناس ، وهو يعني أن من يتصدق يخلف عليه بدل الصدقة ، ومن يصب برزه أو يمن بخسارة ويكون مؤمناً يخلف الله عليه بدل خسارته ، وهذا اعتقاد خاطئ. برأي ثامة . ويروي ثامة انه مني بحريق أتى على داره ، وكان كلما التفاه انسان قال له : الحريق سريع الخلف فلما كثر ذلك عليه قال ثامة : « اللهم اني استحرقك فأحرق كل شيء لنا » (١) .

وكان من عادة ثامة أن يدهو الناس إلى الفطور ، ولكنهم كثروا عليه واتوه بالرقاع والشفاعات فتضايق منهم وقال لهم : « متى قربتكم وفتحت بابي لكم وباعدت من هو أكثر منهم عدداً وأغلقت بابي دونهم لم يكن ادخالي أياكم عذراً لي ولا في منع الآخرين صحة فانصرفوا عنه » (٢) .

وكان ثامة يتشفع للناس ويقضي حوائجهم بسبب المكانة التي كان يتبوأها في قصر الخلافة ، وكان يقدم المعتزلة : وجاء مرة أبو همام السفوط يكلمه في حرمة داره التي تطوع ببنائها في رباط عبادان . فقال : ذكرتني الطعن وكنت ناسياً . قد كنت عزمت على هدمها حين بلغني أن الجبرية قد نزلتها . قال : سبحان الله نهدم مكرمة وداراً قد وقفناها للسيل ؟ قال : فتعجبت من هذا ؟ قد أردت أن أهدم المسجد الذي كنت بنيت له ليزيد بن هاشم حين ترك أن يبنيه في الشارع وبناءه في الرائغ ، وحين بلغني أنه يخلط في الكلام ويعين الشمرية على المعتزلة . فلو أراد أبو همام وجد من ثامة مريداً جميع مساحة الأرض . وكان حين يستوي له اللفظ لا ينظر في صلاح المعاني من فسادها (٣) .

إلى جانب خدمة عقيدته الاحتزالية كان ثامة يطمح إلى الشهرة وذلك بأن يكون

١ - المصدر عينه ، ص ٢٧-٢٨ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٢٠٠ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٢٠٩-٢١٠ .

رجلاً من عليّة القوم ذا شأن ومكانة اجتماعية وسياسية ، وقد عبر عن ذلك بقوله :  
« الشهرة بالشّر خير من أن لا أعرف بخير أو شر » <sup>(١)</sup> .

ومع أيام العز هذه لقي ثمامة أياماً عصيبة فسجن <sup>(٢)</sup> . ولعل ذلك كان في  
البصرة قبل حظوته لدى الخلفاء واتصاله بهم .

ويخبرنا الجاحظ أن ثمامة كان عديم الثقة بالكبار في زمانه . وقد سمع أبا حكيم  
الكمياوي يقول لثمامة : « قلنا لكم اننا ندلكم على الأكسير فاستقلتم الغرم واردتم  
الغنم بلا غرم . وقلنا لكم : دعونا نصنع هذه الجسور ضيقة لا تنتفض أبداً فأبيتم .  
وقلنا لكم : ما ترجون من هذه المسنّيات التي تهدمها المرد وتخربها المرادى ، نحن  
نعمل لكم مسنّيات بنصف هذه المؤونة فيبقى لكم ارباً ، ثم قولوا وللمرود أن يجتهد  
جهدها للمرادى أن تبلغ عنايتها فأبيتم . وقولوا لي : الذباب ما ترجون منها ، وما  
تشتهون من البعوض ، وما رغبتكم في الحرمسن ؟ لم لاتدعوني اخرجها من بيوتكم  
بالمؤونة اليسيرة ؟ وهو يقول هذا القول ، وأصحابنا يضحكون . . . » <sup>(٣)</sup> .

ويروي الجاحظ اخباراً عديدة عن الحيوانات كالديك الذي يقاتل الكلب <sup>(٤)</sup>  
والفران التي تتقاتل <sup>(٥)</sup> والبراغيث التي تستحيل بقاً أو بعوضاً <sup>(٦)</sup> ، والقمل الذي  
يتولد من أكل التين اليابس أو من بخار اللبان <sup>(٧)</sup> .

من آراء ثمامة الكلامية قوله بقدرة الإنسان على أعماله ، وقد شدد على هذه  
الفكرة إذ لولا هذه القدرة والحرية التي تستتبعها لما كان هناك معنى للعقاب والثواب أو

١ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

٣ - المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

٤ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .

٥ - المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٢٥٠ .

٦ - المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٣٧٣ .

٧ - المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

المدح والذم . وقد شرح رأيه للمأمون واقنعه بالكلام السجيز التالي : « انا أبين لك القدر بحرفين وازيد حرفاً للضعيف . قال : ومن الضعيف ؟ قال : يحيى بن اكثم . قال هات : قال : لا تخلو فعال العباد من ثلاثة أوجه : أما كلها من الله ولا فعل لهم فلم يستحقوا ثواباً ولا عقاباً ، ولا مدحاً ولا ذماً ، أو تكون منهم ومن الله فوجب الذم والمدح لهم جميعاً ، أو منهم فقط فكان لهم الثواب والعقاب والمدح والذم قال : صدقت <sup>(١)</sup> .

ان هذا الخبر يدل على مدى تأثير ثيامة بن اشرس على المأمون . وهو الذي زين له الاعتزال ودعاه إليه <sup>(٢)</sup> .

٥- موسى بن عمران ( ٢٤٦ هـ ) :

عده ابن المرتضى في الطبقة السابعة من المعتزلة ، وروي عن أبي الحسن الخياط انه كان واسع العلم في الكلام والفتيا وانه كان يقول بالإرجاء <sup>(٣)</sup> . وارجأؤه عائد إلى مخالفة المعتزلة في مسألتي الوعد والوعيد والمنزلة بين المتزلتين ومع ذلك لم يخاصمه المعتزلة ولم ينفروا منه ، بل تقربوا اليه وصاحبوه وقدروه ، لانه كان يحترمهم ويحضي بهم ويساعدهم مادياً ، ويستقبلهم في منزله الذي حوله إلى شبه ناد يرتاده الأدباء والمتكلمون والعلماء ، حيث يتحدثون ويتناظرون وفي طليعتهم الجاحظ والنظام .

اتصل الجاحظ بموسى بن عمران في صباه كما يفهم من الخبر الذي ساقه ابن المرتضى عن طبق الكتب الذي قدمته أم الجاحظ لولدها تعبيراً عن عدم رضاها عن

١- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٦٢ .

٢- أهم آراء ثيامة حسب الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٧١ ، والبغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ١٥٧ ، قوله ان المعارف ضرورية كلها وان من لم يفسر لى معرفة الله فليس مأموراً بها وإنما خلق للعبرة والسخره كسائر الحيوانات التي ليست مكلفة وربط العقاب والثواب في الآخرة بالمعرفة بالتكليف ، فقال ان من لم يعرف الله أو يكلف بأوامره ونواهيه فلا ثواب ولا عقاب له في الآخرة وإنما يصير تراباً بعد الموت . . .

٣- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٧١ .

اهتمامه بالكتب فما كان من موسى بن عمران الذي عرف بقصته مع أمه الا ان قدم له الطعام والمال (١) .

كانت علاقة الجاحظ بمويس وثيقة ، كان موسى يعطف عليه ويساعده مادياً ومعنوياً ، وكان الجاحظ يحل موسى بن عمران ويلهج بذكره وينعت بأحسن الصفات فهو صادق يلتزم الصدق في جميع الحالات حتى لو عاد عليه الصدق بالضرر . ومن هنا كانت ثقته فيه وفيما يسمعه منه كبيرة فنسمعه يقول : « وحدثنني موسى بن عمران ، وكان هو والكذب لا يأخذان من طريق ، ولم يكن عليه في الصدق مؤونة لإيثاره له حتى كان يستوي عنده ما يضر وما لا يضر » (٢) .

ويشير الجاحظ الى ولع الناس بالكلام واحتدام الخصومات بينهم في بيت موسى بن عمران فيخبرنا أنه رأى بالبصرة في باب موسى بن عمران رجلين تنازعا في العنب النيروزي والرازقي فقطع الكوفي أصبع البصري وفقاً البصري عين الكوفي ثم لم يلبثا أن تصافحا وندما على ما فعلا (٣) .

ويسوق على لسان موسى نوادر عن البخلاء تدل على كرمه وكرهه للبخل والإمساك مثل نادرة الخراسيين اللذين يرفض احدهما مطاعمة صاحبه لانه آكل منه (٤) .

ويتحدث الجاحظ عن سخاء موسى وحسن ضيافته ويشهد له بذلك ويكذب أولئك الذين ينكرون معرفته فيقول : وهذا أبو شعيب القلال في تقريب موسى له وانسه به ، وفي إحسانه اليه مع سخائه على المأكول وغض طرفه عن الاكيل ، وقلة مبالاته بالحفظ ، وقلة احتفاله بجمع الكثير ، سئل عنه أبو شعيب فزعم انه لم ير

١- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٦٨ .

٢- الحيوان ، ج ٥ ، ص ٤٦٨ .

٣- المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ٨ .

٤- البخلاء ، ص ١٨ - ١٩ .

قط اشع منه على الطعام . قيل : فكيف ؟ قال : يدلك على ذلك انه يصنعه صنعة  
وبهينة تهيئة من لا يريد أن يمس فضلاً على غير ذلك . وكيف يجتريء الضرس على  
إفساد ذلك الحسن ونقص ذلك النظام ، وعلى تفريق ذلك التأليف وقد علم أن سته  
يجم من جماله يهيب منه . فلو كان سخياً لم يمنع منه بهذا السلاح ، ولم يجعل دونه  
الجنن ، فحول إحسانه إساءة وبذله منعاً ، واستدعاه إليه نبياً <sup>(١)</sup> .

كما يتحدث عن كرم اخلاقه وسعة صدره وحسن سياسته للناس وجوده  
معاملته لأصحابه ، ويذكر من أصحابه أبا الهذيل العلاف الذي كان يتردد على منزل  
مويس ، واهداه مرة دجاجة ، وما زال يذكره بتلك الهدية في كل مناسبة ولقاء ،  
ومويس يقول بسمن دجاجته وطيب لحمها على الرغم من انها دجاجة من دون ما كان  
يتخذ لمويس <sup>(٢)</sup> .

ان ما يهمننا هو تأثير مويس بن عمران في الجاحظ ، يبدو انه قدم للجاحظ  
خدمة جلى عندما ساعده في صباه مادياً للتغلب على الفاقة فافسح له المجال للتزود  
بالعلم ، والانصراف الى حلقاته يسمع ويدون حتى حصل ثقافة واسعة . ولولا هذه  
المساعدة لاضطر الجاحظ للصدف عن العلم الى العمل وكسب العيش منذ حداثة  
ولتغير مجرى حياته .

وافاد الجاحظ من مويس في ناحية اخرى ، إذ اتاح له أن يتعرف في منزله على  
ائمة الفرق الكلامية والأدباء والعلماء حيث كانوا يلتقون ويتناقشون في الأدب والكلام  
والاجتماع . وقد أشرنا الى اختلاف أبي الهذيل العلاف على منزل مويس بن عمران  
وصداقته الحميمة له حيث التقى الجاحظ . ويفترض طه الحاجري أن الجاحظ التقى  
النظام أيضاً في دار مويس <sup>(٣)</sup> ، ولكن ليس ثمة سند تاريخي يؤيد هذا الافتراض .

١- البخله ، ص ٧١-٧٢ .

٢- المصدر عينه ، ص ١٣٥ .

٣- طه الحاجري ، الجاحظ : حياته وآثاره ، ص ١٦٤ .

وعلى كل حال ، يمكن القول ان لمويس بن عمران فضلاً كبيراً على الجاحظ لانه هيا له بيئة صالحة لنمو مواهبه وتفتق عبقريته .

#### ٦- هشام بن الحكم (١٩٩ هـ) :

متكلم شيعي كبير معاصر للجاحظ . ولد في الكوفة ، ونشأ في واسط ، وانتقل الى بغداد ، واتصل بجعفر الصادق وابنه موسى الكاظم ، ويحيى بن خالد البرمكي . توفي مستتراً في الكوفة سنة ١٩٩ هـ على الأرجح <sup>(١)</sup> . وترك كتباً كثيرة منها كتاب الإمامة ، وكتاب الدلالات على حدود الأشياء ، وكتاب الرد على أصحاب الاثنين ، وكتاب الرد على المعتزلة ، وكتاب المعرفة ، وكتاب في الجبر والقدر ، وكتاب التوحيد ، وكتاب الرد على ارسطاطاليس في التوحيد ، وكتاب الرد على شيطان الطاق <sup>(٢)</sup> .

كان في بدء أمره جهمياً خبيثاً وعندما اتصل بجعفر الصادق وجادله أعجب به وأصبح من اتباعه لمذهب التشيع <sup>(٣)</sup> . وعقد يحيى البرمكي مناظرة بينه وبين جماعة من المتكلمين افصح فيها عن عقيدته وقال ان الله في أرضه إماماً غير هارون الرشيد مفروض الطاعة - يعني به الإمام موسى الكاظم . . . وهذا ما دفع الرشيد الى ملاحقته وإمامه وحبسه . ويبدو أن موسى الكاظم تنصل من دعوى هشام بن الحكم وطلب منه الكف عن الكلام لان كلامه يهدد حياته ، بل اتهمه بانه اشرك في دمه <sup>(٤)</sup> .

قال هشام ان الإمامة نص من الله ورسوله على علي بن أبي طالب وعلى بنه <sup>(٥)</sup> وكان ممن فتن القول في الإمامة وهذب المذهب في النظر ، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب <sup>(٦)</sup> .

١- الكشي ، الرجال (الأعلمي ، كربلاء ، د.ت. د.ط. ) ، ص ٢٢٠ .

٢- الطوسي ، الفهرست (الكتبة المنتضوية ، النجف ، ١٩٣٧ ، د.ط. ) ، ص ١٧٥ .

٣- الكشي ، الرجال ، ص ٢٢٠-٢٢١ .

٤- المصدر عينه ، ص ٢٢٢-٢٣٧ .

٥- السعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٤٠٤-٤٠٥ .

٦- الطوسي ، الفهرست ، ص ١٧٥ .

لا ندري اذا كان الجاحظ قد اجتمع بهشام بن الحكم أو التقاه ، ولكن الثابت هو انه سمع به واطلع على آرائه فحكى عنه في بعض كتبه انه « كان يزعم ان الله جل وعز إنما يعلم ما تحت الثرى بالشعاع المتصل منه الذاهب في عمق الأرض ، ولولا ملاسته لما وراء ما هناك لما درى ما هنالك . وزعم أن بعضه يشوب وهو شعاعه ، وإن الشوب محال على بعضه . ولو زعم هشام أن الله تعالى يعلم ما تحت الثرى بغير اتصال ولا خبر ولا قياس كان قد ترك تعلقه بالمشاهدة وقال بالحق . وقال هشام في ربه في عام واحد خمسة أقاويل : زعم مرة انه كالبلورة ، وزعم مرة انه كالسيكة ، وزعم مرة أنه غير صورة . وزعم مرة انه بشير نفسه سبعة اشبار ، ثم رجع عن ذلك وقال : هو جسم كالأجسام » (١) .

يفهم من هذا النص الذي اسنده الأشعري إلى الجاحظ ، أن أبا عثمان يأخذ على هشام بن الحكم رأيه في كيفية علم الله ، وينكر عليه القول انه يعلم ما تحت الأرض بواسطة شعاع يمتد منه وينفذ إلى اعماق الأرض .

٧- ضرار بن عمرو (؟) :

صاحب فرقة الضرارية احدى فرق الجبرية . تتلمذ لواصل بن عطاء وعاصر احمد بن حنبل والجاحظ والنظام .

تقول الجبرية ان جميع أفعال الإنسان من صنع الله ، وأنه ليس للعبد فعل ولا قدرة على الفعل أو الاختيار . ويعتبر الجهم بن صفوان (١٢٤ هـ) مؤسس هذه الفرقة ، ولكن الجاحظ يعد عبدالله بن الحسن بن الحسن (١٤٥ هـ) معاصر هشام ابن عبد الملك أعظم الناس قولاً بالجبر (٢) . كان ورعاً لسنا من أهل المدينة ، حظي عند عمر بن العزيز والسفاح ، ولكن المنصور سجنه في الكوفة حتى مات .

١- الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، (مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ط ٢) ج ١ ، ص ١٠٧-١٠٨ .  
٢- آثار الجاحظ ، ص ٢١٣ ، وقد خص الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٨٧ ، نظرية الجبر على الشكل التالي : ان الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبر في أفعاله ، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه . هل حسب ما يخلق في سائر المخلوقات .

تابع ضرار بن عمرو الجهم بن صفوان وغيره في هذه المقالة ، وذهب إلى ان افعال العباد مخلوقة للبارئ تعالى حقيقة والعبد يكتسبها اكتساباً . وطبق هذه المقالة على الجهادات كما طبقها الجهم بن صفوان فأداه ، ذلك إلى انكار الطبائع والتولد والكمون لان القول بها يثبت الأفعال للمخلوقات خارجة عن مشيئة الله ، ولهذا اعتبر ضرار القول بالكمون أو التولد أو الطبائع كفراً لأن معناه الإقرار بفاعل غير الله في الطبيعة . وهذا ما أوضحه الجاحظ بقوله : « وكان أبو اسحق يزعم أن ضرار بن عمرو قد جمع في إنكاره القول بالكمون الكفر والمعاندة لانه كان يزعم أن التوحيد لا يصح الا مع إنكار الكمون ، وان القول بالكمون لا يصح إلا بأن يكون في الإنسان دم ، وإنما هو شيء تخلق عند الرؤية » (١) .

يتضح من هذا النص أن ضرار بن عمرو انكر الكمون لان القول به يؤدي كما اسلفنا إلى الإقرار بوجود خالق غير الله في الطبيعة ، وهذا كفر بنظره . ثم أن إنكار الكمون أداة إلى إنكار وجود النار في الخطب ، وإنكار وجود الدم في الجسم ، وإنكار وجود الدم في الجسم أداة إلى القول ان الدم الذي نراه يخرج من الجسم إنما تخلق عند إحداث الجرح ولم يكن موجوداً من قبل . باختصار : ان إنكار الكمون يوجب إنكار الطبائع ، وهذا ما قال به الجهم بن صفوان إمام الجبرية عندما زعم أن ليس في النار حر ولا في الثلج برد ولا في الحس إدراك ولا في الطعام غذاء . . .

وهناك نظرية أخرى قال بها ضرار بن عمرو ، وهي أن الأجسام التي نراها إنما هي أعراض اجتمعت فكونت الأجسام . وهكذا تصبح الأجسام مجموعة أعراض من لون وطعم ورائحة ووزن وغيرها . وذهب النظام مذهباً مغالفاً فقال ان الأجسام ليست مؤلفة من الأعراض لان الأعراض غير موجودة في الطبيعة ، ولا يوجد في الطبيعة سوى الأجسام (٢) .

١- الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٠ .

٢- الحيوان ، ج ٥ ، ص ١١ ، ويشير الشهرستاني في الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٩١ ، والبغدادي في الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ ، إلى أن ضرار بن عمرو وافق المعتزلة في تعطيل أى نفي الصفات عن الله ، فهو يذهب إلى أن قولنا ان الله حي وعالم يعني انه ليس بعيت ولا بحاehl .

## ٨- أحمد بن حنبل الشيباني (١٦٤-٢٤١هـ) :

ولد في بغداد ، وفيها عاش ومات . وكان إمام المحدثين في عصره ، وقد صنف كتاب المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره وقيل إنه كان يحفظ ألف ألف حديث . اخذ العلم عن الإمام الشافعي وصاحبه مدة إقامته في بغداد فلما ارتحل إلى مصر قال عن تلميذه : « خرجت من بغداد وما خلفت فيها اتقى ولا افقه من أحد ابن حنبل » ، عرف أحمد بن حنبل إلى جانب ثقاه وفقهه بالثبات على معتقده ، وتحمله الوان العذاب بصبر وعناد مما اكسبه تقدير الشعب والتفافه حوله ونصرته ضد أعدائه من المعتزلة اصحاب السلطان الذين ضيقوا عليه وحاولوا إرغامه على القول بخلق القرآن فلم يذعن لمشيئتهم وتثبت بموقفه كما سنرى (١) .

ويستفاد من كلام الجاحظ ان أحمد بن حنبل تعرض مرتين للمحنة . المرة الأولى في عهد المأمون إذ استجوب وطلب إليه القول بخلق القرآن ولما رفض قيد وحبس . والمرة الثانية في عهد المعتصم الذي تابع استجوابه في جمع من الفقهاء والمتكلمين والفضة فأجابه أحمد بن حنبل : امتحنتني وانت تعرف المحنة وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتني من بين جميع الأمة . فقال له المعتصم : بل كذبت ، وجدت الخليفة قبلي قد قيدك وحبسك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لامضى الحكم فيك ، ولو لم يخفك على الإسلام ما عرض لك . فسؤلي إياك عن نفسك ليس في المحنة ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذا السبيل (٢) .

ويبدو من رواية الجاحظ عن محنة خلق القرآن ان المعتصم كان رقيقاً بأحمد بن حنبل ، ولكن الإمام كان يعاند الحجة ويكذب كذباً صراحاً عند الجواب (٣) .

١- ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج ١ ، ص ٤٧-٤٨ .

٢- آثار الجاحظ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ .

٣- المصدر عينه ، ص ٢٧٤ .

وكان القاضي أحمد بن أبي دؤاد هو الذي يتولى الاستنطاق ويوجه الأسئلة إلى ابن حنبل ، ويسوقها بشكل قياسي منطقي يؤدي إلى نتيجة حتمية لا بد من أن يقر بها المستجوب ، وقد أورد الجاحظ مثلاً على المسائل :

- قال أحمد بن أبي دؤاد : اليس شيء الا قديم أو حديث ؟

- قال : نعم .

- قال : أو ليس القرآن شيئاً ؟

قال : نعم .

قال : أوليس لا قديم إلا الله ؟

قال : نعم .

قال : فالقرآن إذن حديث .

قال : لست أنا متكلماً <sup>(١)</sup> .

يتضح من هذا الحوار عدة أمور :

أولاً : حجة المعتزلة في قولهم بخلق القرآن ، وهي أن القرآن شيء من الأشياء وبما أن كل شيء محدث أو مخلوق - عدا الله - فلاذن القرآن مخلوق .

ثانياً : موقف أحمد بن حنبل في قوله أن القرآن ليس مخلوقاً . لقد رفض حجة المعتزلة أو تجاهلها واعتبر مسألة خلق القرآن وكلام المعتزلة حولها مسألة كلامية ، وهو لا يشتغل بعلم الكلام ، ولذا ينفي عن نفسه صفة المتكلم ويقول : لست أنا متكلماً .

وهناك حجة أخرى كان يفزع إليها تهريباً من الإقرار بخلق القرآن هي ادعاؤه انه لم يسمع أحداً قبله من السلف قال ان القرآن مخلوق . وعلى هذا نسمعه يجيب أحمد بن أبي دؤاد الذي قال له : اتزعم ان الله تعالى رب القرآن ؟ قال : لو سمعت احداً يقول

١ - المصدر عنه ، ص ٢٧٤ .

ذلك لقلت ! فأجاب القاضي عندئذ : أفما سمعت ذلك قط من حالف أو سائل ولا قاص ولا في شعر ولا في حديث ؟ (١) .

ويحمل الجاحظ على الإمام أحمد بن حنبل فيرميه بالعناد والكذب والفحّة وقلة الاكتراث وشدة التصميم ، ويقول عنه انه في كل مرة كان يشعر بالإحراج وبظهور حجة القاضي كان يتهرب من الإقرار بالحق بقوله انه ليس متكلماً . وهو ينطلق في موقفه هذا من مبدئين هما رفض علم الكلام وما يستتبعه من تأويل لآيات القرآن ، والتمسك بالسنة ومواقف السلف وسيرتهم .

يوافق الطبري الجاحظ في أن المأمون امتحن أحمد بن حنبل على يد اسحق بن ابراهيم رئيس شرطة بغداد ، وطلب منه أن يقول بخلق القرآن ، فأجاب : هو كلام الله لا ازيد عليه . واصر على موقفه . فقيده بالحديد ووجهه إلى طرطوس لمقابلة المأمون سنة ٢١٨ هـ . وتوفي المأمون قبل مقابلته (٢) .

ويوافقه أيضاً ابن الجوزي الذي يقول ان المأمون أمر اسحق بن ابراهيم بامتحان ابن حنبل وسواه من الفقهاء في مسألة خلق القرآن . فلما أبى القول بذلك قيده وحبسه ووجهه إلى طرطوس . وبعد موت المأمون اعاد المعتصم المحنة وتابعها ، وكان أحمد بن أبي دؤاد يتولى الاستطاق ، ولكن الإمام ثبت على عناده وقوله ان القرآن كلام الله غير مخلوق . وكان يضرب بالسياط ويحبس ويهدد بالموت مدة طويلة ولكن المعتصم بإشارة من أبي دؤاد خلى سبيله أخيراً (٣) .

وكذلك لم يخالفه الدميري ، فقد قال ان كلا من المأمون والمعتصم والوائق (بإضافة الواثق) امتحنوا ابن حنبل ، ولكنه أبى القول بخلق القرآن فتعرض للضرب

---

١ - آثار الجاحظ ، ص ٢٧٥ .

٢ - الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ٦٣١ - ٦٤٥ .

٣ - ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل (خانجي وحداد ، بيروت ، ١٣٤٩ هـ ، د . ط .) ، ص ٣١٩ - ٣٣٦ .

والحبس مدة ٢٨ شهراً حتى جاء الوراق فأمره بالابتعاد عن مكان إقامته ، ولما جاء المتوكل أكرمه (١) .

أما اليعقوبي فيخالف هؤلاء جميعاً ويقول ان المعتصم احضر أحمد بن حنبل وطلب اليه القول بخلق القرآن ، فامتنع أن يقول ان القرآن مخلوق ، فضرب عدة سياط ، وتولى اسحق بن إبراهيم مناظرته ، فقال احمد بن حنبل : أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا ( أي خلق القرآن ) . قال اسحق : فبقي شيء لم تعلمه وقد علمكه أمير المؤمنين . قال ابن حنبل : فإني أقول بقول أمير المؤمنين . قال : في خلق القرآن؟ قال : في خلق القرآن . فأشهد عليه ، وخلع عليه ، واطلقه الى منزله (٢) .

٩- الكندي ( ٨٦٦ م ) :

يعقوب بن اسحق الكندي ، لقب بفيلسوف العرب لانه كان أول فيلسوف عربي الأصل . ولد في الكوفة حيث كان أبوه والياً من قبل المهدي والرشد ، ثم انتقل الى البصرة حيث تلقى ثقافته ، واستقر أخيراً في بغداد حيث انصرف الى التأليف ، فخلف مئات الكتب والرسائل في الفلسفة وعلم الكلام والتنجيم والكيمياء وغيرها (٣) . واتصل بالأمويين والمعتصم والوراق وحظي عندهم .

عرفه الجاحظ وتحدث عنه في كتاب البخلاء مركزاً على صفة البخل فيه ، كما ألف كتاباً فيه عنوانه « فرط جهل يعقوب بن اسحق الكندي » ، ضاع ، ولكن يستدل من عنوانه تهكم الجاحظ منه وعدم ثقته بعمله . وربما عزونا موقف الجاحظ منه الى التباين بين آراء الرجلين في عدد من المسائل الفلسفية . فالكندي يذهب الى أن للكواكب نفوساً وعقلاً ، والجاحظ لا يقبل التسليم بهذا الرأي . وكان الكندي شديد التأثر بالفلسفة اليونانية والاعتماد عليها ، والجاحظ يقف موقفاً حذراً منها .

١- الدميري ، حياة الحيوان (الطبعة الميمنية ، مصر ، ١٣٠٥هـ ، د. ط. ) ، ص ٧٢-٧٣ .

٢- اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

٣- ابن أبي أصيبعة ، طبقات الأطباء ، ص ٢٨٥ وما بعدها .

ويفهم من كلام الجاحظ عن الكندي انه كان شديد البخل ، ومن نوادر بخله طلبه من الجيران الطبخ لامراته الوحى لئلا تسقط ، وعدم عرضه الغداء على جاره وقد دخل عليه وهو يأكل مع ضيف عنده ، ونبيه عياله وأصحابه عن شراء باكورات الرطب والفاكهة لأنها تكون غالية الثمن (١) .

ثم ان الكندي يحتاج للبخل ويدعو الى الحرص على المال ، ويمقت من يتلقه أو يتنفقه ، ويرفض أن يكون البخل منقصة أو عيباً ، وان يعد السرف والتفج فضيلة وجوداً : « تسمون من منع المال من وجوه الخطأ ، وحصنه خوفاً من الغيلة ، وحفظه اشفاقاً من الذلة بخلأ ، تريدون بذلك ذمه وشينه ! وتسمون من جهل فضل الغنى ولم يعرف ذلة الفقر واعطى في السرف وتهاون بالخطأ ، وابتذل النعمة ، وأهان نفسه بإكرام غيره جواداً ، تريدون بذلك حمده ومدحه ! . . . » (٢) .

ويستدل من القصة الواردة في البخل أن الكندي كان يملك داراً واسعة بؤجر قسماً منها . . . وكان لبخله يفرض شروطاً على المستأجرين شديدة . كأن يكون له بالإضافة الى بدل الإيجار روث الدابة وبعر الشاة ونشوار العلوقة ، ونوى التمر وقشور الرمان والغرفة من كل قدر تطبخ للحبل في بيته . وكان المستأجرون يحتملون ذلك منه لطيه وإفراط بخله وحسن حديثه (٣) .

فالكندي يتصف إذن ، عدا البخل ، بطيبة القلب ، وحسن الحديث . وهناك صفة أخرى اشتهر بها هي الحكمة وظهور الحجة « لله در الكندي ما كان أحكمه وأحضر حجته وأنصح جيبه وأدوم طريقته » ، هذا ما يقوله فيه اسماعيل بن غزوان في مقدمة خبر يسوقه عن الكندي الذي أقبل على جماعة من الناس المسرفين وراح يبين لهم مساوئ الإسراف وحسنات البخل ، بكلام بليغ وحجج منطقية (٤) .

١ - البخل ، ص ٨١ - ٩٣ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٩٠ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٨٢ .

٤ - البخل ، ص ٩٠ .

وثمة ناحية أخرى يشير إليها الجاحظ في « البخلاء » ، هي ميل الكندي إلى المعتزلة وكرهه للشيعة ، والعداء بين المعتزلة والشيعة . نفهم ذلك من الرسالة التي وجهها الكندي إلى أحد المستأجرين يشرح فيها الأضرار التي تلحق بالمؤجر من نزول ابن عم له ضيفاً عليه مدة شهر ويختمها بقوله : « انت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة ، وبما بين أهل الكوفة والبصرة ، بالعداوة التي بين أسد وكندة ، وبما في قلب الساكن من استئصال المسكن ، وسيعين الله عليك والسلام » (١) .

ومن الخير الإشارة هنا إلى رأي طه الحاجري الذي يذهب إلى « ان الكندي الذي يتحدث عنه الجاحظ في كتاب البخلاء ليس هو الفيلسوف الشهير يعقوب بن اسحق الكندي » (٢) .

غير ان محمد عبد المهادي ابو ريذة الذي حقق رسائل الكندي ونشرها يقول : ان الجاحظ يذكر الكندي الفيلسوف صراحة في « الحيوان » ، ويذكره في « البخلاء » مداورة (٣) .

والأرجح هو أن يكون كندي « البخلاء » عين الكندي الفيلسوف لان الرسالة التي نسبها إليه تنطوي على براهين منطقية لا تصدر إلا عن شخص مفكر ، ولان هذا الكندي يميل إلى المعتزلة ويبغض الشيعة ويهتم بعلم الكلام ، ويعتبره الناس رجلاً فكرياً وصاحب حجة . هكذا صفات تنطبق على الكندي الفيلسوف . وأخيراً لان الجاحظ ميال إلى السخرية بفيلسوفنا هذا ، وقد ذكرنا انه ألف كتاباً كاملاً خصه للسخرية به ساء « فرط جهل يعقوب بن اسحق الكندي » .

و- الكتب :

ان الكتب الكثيرة والمتنوعة التي طالعها الجاحظ اثرت تأثيراً عميقاً في

---

١- المصدر عينه ، ص ٩٠ .

٢- المصدر عينه ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

٣- أبو ريذة ، رسائل الكندي الفلسفية (دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٠) ، ج ١ ، ص ١٥ - ١٦ .

تفكيره . لقد أولع ولعاً شديداً بالكتب منذ حداثة حتى وفاته . ويخبرنا ابن المرتضى انه كان يجمع الكراريس ويكدسها في منزله عندما كان لا يزال صبيّاً ترعاه أمه ويحتاج الى من يعوله<sup>(١)</sup> ، وبالنظر لغلاء الكتب في ذلك الزمان وبما انه كان فقيراً لا يستطيع شراءها فقد اضطر الى أن يكتري حوانيت الوراقين ويبيت فيها للمطالعة<sup>(٢)</sup> .  
ويحدثنا مؤرخو الأدب أن الجاحظ ظل يطالع الكتب حتى وفاته على الرغم من الأمراض التي انتابته في شيخوخته ، وانه مات تحت انقاض الكتب التي انهالت عليه عندما كان جالساً بين اكداستها<sup>(٣)</sup> .

لقد تجلّى حب الجاحظ للكتب في مقدمة كتاب الحيوان<sup>(٤)</sup> حيث عبر عن ذلك الحب الجارف في قطعة رائعة ارتقى بها الى مصاف الشعر الجميل . ان الكتاب بنظره انفس شيء في الدنيا ، إنه « نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير والتزليل . . . » ثم ان الكتاب يوقر للإنسان حاجتين هما العلم واللذة : « والكتاب وعاء مليء علماً وظرف حشي ظرفاً واناؤه شحن مزاحاً وجداً . . . ان شئت ضحكتك من نواذره ، وان شئت عجبتك من غرائب فرائده ، وان شئت ألهتكَ طرائفه ، وان شئت أشجبتك مواعظه » .  
والكتاب خير صاحب يتخذهُ المرء يشتمل على اسمى الصفات من بر ، وانصاف ، وتواضع ، وصراحة ، ومسالمة ، وكفاية ، وإخلاص وصدق « ولا أعلم جارا أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، ولا أقل جنابة ، ولا أقل املاً وإبراماً ، ولا أجل اخلاقاً ، ولا أقل خلافاً وإجراماً ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعد من عضيهة ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ، ولا أقل تصلفاً

١- ابن المرتضى ، طبقات للمعتزلة ، ص ٦٨ .

٢- ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٦٩ .

٣- آدم منتر ، الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

٤- الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٨ وما بعدها .

وتكلفاً ، ولا أبعد في مرأه ، ولا اترك للشغب ، ولا أزهّد في جدال ، ولا اكف عن قتال من كتاب . . . والكتاب هو المجلس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يغريك ، والرفيق الذي لا يملك ، والمستريح الذي لا يستريك والجار الذي لا يستطيك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخذلك بالنفاق ، ولا يمتالك بالكذب . أما فوائد الكتاب فعميمة ، انه مخزن الحكمة والعلم والأخبار الماضية ، وهو يشحذ الذهن ويقوم الطباع ويمد العقل بالمعارف « ولا أعلم نتاجاً في حداثه سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع بين التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمع لك كتاب ! والكتاب هو الذي إذا نظرت فيه طال امتاعك وشحذ طباeck وبسط لسانك ، وجود بنائك ، وفخم الفاظك ، ويجمع نفسك وعمر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام وصادقة الملوك . وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر . . . » .

تلك الكتب التي امدت الجاحظ بغذائه العقلي المتنوع الوافر على نوعين : كتب عربية وكتب منقولة . لقد ذكرنا أهم الكتب العربية في سياق حديثنا عن اساتذة الجاحظ الذين ألفوا تلك الكتب ، ومن الطبيعي أن يكون الجاحظ قرأها . بقي أن نقول كلمة عن الكتب المنقولة .

لقد قدر للجاحظ أن يعيش في زمن اقدم فيه العرب على أضخم حركة للنقل عرفها تاريخهم ادت الى وضع تراث الأمم الأعجمية التي سبقتهم في مضمار الحضارة بين ايديهم ، فأقبلوا على قراءتها بنهم شديد . وإذا كان خالد بن يزيد بن معاوية قد دشّن تلك الحركة ، واسهم فيها بعده عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز والمنصور والرشد ، فإن الذي أوصلها الى الذروة هو المأمون الذي أسس بيت الحكمة

سنة ٨٣١ م وجعله مركزاً للنقل والأبحاث وحشر فيه أكثر من مائة مترجم انكبوا بدأب ونظام على نقل جل التراث اليوناني والفارسي والهندي الى العربية خلال زمن قصير (١) .

أشار الجاحظ الى هؤلاء المترجمين الرواد حيث يقول : « فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وابن قره وابن فهر وابن هبلي وابن المقفع مثل ارسطاطاليس ، ومتى كان خالد مثل افلاطون » (٢) . وهو يريد أن يقول ان هؤلاء المترجمين لم يكونوا فلاسفة كأرسطو وافلاطون ولهذا لم تكن ترجمتهم سليمة من الأخطاء . لقد كان الجاحظ متشدداً في شروط الترجمة ، وهو عندما يفرض على المترجم أن يكون مختصاً بالمادة التي يترجمها لتأتي ترجمته صحيحة انها ينبغي أمراً عسيراً ، وان كان شرطه من الناحية العلمية من المسلمات البديهية .

ولعل عدم توافر هذا الشرط في بعض المترجمين هو الذي أدى الى عدم سلامة الترجمات ، فشابهها التناقض والنقص والسر على حد قول الجاحظ : « وما هنا كتب هي بيننا وبينكم مثل كتاب اقليدس ، ومثل كتاب جالينوس ، ومثل المجسطي مما تولاه الحجاج ، وكتب كثيرة لا تحصى ، فيها بلاغ للناس وان كانت مختلفة ومنقوصة ، مظلومة ومقصرة ، فالباقي كاف شاف والغائب منها كاف تكميلاً لتسلط الطبائع الكاملة . . » (٣) .

ويمضي الجاحظ في حملته على الترجمة والتراجمة فيقول إنهم يزيّدون فيها من

١ - يرجع بشأن حركة النقل الى الكتب التالية : دائرة المعارف ، إشراف فؤاد البستاني ، عدد ٩ ، مقالة أرسطو عند العرب ، بقلم الأب فريدجير ، ابن النديم ، القهرست ، ص ٣٣٩ وما بعدها ، صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم (مطبعة السعادة ، بمصر ، د. ط. ، د. ت. ) ص ١٨ وما بعدها ، ص ٥٤ وما بعدها ص ٧٤ وما بعدها ، القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء (مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٢٦ هـ ، د. ط. ) ، ص ٢٠ وما بعدها .

٢ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٦ .

٣ - المصدر عنه ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ .

عندهم ويؤولون الكلام على غير وجهه الصحيح . وعلاوة على ذلك فإن تلك الكتب المترجمة قد دخل عليها الفساد من جهة النسخ <sup>(١)</sup> .

ثم ان أبا عثمان يذكر أسماء بعض الكتب المترجمة عن اليونانية والتي قرأها، منها كتاب الآثار العلوية لأرسطو الذي يبحث في الشهب والكواكب والذوائب <sup>(٢)</sup> . وكتاب الحيوان لأرسطو الذي جعله الجاحظ مصدراً رئيسياً من مصادر كتابه «الحيوان» . وكتاب المنطق لأرسطو أيضاً الذي وصفه بأنه عسير الفهم <sup>(٣)</sup> . ومنها كتاب الفصول أو أفوريسمو لابرقراط <sup>(٤)</sup> . وكتاب اقليدوس وكتاب جالينوس وكتاب بطليموس <sup>(٥)</sup> . وكتاب ماسرجويه في الالبان <sup>(٦)</sup> وكتاب الفراسة لاقليمون <sup>(٧)</sup> .

من بين المترجمين الذين عددهم الجاحظ يستوقفنا ابن المقفع الذي ترجم كتاباً يونانية وكتباً فارسية . لقد ترجم ثلاثة كتب منطقية لأرسطو هي قاطيغوراس وباري ارميناس واناالوطيقا . وترجم عدة كتب فارسية منها كتاب التاج في سيرة أنو شروان وكتاب خدائي نامه في السير ، وكتاب مزدك ، وكتاب كليله ودمنة ذو الأصل الهندي <sup>(٨)</sup> . ويبدو أن ابن المقفع الذي توفي قبل ولادة الجاحظ كان ذا شهرة واسعة في الأوساط الثقافية والشعبية وهذا ما دفع الجاحظ الى نحله بعض كتبه في مطلع حياته الأدبية لتروج <sup>(٩)</sup> .

---

١ - المصدر عنه ، ج ٦ ، ص ٥٤ .

٢ - الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ .

٣ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٩٠ .

٤ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

٥ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٨٠ .

٦ - المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

٧ - المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ .

٨ - القفطي ، أخبار العلماء ، ص ١٤٨ ، صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص ٧٧ ، ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٧٢ .

٩ - فصل ما بين العلوة والحسد (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٥١) .

وقد أورد في كتاب الحيوان مقتطفات من كليلة ودمنة استغرقت نحو أربع صفحات<sup>(١)</sup> يظهر انه كان يفتش فيها - على غير طائل - عن معلومات تتعلق بطبائع الحيوانات ، ذلك لان ابن المقفع لم يبع في كتابه دراسة طبائع الحيوانات كالجاحظ وإنما اتخذها رموزاً للناس واخلاقهم وعلاقاتهم الاجتماعية ونظمهم السياسية . ومن ثم اختلف الكتابان في الموضوع والغاية والاسلوب .

---

١- الحيوان ، ج ٧ ، ص ٩٢ .

## الفصل الرابع

### أصل الجاحظ وشخصيته

#### أ- أصل الجاحظ :

تباينت آراء الباحثين حول أصل الجاحظ . فقال بعضهم انه عربي صميم من بني كنانة القبيلة العربية المضرية المشهورة ، وإن اسمه الكامل عمرو بن بحر بن محبوب الكناني <sup>(١)</sup> .

وذهب البعض الآخر إلى أنه مولى من أصل عجمي ينحدر من العرق الأسود الأفريقي <sup>(٢)</sup> .

يعتمد الفريق الأول في دعوئه على موقف الجاحظ من الصراع بين العرب والشموية حيث نراه متجاوزاً إلى العرب يدافع عنهم ويبين فضائلهم في البلاغة والكرم بإعجاب وتقدير ، بينما يهاجم الشموية ودعاواهم الباطلة .

---

١- ابن خلكان ، ولغات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ ، ابن المنيذر ، طبقات المعتزلة ، ص ٦٧ ، السطوي ، أدب الجاحظ ، ص ١٢ .

٢- ياقوت الحموي ، معجم الأعيان ، ج ١٦ ، ص ٧٤ ، بلا ، الجاحظ ويجمع البصرة ، ص ٩٣ طه الجاحري ، الجاحظ : حياته وأثره ، ص ٨٣ .

ويعتمد الفريق الثاني على قول منسوب ليموت بن المزروع ابن اخت الجاحظ وهو التتلي : « كان الجاحظ مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكنانى القميمي احد النساء وكان فزاره جد الجاحظ عبداً اسود ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكنانى » (١) .

وإذا قال الفريق الأول انه لو « كان في دم الجاحظ شيء قليل أو كثير من دم الأجناس غير العربية لرأيناه في رأس الشعوبية ، ولكننا نرى الجاحظ في كتبه ، وفي كل ما روي عنه شديد العصبية للعرب » (٢) . أجاب الفريق الثاني : « ليس ما يمنعنا من الاعتقاد بأن اجداد الجاحظ الأولين كانوا عبيدانا من أصل افريقي . . . ومهما يكن من شيء فقد نقل الينا عن خاله أحاديث عدة لا نستطيع رفضها قبلياً ، ولو في جملتها على الأقل ، ولا يسأل فحواها على أية سخيمة يضمهرها نحو الجاحظ ، بل تدل على العكس ، فإن يموت كان فخوراً أن يكون في عداد اسرته رجل مشهور كالجاحظ ، ولو كان الجاحظ رجلاً عربياً صريحاً لما تردد يموت بإعلانه . وذلك انه لما وصف خاله بالولاء فقد اعترف بان دمه لم يكن خالصاً من دم الأجناس غير العربية » (٣) .

ويسلم طه الحاجري بولاء الجاحظ ، ولكنه يقول ان هذا الولاء « لم يكن من ذلك الولاء الذي لا يزال ميسم الذلة دامياً عليه ، فلم يكن ثمة في حقيقة الأمر ما يجعله يحس لقاءه بها كانت نفوس المولاي تغص به من الحزني والغضاضة . . . فقد كان ولاه ضعيفاً خفياً قدم عليه الزمن وتوالت عليه الأجيال ، وقد رأينا انه رجع الى ما قبل الإسلام بدهر . وما أجدر هذا الزمن الطويل أن يهلهله ويخفي آثاره ويمزق الأسباب التي تربط بين المولى وأوليائه ، ولا سيما بعد أن تغير كل شيء وتحول فيشبهه على بعض

١ - بالوث ، معجم الأنبا ، ج ١٦ ، ص ٧٤ .

٢ - السندي حسن ، أدب الجاحظ ، (الكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٣١ ، ط ١٠) ، ص ١٢ .

٣ - شاول بلا ، الجاحظ ومجتمع البصرة ، ص ٩٥ - ٩٦ .

الناس أمره . فإذا زعموا أن الجاحظ عربي صليبة (٥) فمن هذا الباب جاء زعمهم (١).

ومهما يكن من أمر الجاحظ وانتمائه العرقي ، سواء كان من صلب العرب أو عربياً بالولاء أو عجمياً من العرق الأسود الأفريقي ، فلا يبدو أن هذا الأصل كان ذا اثر واضح في تفكيره . فإذا كان عربي الأصل فثمة مفكرون عرب كثيرون لا يشبهونه في كثير من الخصائص ، وإذا كان أفريقي الأصل من العبدان فإن خصائصه لا تلتقي مع خصائص العرق الأسود . ولهذا فإن ما يذهب اليه الحاجري (٢) من أننا نستطيع أن نرد إلى أصل الجاحظ وبعض الصفات البارزة في سلوكه وعقليته وأدبه يفقر إلى براهين يستند إليها . أضف إلى ذلك أن النظرية العرقية لم يسلم بها العلم الحديث فيما يختص بانتقال الخصائص العقلية بالوراثة بين الأجيال . وقد رفضها الجاحظ ودعا إلى عدم الاعتداد بالأصل أو التفاخر بالإنساب (٣) .

#### ب - شخصيته :

ومن الخير أن نفتش عن سر عبقرية الجاحظ في شخصيته . ان شخصية الإنسان من اهم العوامل المؤثرة في تفكيره ، والعوامل الأخرى كاليئة والثقافة والسياسة لا تؤثر مباشرة في التفكير ، وإنما تؤثر أولاً في الشخصية ومن ثم ينعكس هذا الأثر على النتاج الذي يبدعه الإنسان . ونحن سنجاري علماء النفس في قولهم ان الشخصية تنحل إلى عناصر الجسم والعاطفة والعقل . . . . . وستحدث قليلاً عن كل منها .

---

١ - طه الحاجري ، الجاحظ : حياته وآثاره ، ص ٨٣ - ٨٤ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٨٦ .

٣ - رسالة للعاد والمعاشر (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٢٦) .

٥ - صليب : خالص النسب كما ورد في المنجد ، ولم أعثر في للمعجم التي رجعت إليها على كلمة صليبة التي إستعملها الحاجري أعلاه .

## ١- العنصر الجسمي :

اجمع الباحثون على رسم صورة قبيحة للجاحظ : كان قصير القامة اسود اللون  
ناتئ العينين حتى أصبح مضرب المثل في البشاعة فقال فيه أحد الشعراء :  
لو يمسح الخنزيرُ مسخاً ثابتاً ما كانَ الا دونَ قبحِ الجاحظِ<sup>(١)</sup> .  
واعترف الجاحظ بقبح خلقه فقال : « ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما  
رأني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني . . »<sup>(٢)</sup> .

لقد اثر قبح الجاحظ في تفكيره فأرهف حسه الجمالي ودفعه الى النقد الذي  
يتلمس مواضع الحسن ليجلوها ويقرظها ، ويتبين مواضع القبح ليهزأ بها وينهكم .  
والمرء عندما يجد في نفسه عيباً يعمد الى أحد طريقتين : اما التستر على هذا العيب  
واخفاؤه عن أعين الناس اذا كان ذلك ممكناً ، واما المبادرة الى تعرية هذا العيب والهزء  
به ليسبق الناس الى السخرية وليقطع عليهم طريقها . وقد أثر الجاحظ الطريق الثاني  
لانه يتلاءم مع وضعه باعتباره ان عيبه جسمي لا يمكن التستر عليه . وقد أورد عدداً  
من النكات التي تتناول بشاعته . فقال ساخراً من بشاعته وقصره : « ما أخجلني أحد  
الا امرأتان ، رأيت إحداهما في العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ،  
فأردت ان أمازحها ، فقلت لها : إنزلي كلي معنا فقالت : اصعد انت حتى ترى  
الدنيا . . وأما الأخرى فإنها اتنتي وأنا على باب داري فقالت : لي اليك حاجة واريد  
ان تمشي معي ، فقممت معها الى أن اتت الى صائغ يهودي وقالت له : مثل هذا !  
وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : انها اتت الي بصفر ، وامرنتني أن  
انقش عليه صورة شيطان ، فقلت لها يا ستي ما رأيت الشيطان ! فأتت بك وقالت ما  
سمعت »<sup>(٣)</sup> .

١- البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ١٦٣ .

٢- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٤١ .

٣- ابن نباتة ، سرح العمون (القاهرة) ، طبع الفكر العربي ، ١٩٦٠ ، ص ٢٥٠ .

ثمة ناحية جسمية أخرى تركت آثارها على آثار الجاحظ هي المرض الذي أصيب به ، لقد انتابته علتان هما الفالج والنقرس . أما الفالج فشمل نصفه الأيسر فكان لا يشعر معه بشيء حتى ولو قرص بالمقاريض بسبب خدره وبرده . وأما النقرس فقد انتاب نصفه الأيمن فكان يطليه بالصندل والكافور لشدة حرارته . ويبدو أن الاسقام اشتدت عليه في خلافة المتوكل فحكى يموت بن المزروع أن هذا الخليفة وجه بطلب الجاحظ في السنة التي قتل فيها ، فقال لمن أراد حمله من البصرة إلى بغداد : ما يصنع بامريء ليس بطائل ، ذي شق مائل ولعاب سائل وفرج بائل وعقل زائل ولون حائل (١) .

إن المرض اثر في تفكير الجاحظ من نواح عديدة فاضعف قدرته على الإنتاج وادخل الاضطراب في التأليف والإسلوب ، وواقع الشيء في غير موقعه . ظهر ذلك في تكرار الألفاظ والمعاني ، وفي الاستطراد ، وفي ذكر المسألة الواحدة مرات عديدة في مواضع مختلفة من كتبه . واعترف الجاحظ بذلك في قوله : « ولقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب ، والرابعة اني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد الفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة والغرائز والتباس ، لكان اسهل واقصر اياماً واسرع فراغاً ، لأنني كنت لا أفرغ فيه لى تلفظ الأشعار وتتبع الأمثال واستخراج الآية في القرآن والحجج من الرواية ، مع تعرف هذه الأمور في الكتب وتباعدتها بين الأشكال . فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موقعه فلا تنكر بعد أن صيرت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي » (٢) .

١- ياقوت ، معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ١١٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٤٣ .

٢- الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

## ٢-العنصر العاطفي :

يبرز اثر العنصر العاطفي من جهتين هما : الغريزة الجنسية والميل إلى السخرية والضحك :

من الجهة الأولى لم يتزوج الجاحظ ولم ينجب أولاداً ولم يؤسس عائلة . ولا ندري السبب الكامن وراء ذلك ، هل هو ضعف الغريزة الجنسية فيه أو هو كرهه للحياة العائلية ، أو هو عزوف النساء عنه بسبب بشاعته ، ولكن ثمة أمرين اكيدين يمكن الجزم بهما : الأول هو انه لم يعان تجارب غرامية في حياته ، فأدبه خلو من الغزل ولواعج الحب وبث الأشواق والأشجان ، والثاني هو كثرة حديثه عن الجنس فهو لا يفتأ يصف في كتاب الحيوان تسافد الحيوانات وأعضاءها التناسلية ، كما انه يطنب في سرد القصص عن علاقة البشر بالكلاب وعن النكاح الذي يتم بينهم <sup>(١)</sup> . ثم انه يسترسل في الكلام عن العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة ويتصف كلامه بالصراحة وعدم التحرج . من هذا القبيل توسعه في قصة الجارية وأمها ليلة زفافها <sup>(٢)</sup> . وإذا اخذنا بنظرية فرويد قلنا ان الجاحظ يعاني من بعض الضعف الجنسي ولهذا لم يتزوج وان كان قد تسرى بالجوارى . وامرافه في الحديث عن الجنس تعويض عن ذلك الضعف أو تغطية له .

ومن الجهة الثانية كان الجاحظ مطبوعاً على الضحك والتهكم ، أما الضحك فتتجت عنه نظرة متفائلة إلى الحياة ، فقلما عرف العبوس والانتقاض ، وقلما شكوا وتأوه ، كان يرى ما يمر امامه على مسرح الحياة أموراً طبيعية ينبغي ان نتقبلها على علائها . ثم ان طبيعة الجاحظ الضاحكة تلك دفعته الى أن يفلسف الضحك ، فزعم أن الحزن يوهن الجسم ويميت النفس ، أما السرور ، فهو على العكس ، يربي الصحة ويزيل الهموم <sup>(٣)</sup> .

١- الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٣٧ .

٢- للمصدر عينه ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ .

٣- البخله ، ص ٦ .

أما التهكم فنتيجة طبيعية لحس الجاحظ المرهف الذي يرتاح إلى الخير والجمال ، وينقبض لمراى الشر والقيح . وهو تهكم صادر عن نفس مرحة ودود لا عن نفس انيمة حاقدة . لذا جاء مستساغاً غير مجموع ، يعتمد على التصوير الحسي والتحليل النفسي والنوادر ، ويتشع بالمعاني الفلسفية والصور الأدبية . وقد بلغ أوجه في رسالة الترييع والتدوير حيث نلقى الجاحظ يعث بمعاصر له اسمه احمد بن عبد الوهاب<sup>(١)</sup> ، وهو رجل يدعي المعرفة وينطوي على الجهل ، ذو جسم مربع مدور ، يقف ابكم أمام الجاحظ الذي يطرح عليه مائة مسألة في الأدب والفلسفة والكلام والتاريخ والجغرافيا والطبيعة ، لا يستطيع الإجابة عنها .

وتعجلى روح الجاحظ الضاحكة المتهكمة في كتاب البخلاء حيث نراه يروي النوادر الطريفة عن الأشعاء ، ويعرض مناهج تفكيرهم وتديبرهم ، ويصفها وصفاً حياً يثير الضحك ويبعث على التأمل والتعجب .

ولم يستطع الجاحظ أن يتخلى عن طبيعته هذه عندما صنف كتاب الحيوان ، وهو الكتاب ذو الموضوع العلمي الذي يقتضي الجد والرصانة ، وقد شعر بخطر نهجه هذا فالتمس لنفسه الأعذار ، وزعم أن المزاح ضروري لطرد السأم من نفس القارىء ، ولإثارة نشاطه فقال : « وان كنا امللناك بالجد ، وبالاحتجاجات الصحيحة المروحة لتكثر الخواطر وتشحد العقول ، فإننا سنشطك ببعض البطالات وبذكر العلل الطريفة والاحتجاجات الفريدة<sup>(٢)</sup> .

من هذه البطالات المنشطة احاديث الجنس التي يسرف فيها الجاحظ مثل خبر داود بن المعتمر العبيدي والمرأة الجميلة التي مرت امامه فتبعها حتى كلمها<sup>(٣)</sup> .

ومن الاحتجاجات الغريبة التي تبعث على الضحك خبر الشيخ الاباضي الذي

١ - راجع رسالة الترييع والتدوير ، ص ٩ وما بعدها . أما أحد بن عبد الوهاب فأحد كتاب الدواوين الشيعة .

٢ - الحيوان ، ج ٣ ص ٥ .

٣ - المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

يقول ان الإستطاعة مع الفعل : دخلت على ختن أبي بكر بن بركة ، وكان شيخاً يتحل قول الإباضية ، فسمعتة يقول : ما الدليل على ذلك ؟ قال : الأشعار الصحيحة ... (١) .

وهو يرى أن من أشد وسائل التنشيط والإضحاك استماع احاديث الأعراب ، واحتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً (٢) .

### ٣- العنصر العقلي :

التفت في الجاحظ ثلاث مزايا : الموهبة الأدبية ، والفضول العلمي ، والفكر النير ، ولذا يمكن عده أديباً وعالمًا وفيلسوفاً . ولم يجتمع هذا لأحد على ما اعلم قديماً وحديثاً . لقد جمع افلاطون الأدب والفلسفة ، وجمع ارسطو العلم والفلسفة ، وجمع سارتر الفلسفة والأدب . أما الجاحظ فجمع العلم والأدب والفلسفة .

لم يكن حظ الجاحظ في الميادين الثلاثة واحداً ، ومن ثم جاءت الأحكام عليه متضاربة ، فمنهم من قال انه أديب ولا حظ له من الفلسفة والعلم ، ومعظم الدراسات التي كتبت عنه تناولت هذه الناحية (٣) . ومنهم من اعتبره فيلسوفاً طبيعياً (٤) . ومنهم من عدة مفكراً حراً (٥) ، ومنهم من جعله عالماً (٦) ومنهم من بخسه حقه فقال عنه انه ليس سوى جماعة معارف يقتبس من هنا وهناك دون أن يبدع شيئاً أو يعمق موضوعاً .

لا شك ان الجاحظ حاول المستحيل عندما اراد ان يعرف كل شيء ، وان يكتب

---

١- المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٩ .

٢- الحيوان ، ج ٣ ، ص ٦ .

٣- طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، طه الحاجري في كتابه : الجاحظ حياته وآثاره .

٤- دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ط ٣٠) ص ٨٨ .

٥- آدم متر ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .

٦- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

في جميع الموضوعات : أدب وفلسفة ، وطبيعة ، وصناعة ، وتجارة وسياسة ، وتاريخ كما تدل على ذلك عناوين كتبه . ولكننا لا نستطيع ان نقول انه لم يمتلك الاستعداد العلمي ، فنحن لا يمكننا ان ننكر عليه النظريات العلمية التي المع اليها كنظرية التطور ، ونظرية اثر البيئة . ولا يمكن ان ننسى منهجه التجريبي ، هذا في مضمار العلم ، أما في مضمار الفلسفة فقد اتفق الباحثون على انه صاحب مذهب كلامي خاص ورئيس فرقة من المعتزلة نسبت اليه . وفي مجال الأدب اعتبر ابو عثمان ابا الشعر العربي بحق<sup>(١)</sup> ، كما اعتبر واضع اسس علم البلاغة والبيان وفقه اللغة<sup>(٢)</sup> .

والخلاصة ان العامل الشخصي كان بارزاً في تفكير الجاحظ ، وهو يبدو في نظريته المطمئنة الى العالم والإنسان ، تلك النظرة التي تقربه الى الرواقية . ولكنه عربي غلب عليه الجانب الحسي .

---

١ - آدم متر ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

٢ - طه حسين ، من حديث الشعر والنثر (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، د. ط. ) ص ٧٧ .



## الباب الثاني

### المنحى الطبيعي



عندما نقول ان الجاحظ فيلسوف طبيعي ، لا نقصد المعنى الذي اعطي اليوم لهذا التعبير ، بل نقصد انه اهتم بدراسة الكائنات الموجودة في الطبيعة ، دراسة تقوم على الملاحظة ، في محاولة لاستنباط القوانين التي تخضع لها الطبيعة ولإبراز حكمة الله في خلقه .

لقد مد الجاحظ نظره على مختلف ظواهر الطبيعة من جماد وحيوان وانسان ، وأتى بآراء طريفة حول تأثير البيئة ، والتطور وسيكولوجية الحيوان ، وركز على مقارنة الإنسان بالحيوان .

وايضاحاً لذلك قسمنا هذا الباب على الفصول التالية :

- الفصل الأول : الجاحظ فيلسوف طبيعي .

- الفصل الثاني : عالم الجماد .

- الفصل الثالث : عالم الحيوان .

- الفصل الرابع : عالم الإنسان .



## الفصل الأول

### الجاحظ فيلسوف طبيعي

اهتم الجاحظ بدراسة الطبيعة في مختلف ظواهرها من جماد ونبات وحيوان وإنسان . يبدو ذلك واضحاً في مؤلفاته المتنوعة ، ككتاب الحيوان حيث يتحدث عن الجماد والحيوان ، وكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب حيث عرض لبعض النباتات ، وكتاب العرب والموالي ، وكتاب مفاخرة الجوارى والغلمان ، وفصل ما بين العداوة والحسد ، وغيرها حيث تبسط بدراسة الإنسان .

يبد أن دراسة الطبيعة وحدها لا تكفي لإضفاء صفة الفيلسوف الطبيعي على الرجل ، فلا بد من وجود نزعة فكرية عنده تقوم على تفسير الظواهر المختلفة بالاستناد إلى الطبيعة . وهذا ما نلقبه جلياً في تفكير الجاحظ : انه ينظر إلى الأشياء نظرة واقعية علمية ، مؤمناً بوجود قوانين تدير بموجبها وتفسرها .

لم يعن الجاحظ بما يجري في الطبيعة فقط ، وإنما عني أيضاً بالتفتيش عن علة أولى واحدة للكون في كليته . وهو يختلف بهذا عن فريق من الفلاسفة الطبيعيين

اطلق عليهم اسم الدهريين ، لم يعترفوا بوجود الخالق ، تحدث عنهم أبو عثمان وهاجمهم بعنف (١) .

وكذلك خالف الجاحظ فليسوفاً طبعياً آخر كبيراً هو أبو بكر الرازي (٢٥١ هـ - ٣١١ هـ) الذي نفر من علم الكلام ، واهتم بالطب ، ووثق به ، وقال بوجود مبادئ أربعة عدا الله ضرورة لوجود العالم هي النفس الكلية والهيولى الأولى والمكان والزمان المطلق . أما الجاحظ فعلى النقيض ، أحب علم الكلام وهزىء بالطب ، ورفض أي مبدأ قديم يساوق الله في قدمه (٢) .

ولا بد من تحديد مفهوم الطبيعة عند الجاحظ : يستفاد من التعابير التي وردت فيها هذه اللفظة ان الطبيعة هي حالة الشيء الفطرية التي تشكل حقيقته أو خاصته المميزة كالتسخين بالنسبة للنار والتبريد بالنسبة للثلج ، والإدراك بالنسبة للإنسان (٣) .

واستعملها الجاحظ بمعنى الاستعداد الفطري في الإنسان ، أو ميله الى عمل من الأعمال أو فن من الفنون ، وهكذا قد يكون الرجل له طبيعة في التجارة وطبيعة في الكلام ، وليس له طبيعة في الفلاحة (٤) .

ويشبه الجاحظ الطبيعة بالعادة التي يكتسبها المرء بالرياضة والتكرار . وهكذا تغدو الطبيعة والعادة توأمين في نتائجهما أو اثرهما في حياة الإنسان (٥) .

وقد وردت هذه اللفظة مرادفة للطبع وهو السجية التي تولد مع صاحبها ولا تكتسب اكتساباً (٦) .

---

١- الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٢ .

٢- الرازي ، رسائل فلسفية (دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٧) ص ١٩٥ .

٣- علي بن ملحهم ، معجم الجاحظ الفكري ، ص ٦٩ .

٤- الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٠-١١ .

٥- البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

٦- علي بن ملحهم ، معجم الجاحظ الفكري ، ص ٦٩-٧٠ .

لعل اهتمام الجاحظ بالطبيعة ووصفه لأفاعليها هو الذي حدا دي بور على اعتباره فيلسوفاً طبيعياً حيث يقول : كان الجاحظ فيلسوفاً طبيعياً وأديباً ظريفاً ، وعنده أن العالم الحق يجب أن يضم إلى دراسة علم الكلام دراسة العلم الطبيعي ، وهو يصف في كل شيء أفاعيل الطبيعة ، ولكنه يشير إلى ما في هذه الأفاعيل من اثر خالق الكون <sup>(١)</sup> .

ان اشارة الجاحظ إلى ما في أفاعيل الطبيعة من اثر خالق الكون لا يضير فلسفته الطبيعية ، ولا ينتقص عن قيمتها ، لانه نظر إلى الطبيعة نظرة موضوعية . فهي وان كانت في البدء من صنع الله ، الا انها تسير بموجب قوانين محددة تسمح بدراستها دراسة علمية مستقلة ، لا تضطر معها إلى القول بتدخل مشيئة الله في كل ما يحدث في الطبيعة من ظواهر . لنسمعه يعبر عن قانون السببية بقوله : « ان الفروع لا محالة راجعة إلى أصولها والأعجاز لاحقة لصدورها والموالي تبع لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكل ومنفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض ، كالغيث علة السحاب ، والسحاب علة الماء والرطوبة ، وكالحب علة الزرع والزرع علة الحب ، والدجاجة علة البيضة والبيضة علتها الدجاجة والإنسان علة الإنسان » <sup>(٢)</sup> .

وكذلك لا يقلل من أهمية فلسفة الطبيعة قول احد المستشرقين « ان الجاحظ كان عالماً بالطبيعة والإنسان ، ولكنه لم يقصد في كتبه وضع قواعد هذين العلمين ، إنما كان همه اشارة اهتمام القارىء بهما ، وذلك بتحبيبهما اليه » <sup>(٣)</sup> . صحيح أن الجاحظ لم يضع كتاباً يتناول أصول العلم الطبيعي وقواعده ، ولكنه طبقها إلى حد ما في مؤلفاته وأوضح معالمها . ثم انه لم يكن همه اشارة اهتمام القارىء بهذا العلم فقط - بل كان ينبغي - شأنه في ذلك شأن كل عالم أو مفكر - أن يقدم لبني جلدته آراءه ونتيجة أبحاثه .

١ - دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص ٨٨ .

٢ - كتاب الفيان (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٤٦) .

٣ - دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ٦ ، ص ٢٣٦ .

لم يكن الجاحظ أول من اهتم بالطبيعة ، لقد وجدت بذور هذه الفلسفة عند اليونان ، وعرض لها كثيرون من معاصري الجاحظ أمثال أبي الهذيل العلاف ، والنظام ، وثيامة بن اثرس ، وبشر بن المعتمر ، بيد أن الجاحظ بلغ بها غاية ابعاد ففي حين قال هؤلاء المتكلمون المعتزلة بالطبع لبيّنوا أن أفعال الإنسان من صنعه ، وليست من صنع الله ، نجد الجاحظ يتخذ من الطبيعة غاية وليس وسيلة فيجعلها موضوعاً للدرس والتأمل في محاولة لسبر اغوارها واكتشاف قوانينها .

قسم الجاحظ العالم الى قسمين كبيرين هما النامي والجماد<sup>(١)</sup> . وقسم النامي الى حيوان ونبات ، وادخل الإنسان في قسم الحيوان<sup>(٢)</sup> . أما الجماد أو غير النامي كما يفضل تسميته فهو يرادف الموت غالباً .

وهو لا يوافق الفلاسفة في قوهم بالأفلاك . إنهم لا يسمونها جماداً أو مواتاً ، لاتصافها بالحركة التلقائية وتدبير الحياة على الأرض . وهو يشير بذلك الى فلاسفة اليونان كأرسطو وافلاطون ومن اقتضى اثرهم من فلاسفة العرب كالكندي معاصري الجاحظ الذين ذهبوا الى أن الأفلاك تتمتع بالحياة والحركة وتؤثر في شؤون الكائنات على سطح الأرض .

يرفض الجاحظ الأخذ بهذا الرأي ويقول ان الأفلاك والنجوم أجسام غير نامية ويقدم سنداً لرأيه حججاً عدة . منها أن حركة الأفلاك التلقائية لا تكفي لإخراجها من قسم الجمادات . ومنها أن جميع الناس لا يوافقون الحكماء على مذهبهم ، بل ان معظم الأمم تخالفهم وتنكر عليهم اعتقادهم . ومنها أن هؤلاء الحكماء مقصرون بدراسة الجمادات .

وهكذا نجا الجاحظ من الوقوع في الغلط الذي ارتكبه المفكرون اليونان والعرب

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٦ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٧ .

وهو الاعتقاد بأن الأفلاك السماوية تتدرج في سلسلة متواصلة ويتمتع كل منها بعقل ونفس ، ويؤثر كل منهما بالآخر ، وهي بالتالي تؤثر في الأرض وما عليها من كائنات بحيث تستمد هذه الكائنات الأرضية أسباب وجودها من تلك الأفلاك <sup>(١)</sup> .

والخلاصة أن المنحى الطبيعي يتركز عند الجاحظ على المبادئ التالية :

أولاً : العناية بدراسة ما في الطبيعة من ظواهر كثيرة شملت تقريباً جميع الكائنات من جماد واحياء .

ثانياً : اتخاذ آثار الأشياء أساساً للبحث ، للاعتقاد أن معرفة ماهيات الأشياء لا تتسنى الا بمعرفة ما يصدر عنها من آثار .

ثالثاً : انه اندفع الى أبحاثه الطبيعية مسوقاً بنزعة العلمية وإيمانه الديني . وتمثل اللقاء بين العلم والإيمان في النظرة القائلة ان معرفة المخلوقات تؤدي بالإنسان الى معرفة الخالق .

رابعاً : ان المنحى الطبيعي عند الجاحظ ذو طابع خاص يميزه عن المذاهب الطبيعية التي عرفها تاريخ الفلسفة . ان نظرة الجاحظ الى الطبيعة تختلف عن نظرات فيثاغورس وديموقريطس وارسطو قديماً كما تختلف عن نظرات دارون وسبنسر وماركس حديثاً .

لقد أرجع فيثاغورس الأشياء إلى اعداد رياضية ، وقال ديموقريطس ان الأجسام الطبيعية تتكون من ذرات تعصف بها حركة أزلية دون محرك أو موجه . واخضع ارسطو الكائنات الطبيعية الى علل اربع : المادية والصورية والسببية والغائية . وفصل بين العلة الأولى أو الله وبين عالم الحس . ونادي دارون بنظرية التطور على أساس الانتقاء الطبيعي وتبعه سبنسر ، ونفى ماركس وجود قوى روحية ميتافيزيقية في العالم .

---

١ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٦ .

أما الجاحظ فقد قال بوجود خالق للطبيعة ما زال يرعاها تتمثل فيها حكمته هو الله . ولم يتصور الكائنات الطبيعية اعداداً كفيشاغورس ، ولا مجموعة ذرات تتحرك دون غاية أو خالق كديموقريطس ، ولم يقل ان الله لا يعلم بها يجري في الطبيعة كأرسطو، ولم يفهم التطور على أساس الانتقاء الطبيعي مثل دارون ومبسنر ، ولم ينف وجود الله الخالق للطبيعة مثل ماركس .

خامساً : لا ينطبق على الجاحظ المعنى الحديث للفلسفة الطبيعية <sup>(١)</sup> القائل انه لا يوجد شيء خارج الطبيعة ، أي الذي ينفي وجود القوى الميتافيزيقية .

ولكن ينطبق عليه معناها الحديث في مجال الأخلاق والجمال . فالفلسفة الطبيعية في مجال الأخلاق تعتبر الحياة الخلقية امتداداً للحياة البيولوجية ، وتذهب الى ان المثل الأخلاقي يعبر عن الحاجات والفرائز .

وفي مجال الجمال تعني الفلسفة الطبيعية نفي المثالية في الفن وتوجه الى تكريس الواقع <sup>(٢)</sup> .

---

١ - راجع حول مفهوم الفلسفة الطبيعية :

Lalande , vocabulaire technique et critique de la philosophie , P.666.

٢ - أنظر المتحى الجمالي ، الباب الرابع ، الفصل الأول من هذا البحث ، وكذلك المنحى الحلقى ، الباب السادس ، الفصل الأول .

## الفصل الثاني

### عالم الجهاد

#### أ - مفهوم الجهاد :

أطلق الجاحظ اسم الجهاد على كل ما هو ليس بنام . وهو يعترف ان هذا التحديد غير كاف لانه يعتمد على السلب ، ويعزو ذلك الى تقصير الحكماء في وضع اسماء للجهادات ، ولذا يقرر ان ينتهي في توضيح معنى الجهاد حيث انتهوا دون أن يضيف شيئاً جديداً . يقول : « وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه التسمية أن يقال نام وغير نام . ولو كان الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنام اسماً كما وضعوا للنامي اسماً لا تبعنا اثرهم ، وإنما تنتهي إلى حيث انتهوا » (١) .

والجهاد يدل في الغالب على الموات . والموات هو كل ما يخلو من الحياة كالأرض ، ويشذ عن ذلك الماء والنار والهواء ، فهي لا تسمى جماداً ولا مواتاً ولا حيواناً على الرغم من خلوها من النماء والخس (٢) . وربما كان السبب في ذلك هو اعتبار

---

١ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٦ .

٢ - المصدر عينه ج ١ ، ص ٢٧ .

الماء والتراب والهواء والنار عناصر تدخل في تركيب الأجسام وليست اجساماً تدخل في التقسيم الذي يتكلم عنه الجاحظ . ويدر الجاحظ انه لم يبتدع فكرة العناصر هذه ، فقد سبقه اليها حكماء الدهرية يعني بهم فلاسفة اليونان حيث يقول : « ومنهم (الدهرية) من زعم ان هذا العالم من اربعة اركان ، : من ارض وهواء وماء ونار ، وجعلوا الحر والبرد والبلة اعراضاً في هذه الجواهر . . . » (١).

## ب- الكمون :

الكمون نظرية تذهب الى القول ان اجساماً أو عناصر تختبئ داخل اجسام اخرى مريئة يمنعها من الظهور عوامل مختلفة ، فإذا زالت هذه العوامل خرجت الى حيز النظر .

يعزو الجاحظ نظرية الكمون الى استاذة النظام ، ونراه يعرضها بإسهاب في سياق كلامه عن النار . ان النار كامنة في الجسم يمنعها من الخروج موانع كالرطوبة وسواها . والاحتراق ليس سوى ظهور النار عند زوال مانعها قط . وإذا لم يكن في جسم من الأجسام نار كامنة في الأصل فمحال ان يحترق هذا الجسم (٢) .

ان الحطب والقطن يحترقان عندما تقرب منهما النار . وليس معنى ذلك ان هذه النار التي قربناها منها هي التي احرقتهما ، وإنما احتراقهما تم بفضل خروج النار الكامنة فيهما والتي لم تكن في البدء تقوى على نفي ضدها . فلما اتصلت بنار أخرى واستمدت منها قويتا جميعاً على ذلك المانع ، فلما زال المانع ظهرت ، فعند ظهورها تجزأ الحطب وتنفخ وتهاافت لمكان عملها فيه . فإحراقك للشيء إنما هو إخراجه من نيرانه منه (٣) .

وكذلك المصباح فإن ناره التي تضيء لا تأكل الدهن ولا تشربه ولكن الدهن

١- المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٤٠ ، ج ١ ، ص ٢٧ .

٢- الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٠-٢١ .

٣- المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٢١ .

ينقص على قدر ما يخرج منه من الدخان والنار الكامنين اللذين كانا فيه ، وإذا خرج كل شيء فهو بطلانه (١) .

ان النار حر وضياء . والضياء دائماً أبيض منير . ومع ذلك ليس ايضاً لوناً لان الألوان تتفاسد . وإنما عمل الضياء في الألوان هو انه يميزها ويفصلها (٢) .

وإذا كان التوفيق لم يحالف الجاحظ واستأذه النظام في طبيعة الألوان فإن نظريتهما في الكمون (٣) صحيحة ، لان الاحتراق يحتاج إلى جسم قابل للاحتراق أصلاً ، وإلى الهواء الذي يساعد على الاحتراق ، وإلى وسيلة للاحتراق هي النار التي لا عمل لها سوى تسخين الجسم حتى درجة الاحتراق .

قالت الجبرية امثال ضرار بن عمرو والجهم بن صفوان واهل الجماعة بنفي الكمون . واتوا بتعليل خاطيء للاحتراق ، فزعموا أن النار ليست كامنة في الحطب لإنها أعظم منه ، وإنما تحدث النار من احتكاك العودين ، وهذا الاحتكاك يحمي الهواء الذي بينهما ، ومتى همي الهواء استحبال ناراً (٤) .

يبدو أن الجبرية انطلقوا في رأيهم من منطلق كلامي صرف ، وانكروا الكمون لان القول به يؤدي إلى الإلحاد وانكار وجود الله . ذلك أن الأجسام التي تتولد في الطبيعة من اجسام اخرى اذا كانت كامنة فيها فمعنى ذلك انها تحدث أو تخلق من تلقاء ذاتها دون أن يكون لله هو الذي خلقها . وهذا يؤدي إلى القول بأن الله لا يخلق الأجسام وبالتالي فلا ضرورة لوجوده . ويذهبون إلى انه لا فاعل في الطبيعة سوى الله فهو الذي يخلق الأجسام في كل آن .

وقد رد عليهم النظام مفنداً آراءهم مسفهاً اقوالهم قائلاً ان القول بالكمون لا

١ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

٢ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٥٦ .

٣ - يقول الجاحظ بنظرية الكمون كما يفهم من كلامه عن النار المخزونة في الأجسام في كتابه « الدلائل والإبصار » ، ص ١١ .

٤ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٥ .

يتنافى مع التوحيد ، وإن ما نجده في الطبيعة من ظواهر لا يؤيد مذهبهم بل يدل على وجود الطبائع في الأجسام . فمن طبيعة جسم الإنسان احتواؤه على الدم ومن طبيعة النار التسخين ، ومن طبيعة الثلج التبريد ، ومن طبيعة البصر الإدراك . أما الجبرية فيقولون إن الله هو الذي يحدث التسخين والتبريد والإدراك والدم في الجسم عند الرؤية وليست النار هي التي تحرق ، وليس الثلج هو الذي يبرد ، وليس النظر هو الذي يرى ، وليس الدم كائناً في الجسم . ولنسمع الجاحظ يشرح هذا الرأي قائلاً : « إن ضرار بن عمرو قد جمع في إنكاره القول بالكمون والكفر والمعاندة ، لأنه كان يزعم أن التوحيد لا يصح إلا مع إنكار الكمون ، وإن القول بالكمون لا يصح إلا بان يكون في الإنسان دم ، وإنما هو شيء تخلق عند الرؤية . . . ومن زعم أن شيئاً من الحيوان يعيش في الدم ، أو شيء يشبه الدم ، كان الواجب عليه أن يقول بإنكار الطبائع ويدفع الحقائق بقول جهم في تسخين النار وتبريد الثلج ، وفي الإدراك والحس والغذاء والسّم ، وذلك باب آخر في الجهالات . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بالآ يكون في الإنسان دم ، والآ بأن تكون النار لا توجب الإحراق ، والبصر الصحيح لا يوجب الإدراك فقد دلّ على أنه في غاية النقص والغباوة أو في غاية التكذيب والمعاندة » (١) .

### ج - الجزء الذي لا يتجزأ :

ما دمتنا بصدد الكلام عن الجهاد وتركيب الأجسام ، فلا بد من الإشارة إلى نظرية الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر الفرد وموقف الجاحظ منها .

تنسب هذه النظرية إلى الفيلسوف اليوناني ديموقريطس ، وهي تذهب إلى أن الأجسام تتركب من أجزاء متناهية الصغر لا يمكن تجزئتها . وقد انتقلت إلى العرب عن طريق الكتب اليونانية التي نقلت إلى العربية في مطلع العصر العباسي . ويقول بيرنزل أنهم تلقوها عن الفنوسية (٢) .

١ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٠ - ١١ .

٢ - بنيس وبرتزل ، مذهب الذرة عند المسلمين (نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٤٦) ، ص ١٤٠ .

وانقسم المفكرون العرب حيالها الى فئتين : فئة اعتمدتها وهي غالبية المتكلمين من الجبرية والمعتزلة . وفئة انكرتها يترجمها النظام . ايدت الجبرية نظرية الجزء الذي لا يتجزأ بدافع كلامي وليس نتيجة بحث كيباوي ، ذلك لانهم وجدوا فيها سنداً لمذهبهم القائل ان لا فاعل في الطبيعة سوى الله ، فإذا كانت الأجسام تتركب من اجزاء صغيرة لا تتجزأ احتاجت الى قوة تربط فيما بينها باستمرار هي الله ، والله في رأيهم يخلق الأجسام ويغنيها باستمرار . بينما ايدها سائر المعتزلة تفسيراً للآية القرآنية الآتية : ﴿واحصينا كل شيء عدداً﴾ (١).

أما الفلاسفة الطبيعيون كالنظام والجاحظ فانكروا نظرية الجزء الذي لا يتجزأ ، وقالوا ان الأجسام يمكن ان تقسم الى ما لا نهاية له من الأجزاء الصغيرة ، وليس من جزء الا وله أجزاء أصغر منه . ويبدو انهم انساقوا الى هذه النظرية بدافع جذلي رياضي (٢) ، ولكنهم نقضوا ركناً قوياً استند اليه الجبرية في تأييد عقيدتهم ، ونصروا مذهبهم القائل ان الله لا يتدخل في الجزئيات ، وان افاعيل الطبيعة تحدث تلقائياً بموجب قوانين الكمون والتولد وسواها ، وان افعال الإنسان تنتج عن إرادته وليس هو مكرهاً عليها ، وليس الله هو الذي يكرهه على الإتيان بها .

ينتقد الجاحظ نظرية الجزء الذي لا يتجزأ ويقول ان أصحابها يقومون في التناقض عندما يزعمون ان « اقل الأجسام الذي تركيبه من ثمانية أجزاء لا تتجزأ أو ستة أجزاء لا تتجزأ يستحيل جسماً على طول العالم وعرضه وعمقه . فإذا لو وجدناه كذلك لم نجد بداً من أن نقول : انا لو رفعنا من أوهامنا في ذلك شبراً من الجميع ، فإن كان مقدار ذلك الشبر جزءاً واحداً فقد وجدناه جسماً اقل من ثمانية أجزاء ومن ستة

١ - المصدر عينه ، ص ١٤٠ .

٢ - ودعا تأثروا ببعض الفلاسفة اليونان كالرواقين الذين خالفوا ديموقريطس وأبيقوروس وقالوا ان المادة تتجزأ بالعقل الى غير نهاية .

أجزاء . وهذا نقض الأصل ، مع أن الشبر الذي رفعناه من أوهامنا فلا بد أن كان جسماً أن يكون من ستة أجزاء أو من ثمانية أجزاء وهذا كله فاسد « (١) .

ويشير الجاحظ في هذا النص إلى ادعاء أصحاب الجزء الذي لا يتجزأ أن جزأين يجتمعان فيؤلفان الطول ، أما تأليف جسم ذي أبعاد ثلاثة : عرض وطول وعمق فيحتاج إلى ستة أجزاء أو ثمانية أجزاء لا تتجزأ (٢) .

تعرض النظام وأصحابه لنقد قوي من المعتزلة والخبرية على السواء بسبب قولهم بنفي الجزء الذي لا يتجزأ . قال خصومه أن مذهبه مستحيل لأنه إذا قلنا أن الجسم يتجزأ إلى ما لا نهاية فمعنى ذلك أنه يستحيل قطع أي مسافة من المسافات . مثلاً إذا قطعت نملة صغيرة صخرة تكون قد قطعت ما لا نهاية له لأن هذه الصخرة تقبل القسمة إلى ما لا نهاية له ، وهذا محال . فوجد النظام مخرجاً لهذه الورطة بأن قال بالطفرة أي أن النملة تتخطى بعض أجزاء الصخرة (٣) .

يورد الجاحظ مثلاً غير هذا المثل يوضح معنى الطفرة عند النظام . ففي معرض رده على منكري الكمون يقول إن في العود ناراً وبرداً . وعند الاحتراق ينجذب البرد إلى الماء وتظهر النار . رد خصومه قائلين : « لقد رأينا النار تخرج وتؤثر بينما لم نر للبرد أثراً . أجاب النظام أن عودة البرد إلى الماء الذي هو أصله تم بالطفرة . ولنسمع الجاحظ يشرح هذا المعنى قائلًا : « . . . ثم لم ينقطع ذلك البرد إلى برد الأرض الذي هو كالقرص له إلا بالطفرة والتخليف لا بالمرور على الأماكن والمحاذاة لها . وقام برد الماء منه مقام قرص الشمس من الضياء الذي يدخل البيت للخرق الذي يكون فيه ، فإذا سد فمع السد ينقطع إلى قرصه وأصل جوهره » (٤) .

---

١ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٥٥ .

٢ - الأشعرى ، مقالات الإسلاميين ، ج ١ ، ص ٦ .

٣ - الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٥-٥٦ .

٤ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٩-٢٠ .

ان النظام هو الذي ابتدع نظرية الطفرة ، أما نظرية الجزء الذي لا يتجزأ ابدأ فلم يتدعها وإنما اخذها عن الفلاسفة اليونان . يقول الشهرستاني « ان النظام وافق الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ وأحدث القول بالطفرة » <sup>(١)</sup> ، ولكنه لم يصرح باسماء هؤلاء الفلاسفة ولعله يقصد بهم الفلاسفة اليونان الذين عارضوا ديموقريطس ونظريته في الذرة منهم الرواقيون وزينون الايلي القائلون ان المادة يمكن تجزئتها الى غير نهاية ، ومنهم افلاطون وارسطو وانبادوقليس وغيرهم الذين ذهبوا الى أن الأجسام تتكون من اربعة اركان هي النار والهواء والماء والتراب . ونسمع الجاحظ ينسب الى النظام أقوالاً تؤيد هذا الرأي كقوله : « ان الغالب على العالم السفلي الأرض والماء ، والغالب على العالم العلوي النار والهواء » <sup>(٢)</sup> . وكقوله « ان الخطب عند انحلال أجزاءه وتفرق أركانه التي بني عليها ومجموعاته التي ركب منها وهي اربع : نار ودخان وماء ورماد . . . » <sup>(٣)</sup> .

ويزعم المستشرق بريتل ان البحث في الجزء الذي لا يتجزأ « حدث أول ما حدث عندما ذهب النظام الى أن الجسم يقبل الانقسام الى غير نهاية » <sup>(٤)</sup> . والواقع أن هذا الاصطلاح ( الجزء الذي لا يتجزأ ) ظهر قبل النظام وان كنا لا نعلم بالضبط أول من استعمله من المتكلمين ، وربما اخترعه العربون لنقل كلمة الذرة اليونانية .

وقد أشار الجاحظ الى أن هذا المصطلح كان شائعاً بين المثقفين حتى اننا نجده وارداً عند بعض الشعراء كأبي نواس حيث يقول :

يا عامد القلب مني	هلا تذكرت حلا
تسركت مني قليلاً	من القليل اقل
يكاد لا يتجزأ	اقل في اللفظ من لا <sup>(٥)</sup>

١- الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٥ .

٢- الحبران ، ج ٥ ، ص ١٩ .

٣- المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ١١ .

٤- بينيس ، مذهب الذرة عند المسلمين ، ص ١٤ .

٥- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٨ .

كما نجد الجاحظ يستعمله على لسان احد المتتدرين في مجال السخرية حيث يقول : « قال ( أبو كعب ) : وأتانا ( موسى بن جناح ) بأرزة ، ولو شاء انسان ان يعد حبيها لعدده ، لتفرقه وقلته . قال : ففتروا عليها لبكة من دبس مقدار نصف اسيكرة ، فوفعت ليلتذ في فمي قطعة - وكنت الى جنبه - فسمع صوتها حين مضغها ، فضرب يده على جنبي ثم قال : أجرش يا ابا كعب اجرش . قلت : ويلك أما تنقي الله ! كيف أجرش جزءاً لا يتجزأ » (١) .

هذا الخبر الطريف يدل على تهكم الجاحظ بنظرية الجزء الذي لا يتجزأ كما يدل على انتشار هذا التعبير بين طبقات المجتمع . ويظهر هذا التهكم مرة أخرى في رسالة التزييع والتدوير حيث يقول الجاحظ مخاطباً أحمد بن عبد الوهاب الذي سخر منه : « فلا تراحم البحار الجداول ، والأجسام بالأمراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ » (٢) .

واذا كان الجسم يتركب من عدة عناصر أو اركان حسب البعض ، أو من اجزاء لا تتجزأ حسب الآخرين ، فما هي العلاقة بين هذه العناصر أو الأجزاء داخل الجسم ؟ يقول اصحاب المذهب الأول ان هذه العناصر التي تكون الجسم توجد متداخلة فيما بينها ، وهذا ما يسمى بنظرية المداخلة ، بينما يقول اصحاب المذهب الذري ان الأجزاء توجد داخل الجسم متجاورة وهذا ما يسمى بنظرية المجاورة .

يشير الجاحظ الى هذين المذهبين وهو يتكلم عن النار وكمونها في الأجسام حيث يقول : « . . . نبدأ بالإخبار عنها وبدئها ( النار ) وعن نفس جوهرها وكيف القول في كمونها وظهورها . . . وعن كونها على المجاورة كان ذلك أم على المداخلة . . . » (٣) .

١ - البخلاء ، ص ١٢٨ .

٢ - رسالة التزييع والتدوير ، ص ٧٢ .

٣ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٥ .

وهو يذهب الى أن النار متداخلة في العود مع الماء والهواء والرماد ، وليست متجمعة في قسم فيه بحيث تحتل طرفاً منه بينما يحتل الماء الطرف الآخر مثلاً وينحصر الهواء في الوسط . . وإنما النار في جميع العود كامنة فيه وسائحة وهي احد اخلاطه «والجزء الذي يرى منها في الطرف الأول غير الجزء الذي في الوسط ، والجزء الذي في الوسط غير الجزء الذي في الطرف الآخر . . » (١) .

هذا هو مذهب الجاحظ واستاذة النظام ، أما أصحاب الأعراض والجبرية والذريون فيرفضون نظرية المداخلة ويقولون ان « النار التي تراها أكثر من الحطب إنها هي ذلك الهواء المستحيل ، وليس انها اذا عدمت فقد انقطعت الى شكل لها علوي واتصلت الى تلامها ، ولا أن اجزاءها أيضاً تفرقت في الهواء ، ولا انها كانت كامنة في الحطب ومتداخلة فيه ، فلما ظهرت انبسطت وانتشرت ، وإنما اللهب هو استحالة ناراً لان الهواء قريب القرابة من النار والماء هو حجاز بينهما » (٢) .

وهكذا يشغل الهواء والنار والماء والرماد أماكن مستقلة في الحطب : وهي تتجاور دون أن تتداخل . فالنار تحتل حيزاً منه والهواء يحتل قسماً آخر والماء يحجز بينهما .

ويلاحظ بيرتل أن المتكلمين الذريين لم يهتدوا الى القول بالخلاء ، ويرجع السبب في ذلك الى أنهم لم يقصدوا الى دراسة الطبيعة بحد ذاتها . فيقول : « وكذلك لا نجد ذكراً لما يتصل بفكرة الجوهر الفرد بحكم الضرورة العقلية من القول بوجود الخلاء ، وذلك رغم أن ما بحثه المتكلمون من مسألة المماسه والمجاورة والتداخل بين الجواهر ، كما نجد ذلك في المقالات (٣) ، كان يجب أن يؤدي مباشرة الى فكرة الخلاء . . » (٤) .

١ - المصدر عينه ج ٥ ، ص ٨١ - ٨٢ .

٢ - المصدر عينه ، ص ١٥ - ١٦ .

٣ - بعني مقالات الإسلاميين للأشعري .

٤ - بينيس ، مذهب الذرة عند المسلمين ، ص ١٤١ .

## د- العرض والجوهر :

العرض والجوهر مقولتان نجدهما في الفلسفة اليونانية ولا سيما عند ارسطو ، وانتقلتا الى الفلسفة العربية على أثر حركة الترجمة التي أدت الى وضع التراث اليوناني في متناول العرب .

استعمل الجاحظ الجوهر بمعنى المعدن حيث يقول : « الفلز جوهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس والآتيك وغير ذلك » (١) .

كما استعمل اللفظة بمعنى الجسم حيث يقول : « الماء هو الجوهر القابل لجميع القوى » (٢) . واستعمله أخيراً بمعنى الجنس في قوله : « والجنس عين الجوهر وذاته » (٣) .

لقد ميز ارسطو كما نعلم بين نوعين من الجواهر هما : الجوهر الأول أو الأعيان المفردة ، والجوهر الثاني أو النوع والجنس « فالجوهر الموصوف بأنه أول بالتحقيق والتقديم والتفضيل فهو الذي لا يقال على موضوع ما ولا هو في موضوع ما ، ومثال ذلك فيها انسان ما وفرس ما . فأما الموصوفة بانها جواهر ثوان فهي الأنواع التي توجد فيها الجواهر الموصوفة بانها أولى ، ومع هذه الأنواع وهذه الأجناس ايضاً . . » (٤) .

أما العرض فهو خلاف الجوهر وكان موضع خلاف شديد بين مفكري العرب ، ويفهم من كلام الجاحظ المنسوب الى النظام ان كل ما يرى ويشم ويلمس ويذاق جسم وبالتالي جوهر وانه لا يوجد عرض سوى الحركة (٥) ، وعلى سبيل المثال يعتبر النظام النار التي في الحطب والزيت الذي في السمسّم والزيتون جوهرين ، وكذلك

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٦ .

٢- الحيوان ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

٣- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٣١٩ .

٤- ارسطو ، المطق (تحقيق عبد الرحمن هو بدوى ، القاهرة ، ١٩٤٨) ج ١ ، ص ٧ .

٥- الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

الحلاوة والمرارة والصفرة والحمرة والخضرة ، وباختصار جميع الطعوم والألوان . ثم نراه ينتقد اصحاب الأعراض الذين يقولون ان المرارة والحلاوة عرضان بينا الزيت والخل جوهران . ونسمعه يقول كما يروي له الجاحظ : « وان زعم الزاعم ان الحلاوة والمرارة عرضان ، والزيت والخل جوهران ، واذا لزم من قال ذلك في حلاوة العسل وحموضة الخل وهما طعمان ، لزمه مثل ذلك في الوانها ، فيزعم ان سواد السيج وبياض الثلج وحمرة العصفور وصفرة الذهب وخضرة البقل انها تحدث عنه رؤية الإنسان ، وان كانت المعايينة والمقابلة غير عاملتين في تلك الجواهر . فإذا قاس ذلك المتكلم في لون الجسم بعد طعمه ، وفي طوله وعرضه وصورته بعد رائحته ، وفي خفته وثقل وزنه كما قاس في رخاوته وصلابته ، فقد دخل في باب الجهالات ، وزعم ان القرية ليس فيها ماء ، وان وجودها باللمس ثقيلة مزكورة ، وإنها تخلق عند حل رباطها » (١) .

كما ينتقد النظام ارسطو لقوله بالأعراض الى جانب الجواهر . ان ارسطو الذي يزعم ان الماء الممازج للأرض لم ينقلب ارضاً ، وان النار الممازجة للماء لم تنقلب ماء ، وكذلك ما كان من الماء في الحجر ومن النار في الأرض والهواء . . . لم يصل الى ان يزعم ان في الأرض عرضاً يحدث بالحر وأن يعجز عن تثبيت كون الماء والأرض والنار عرضاً . . . » (٢) .

ويشير الجاحظ إل فئة من المتكلمين يسميهم اصحاب الأعراض منهم ضرار ابن عمرو وجهم بن صفوان . وإنها سموها بهذا الاسم لأنهم يقولون انه لا يوجد في الأصل سوى اعراض ، وان الأجسام تتركب من الأعراض ، انهم بذلك يخالفون النظام واصحابه الذين قالوا على العكس انه لا يوجد سوى أجسام أو جواهر ولم يعترفوا الا بعرض واحد هو الحركة (٣) .

١- الحيران ، ج ٥ ، ص ٨-٩ .

٢- المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

٣- المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ١٠-١١ .

يبدو أن الجاحظ لا يوافق النظام ولا أصحاب الأعراض . وإنما يقول بوجود  
الأجسام والأعراض . والعرض عنده هو كل ما ليس بجوهر ، ولا يقوم بنفسه وإنما في  
الجوهر أو الجسم . والعرض من عمل الجسم أما الجسم فلا يكون إلا من جسم أو من  
مخترع الأجسام أي الله (١) .

---

١ - آثار الجاحظ ، ص ٢٧٢ .

## الفصل الثالث

### عالم الحيوان

الحيوان كائن نام . وقد ذكرنا ان الجاحظ يقسم الأجسام التي يحتويها العالم الى جماد ونام . وتكلمنا عن مفهوم الجماد أما النامي فعلى قسمين : حيوان ونبات ، والإنسان ضرب من الحيوان .

#### أ- الحيوان بين ارسطو والجاحظ :

اهتم الجاحظ بالحيوان اهتماماً كبيراً ، ووضع فيه أضخم كتبه اعني كتاب الحيوان الذي يقع في سبعة اجزاء تناهز ثلاثة آلاف صفحة ونيفاً .

ما الحافز الذي حمله على تأليف هذا المصنف الضخم ، وعلى تحمل الجهد الذي بذله في سبيل اخراجه ؟ لقد اشار مراراً في سياق كلامه عن الحيوانات على أن حكمة الله تتجل في تكوينها وتشكل دليلاً قوياً على قدة الخالق وابداعه <sup>(١)</sup> . غير أن توضيح هذه الفكرة لا يحتاج الى تصنيف كتاب بهذا الحجم ، لا سيما وان الجاحظ

---

١- الحيوان ، ج ٧ ، ص ٩ .

وضع مؤلفاً حول هذا الموضوع عنوانه « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » الم فيه بمختلف جوانب الموضوع وذكر مختلف الأدلة على وجود الله وتدبيره في خلقه ، فلا حاجة لتأليف كتاب آخر حول الموضوع ذاته .

ومن جهة ثانية اعلن الجاحظ ان كتابه هذا ليس بحثاً في الفلسفة والمذاهب الكلامية ، ولذلك لن يثير سخط فرقة أو رضى فرقة اخرى لانه لا يتناول « ايجاب الوعد والوعيد فيعترض عليه المرجى » ، ولا تفضيل علي فينصب له العثماني ، ولا هو في تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجي ، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم ، ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام . . .<sup>(١)</sup> .

بيد اننا نلاحظ من استعراض الكتب التي صنفها اساتذة الجاحظ ومعاصروه أن الحيوان كان الموضوع الأكثر جاذبية لاقلام الكتاب والعلماء فتناولوه كل منهم بالبحث وصنف فيه كتاباً أو أكثر . ولا بد أن يتأثر الجاحظ بذلك الواقع فانساق الى معالجة هذا الموضوع الذي نال اهتمام ابناء عصره .

ثمة افتراض يخطر على الذهن وهو أن يكون الجاحظ قد أقدم على تصنيف هذا الكتاب معارضة لكتاب ارسطو في الحيوان . ونحن نعلم ان ابا عثمان اطلع على ذلك الكتاب الذي نقله الى العربية يحيى بن البطريق ( ٢٠٠ هـ ) ويضم تسع عشرة مقالة<sup>(٢)</sup> . يعزز هذا الافتراض كثرة رجوع الجاحظ الى ارسطو ، انه ذكره مرات عديدة واورد آراءه بصدد مسائل شتى ، حتى ليعتبر صاحب المنطق ، كما كان يسميه غالباً ، من أهم مصادره ، الى جانب القرآن والسنة والشعر العربي والسماع والتجارب والعيان<sup>(٣)</sup> ولكن الجاحظ لم يرض بان يكون مقلداً لارسطو أو ناقلاً عنه ، وإنما اراد ان

١ - المصدر حنه ، ج ٧ ، ص ٧ .

٢ - لم يرجع الجاحظ الى كتاب « جوامع كتاب ارسطاطاليس في معرفة طبائع الحيوان لثابث بن كيسان » ، ترجمة إسحق بن حنين ، لأنه لم يذكره . انظر : عبد الرحمن بدوي ، شروح هل لارسطو مفقودة في اليونانية ورسائل أخرى ( دار المشرق ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٢ ) .

٣ - الحيوان ، ج ١ ، ص ١١ .

يكون له ندا ومنافساً يباريه في هذا المضمار ويجهد في ان يسبقه ويتفوق عليه ، ولهذا نراه يستدنه ويخالفه في كثير من المسائل ، وفي المنهج والغاية . ولعل مقارنة سريعة بين كتابي ارسطو والجاحظ توضح صحة ما نذهب اليه .

يحاول ارسطو ان يضع تصنيفاً للحيوانات في مطلع كتابه ، فيجد صعوبة في ذلك . يقسم الحيوانات الى قسمين : قسم فيه دم وقسم ليس فيه دم . ولكنه لا يتقيد بهذا التقسيم ، ويلتمس تصنيفاً آخر يعتمد على تدبير المعاش والأفعال والغذاء . وعلى هذا الأساس يقسم الحيوانات الى مائية وبرية ، وإلى طيارة وزحافة ومشاءة ، كما يقسمها الى فئة تعيش جماعات واخرى تعيش منفردة ، وإلى نوع يأكل الحبوب ، ونوع يأكل الكلاً ، وإلى ما يتخذ مأوى ، وإلى حيوانات انيسة تعيش مع الإنسان وحيوانات وحشية <sup>(١)</sup> .

ويقوم الجاحظ بمحاولة مشابهة في بداية كتابه ويخفق في ذلك كما اخفق ارسطو من قبل . فهو يقسم الحيوانات على اربعة اقسام : قسم يمشي وقسم يطير ، وقسم يسبح ، وقسم يزحف على بطنه . والنوع الذي يمشي ينقسم بدوره على اربعة اقسام : ناس وبهائم وسباع وحشرات . والنوع الذي يطير ينقسم الى ثلاثة اقسام : السبع والبهيمة والهمج . السبع من الطير ما يأكل اللحم خالصاً ، والبهيمة منه تأكل الحب خالصاً ، أما الهمج فليس من الطير ولكنه يطير . ويبدو ان الجاحظ ارتكز في هذا على اساس لغوي محض حيث يقول : «ثم لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح واعجم» <sup>(٢)</sup> .

ويكرس ارسطو قسماً كبيراً من كتابه للحديث عن اعضاء جسم الحيوان

---

١- ارسطو ، طباع الحيوان (ترجمة يوحنا بن البطريق ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٧٧ ص ١٦-١٧ . يضم الكتاب المقالات العشر الأولى .

٢- الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٧-٣١ .

(المقالات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) <sup>(١)</sup> من رأس ووجه وحاجبين وعينين واذن وعنق ويطن وورثة وقلب وامعاء وجهاز تناسل وشرابين واسنان ، ويطيل الكلام حول هذا الموضوع ويتعمق فيه ، فيدرس تركيب هذه الأعضاء ويشرحها تشرحاً طيباً .

أما الجاحظ فلم يهتم بهذه الناحية ولم يبحث في اجزاء جسم الحيوان وكيفية تركيبها على النحو الذي فعله ارسطو ، وهذا نقص في عمله اساء الى قيمته العلمية .

ويعالج ارسطو ولادة الحيوانات وعملية السفاد وانواع التوالد ووسائله (المقالتان : ٥ و ٦) <sup>(٢)</sup> ويتوقف عند الرجل والمرأة ليدرس مظاهر الطمث والحمل والولادة واسباب العقم دراسة طبية دقيقة (المقالتان : ٩ و ١٠) <sup>(٣)</sup> .

ويتصدى الجاحظ لهذه الناحية فيتكلم عنها باسهاب عند مختلف الحيوانات ولكنه لم يستطع ان يقدم معلومات تشرحية دقيقة بصدد المرأة والرجل كأرسطو .

ويتكلم ارسطو على اثر البيئة في الحيوانات من حيث ما تقدمه لها من غذاء ومناخ يؤثران في نهائهما واستقرارها وصحتها (المقالتان : ٧ و ٨) <sup>(٤)</sup> . ويتطرق الى انواع طعام الحيوانات والأمراض التي تعترىها وهجرتها .

ويتناول الجاحظ الموضوع ذاته ولكنه لا يركز على تغذية الحيوانات وأثر ذلك في صحتها والأمراض التي تعترىها ، وإنما يهتم بتأثير البيئة في جسم الحيوانات وطباعتها وهو بذلك يتفوق على ارسطو .

وهناك ناحية هامة ذات طابع فلسفي خصص لها ارسطو قسماً من كتابه <sup>(٥)</sup>

---

١- أرسطو ، طباع الحيوان ، ص ١٧- ٢٠٠ .

٢- المصدر عينه ، ص ٢٠١- ٣٠١ .

٣- المصدر عينه ، ص ٣٧١- ٥٠٣ .

٤- أرسطو ، طباع الحيوان ، ص ٣٠٣- ٤٥٩ .

٥- أرسطو ، اجزاء الحيوان ، (ترجمة يوحنا بن البطريق ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات الكويتية ، ط ١ ، ١٩٧٨) ويقسم الكتاب تلك المقالات الأربع : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(المقالات : ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤) وهي الغائية في خلق الحيوان . فهو يعود ثانية الى اعضاء جسم الحيوان ، عضواً عضواً ، يفتش عن الغاية من تكوينها على الشكل الذي هي عليه . ويقول ان العلة المادية ( المهيولي ) لا تكفي لتفسير الحياة ، ويجب البحث عن العلة الصورية التي يدعوها النفس « وهو بين ان قولهم ليس بصواب ، لانه ينبغي أن يقال ويبين لماذا الحيوان ، ومثل ماذا هو ، ونصف كل واحد من الأعضاء كما نصف صورة السرير ، وان كان ذلك نفساً أو جزء نفس . . » (١) .

وينكر ارسطو مذهب الصدقة في العالم « ومن الناس من يزعم ان كل واحد من الحيوان يكون من قبل الطباع وان كينونة السماء من ذاتها ومن البخت ، وكذلك كان تقويمها . وليس يرى ان في السماء شيئاً من البخت ، ولا عدم الترتيب والقصد . ونحن نقول في كل موضع يظهر فيه تمام يكون فيه غاية الحركة اليه اذا لم يكن له شيء مانع البتة » (٢) وقد عبر ارسطو عن الغائية احسن تعبير في كلامه عن اليد ودورها في حياة الإنسان « ولم يمتنع الإنسان الى مقادير الرجلين ، بل هياً له الطباع بدل الرجلين المتقدمين : عضدين ويدين . وقد قال أنا ساغورس انه لهذه الصلة - اعني ان للإنسان يدين - صار اعقل واحلم من جميع الحيوان . والأولى أن نقول انه لكونه اعقل الحيوان صارت له يدان ، لأن اليدين اكثر من الآلات ، فأما الطباع فهو يقي دائماً على حاله » (٣) .

وبما أن علمنا بالجوهر السماوية يسير لعظم شأنها ، لذا ينبغي أن ننظر في الكائنات التي بين ايدينا . ويتبقى لنا أن لا نكره النظر في طباع الحيوان الحفير الذي ليس بكرم ولا يصعب ذلك علينا كما يصعب على الصبيان . ومن جميع الأشياء الطباعية شيء عجيب (٤) .

١- المصدر عنه ، ص ٤٦ .

٢- المصدر عنه ، ص ٤٧-٤٨ .

٣- ارسطو ، أجزاء الحيوان ، ص ٢٠٧ .

٤- المصدر عنه ، ص ٦١-٦٢ .

أما الجاحظ فيقول مثل ارسطو بالغائية في الطبيعة ، ويذهب إلى أن كل ما فيها من كائنات تدل على وجود خالق مدبر . وعلى الإنسان أن ينظر إلى الحيوانات ليستدل من عجيب تكوينها على حكمة الله وجوده « ونبينا تعالى وعز على هذه المناسبة وعلى هذه المشاركة ( بين الإنسان والحيوان ) ، وامتنحن ما عندنا بتقديمها علينا في بعض الأمور وتقديمنا عليها في أكثر الأمور ، واراد بذلك أن لا يخلينا من حجة ومن النظر إلى عبرة وإلى ما يعود عند الفكرة موعظة . . » (١) .

ويردد الفكرة ذاتها من أن احقر الحيوانات تقدم أكبر الدلالة على الله وحكمته « الا ترى بأن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة ، وليس الطاووس المستحسن بادل على الله من الخنزير المستقبح ، وان اختلفا في جهة البرودة والسخونة فإنها لا يختلفان من جهة الدلالة والبرهان » (٢) . والفرق بين غائية ارسطو وغائية الجاحظ أن غائية ارسطو طبيعية بينما غائية الجاحظ دينية .

عدا ذلك كان ارسطو أكثر منهجية علمية من الجاحظ ، فقد قسم كتابه إلى مقالات ، تدور كل مقالة حول ناحية من نواحي الحيوان ، مقالة تبحث في أعضاء الجسم وثانية في تناسل الحيوانات وثالثة في غذائها الخ . . . أما الجاحظ فلم يفعل ذلك ، بدأ كتابه بسرد اسماء كتبه ثم تحدث عن اقسام الكائنات فوسائل البيان ، وبعدئذ راح يتكلم على مقارنة بين الكلب والسدك بشكل مناظرة بين متكلمي يتخللها استطراد في الخصاص ، وانتقل بعدها الى الكلام على سائر الحيوانات تباعاً من حمام وذبان وجعلان وهدهد ورخم وخفاش ونمل وقرود وخنزير وحيات وظليم الخ . . .

لقد جعل الجاحظ من كتاب ارسطو في الحيوان مصدراً من مصادر بحثه ورجع اليه واستشهد به اكثر من ستين مرة .

١ - الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٠ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، وص ٢٠٣ .

وهو يورد أقوال ارسطو بإمانة وبالصورة التي وردت عليها في الترجمة التي اضطلع بها يحيى بن البطريق وانتهت اليها . وقد أخطأ فؤاد إفرام البستاني عند قال «أن ما نسب الجاحظ لأرسطو اما أن يكون رآه في كتب منحولة للفيلسوف ارسطو واما أن يكون الفها من عنده» <sup>(١)</sup> . مثلاً ، ورد في كتاب ارسطو عن الايل ما يلي : « واذا القت ( الابله ) قرونها تحفظ وتتوقى من أن تظهر كأنها قد القت سلاحها » واذا لسعت الابله حية أو صنف آخر من أصناف الهوام تجمع السراطين وتأكلها . « واذا وضعت اناث الابله من ساعتها تأكل المشيمة » <sup>(٢)</sup> . وورد في كتاب الجاحظ مايلي : « والاييل اذا القى قرونها علم انه القى سلاحه فلا يظهر » . « واذا لدغت حية الاييل أكل السراطين » . « واذا وضعت اناث الاييل اكلت مشيمتها » <sup>(٣)</sup> .

وبعد أن يذكرها يعلن موقفه منها فاما ان يقبلها وفي هذه الحال لا يعلق عليها فيكون قبوله بها ضمناً ، واما أن يرتاب بها فيتوقف عن الحكم عليها ، فهو يورد مثلاً خبر الحية الصغيرة الشديدة اللدغ في بلدة طبقون والتي لا يمكن الشفاء منها إلا اذا عولج الملدوغ بحجر يخرج من قبور قدماء الملوك ، ثم يقول معقباً عليه : ولم افهم هذا ولم كان ذلك <sup>(٤)</sup> . وهذا الخبر ورد في كتاب ارسطو على الشكل التالي : ويكون ايضاً في النبات الذي يسمى باليونانية صلفيون حية صغيرة رديئة اللسع جداً ويزعمون أن تلك اللسعة تعالج بحجر يؤخذ من قبر الملوك ، وذلك الحجر ينقع بشراب ويشرب ذلك الشراب » <sup>(٥)</sup> .

واما أن يرفضها ويتنقدها . مثلاً يقول في كتاب الحيوان « وقد ذكر ارسطوطاليس في كتاب الحيوان انه قد ظهر ثور وثب بعد أن خصي فتزا على بقرة

١ - المشرق ، المجلد ٢٦ ، سنة ١٩٢٨ ، ص ٦٦٦ .

٢ - أرسطو ، طباع الحيوان ، ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

٣ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

٤ - المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

٥ - أرسطو ، طباع الحيوان ، ص ٣٦٨ .

فاجيلها ولم يحك هذا عن معاينة ، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشكل » <sup>(١)</sup> . وقد ورد هذا الخبر في كتاب ارسطو على النحو التالي « وقد عرض لثور من الثيران انه خصي ثم سفد من ساعته وعلقت منه الأثنى ، فهذه صفة خصي الحيوان وخلقها واختلافها » <sup>(٢)</sup> . وينكر ايضاً كون السمكة لا تبتلع شيئاً الا مع الماء قائلاً « قال صاحب المنطق ان الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء . . . أما قوله ان السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعام الا ببعض الماء فأبيحان دل على هذا ؟ وهو عسر » <sup>(٣)</sup> . وقد لا يكتفي بابتداء شكه بما يقول ارسطو بل يسخر منه سخرية لاذعة « وقد اكثر في هذا الباب ارسطوطاليس ، ولم اجد في كتابه على ذلك من الشاهد الا دعواه . ولقد قلت لرجل من البحرين : زعم ارسطوطاليس ان السمكة لا تبتلع الطعام ابداً الا ومعه شيء من ماء ، مع سعة المدخل وشرة النفس . فكان جوابه ان قال لي : ما يعلم هذا الا من كان سمكة مرة أو أخبرته به سمكة ، أو حدثه بذلك الحواريون أصحاب عيسى فإنهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح » <sup>(٤)</sup> .

ويقراً الجاحظ في حيوان ارسطو خبراً غريباً مفادة انه « قد ظهرت حية لها رأسان لحال العلة التي هي فيها ، فإن الحية تبيض بيضاً ، وجنس الحيات كثير البيض . ولا تكون الخلقة العجيبة فيها إلا في الفرط لحال شكل الرحم ، فإن يبيض الحيات مصفوف في الرحم لطوله ، وليس يعرض مثل هذا العرض للنحل ولا للدبر لان كل فرخ من فراخها في ثقب على حدة . . . » <sup>(٥)</sup> .

١ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٥٠٣ .

٢ - ارسطو ، طباع الحيوان ، ص ٩٩ .

٣ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٥٤١ .

٤ - المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ١٧ .

٥ - ارسطو ، كون الحيوان ، (ترجمة يحيى بن البطريق ، تحقيق بان بروهان ، ليدن ، ١٩٧١) ، ص ١٥١ ، وهو يضم المقالات الخمس الأخيرة أي ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

لم يقتنع الجاحظ بالأسباب التي ساقها أرسطو تعليلاً لوجود تلك الحية العجيبة ذات الرأسين ، إذ لا يعتقد أن الظواهر الطبيعية تخضع للتعليلات ، أو ينفذ في اثباتها أو نفيها البرهان المنطقي ، ويذهب الى أن العيان هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن الركون إليها في الطبيعيات . وبناء على هذا يشك في خبر أرسطو ويروح يسأل الناس عما إذا كان أحدهم قد رأى حية ذات رأسين ، فيجيبه أعرابي ان خبر مثل تلك الحية حق . ولكن الجاحظ يعتبر كلام الإعرابي متناقضاً وكاذباً . ونحن نروي الخبر كما ورد عند الجاحظ لنين الفرق بين منهجه ومنهج أرسطو « وزعم صاحب المنطق انه قد ظهرت حية لها رأسان ، فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم ان ذلك حق ، فقلت له : فمن أي جهة الرأسين تسمى ، ومن أيها تأكل وتعض ، فقال : أما السمي فلا تسمى ولكنها تسمى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل . وأما الأكل فلأنها تتعشى بقم وتتغذى بقم . وأما العض فلأنها تعض برأسها معاً ، فإذا به أكذب البرية . وهذه الأحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها وفي تهويل أمرها » (١) .

هذا هو موقف الجاحظ من أرسطو ، انه يعتمد عليه ويجعله مصدراً من مصادر معلوماته ، فنسمعه يقول مثلاً « وأما قولهم : السمكة لا تسيف طعمها الا مع الماء فما عند بشر ولا عندي الا ما ذكره صاحب المنطق » . ولكنه لم يعتمد عليه كلياً بل فتنش عن مصادر أخرى استقى منها ، وامتنحن مدى صحة معلومات الفيلسوف اليوناني التي تبقى موضع شك لديه حتى يؤيدها العيان أو السماع الصادق أو الشعر الموثوق .

وهكذا نلاحظ أن الجاحظ عارض أرسطو في كتاب الحيوان فتناول الموضوع ذاته ولكن بذهنية مختلفة ومنهج مغاير . فهو لم يدرس من الحيوان سوى طباعه ، واهمل خصائصه الجسمية الخارجية والداخلية . وهو لم يقتصر كأرسطو على التجربة

والعيان كمصدر من مصادره ، وإنما اعتمد ايضاً وبشكل واسع على السماع والشعر والأحاديث والقرآن ومؤلفات القدماء . وهو لم يتبع تصنيفاً معيناً للحيوان فوقع بالفوضى التأليفية والاستطراد ومع ذلك لم تكن ثقته بأرسطو اشد من ثقته في شاعر أو أعرابي . ولهذا ليس في كتابه الا اثر ضئيل من آثار حيوان ارسطو على الرغم مما نقله عنه <sup>(١)</sup> . وقد أخطأ البغدادي في قوله : « سلخ معاني كتاب الحيوان لارسطاطاليس ، وضم اليه ما ذكره المدائني من حكم العرب واشعارها في منافع الحيوان » <sup>(٢)</sup> . لينفي عنه الجدة ويتهمة بالنقل .

## ب - علم نفس الحيوان :

ان سيكولوجية الحيوان ، علم حديث ، غير أن كتاب الحيوان الذي وصفه الجاحظ في القرن التاسع الميلادي تضمن ملاحظات كثيرة يمكن اعتبارها بذوراً لهذا العلم .

اقر الجاحظ مبدأ اساسياً هو ان الغريزة هي التي تسيطر على سلوك الحيوان وتسيره ، وهي طبع فطر عليه ، تعمل بمتهى الدقة وتقوم في الحيوان مقام العقل في الإنسان . وكما ان العقل هو الذي يرشد الى ما فيه خيره وصلاحه ، فبدله على الطريق المستقيمة التي ينبغي سلوكها ، هكذا الغريزة ترشد الحيوان الى ما فيه منفعة وسلامة « وان كان الإنسان يبلغ بالروية والتصفح والتحصيل والتمثيل ما لا يبلغه شيء من السباع والبهائم فإن لها اموراً تدركها وصفة تحذقها تبلغ منها بالطباع سهواً وهولاً ما لا يبلغ الإنسان في ما هو بسبيله الا ان يكره نفسه على التفكير وعلى ادامة التفكير والتكشيف والمقاييس . . . » <sup>(٣)</sup> .

---

١ - دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٦ ، ص ٢٣٦ .

٢ - البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ١٦٢ .

٣ - الحيوان ، ج ١ ، ص ١٧ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

وكما يختلف الناس في اخلاقهم وسلوكهم ، تختلف الحيوانات في طباعها . فبعضها « يعرف بالكر والحيل والكيس والروغان ، وبالفطنة والخديعة والرفق والتكسب والعلم بما يعيشه والحذر عما يعطيه وتأتيه لذلك وحذقه » (١) . وبعضها الآخر « يعرف بالثقافة يوم الثقافة ، والبصر بالمشاولة ، والبصر على المطاولة والعزم والروغان والكر والجولان ووضع تلك التدابير في مواضعها حتى لا ترى له طعنة ولا تخطيء له وثبة » (٢) . « وبعضها يعرف بالنظر في القيافة ، وباحكام شأن المعيشة ، والأخذ لنفسه بالثقة وبالتقدم في حال المهلة والادخار ليوم الحاجة » (٣) .

على الرغم من سيطرة الغريزة على سلوك الحيوانات فإنها قابلة للتعلم كالإنسان . مثل الحمام الذي يمتاز بمقدرة على الاستدلال والحفظ والالفة الى الأوطان ويستخدم في البريد « والدليل على انه يستدل بالعقل والمعرفة والفكر والعناية انه انما يجيء على الغاية على تدريج وتدريب وتنزيل . . » (٤) .

ومعظم الحيوانات تقبل التربية والتأديب ، في نظر الحاجظ ، عدا الخنزير والذئب . « ان الخنزير يكون أهلياً ووحشياً كالحمير والسنانير مما يعاشر الناس . وكلها لا تقبل الآداب . وان الفهود وهي وحشية تقبل كلها كما تقبل البوازي والشواهين والصقورة الزرق والبؤيذ والعقاب وعناق الأرض وجميع الجوارح والوحشيات » (٥) .

ولاحظ الجاحظ ان صغار الحيوان اسهل على التأديب والترويض من كبارها « لأن الصغير اذا ادب فبلغ ، خرج جيناً مواكلاً ، والمسن الوحشي يخلص لك كله حتى يصير أصيد وانفع ، وصغار السبع والطير وكبارها على خلاف ذلك وان كان الجميع بقبل الآداب » (٦) .

١ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٨ .

٢ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٨ .

٣ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٨ .

٤ - الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢١٥ .

٥ - المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٤٧ .

٦ - المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

واقدر الحيوانات على التعلم اربعة هي الدب والقرد والفيل والكلب « فإن الحيوان الذي يلحن ويحكي ويكيس ويعلم فيزداد بالتعلم في هذه التي ذكرنا وهي الدب والقرد والفيل والكلب » (١) .

ويخلص الجاحظ الى نظرية هامة وهي ان الحيوانات تملك قدراً من الذكاء الى جانب الغريزة . وهو قدر يتفاوت بين حيوان وآخر . يلاحظ الذكاء عند الحيات التي تحتال بضروب من الحيل لصيد فريستها كحية بلعبر التي تنتصب في الرمال عند الهاجرة كالعود ، فيأتي الطير فيخدع بمنظرها الذي يشبه العود ويحتم عليها فتقبض عليه وتبتله (٢) .

ويذهب أبو عثمان أبعد من هذه الغاية فيزعم أن للحيوانات لغة تفهم بها وان كانت تختلف عن لغة الإنسان . يقول : « ان للطير منطقاً تفهم به حاجات بعضها البعض ، ولا حاجة لها الى ان يكون لها في منطقها فضل لا تحتاج الى استعماله ، وكذلك معانيها في مقادير حاجتها » (٣) . ويضرب مثلاً على ذلك النمل اذ نرى الذرة عندما تعجز عن جر جسم أكبر منها كالجرادة تذهب الى رفيقاتها وتدعوهم الى موازرتها ، وبعد قليل نراها قد عادت برفقتهم ويتعاون على جر الجرادة (٤) .

وبعض الحيوانات تفهم لغة البشر عندما يكلمونها لا سيما تلك التي تعيش معهم وتألفهم « والناس قد يكلمون الطير والبهايم والكلاب والسنابير والمراكب وكل ما كان تحتهم من أصناف الحيوان التي قد خولوها وسخرت لهم وربما رأيت القراد يكلم القرد بكل ضرب من الكلام ويطيعه القرد في كل ذلك . وكذلك ربما رأيته يلحن

---

١- المصدر عنه ، ج ٦ ، ص ٣١٦ .

٢- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

٣- الحيوان ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

٤- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٧ .

البقاء ضرورياً من الكلام والبقاء يحكيه . وان في غراب البين لعجباً ، وكذلك كلامهم للذب والكلب والشاة المكية ، وهذه الأصناف التي تلقن وتحكي « (١) » .

وقد تنبه الجاحظ الى الظاهرة التي بنى عليها العالم بافلوف حديثاً نظريته في الانعكاس الشرطي حيث يقول : « وقد حدثني صديق لي انه حبس كلبه في بيت واغلق دونه الباب في الوقت الذي كان طبأخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم . ثم أخذ سكيناً بسكين فنبع الكلب ورام فتح الباب لترمه أن الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفة وهو يجد السكين ليقطع اللحم » (٢) ولكنه لم يستغلها .

وهناك ظاهرة نفسية في الحيوان هي الحس بالزمن . وقد تظهر بشكل مرهف عند بعض الحيوانات كالديك . ان الديك يطلق صياحاً في أوقات معينة من الليل يراعي فيها الدقة بحيث يمكن أن نعرف كم مضى من الليل وكم بقي منه . ويقسم صيحاته على مدى الليل سواء طال أو قصر حتى يشبه الاسطرلاب (٣) . والأطراف من ملاحظة الجاحظ لهذه الظاهرة تساؤله عن علتها : هل يصيح الديك لانه ينكر شيئاً يقترب منه كما يفعل الكلب ؟ أو انه يصيح لانه سمع صوتاً شأن الكلب أيضاً ؟ الجواب هو انه يصيح « شيء » في طبعه اذا قابل ذلك الوقت في الليل هيجه ، فعدد أصواته في الوقت الذي يظن انه تتجاوب فيه الديكة كعدد أصواته في القرية وليس في القرية ديك غيره » (٤) .

### ج - نظرية التطور (\*) :

إنها نظرية حديثة قال بها العالم الإنكليزي دارون ( ١٨٠٩ - ١٨٨٢ م ) في كتابه

١ - المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ٢١٨ .

٢ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

٣ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

٤ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

• لم يستعمل الجاحظ كلمة تطور ، بل استعمل أفساط القلب والنقل والمسخ ، ويعني بها تغير الكائن من حال الى حال .

« أصل الأنواع » . يذهب إلى أن أنواع الكائنات الحية التي نراها اليوم على وجه الأرض لم توجد هكذا مستقلة عن بعضها دفعة واحدة ، وإنما مرت خلال الدهور السحيقة بتطورات مستمرة إلى أن استقرت على الحال التي هي عليه الآن ، وسوف تتطور في المستقبل . واداء ذلك الاتجاه إلى القول بفكرة تنازع البقاء وبقاء الأصلح بموجب الانتخاب الطبيعي ، وإلى نشوء أنواع جديدة من أنواع سابقة لها في الوجود . وقد لخص دارون نظريته قائلاً : « لا يمر بي خلجة شك ، في أن ما كنت أقطع به كما قطع الطبيعيون من القول بأن كل نوع من الأنواع قد خلق مستقلاً بذاته ، خطأ محض . واني لعلى تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التحول ، وإن الأنواع التي تلحق بما نسميه الأجناس اصطلاحاً ، هي أعقاب متسلسلة عن أنواع طواها الانقراض ، على نفس الطريقة التي نعتبر بها الضروب التابعة لأي نوع ، أعقاباً متسلسلة عن ذلك النوع ذاته . واني فوق ذلك لشديد الاقتناع بأن الانتخاب الطبيعي هو السبب الأكبر والمهيء الأقوى لحدوث التحولات ، ولو لم يكن السبب الأوحده الذي انفرد بإبرازها إلى عالم الوجود » (١) .

وقال أخيراً أن الإنسان تطوّر من نوع سابق له من الكائنات هو القرد في كتابه المدعو « أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس » معتمداً على الشبه الذي لاحظته بين الإنسان والقرد (٢) .

وكان عالم فرنسي اسمه لامارك ( ١٧٤٤ — ١٨٢٩ م ) قد وضع بذور هذه النظرية عندما ابتدع تصنيفاً علمياً للحيوانات . وقد رأى تدرجاً عجيباً في الصفات والتركيب ، وارتقاءً بديعاً متصل الحلقات من أبسط الكائنات الحية إلى أرقاها . وقال أن الحياة بدأت من مادة هلامية تشكلت وتطورت على مر الأزمنة البعيدة إلى مراتب

١ - دارون ، أصل الأنواع ، ص ١٢٢ .

٢ - أنور عبد العليم ، قصة التطور ( مكتبة النهضة ، القاهرة ، د . ت . ) ص ٥٩ وما بعدها .

وفصائل من الكائنات معقدة التركيب . . . وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن البيئة هي الدافع الأساسي للتطور<sup>(١)</sup> .

لقد فكر الجاحظ في أصل الحياة ، وذكر أن بعض الحيوانات تخلق من غير أب وأم . « ان القمل تخلق من عرق الإنسان ومن رائحته ووسخ جلده وبخار بدنه » (٢) وتخلق الذباب من تلك العفونات والأبخرة والأنفاس التي اذا ما ذهبت فثبت مع ذهابها (٣) .

ومهما يكن من مقدار صحة رأي الجاحظ ، فقد فتح باب البحث عن أصل الحياة ، فجاء بعد ثلاثة قرون الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل ليحكى قصة بدء الحياة في كتابه الشهير « حي بن يقظان » ويزعم ان انسانه هذا تولد من تخمر بعض الأتربة في ظروف ملائمة<sup>(٤)</sup> . ويفترض العلماء المعاصرون ان الكائنات الحية على وجه الأرض قد تولدت في البدء من جزيئات عضوية تجمعت في الماء والطين لتكون ابسط الكائنات<sup>(٥)</sup> .

ولم يكن الجاحظ غافلاً عن اثر هذا الرأي في الدين . وكأنه استبق تلك المعركة التي تدور رحاها في العصر الحديث بين أصحاب المذهب الروحي حول هذا الموضوع . وذهب الى أن القول بتولد الكائنات في الطبيعة كما يتولد الذبان من تعفن الباقلاء ومن دون ذكر وانثى لا ينطوي على أي ضرر على الدين . ولنسمع قوله « ثم رجع بنا القول الى ذكر خلق الذبان من الباقلاء ، وقد انكر ناس من العوام واشبهاء العوام أن يكون شيء من الخلق كان من غير ذكر وانثى . وهذا جهل بشأن العالم وبأقسام الحيوان .

---

١ - أنور عبد المليم ، قصة التطور (مكتبة النهضة ، القاهرة ، د.ت. ) ص ٤٠ - ٤٣ .

٢ - الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .

٣ - المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .

٤ - ابن طفيل ، حي بن يقظان (طبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٢) ، ص ١٨ وما بعدها .

٥ - أنور عبد المليم ، قصة التطور ، ص ١١ .

وهم يظنون أن على الدين من الإقرار بهذا القول مضرة . وليس الأمر كما قالوا . وكل قول يكذبه العيان فهو افحش خطأ واسخف مذهباً وادل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة . وإن ذهب الذاهب الى أن يقيس ذلك على مجاز ظاهر الرأي دون القطع على غيب حقائق العلل ، فأجراه في كل شيء ، قال قولاً يدفعه العيان ايضاً مع انكار الدين له <sup>(١)</sup> .

ان موقف الجاحظ أكبر دليل على تمسكه بالفلسفة الطبيعية التي انتجها واخذ بها في جميع مناحي فكره <sup>(٢)</sup> .

مسألة اخرى ، عرض لها الجاحظ في كتاب الحيوان هي تولد حيوان جديد لم يكن موجوداً من قبل من أبوين مختلفين وهو ما دعاه التاج المركب . لقد لاحظ أن الحيوان الجديد يأتي أعظم من الأصل احياناً كما هو الحال في البغل والحمام الراعي «وقد وجدنا غرمول البغل أطول من غرمول الحمار والفرس والبرذون ، وهؤلاء اعمامه وأخواله ، فقد وجدنا بعض التاج المركب وبعض الفروع المستخرجة اعظم من الأصل ، ووجدنا الحمام الراعي أعظم من الورشان الذي هو أبوه ومن الحمامة التي هي أمه ، ولم نجده أخذ من الورشان شيئاً ، وخرج صوته من تقدير اصواتها ، كما خرج شحيج البغل من نهيق الحمار وصهيل الفرس ، وخرج الراعي مسرولاً ولم يكن ذلك في أبويه ، وخرج مثقلاً سيء الهداية ، وللورشان هداية وإن كان دون الحمام ، وجاء أعظم جثة من ابويه ، ومقدار النفس في ابتداء هديله الى منقطعه اضعاف مقدار هديل أبويه» <sup>(٣)</sup> . ومن خصائص التاج المركب انه أطول عمراً من أصله كالحمر الوحشية الأخرية <sup>(٤)</sup> .

وعلى الرغم من ذلك يبقى التاج المركب خاضعاً للطبيعة لا يستطيع الإنسان ان

١- الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٦١-٣٦٢ .

٢- بالمعنى الذي أعطينه للفلسفة الطبيعية عند الجاحظ في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا البحث .

٣- الحيوان ، ج ١ ، ص ١٣٧-١٣٨ .

٤- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

يتحكم به . فهناك حيوانات مختلفة لا يمكن ان يتولد من تسافدها حيوان جديد أو لا تسافد من نفسها كالغنم والماعز <sup>(١)</sup> . وقد ارتكب الناس ضروب الأباطيل والأكاذيب بصدد اللقاح المركب فزعموا أن الزرافة خلق مركب بين الناقة الوحشية أو البقرة وبين الذبيح أي ذكر الضباع <sup>(٢)</sup> . وان السمع هو ولد الذئب من الضبع ، وان الديسم هو ولد الذئب من الكلبة <sup>(٣)</sup> .

ولم ينج ارسطو - بنظر الجاحظ - من ارتكاب هذا الخطأ ، فزعم ان اصنافاً من السباع المتزاوجات المتلاحقات مع اختلاف الجنس والصورة معروفة النتائج قبل الذئاب التي تسفد الكلاب في أرض رومية ، كما أن الكلاب السلوقية تتولد من سفاد الثعالب والكلاب <sup>(٤)</sup> .

وينكر الجاحظ مزاعم الأعراب الذين يقولون ان الجن والناس يتلاقحون فينتج من ذلك خلق مركب . ولا ينسى النتائج المركب بين اعراق الناس الذي يأتي أجمل من اصله واقوى كالحلاسي الذي يتخلق بين الحبشي والبيضاء ، فالعادة فيه أن يخرج اعظم من أبويه واقوى من اصله <sup>(٥)</sup> .

مسألة أخرى في نظرية التطور هي القول ان اصل الإنسان قرد ، أو ان فصيلة من القرد تطورت على مر العصور فنتج عن هذا التطور الإنسان . يذكر الجاحظ أوجه الشبه بين القرد والإنسان في المظهر والحركات وكيفية تناول الطعام وتغميض العينين والضحك وشكل الكف والأصابع ، وفي التقليد وقابلية التعلم والسباحة حيث يقول : « وقد عرفت شبه باطن الكلب بباطن الإنسان ، وشبه ظاهر القرد

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٨١ - ١٨٥ .

٤- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .

٥- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

بظاهر الإنسان : ترى ذلك في طرفه وتغميض عينيه ، وفي ضحكته ، وفي حكايته ، وفي كفه واصابعه ، وفي رفعها ووضعها ، وكيف يتناول بها ، وكيف يجهز اللقمة الى فيه ، وكيف يكسر الجوز ويستخرج لبه ، وكيف يلقن ما أخذ به واعيد اليه ، وانه من جميع الحيوان اذا سقط في الماء غرق مثل الإنسان ، ومع اجتماع اسباب المعرفة يفرق الا ان يكتسب معرفة السباحة . « (١) .

والفرق بين دارون والجاحظ هو أن الأول يقول بالتطور الصاعد الذاهب نحو الأرقى والأصلح ، بينما يقول الثاني بالتطور النازل الذاهب نحو الأردأ والأحط وهو ما أطلق عليه اسم المسخ . فالإنسان حسب رأي الجاحظ هو الذي انقلب الى قرد وليس القرد هو الذي ارتقى الى مصاف الإنسانية (٢) .

أما العوامل التي آلت الى هذا التطور النازل أو المسخ فهي البيئة التي اثرت في الإنسان وحالته الى قرد بسبب رداءتها وفساد هوائها وخبث ماؤها (٣) . ولكن هذا التطور ربما تم بالطفرة أي دفعة واحدة ، وربما استغرق دهوراً طوالاً (٤) . وهذا التطور صحيح طالما انه لا يخالف الطباع (٥) . وهذا يؤكد الجاحظ ايما انه بالتطور شريطة أن يكون هذا التطور طبيعياً أي خاضعاً لقوانين الطبيعة .

أن ما يؤكد قرابة القرد والإنسان ليس فقط الظاهر الذي اتينا على ذكره أو الصفات الخارجية وإنما أيضاً الباطن أو الناحية النفسية . ويشير الجاحظ الى الشبه بين القرد والإنسان في خصلتين كريمتين هما الزواج والغيرة الجنسية . وقد عبر عن ذلك قائلاً : « واجتمع في القرد الزواج والغيرة وهما خصلتان كريمتان واجتماعهما من

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

٢- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

٣- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، الدلائل والاعتبار ، ص ٣٣-٣٤ .

٤- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

٥- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

مفاخر الإنسان على سائر الحيوان . ونحن لم نر وجه شيء غير الإنسان أشبه صورة وشبهها على ما فيه من الاختلاف ، ولا أشبه فما ووجهها بالإنسان من القرد <sup>(١)</sup> .

والمسألة الأخيرة التي يثيرها الجاحظ ويقف عندها ملياً ويؤكددها مراراً هي تأثير البيئة على الإنسان والحيوان . وهو بذلك يكون قد سبق ابن خلدون ولأمارك ودارون بعدة قرون .

يلاحظ أبو عثمان أن للبيئة تأثيراً كبيراً على الإنسان والحيوان ، ولكن الإنسان أقوى على التكيف مع البيئة من الحيوان ، ولا سيما إذا جيء به إليها صغيراً .

وهو يعجب من كون « رجال الروم تصلح في البدو مع الإبل ، ودخول الإبل بلاد الروم وهو هلاكها . فأما السند ، فإن السندي صاحب الخبرة إذا صار إلى البدو وهو طفل خرج افصح من أبي مهدية ومن أبي مطرف الغنوي » <sup>(٢)</sup> .

إن تأثير البيئة يبدو واضحاً في اللون ، فالحيوان ينصبغ بلون البيئة التي يعيش فيها ، فإذا كانت سوداء غدا أسود اللون ، وإذا كانت خضراء غدا أخضر اللون . وإذا نقلته من بيئة إلى أخرى استحال لونه من لون إلى آخر : « ترى الرملة في رأس الشاب الأسود الشعر سوداء ، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء وتراها في رأس شمطاء وفي لون الحمل الأورق ، فإذا كانت في رأس الخضيب بالعمرة تراها حمراء ، فإذا نصل خضابه صار فيها شكلة من بين بيض وهر ، وقد ترى حرة بني سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطيائر وحشرة ، فتراها كلها سوداء » <sup>(٣)</sup> .

وتؤثر البيئة في شكل الإنسان الخارجي وهيئته حتى يبدو مسخاً من المسوخ له شعر طويل كالحيوان ووجه يشبه القرد في قبحه ، وذنب أو شبه ذنب كسائر

١- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٩٨ .

٢- الحيوان ، ج ٤ ، ص ٧٦ .

٣- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٧٦ .

الحيوانات وذلك اذا عاش في بيئة مبنية التربة والهواء والماء . لتنصت اليه يوضح فكرته هذه فيقول : « وقد خبرنا من لا يحصى من الناس انهم قد ادركوا رجالاً من نبط بيسان ولهم اذنان ، أو عجوب طوال كالأذنان . وربما رأينا الرجل في المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل . وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صنع هؤلاء المغربيين والانباط ويكونون جهالاً فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ، ولا ينتقلون فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور وفي تلك الأذنان وفي تلك الألوان الشقر وفي تلك الصور المناسبة للقرود»<sup>(١)</sup>.

ويظهر تأثير البيئة في الطباع ايضاً ، ويعطي الجاحظ على ذلك مثل العرب الذين كانوا اعراباً ثم انتقلوا الى بلاد خراسان فتخلوا عن جميع اخلاق البادية . وكذلك يذكر مثل الزنج والترك كيف أن طبيعة بلاد كل منهم اثرت على طباعهم تأثيراً واضحاً .

وتأثير البيئة لا يحدث فجأة وإنما يحتاج الى ازمان متطاولة<sup>(٢)</sup> .

يمكن أن نلخص هذا الفصل ، أي عالم الحيوان ، بحكم عام يقوم على أفكار ثلاثة :

أولاً : ان الجاحظ يشبه سلوك الحيوان بالسلوك عند الإنسان .

ثانياً : انه يعطي للحيوان وعياً كوعي الإنسان .

ثالثاً : انه ينظر الى الحيوان نظرة غائبة أي يعطي لسلوك الحيوان غاية انسانية وهدفاً محدداً بوعي<sup>(٣)</sup> .

١ - المصدر منه ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، ج ٥ ، ص ٣٧٠ .

٢ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٧٠ ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٦ - ٧ .

٣ - أنظر موريس روكن ، تاريخ علم نفس ، (ترب علي زعور ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ط . ٣) ، ص ٤٩ - ٦٣ .

## الفصل الرابع

### عالم الإنسان

#### أ- مفهوم الإنسان :

ما هو الإنسان ؟ هذا هو السؤال الذي حاول الجاحظ الإجابة عنه قائلاً :  
الإنسان عالم صغير لانه يحتوي على جميع الأشكال التي في العالم الكبير . فهو يأكل  
كل ما تأكله الحيوانات ويتصف بجميع صفاتها : فيه صولة الجمل ووثوب الأسد  
وغدر الذئب وروغان الثعلب وجبن الصفرد وجمع الذرة وصنعة السرفة وجود الديك  
والف الكلب واهتداء الحمام<sup>(١)</sup> .

وهو يدعي أيضاً بالعالم الصغير لانه يستطيع أن يصور كل شيء بيده كما  
يستطيع أن يقلد كل صوت بفمه . ثم ان جسمه يتكون من العناصر التي يتركب منها  
الكون يعني النار والأرض والهواء والماء .

---

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٢١٢-٢١٣ .

وقد تبنى الجاحظ تحديد ارسطو للإنسان القائل : « الإنسان هو الحيوان الناطق » <sup>(١)</sup> . إذ النطق أو القدرة على الكلام أهم ميزة يمتاز بها الإنسان على الحيوانات وبه يعبر عن حاجاته . وهناك ميزة أخرى يفضل بها الإنسان الحيوان هي العقل . وهكذا يبدو الإنسان للجاحظ حيواناً ولكنه حيوان عاقل وناطق . وكثيراً ما يلجأ الى المقابلة بينهما ، فيلاحظ مثلاً أن الجهاز الهضمي متشابه عند الإنسان والكلب <sup>(٢)</sup> . كما يلاحظ شبهاً قوياً بين الإنسان والفرد في المظهر الخارجي وبعض الصفات النفسية .

ومع ذلك يبقى الفرق مائلاً بين الإنسان والحيوان وهو يكمن في « الاستطاعة والتمكن ، وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة ، وليس يوجب وجودهما وجود الاستطاعة » <sup>(٣)</sup> .

ولكن ليس معنى ذلك أن الحيوان يخلو من المعرفة والقدرة على التعلم . ان الجاحظ لا يفتأ يوضح هذه الظاهرة المدهشة عند الحيوان وهي وجود المعارف الدقيقة الغريبة عنده . والفرق بين معارف الإنسان ومعارف الحيوان هو انها وليدة الغريزة عند الحيوان بينما هي وليدة الفكر عند الإنسان . والدليل على ذلك أن الحيوان قد يعلم علماً رائعاً ويضع بكفه صنعة يفوق بها الناس ، ولا يهتدي الى ما دون ذلك بطبع أو روية . وهو في سبيل شرح فكرته يقول : « قد قلنا في أول هذا الجزء من القول في الحيوان في احساس اجناسها المجهولة فيها وفي معارفها المطبوعة عليها ، ومن اعاجيب ما ركبت عليه من الدفع عن انفسها والتقدم فيما يحيطها وفي تحسسها عواقب امورها وكل ما خوفت من حوادث المكروه بقدر ما ينوبها من الآفات ويعترها من

١- المصدر عنه ، ج ٧ ، ص ٤٩ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٦ .

٢- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

٣- المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٥٤٣ ، راجع مفهوم الاستطاعة وعلاقتها بالعقل والمعرفة في الباب الثالث ، الفصل الثالث ، الفقرة هـ .

الحادثات ، وانها تدرك ذلك بالطبع من غير روية ، وبحس النفس من غير فكرة ، ليعتبر معتبر ويفكر مفكر ، وليتفي عن نفسه العجب ويعرف مقداره من العجز ونهاية قوته . . . والإنسان ذو العقل والاستطاعة والتصرف والروية اذا علم علماً غامضاً وادرك معنى خفياً لم يكده يتمتع عليه ما دونه اذا قاس بعض امره على بعض . وأجناس الحيوان قد يعلم بعضها علماً ويصنع بكفه صنعة يفوق بها الناس ولا يبتدي لى ما هو دون ذلك بطبع ولا روية ، وعلى أن الذي عجز عنه في تقدير العقول دون الذي قدر عليه <sup>(١)</sup> .

ان الغريزة عند الحيوان تعمل إذن بدقة ولكن دون روية ووعي ، أما عقل الإنسان فيعمل بروية وفكرة وقياس ولكن بدقة أقل .

## ب- العقل :

هذا العقل هو اداة التفكير لدى الإنسان ، وإنه هبة من الله منحه إياها دون سائر الحيوانات ليعتبر : « فلم أعطاه العقل ؟ الا للاعتبار والتفكير ؟ » <sup>(٢)</sup> .

ولكن اين يوجد العقل ؟ يترجح <sup>(٣)</sup> الجاحظ بين رأيين : رأي يقول ان مركزه الدماغ والقلب طريق له ، ورأي يقول ان القلب هو مركزه دون الدماغ <sup>(٤)</sup> .

بواسطة العقل يعلم الإنسان الأشياء والظواهر التي تلتقطها الحواس ولا تفقه سرها ، ولكنه لا يعلم كيفية حدوث هذا العلم . وقد عبر الجاحظ عن هذه الفكرة حيث يقول : « وأنا ، جعلت فداك ، أعلم اني اسمع ولا اعقل كيفية السمع ، وأعلم اني ابصر ولا اعقل كيفية البصر » <sup>(٥)</sup> . وبواسطة العقل يميز المرء بين الكلام

١- الحيوان ، ج ٧ ، ص ٧٦-٧٧ .

٢- المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ٥٤٣ .

٣- رسالة التزييح والتدوير ، ص ٨٦ .

٤- ترجح : تحايل بالأبترحة ، ومعناها هنا : تردد بين أمرين (ابن منظور- لسان العرب) .

٥- رسالة التزييح والتدوير ، ص ٨٦ .

الجميل والقيح وبين الخير والشر ، وبهذا يشبه العقل الذي يعقل البعير أو يمتعه من الشرود<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا الأساس يصبح العقل وسيلة الرؤية الباطنية للأمور على عكس الحواس التي تمد الإنسان بالرؤية الخارجية . ولذا كان العقل أعلى مرتبة وأثبت حجة ويجب الركون إليه أكثر من الحواس . « فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل . وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقل ، والعقل هو الحجة »<sup>(٢)</sup> .

كيف يقوم العقل بعمله ؟ ان عمل العقل يدعى التفكير ، والتفكير يؤدي إلى المعرفة وفهم الحقائق ، واهم طرق التفكير الحدس والقياس . وعبر الجاحظ عن ذلك بقوله : « سئل بعض الأعراب عن العقل قال : الإصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن بما قد كان »<sup>(٣)</sup> .

ومتى يوجد العقل في الإنسان ؟ هل يولد معه أم يكتسب اكتساباً ؟ يجيب الجاحظ : انه ملكة تولد مع صاحبها . « قيل لرجل من الحكماء : متى عقلت ؟ قال : ساعة ولدت . فلما رأى إنكارهم لكلامه قال : أما أنا فقد بكيت حين خفت ، وطلبت الأكل حين جعت ، وطلبت الشئدي حين جعت ، وسكت حين اعطيت . . »<sup>(٤)</sup> .

وعلى الرغم من أن العقل يولد مع الطفل فإنه يحتاج إلى تعهد ومعالجة وتربية لكي ينمو ويقوى . وإذا أهمل ضعف وانحرف وأصيب بالعلل ، وعندئذ يصعب تقويمه ويحصل هلاجه . ان العقل بنظرة « أطول رقدة من العين واحوج إلى الشهد

١- رسالة كتمان السر وحفظ اللسان (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٤١) .

٢- المحيران ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

٣- البيان والبيان ، ج ٤ ك ، ص ١٢٩ .

٤- المحيران ، ج ٧ ، ص ٥٦ .

من السيف ، وافقر الى التعهد واسرع الى التعبير ، وادواؤه أقتل واطباؤه أقل وعلاجه افضل « (١) .

ويقول الجاحظ مبدأ هاماً لا بد من توافره ليستطيع العقل الاضطلاع بعمله اضطلاعاً مفيداً . ذلك المبدأ هو الحرية . وهو يعبر عن هذا المبدأ بقوله : « ان العقل اذا أكره عمي » (٢) . ان الإنسان اذا حرم من مناخ الحرية وضرب على عقله الإكراه والاستبداد انشغل تفكيره . واذا فكر جاء تفكيره منحرفاً غير مستقيم . ان معركة حرية الفكر التي تدور رحاها اليوم في العالم قد اعلنها الجاحظ منذ احد عشر قرناً من الزمن مؤكداً على ان الحرية بالنسبة للعقل كالنور بالنسبة للعين .

ويميز الجاحظ بين نوعين هما : العقل الغريزي المطبوع والعقل المكتسب . وهذا التمييز سنراه عند الفلاسفة العرب الذين اتوا بعد الجاحظ كالفارابي وابن سينا وابن رشد . ان الأول يولد مع المرء ويشكل غريزة أو استعداداً طبيعياً ، أما الثاني فيتكون بالتجارب التي يمر بها الإنسان ويكتسب بالتعلم والثقافة . أما العلاقة بينهما فهي تشبه علاقة الآلة بالمادة التي تستخدمها في أداء وظيفتها . العقل الغريزي يشبه المصباح والعقل المكتسب يشبه الدهن : المصباح هو الآلة والدهن هو المادة . يقول في ذلك : « وقد اجمعت الحكماء ان العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال الا بمعاونة العقل المكتسب ومثلوا ذلك بالنار والحطب ، والمصباح والدهن . وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة ، وإنما الأدب عقل غيرك تزيده في عقلك » (٣) .

لم يسم الجاحظ هؤلاء الحكماء ، والراجح انه يعني بهم فلاسفة اليونان ولا سيما ارسطو الذي ميز بين عقل بالقوة ، وعقل بالفعل أو بالملكة ، وعقل فعال . وتبنى

١ - التريح والتدوير ، ص ١٠١ .

٢ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٤٥٢ .

٣ - المعاد والملائكة (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٩٦) .

الفارابي هذا التقسيم الوارد عند ارسطو وشرحه على الشكل التالي : ان العقل بالقوة هو العقل الهولائي وهو هيئة ما في مادة معدة لان تقبل صور المعقولات . ومتى حصلت المعقولات في العقل بالقوة يصبح عقلاً بالفعل بعد أن كان عقلاً بالقوة . والعقل الفعال هو الذي ينقل العقل بالقوة الى عقل بالفعل ، وهذا العقل الفعال هو ذات ما ، جوهره عقل ما بالفعل ومفارق للمادة . ومنزلة العقل الفعال من العقل الهولائي كمنزلة الشمس من البصر . ومرتبة العقل الفعال من الأشياء المفارقة المرتبة العاشرة (١) .

لقد جعل الفارابي العقل الفعال خارج النفس وهذا ما لم يقل به ارسطو (٢) . ولم يوضح العلاقة بين العقل بالقوة والعقل بالفعل على النحو الذي أوضحه الجاحظ ، بل قال ان العقل بالفعل هو العقل بالقوة ذاته بعد حصول المعقولات فيه . وربما نظر ابن سينا الى التشبيه الذي ورد عند الجاحظ ولكنه لم يأخذ به وإنما اخذ بالتشبيه الوارد في الآية القرآنية ﴿ الله نور السموات مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاج كانه كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار . . . ﴾ وجعل العقل بالقوة أو الهولائي قوة من قوى النفس مستعدة لقبول المعقولات وشبهه بالمشكاة . وجعل العقل بالفعل قوة أخرى في النفس قد حصلت في المعقولات المكتسبة وشبهه بالمصباح . وبين العقل الهولائي والعقل بالفعل يوجد العقل بالملكة وهو الذي لا توجد فيه سوى المعقولات الأولى وشبهه بالزجاجة الشريفة . أما العقل الفعال فهو الذي يخرج العقل بالقوة الى عقل بالملكة وعقل بالفعل وقد شبهه بالنار (٣) .

١- الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة (دار المشرق ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ط. ٣) ص ٦٢ ، ١٠١ ، ١٠٣ .

٢- ارسطو ، النفس ، المقالة الثالثة ، ابن رشد ، تلخيص كتاب النفس لأرسطو (النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ط. ١) ص ٨٥ .

٣- ابن سينا ، الإشارات والتهيهات (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ ، د. ط. ١) ج ٢ ، ص ٣٦٣-٣٦٧ .

ان نظرة الجاحظ الى العقل اكثر واقعية من نظرتي الفارابي وابن سينا . فليس في الإنسان سوى عقل واحد ولا يوجد خارج الإنسان أي عقل .

### ج - النفس :

يعترف الجاحظ أن مصادره عن النفس قليلة ، وانه لم يقرأ عن هذا الموضوع المجلدات الكثيرة . كما نراه يهاجم المتكلمين الذين بحثوا موضوعها واتهمهم بالفضول (الجهل لانهم يريدون أن يعلموا كل شيء ويأبى الله ذلك كما يقول<sup>(١)</sup>).

وينسب الجاحظ الى متكلم جليل رئيس - لم يسمه - رأياً طريفاً في النفس يثير لديه الاستغراب ، خلاصته أن النفس من جوهر النسيم أو الهواء وان النفوس المتفرقة في اجرام جميع الحيوانات ليست سوى أجزاء من النسيم . وحكم النفوس في علاقتها مع الهواء الخارجي الذي يملأ الفضاء حكم الأشعة المنبثقة عن قرص الشمس . هذه النفوس تغادر الأجسام وتنقطع الى أصلها اي الهواء اذا سدت منافذ الجسم كما ينقطع الضوء بالظفرة الى عنصره من قرص الشمس اذا سدت الكوة التي ينفذ منها الشعاع الى داخل المكان<sup>(٢)</sup>.

هذا المتكلم الرئيس الجليل هو النظام على الأرجح لانه صاحب نظرية الظفرة ولان هذا التشبيه القائم على علاقة الشعاع بقرص الشمس قد عزاه الجاحظ الى النظام في معرض كلامه على كمون النار . وليست هذه هي المرة الأولى التي يخالف بها الجاحظ استاذة . لقد عارضه في آراء كثيرة نوردها في أماكنها كمسألة إعجاز القرآن والحكم على الصحابة والخلفاء .

هذا الرأي يجعل النفس جوهرأ مادياً ، ويلتقي به مع صاحبه ديموقريطس الذي قال ان النفس مؤلفة من أدق الجواهر وأسرعها حركة ، وهذه الجواهر متشرة في

١ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٣١٩ .

٢ - المصدر منه ، ج ٥ ، ص ١١١ - ١١٣ .

الهواء يدفعها الى الأجسام فتغلغل في البدن كله وتتجدد بالتنفس في كل آن وما دام التنفس دامت الحياة .

يستعمل الجاحظ لفظة نفس بمعنى الذات في قوله : « ان الظربان اذا أراد أن يأكل حسلة الضب ، والضب نفسه ، اقتحم حجر الضب مستديراً » (١) .

ويستعملها بمعنى القوة الشهوانية طبقاً لما جاء في قول الحسن البصري « اقموا هذه النفوس فإنها طلعة ، واعصوها فإنكم ان اطعمتموها تنزع بكم شر غاية وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدور » (٢) .

ان النفس بنظر الجاحظ مركز الحاجات التي يشعر بها الإنسان كالحاجة الى الغذاء والحاجة الى الطمأنينة والحاجة الى الجنس والحاجة الى اليقين والمعرفة . وفي النفس قوى تعمل على تلبية هذه الحاجات (٣) .

واهم قوى النفس الإحساس والعقل والذاكرة والنطق ، وقد أجهلها الجاحظ في ما يلي : « تأمل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الإنسان اعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك . . . فكر فيها انعم الله على الإنسان من هذا المنطق الذي يعبر عما يضمره ويفهم عن غيره ما في نفسه ، ولولا ذلك كان بمنزلة البهيمة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئاً » (٤) .

ويجعل الجاحظ الحواس خمساً شأنه في ذلك شأن القدماء من فلاسفة اليونان وهي : البصر والسمع والشم والذوق واللمس . ولكنه يتوقف عند فكرة هامة هي تخصيص الحواس بالمحسوسات بحيث يقصر كل حاسة على محسوس معين تعمل

١- المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٤٨ .

٢- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

٣- الحيوان ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، ص ١١٤ .

٤- الدلائل والاعتبار ، ص ٨ .

منه ولا تستطيع أن تتعداه الى محسوس آخر . وهو يقطع بانه لا يمكن ان تكون في العالم اشياء لا ندركها بالحواس « لانها اذا وجدت ، تكون فضلاً لا معنى له ، وليس في الخلقة شيء لا معنى له » (١) .

ويشير الجاحظ الى قانون عتبة الإحساس أو الحد الذي ضمنه تقوم الحواس بعملها فتدرك المحسوسات ، فإذا تجاوزت هذا الحد لم تعد تدرك . وهذا ما عبر عنه بقوله : ان لكل حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك القوة من محسوسها ، لم تجد وراءها طعماً ولا ريحاً ، وعاد عليها بالضرر . فبعض النظر يعمي ، والصوت الشديد يصم ، والرائحة الممتنة تبطل الشم ، والأطعمة الحارة المحرقة تبطل حاسة اللسان (٢) .

والحواس جنس واحد برأي الجاحظ ، فحاسة البصر من جنس حاسة السمع وسائر الحواس ، والاختلاف كائن في جنس المحسوس وموانع الحساس والحواس ، لان النفس هي المدركة ، وإدراكها يتم من خلال هذه الفتوح التي ندعوها الحواس .

وإذا سئل الجاحظ : لماذا اختلفت الحواس إذن فصار واحد منها سمعاً والآخر بصرًا والثالث شماً ؟ أجاب بان اختلافها يرجع الى ما مازجها من الموانع أو الشوائب ، مثلاً لا يدرك البصر الأصوات لان شائبته من جنس الزجاج الذي يمنع من درك الصوت ولا يمنع من درك اللون .

ويميز الجاحظ بين ثلاثة أنواع من المحسوسات : محسوسات متضادة كالسواد والبياض ، ومحسوسات مختلفة كالطعم واللون ، ومحسوسات متضفة .

وما دمننا بصدد الكلام على النفس فلنشر الى مقدرته على تحليل النفس البشرية . تلك المقدرة التي ظهرت في أماكن عديدة من آثاره . ففي كتاب البخلاء يصف الجاحظ دوافع البخل والجود عند الناس ، فيعمد الى سرد نوادر واخبار كثيرة عن

١ - المصدر عنه ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٢ - رسالة كتبان السر وحفظ اللسان (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ص ١٤١) .

الأشياء تصف حركاتهم وتصرفاتهم وطرق تفكيرهم ، ومشاعرهم ، ومختلف الحيل التي يلجأون إليها لجمع المال ومنعه ، وكيف ينظرون إلى الأمور ويحكمون عليها . ويفزع الجاحظ إلى طريقة أخرى - عدا النوادر والأخبار - لتصوير نفسية البخله ، هي الاحتجاجات التي تعكس مناهج التفكير عند هؤلاء الناس . وهو يعزو هذه الاحتجاجات إلى مفكرين مشهورين أمثال الفيلسوف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وسهل بن هارون <sup>(١)</sup> .

وفي رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ، يصف الجاحظ ذلك الصراع الذي يعتل في نفس الإنسان بين الهوى الذي يدفعه إلى اذاعة السر ، والعقل الذي يصدّه عن ذلك « إنه لا شيء أصعب من مكابدة الطبايع ومغالبة الأهواء ، فإن الدولة لم تزل للهوى على الرأي طول الدهر . والهوى هو الداعية إلى اذاعة السر ، وإطلاق اللسان بفصل القول » <sup>(٢)</sup> .

وإنما سمي العقل عقلاً كما يقول الجاحظ لأنه يفيد اللسان ويعقله عن الجهر بالكلام المضر كما يحجر عن الصغير وكما يعقل البعير .

وهو يشبه اللسان بالترجمان عن القلب ، ويشبه القلب بالخزانة التي تحفظ الأسرار وتصونها ، وتخزن ما يبيع المرء من الخواص من خير وشر وما تولده الشهوات والأهواء وما تنتجه العلوم والمعارف .

ولكن القلب ينزع إلى التخلص مما فيه والإفشاء به ، « وكأنه يضيق بها ينطوي عليه ويستثقل ما حمل منه ، فيستريح إلى نبذه وبلذ القاءه على اللسان ، ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضي به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه . كل ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللسان ، فإذا قهر الرأي الهوى فأستولى

١ - علي بن ملحيم ، معجم الجاحظ الفكري ، المقدمة ، ص ١ - ٢ .

٢ - رسالة كتمان السر وحفظ اللسان (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٤١ وما بعدها) .

على اللسان ، منعه من تلك الدربة وجشمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة<sup>(١)</sup>.

ان اللسان بحد ذاته ليس سوى اداة تعبير عن الضمير فهو لا يستحق المدح والذم ، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل . وهكذا يكون الحلم الاسم الجامع لكل فضل ، وهو سلطان العقل القاهر للقوى .

ان ميل الإنسان الى الإفشاء بما يزخر به صدره من الأخبار شي ، طبيعي فطر عليه ، ومن هنا كانت حلاوة الاخبار والاستخبار عند الناس . وهذا هو اساس ما جبل عليه البشر من نقل الأخبار عن الماضين الى الباقين ، وعن الغائين الى الشاهدين . وهذا ثبت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الانبياء ، ولم يحضر آيات الرسل ، وقام مجيء الاخبار عن غير تشاعر ولا تواطؤ مقام العيان ، وعرفت البلدان والأقطار . . .<sup>(٢)</sup>.

لقد عسر على الإنسان كتمان السر بسبب طبيعته هذه ، حتى ليغشاه الحزن والهجم من كتمان السر ويعتريه كمد وسقم يحس به في سويداء قلبه يشبه ديب النمل وحكة الجرب ولسع الدبر . وما يؤكد هذا الرأي ما يروى عن الأعمش ( ١٨٨ هـ ) المحدث المعروف : كان لضيق صدره بما فيه من الأخبار ، وعدم قدرته على البوح به ، « كان يقبل على شاة ، كانت له ، فيحدثها بالأخبار والفقه حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : ليت أني كنت شاة الأعمش »<sup>(٣)</sup>.

ونحن نجسد تلك القسرة على التحليل النفسي ، والحرص على كشف اعماق الإنسان في رسالة أخرى للجاحظ عنوانها « فصل ما بين العداوة والحسد »<sup>(٤)</sup> . يعقد أبو عثمان مقارنة بين هذين الميول من ميول الذات البشرية ، فيرى أن العداوة تفتن

١ - رسالة كتمان السر وحفظ اللسان (ضمن رسائل الجاحظ) ج ١ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

٢ - المصدر حيت ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٣ - كتمان السر وحفظ اللسان (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٢٥) .

٤ - كتاب فصل ما بين العداوة والحسد (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨) .

بالعقل الذي يسوسها أما الحسد فلا يواكبه العقل . والحسد يبدأ بالأدنى أما العداوة فتبدأ بالأبعد . والحسد يستمر ما دام المحسود ، أما العداوة فتحدث لعلة وتزول بزوال تلك العللة . والعداوة تضعف وتخلق وتمل ، أما الحسد فيظل غصاً جديداً لا يبديد . والحسد ألم وأذى من العداوة ، وهو ناتج عن فساد الطبع واعوجاج التركيب واضطراب السوس . والحسد أخو الكذب فهما لا يفترقان ، أما العداوة فقد تخلو من الكذب .

والحسد افشى في أهل العلم ، وحسد الجاهل أهون من حسد العارف الفطن . ويبدو أن كلام الجاحظ في هذا الموضوع صادر عن تجربة مرت به . فهو يقول ان كثيراً من الكتاب حسدوه على نتاجه ، وراحوا يقللون من شأنه .

#### د- النزعة الإنسانية :

ان اهتمام الجاحظ بالإنسان يحملنا على النظر في مدى توافر النزعة الإنسانية عنده .

تبدو النزعة الإنسانية في تناوله مختلف فئات الناس بالمراقبة والتأمل والدراسة . فهو يتكلم على الملوك والولاة والكتاب والحجاب والقواد ، ويتحدث عن المعلمين والتجار والوكلاء والمغنين والقضاة والأطباء والعطارين والوراقين وسائر أصحاب المهن . ويدرس أصحاب العاهات والمنحرفين اخلاقياً كاللصوص والقصاب واللاطة والبرصان والعرجان والعميان والحولان والطفيليين . ولا ينسى اعراق الناس واجناسهم فيفضل ما بين الرجال والنساء والفرق بين الذكر والأنثى ، وفي السودان والبيضان ، وفي العرب والعجم ، وفي الموالى والسادة ، وفي الصرخاء والمهجناء ، وفي الشعبية .

وتتجلى النزعة الإنسانية أيضاً في عناية الجاحظ بتحليل نفسية الإنسان ، كما مر معنا ، والغوص على اعماقها لمعرفة الميول الدفينة والغرائز الفطرية التي تحرك هذا الكائن وتحدد سلوكه .

عدا الغوص على مكامن النفس البشرية ، تظهر النزعة الإنسانية لدى الجاحظ من المكانة التي تبوأها في سلم المخلوقات . إلا أن الإنسان بنظره سيد المخلوقات وقد سخرها الله له ، تعمل لخدمته ، وايبح له التصرف بها والاستمتاع بخيرات الأرض جميعاً . وقد تفوق الحيوان هبة عظيمة حباه الله بها هي العقل الذي يعرف به نفسه والعالم والله . وما عليه الا أن يشكر الله على تلك الهبة ويستغلها خير استغلال فينظر ويتأمل ويعرف ويتعظ <sup>(١)</sup> وكيف لا « والفلك وجميع ما تحويه الأرض ، وكل ما تقله اكنافها للإنسان خول ومتاع إلى حين » <sup>(٢)</sup> .

وتبدو النزعة الإنسانية أيضاً في الدعوة إلى التسامح بين ابناء الأمم المختلفة . لقد دعا الجاحظ إلى نبذ العصبية القومية ، وإلى التعاون والمحبة بين الشعوب المختلفة الأعراق واللغات والمذاهب والتقاليد ، لان الذي يجمع الناس أكثر مما يفرقهم ، وهم يرتبطون جميعاً برابطة الانتهاء إلى النوع الإنساني ، وكلهم مخلوقات الله . وردت هذه الأفكار في أماكن عدة من كتب الجاحظ ولا سيما في كتاب البيان والتبيين في سياق رده على الشعوبية ، وفي رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة <sup>(٣)</sup> .

وثمة ملامح من النزعة الإنسانية عند الجاحظ نجدها في نظره إلى الجمال وموقفه من المساواة بين الرجل والمرأة وحملته على الخصاء <sup>(٤)</sup> .

ظهرت النزعة الإنسانية في أوروبا بعد فتح القسطنطينية ، في القرن الخامس عشر ، أي بعد الجاحظ بحوالي ستة قرون من الزمان . ولكن بيك دي لامبراندول (١٤٨٦ م) يذهب إلى أن الآداب العربية هي منطلق النزعة الإنسانية ، ويخبرنا انه قرأ في تلك الآداب « انه لا يمكن أن نرى في العالم ادعى إلى الإعجاب من الإنسان » <sup>(١)</sup> .

١ - الدلائل والاعتبار ، ص ٨ ، الباب الثاني ، الفصل الثالث من هذا البحث .

٢ - كتاب القيان (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٤٦) .

٣ - راجع الباب السادس ، الفصل الثاني ، من هذا البحث .

٤ - راجع الباب الرابع « المنحى الجمالي » ، الفصل الأول ، الباب السادس ، الفصل الثاني من هذا البحث .

هذه العبارة تحدد لنا سمة أساسية من سمات النزعة الإنسانية ، هي احترام الإنسان والإعجاب به ، ونحن نجد هذه الفكرة عند الجاحظ الذي حدد الإنسان بأنه عالم صغير كما رأينا ، اجتمع فيه كل ما في العالم من أعاجيب ومتناقضات .

وإذا كان المفكرون الأوروبيون الآخذون بالاتجاه الإنساني ولا سيما أراسم ( ١٤٦٩-١٥٣٦ م ) الذي يعتبر إمامهم ، قد أهملوا العلوم الطبيعية واهتموا بالعلوم الإنسانية كالآدب والفلسفة والدين والأخلاق والتاريخ والخطابة واللغة ، فإن الجاحظ اهتم مثلهم بالإنسان وبهذه العلوم التي تهدف إلى تنمية قواه العقلية الجسدية . وتقويم أخلاقه وارهاف حسه الجمالي ، ومع ذلك اعتنى بالطبيعة وعلومها . وباختصار عرف الجاحظ كيف يوفق بين النزعة الإنسانية والنزعة الطبيعية .

ثم إن الجاحظ يلتقي معهم في أن الإنسان بحاجة إلى تربية وتعهّد لينمو العقل ويسيطر على الأهواء والغرائز ، مع مراعاة الطبيعة البشرية ، وعدم محاولة القضاء عليها .

وقد انتقد أراسم التقاليد والخرافات كما فعل الجاحظ من قبل ، إذ هاجم الأوهام والأساطير ودعا إلى الشك في الأخبار وإلى تحكيم العقل والمنطق .

وشن أراسم حملة على رجال الدين وانتقدهم كما شن الجاحظ حملة عنيفة على شيوخ الفرق الإسلامية من شيعة وخوارج ومرجئة وأهل سنة .

وأنشأ أراسم الأرثوذكسية على الطبيعة والعناية ، كما حاول الجاحظ أن يقيم الدين الإسلامي على فكرة العناية أو الحكمة الإلهية التي تتجلى بأوضح صورها في الطبيعة ولا سيما الحيوانات .

غير أن الجاحظ لم يتصور الإنسان عالماً مطلقاً بحد ذاته كما هو الحال عند الإنسانيين الأوروبيين .

## **الباب الثالث**

### **المنحى الكلامي**



أعطى الجاحظ لعلم الكلام معنى واسعاً . فهو يعني النظر في المسائل الدينية والفلسفية . ولذا كان هذا العلم محور تفكير الجاحظ . لقد مزج الدين بالفلسفة مزجاً قوياً يصعب الفصل بينهما . فهو بذلك يكون قد فلسف الإسلام واسلم الفلسفة .

وعلى الرغم من انه كان معتزلياً يؤرخ للاعتزال ويوضح مفاهيمه ، ويلوذ عنه ، فإنه لم يستطع أن يجبس نفسه ضمن إطار مبادئ الاعتزال ، بل نراه ينطلق منها ، ويخرج عليها ، ويأتي بآراء تميزه عن شيوخ المعتزلة حول مسائل النبوة والإمامة والمعرفة والحرية .

وعلى هذا الأساس توزعت مادة فصول هذا الباب الأربعة على النحو التالي :

- الفصل الأول : في مفهوم علم الكلام .

- الفصل الثاني : في معنى الاعتزال ونشأته ومبادئه .

- الفصل الثالث : في أركان الجاحظية .

- الفصل الرابع : في موقف الجاحظ من الفرق .



## الفصل الأول

### علم الكلام

كان الجاحظ متكلماً جديلاً ، وكان شيخاً من شيوخ المعتزلة الكبار ، وصاحب فرقة من فرقهم دعت الجاحظية . هذا ما رده الباحثون منذ العصر العباسي واتفقوا عليه أمثال الأشعري في كتابه « مقالات الإسلاميين » ، والمسعودي في مروج الذهب والشهرستاني في الملل والنحل ، وابن المرتضى في طبقات المعتزلة .

ويمكن اعتبار الجاحظ أقدم كاتب استعمل مصطلحي « علم الكلام » و« المتكلمين » . والكلام - لغة - هو مجموعة الألفاظ التي يعبر بها الإنسان عن المعاني التي تدور في خاطره ، وهذا ما يفهم من قول الجاحظ : « وما علمت انه كان في الخطباء احد كان أجود من خالد بن صفوان وشيب بن شبة ، للذي يحفظه الناس ويدور على الستهم من كلامهما ، وما أعلم أن أحداً ولد لهما حرفاً واحداً »<sup>(١)</sup> .

والكلام - اصطلاحاً - هو علم يبحث في الدين والفلسفة . هذا ما قصده

---

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

الجاحظ بقوله : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذي يجمعها ، والمصيب الذي يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصح الا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد . وكذلك اذا زعم ان الطبائع لا تصح اذا قرنوا بالتوحيد . ومن قال به فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع . . . » (١) .

هذا العلم ناشئ ، ولذا اضطر رجاله الى ابتكار الفاظ جديدة اشتقوها أو اصطلاحوا عليها للتعبير عن معانيهم . فافتى الناس آثارهم . « وهم ( المتكلمون ) تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلاحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع . . . وإنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني ، وقد تحسن أيضاً ألفاظ المتكلمين في مثل شعر أبي نواس :

وذا تَ خـَـيـَـرٌ مـَـرـَـوِزٌ      قـَـوـَـمـِـيـَـةٌ مـَـتـَـجـَـرِزٌ  
تـَـأَمَّلُ العـَـيْـنُ مـَـنـَـهـَـا      مـَـحـَـسـَـنٌ لـِـسَ تـَـنـَـفـَـذُ  
فـَـبـَـعـَـضُـهـَـا قـَـد تـَـنـَـهـَـى      وـِـبـَـعـَـضُـهـَـا يـَـتـَـوَلـَـذُ  
وَالـِـحـَـسـَـنُ فـِـ كـُلِّ عـَـضـَـوٍ      مـَـنـَـهـَـا مـَـعـَـادُ مـَـسـَـرـَـدٍ (٢)

ويذكر الجاحظ بعض ألفاظ المتكلمين ذات المدلولات التقنية مثل تناهى

---

١ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٣٤ . يعني الجاحظ بتحقيق التوحيد القول بوحانية الله ، وهو المبدأ الذي ركز عليه المعتزلة ويدور حول صفات الله . ويعني باعطاء الطبائع حقائقها في الأعمال الإقرار بوجود خصائص ذاتية في الكائنات الطبيعية تسمى طبائع تظهر وتعمل دون حاجة لى تدخل مشيئة الله باستمرار وهو مبدأ قال به الفلاسفة والمعتزلة وخالفوا فيه أهل السنة والجماعة .

٢ - البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

وتوليد ، والعرض والجوهر ، وإيس وليس ، والبطلان والتلاشي ، والهدية والهوية ،  
والماهية واشباه ذلك (١).

كما يشير إلى مقدرة المتكلمين الخطائية أو النيبانية « لان كبار المتكلمين ورؤساء  
النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وبلغ من كثير من البلغاء . . . » (٢).

أما منهج المتكلمين فهو المنهج الجدلي القائم على المناظرة وتفنيد آراء الخصم  
والرد عليها لتبيان ما تنطوي عليه من خطأ وتهافت أو صواب وحكمة . وقد لزم  
المتكلمون الجدل ولم يحيدوا عنه ، وبلغوا به الأوج في الإبداع والبزاعة لانتهاك ونحن  
نقرأ لهم من الدهشة والإعجاب . ولم يشذ الجاحظ عن منهجهم هذا ، فقد التزمه في  
جميع أبحاثه تقريباً ، ولذلك نسمعه يقول : « ومضيت أنا وأبو اسحق النظام وعمرو  
بن نهوي نريد الحديث في الجبان ولتناظر في شيء من الكلام » (٣).

ويذهب الجاحظ أبعد من هذا ، فيجعل علم الكلام بحثاً في الأسباب والعلل  
تماماً كما حدد أرسطو الفلسفة بأنها معرفة الأسباب والعلل الأولى . وقد عبر عن فكرته  
هذه بقوله « وهذا البحري صاحب كلام وهو يتكلف معرفة العلل » (٤).

قلنا ان الكلام موضوعه الدين والفلسفة حسب رأي الجاحظ (٥) . وبما أن  
الدين قد وجد تعبيراً عنه في القرآن لذلك دارت أبحاث علم الكلام حول القرآن تفسيراً  
وتأويلاً ومقارنة وتنزيلاً ومعجزة وما إلى ذلك . وقد أوضح الجاحظ موضوع علم

---

١- المصدر ع ، ج ١ ، ص ٩٧ .

٢- المصدر ع ، ج ١ ، ص ٩٧ .

٣- البخل ، ص ١٣٨ .

٤- الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٧ .

٥- أنظر أ- الثعالب ، كشف اصطلاحات الفنون (ان موضوع الكلام هو العقائد الدينية وما يتعلق بها ، وان غاية  
إثبات تلك العقائد دفع الشبه ) ج ١ ص ٢٠ .

ب- الغزالي ، المنهاج من القلال ، دار الأندلس ، بيروت ، ط ٨ ، ص ١٩٧٣٣١ (غاية علم الكلام الدفاع عن  
عقيدة أهل السنة . . . ) ص ٩١ .

الكلام هذا في المقطع التالي : « وسنذكر مسألة كلامية . وإنما نذكرها لكثرة ما يعترض في هذا من ليس له علم بالكلام ، ولو كان أعلم الناس باللغة لم ينفك في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام . وقد اعترض معترضون في قوله عز وجل ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثلته كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ . فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب بهذا المذكور في صدر هذا الكلام لانه قال : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها . فما يشبه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله - ولم يذكر غير ذلك - بالكلب الذي ان حملت عليه نبخ وولى ذاهباً ، وان تتركه شد عليك ونبح . مع أن قوله : يلهث ، لم يقع في موضعه ، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد وحر شديد ومن تعب ، واما التباح فمن شيء آخر . قلنا : ان قال : ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فقد يستقيم أن يكون الراد لا يسمى مكذباً ، ولا يقال لهم كذبوا الا وقد كان ذلك منهم مراراً ، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات ، في بدء حرصه عليها وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه ، فإن الكلب يعطي الجهد والجهد من نفسه في حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ، وردده لها ، بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها ، بالكلب اذا رجع ينبخ بعد اطرادك له . وواجب ان يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها . » (١) .

واضح أن هذه المسألة الكلامية ليست سوى جدل حول تفسير آية قرآنية يجري بين فريقين كل منهما يفهمها فهماً مغايراً لفهم الآخر . والتفسير يتطلب تضلعاً في اللغة ، ، ومن ثم كان على المتكلم ان يكون عالماً باللغة . ولكن ليس كل عالم باللغة هو بالضرورة عالم بالكلام .

أما الموضوع الآخر أو الفلسفة التي هي معرفة الأسباب الأولى فيقتضي النظر في كل شيء يؤدي إلى معرفة الله أو اثباته أو البرهنة على وجوده . ولهذا اتسع نطاق الفلسفة فتناولت كل شيء في الكون من الذرة حتى النجوم مروراً بالجماد والنبات والحيوان والإنسان . ولهذا يعتبر الجاحظ الباحث في الكلب والديك من أبحاث علم الكلام ويدافع عن شيخين من شيوخ المعتزلة بتجادلان في أفضلية هذين الحيوانين قائلاً : « فإن قلت : وأي شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك حتى يتفرغ لذكر محاسنها ومساوئها والموازنة بينهما والتنويه بذكرهما شيخان من عليّة المتكلمين ومن جلة المتقدمين ، وهو على أنها متى أبرما هذا الحكم وافصحاً بهذه القضية صار لهذا التدبير بها حظ وحكمة وفضيلة وديانة ، وقلدهما كل من هو دونها . وسيعود ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازنان بين الذبان ونبات وردان ، وبين الخنافس والجعلان ، وبين جميع أجناس الهمج وأصناف الحشرات والحشاش حتى البعوض والفراش والديدان والقردان ، فإن جاز هذا الرأي وتم عليه العمل ، صار هذا الضرب من النظر عوضاً عن النظر في التوحيد ، وصار هذا الشكل من التمييز خلفاً من التعديل والتجوز ، وسقط القول في الوعد والوعيد ، ونسي القياس والحكم في الاسم ، وبطل الرد على أهل الملل ، والموازنة بين جميع النحل ، والنظر في مراشد الناس ومصالحهم ، وفي منافعهم ومراقفهم ، لأن قلوبهم لا تتسع للجميع ، والستهم لا تنطق بالكل . وإنا الرأي أن تبدأ من الفن بالأعظم والأخوف . وقلت : هذا باب من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرف ، وطريق من طرق المزاح ، وصييل من سبل المضاحك . . . » (١) .

إن الجاحظ لا يقصر علم الكلام على النظر في العدل والتوحيد والوعد والوعيد والرد على أهل الملل والموازنة بين النحل ، وإنما يمدّه إلى الطبيعيات لأنها تؤدي إلى معرفة الخالق الذي هو غاية كل معرفة ويقول : « ألا ترى أن الجبل ليس بأدل على الله

تعالى من الحصاة ، وليس الطاووس المستحسن بادل على الله من الخنزير المستقبح ،  
والنار والثلج وإن اختلفا من جهة البرودة والسخونة ، فإنها لم يختلفا من جهة البرهان  
والدلالة . . . وتعلم مع ذلك أن الكلب إذا كان فيه مع خموله وسقوطه من عجيب  
التدبير والنعمة السابغة والحكمة البالغة ، مثل هذا الإنسان الذي له خلق الله  
السموات والأرض وما بينهما ، أحق أن يفكر فيه ويحمد الله على تعالى على ما أودعه  
من الحكمة العجيبة والنعمة السابغة « (١) » .

وهكذا يغدو علم الكلام محيطاً بالدين وبالكائنات التي تدل على العلة الأولى  
ووجودها ، لما تنطوي عليه من حكمة وأعاجيب وصفات غريبة . وإلى هذا كان يشير  
أبو عثمان في تحديده لمعنى الكلام حيث يقول : « وقال الله تعالى ﴿ ولو أن ما في الأرض  
من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ . والكلمات  
في هذا الموضع لا يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف ، وإنما يريد النعم  
والأعاجيب والصفات وما أشبه ذلك ، فإن كلا من هذه الفنون لو وقف عليه رجل  
رقيق اللسان صافي الذهن صحيح الفكر تام الإرادة ، لما برح أن تحشره المعاني وتغمره  
الحكم » (٢) .

وعلى هذا الأساس بحث المتكلمون في الجزء الذي لا يتجزأ ، أو في الذرة ،  
لأنهم ربطوا بينه وبين البرهان على وجود الله (٣) .

إن المتكلمين الذين يشير إليهم الجاحظ ليسوا فئة واحدة ، وإنما هم فرق  
عديدة متخصصة متباينة العقائد . « إن اسم المتكلم يشتمل على ما بين الأزرقى  
والغالي ، وعلى ما دونها من الخارجي والرافضي ، بل على جميع الشيعة وأصناف  
المعتزلة ، بل على جميع المرجئة وأهل المذاهب الشاذة » (٤) .

١ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

٣ - الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٨ ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

٤ - الفصول المختارة (هامش الكامل ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ . د . ط .) ص ٢٤٦ .

في هذا الكلام اشارة واضحة الى المذاهب الكلامية التي كانت سائدة في عصر الجاحظ ، وقد تكلم عليها جميعاً ، وكان له مواقف محددة منها .

ما هي قيمة علم الكلام ؟ يجيب الجاحظ أن صناعة الكلام جليلة خطيرة ، إنها « علق نفيس وجوهر ثمين » على حد تعبيره الوارد في صدر كتاب له عنوانه صناعة الكلام<sup>(١)</sup> . ولكن هذه الصناعة آفات كثيرة منها « أن يرى من احسن بعضها انه قد احسن كلها ، وكل من خاصم فيها ظن انه فوق من خاصمه »<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر الجاحظ ان العامة لم يكونوا راضين عن علم الكلام ، وقد اشاحوا بوجوههم عنه وفضلوا عليه الفتيا ، وكذلك فعل الحكام على الرغم من ان الفتيا فرع وعلم الكلام أصل<sup>(٣)</sup> ، فانهم وضعوا الفرع فوق الأصل .

ان هذه الحملة على علم الكلام سوف نراها تقوى وتشتد بعد عصر الجاحظ ، وسيرمى المتكلمون والفلاسفة بالزندقة والبدع . وقد قاد هذه الحملة المسعورة المحدثون وأهل السنة والجماعة ابتداء من الإمام أحمد بن حنبل ( ٢٤١ هـ ) وانتهاء بإبن تيمية ( ١٣٢٨ م ) وإبن خلدون ( ١٤٠٦ م )<sup>(٤)</sup> .

---

١- المصدر هـ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .

٢- المصدر ع ، ص ٢٤١ .

٣- المصدر هـ ، ص ٣٤٥ .

٤- (ابن خلدون ، المقدمة ، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت . د.ط .) ص ٤٦٠-٤٦٧ .



## الفصل الثاني الاعتزال

### - في معنى الاعتزال ومبادئه ونشأته :

من بين الفرق الكلامية العديدة التي ظهرت في العصر العباسي اختار الجاحظ الاعتزال مذهباً اعتقده باعتقاداً راسخاً ودافع عنه بكل اخلاص .

يبدو انه اعتدى لل اعتزال في سن مبكرة عندما كان لا يزال عالة على امه لا يستطيع كسب العيش بعرق الجبين . وتلمذ على شيخ المعتزلة الكبير ابراهيم بن سيار النظام وعاش في أجواء المعتزلة يحضر حلقاتهم ويسمع مناظراتهم في المساجد ومجالس موسى بن عمران ( ٢٤٦ هـ ) . وربما شاموا فيه النبوغ فرعوه وحذبوا عليه واخذوا بيده مادياً وفكرياً وادخلوه قصر الخلافة زمن المأمون وبوأوه منصب الكتابة في ديوان الرسائل ، لانهم كانوا مقربين إلى الخليفة وذوي حظوة لديه . ولما بدأ نفوذهم يضعف منذ عهد المتوكل وبدأت الحملة تشتد عليهم من خصومهم السنة والشيعة والمرجئة والخوارج ، انبرى يدافع عنهم ويبين فضائلهم . وقد ساعده على القيام بهذه المهمة عاملان اثنان : اسلوبه الأدبي الرائع الجذاب الذي خلص من جفاف الأبحاث

الفلسفية والكلامية وتعقيدها ، ثم شهرته بين الناس الذين اقبلوا على قراءته إقبالاً كبيراً<sup>(١)</sup>.

١ - ما هو الاعتزال أو كيف فهم الجاحظ الاعتزال ؟ يجيب الجاحظ أن الاعتزال يعني التوسط والاعتدال بين التقصير والافراط . وهو يقول أن جميع الفرق من شيعة ومرجئة وخوارج وسنة قد وقعوا في التقصير أو الافراط عندما عاجلوا مسائل الصفات والإيمان والإمامة ، وانهم جانبوا القصد في أحكامهم . أما المعتزلة فقد تجنبوا الإفراط والتقصير واقتصدوا في أحكامهم فأصابوا . ولنسمعه يشرح وجهة نظره هذه فيقول : «خير الأقاويل بل اعد لها وارضأها عند الله اقصدها ، ولذلك اخترنا الاعتزال مذهباً وجعلناه نحلة ومفخراً ، وسنقدم قبل القول في هذه المسألة قولاً فافهمه . قالت الجهمية : لا نقول ان الله معنى ولا نقول انه شيء . ومتى أضفنا اليه شيئاً فما نحن أضفناه إليه فذلك الشيء فعل من أفعاله ، كذلك سمعه وبصره وقدرته . وقالت الرافضة : هو جسم فضلاً عن أن نقول انه شيء . وقالت المعتزلة : هو شيء وليس كمثل شيء ، وليس بجسم ، وليس علمه بفعل ولا صنع ، وانما قولنا له علم كقولنا هو عالم ، نريد انه لا تخفى عليه خافية . وقالت المرجئة : القاذف مؤمن . وقالت الخوارج : القاذف كافر ، وقالت البكرية : بل هو اسوأ حالاً من المشرك ، والمنافق اشد عذاباً من الكافر . وقالت المعتزلة : هو فاسق كما نص ، ولا نسميه كافراً فيلزمنا أن نلزمه أحكام الكفار وليس ذلك حكمه ولا نقول مؤمن فيلزمنا ولايته ومدحه وإيجاب الثواب له . وقد اخبرنا الله تعالى انه مشؤوم من أهل النار ، فتزعم انه مع الكافر وانه لا يجوز أن يكون في الجنة مع المؤمن .

وقالت الخوارج في قتال الفئة الباغية : نسير فيها بالإكفار وبالسيي والغنائم

١ - ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٦٧ - ١٧٠ الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٧٥ - ٧٦ ، البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ١٦٠ - ١٦٣ .

وباتباع المدبر والإجهاز على الجريح . وقالت المرجئة : لا قتال . وقالت المعتزلة بالقول المرضي وهو إيجاب القتال على جهة الدفع لا على جهة القصد إلى القتال ، ولا على السبي ، ولا على الإجهاز على الجرحى ، ولا على استحلال الأموال . فلم نفرط أفراط الخوارج ولم نقصر تقصير المرجئة ، ودين الله بين المقصر والغالي ، وهذا الاشتقاق وهو التوسط والاقتصاد هو الاعتزال لغلو من غلا وتقصير من قصر . والأصل الذي نبني عليه أمورنا فيمن ليس عندنا كعلي وسابقيه وأرومته وكامل خصاله بل في أدنى رجل من أوليائنا أنا متى وجدنا له عملاً يحتمل الخطأ والثواب لم يكن لنا أن نجعل عمله خطأ حتى يعيننا فيه وجه الصواب <sup>(١)</sup> .

لقد اختار الجاحظ ، كما يبدو ، ثلاث مسائل كلامية لإيضاح جوهر الاعتزال ولتمييزه عن سائر الفرق وهي :

١- ماهية الله وصفاته .

٢- حكم مرتكب الكبيرة .

٣- الموقف الواجب اتخاذه من الفنة الباغية .

بالنسبة للمسألة الأولى لم يقل المعتزلة إن الله جسم كالرافضة ، ولم يقولوا إنه ليس جسماً أو شيئاً أو معنى كالجهمية ، وإنما قالوا إنه شيء ولكن ليس كمثل شيء . وهو قول متوسط بين قول الشيعة المشوب بالإفراط وقول الجهمية المشوب بالتقصير .

وبالنسبة للمسألة الثانية لم يفرط المعتزلة كالخوارج الذين ذهبوا إلى أن القاذف كافر ، ولم يقصروا تقصير المرجئة الذين اعتبروا القاذف مؤمناً ، ولكنهم وقفوا موقف التوسط والاعتدال فقالوا إن القاذف ليس مؤمناً وليس كافراً وإنما هو فاسق .

---

١- رسالة الحكمين ، ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

وبالنسبة للمسألة الثالثة التزم المعتزلة أيضاً بالاعتقاد ، فلم يقولوا بالمرجئة انه لا ينبغي قتال الفتن الباغية ، ولم يقولوا بالخوارج انه يجب محاربة اهل البغي وإعمال القتل والسبي والسلب بلا شفقة . وإنما قالوا بعدم اللجوء الى القتال الادفاعاً عن النفس مع تحريم السبي والسلب والإجهاز على الجرحى .

ويتفرع عن المسألتين الأخيرتين الحكم على الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم ، بل على أي انسان من أوليائهم . ان هذا الحكم يستند الى الأعمال الصادرة عنهم ، فإن كانت أعمالاً صالحة نوهوا بها ، وإن كانت أعمالاً طالحة رذلوها . وهذا يعني أن احكامهم موضوعية وليست وليدة الهوى والعاطفة .

والاعتزال - لغة - التنحي والانفراد ، وسمي المعتزلة كذلك لانهم تنحوا عن جميع الفرق التي كانت موجودة عند نشأتهم وانفردوا بأقاويل خاصة <sup>(١)</sup> . لقد كان في الساحة الشيعة والمرجئة والبكرية والخوارج . ولكل منهم اقاويل وآراء . فلما نشأ المعتزلة مع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد لم يؤيدوا أية فرقة ، وإنما اتوا بآراء ابتعدوا بها عن سائر المذاهب وخالقوهم فسموا معتزلة . ومن هنا نجد الجاحظ لا يترك فرقة الا وينتقدها ويهاجمها ولا يرضى الا بالاعتزال مذهباً على حد تعبيره . هذا الابتعاد عن مواقف الفرق جميعاً أو الاستقلال بالرأي التزم خطأ وسطاً سار عليه المعتزلة فحال فهم الصواب برأي أبي عثمان لانه كان يعتقد ان الفضيلة وسط بين نقيضين كما سوف نرى في كلامنا عن المنحى الخلقي .

---

١ - يرى التوحيدي (فرق الشيعة ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٠ ، د . ط . ص ٢٥-٢٧) ان هذه التسمية أطلقت على الذين اعتزلوا عن اهل بن أبي طالب وامتنعوا عن محاربه أو المحاربة معه ، فسموا المعتزلة وصاروا أسلاف المعتزلة .  
- ويرى الشهرستاني (الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٤٨) انهم سمو معتزلة لاعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري على أثر خلافه وإليه حول مرتكب الكبيرة .

- ويقول البخداوي (الفرق بين الفرق ، ص ١٥) ، انهم سمو معتزلة لاعتزالهم قول الأمة في مرتكب الكبيرة .  
- ويذهب نالينو (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٩٤٠ ، د . ط . ص ١٩٠) الى أن للمعتزلة الأرائل اختاروا هذا الاسم وقبلوه بمعنى المحامدين بين أهل السنة والخوارج في مسألة مرتكب الكبيرة .

٢- اتفق المعتزلة على مبادئ خمسة اجمعوا عليها بحيث انهم لم يعدوا منهم من خالف أي مبدأ منها وهي العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين ، والوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر <sup>(١)</sup> .

عدا هذه المبادئ الأساسية انفرد كل منهم بآراء خاصة في سائر المسائل التي عاجلجوها . والجاحظ لم يشذ عن هذه القاعدة ، فقد قال بمبادئ المعتزلة الخمسة ، وانفرد بأقوال سنذكرها ، وقد مرّ بنا شيء منها .

٣- يجبرنا الجاحظ عن نشأة الاعتزال على يد واصل بن عطاء (٨٠ — ١٣١هـ) <sup>(٢)</sup> ، وقد قام بحركة ناشطة اسفرت عن ارساء اسس هذا المذهب . كما انه نشر المذهب في مختلف الأقطار بواسطة الدعاة الذين ارسلهم من الصين شرقاً الى بلاد البربر غرباً ، منهم عثمان الطويل الذي بعثه واصل الى ارمينية ، وهو استاذ ابي الهذيل العلاف . ومنهم حفص بن سالم الذي بعثه واصل الى خراسان وقد ناظر جهماً فقطعه ، ومنهم عمرو بن حوشب وعيسى بن حاضر وسواهم <sup>(٣)</sup> .

عرف هؤلاء الدعاة بحماسهم وتضحيتهم في سبيل عقيدتهم ، فكانوا يتحملون المشقات والمكاره ، ويتعرضون للأخطار والمكائد ونقد الخصوم والغربة ، ويشير صفوان الأنصاري الى ذلك بقوله :

متى كان غزالاً له ابن حوشب غلام كعمير أو كعيسى بن حاضر  
له خلف شعب الصين في كل ثغرة الى سوسها الأقصى وخلف البرابر

---

١- الحياط ، الانتصار (دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٥ د. ط) ص ١٢٦- ١٢٧ .

٢- راجع عن واصل بن عطاء :

أ- التفريزاني ، واصل بن عطاء : حياته ومصنفاته (الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة) .

ب- عبد السلام هارون ، نواذر المخطوطات (القاهرة ١٩٥١) ، ص ١٣٤- ١٣٦ .

ج- ابن عبد ربه ، العقد الفرید ( مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ط . ٢ ) ج ٢ ، ص ٣١٨ .

٣- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، ص ٤٢ .

رجالاً دعاءً لا يفُلْ عَزِيمُهُمْ      تَهْكُمُ جِبَارٌ وَلَا كَيْدُ مَاكِرٍ  
 إِذَا قَالَ مَرَوْا فِي الشَّتَاءِ تَطَرَّعُوا      وَإِنْ كَانَ صَيْفٌ لَمْ يَخْفُ شَهْرَ نَاجِرٍ  
 بِهَجْرَةِ أَوْطَانٍ وَبِذَلِّ وَكَلْفَةٍ      وَشِدَّةِ أَخْطَارٍ وَكَيْدِ الْمَسَافِرِ<sup>(١)</sup>  
 واشتهر هؤلاء المعتزلة بالمقدرة الخطابية واللسن حتى باروا سحبان وائل الذي  
 يضرب به المثل في ذرابة اللسان وجودة البيان :

وَمَا كَانَ سَحْبَانٌ يَشْقُ غِبَارَهُمْ      وَلَا الشَّدَقُ فِي حَيْمٍ هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ  
 وَلَا النَّاطِقُ النِّخَارُ وَالشَّيْخُ دَغْلٌ      إِذَا وَصَلُوا إِيْمَانَهُمْ بِالْمَخَاصِرِ

أما الرسالة التي اضطلع بها المعتزلة فهي الدفاع عن الدين ضد الكفار ،  
 والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والفتيا في القضايا الدينية ، ومناظرة الخصوم  
 وافحامهم من جميع الفرق والنحل كالشيعة والخوارج والمرجئة :

وَاتَّسَدَ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ      وَمَوْضِعُ فِتْيَاهَا وَعِلْمُ التَّشَاجِرِ  
 تَلَقَّبَ بِالْفَزَالِ وَاحِدَ عَصْرِهِ      فَمَنْ لِلْيَتَامَى وَالْقَبِيلِ الْمَكَابِرِ  
 وَمَنْ لِحُرُورِي وَآخِرَ رَافِضٍ      وَآخِرَ مَرْجِيٍّ وَآخِرَ حَائِرِ  
 يَصِيْبُونَ فَضْلَ الْقَوْلِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ      كَمَا طَبَقَتْ فِي الْعَظَمِ مَدِيَّةُ جَازِرِ

ثم ان هؤلاء الدعاة الذين أرسلهم واصل لنشر مبادئ الاعتزال كانوا يتزايون  
 بزي خاص معروف ، وكانوا يطلبون الصلوات . وهم يصدرون في كل ذلك عن إيمان  
 عميق صاف ، ويتصرفون بوقار وورعانة :

نَرَاهُمْ كَأَنَّ الطَّيْرَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ      عَلَى عِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ فِي الْمَشَاعِرِ  
 وَسَمِيَاهُمْ مَعْرُوفَةٌ فِي وُجُوهِهِمْ      وَفِي الْمَشْيِ حِجَاجاً وَفَوْقَ الْأَبَاعِرِ

١ - البيان والنبين ، ج ١ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

وفي ركمة تأتي على الليل كله وظاهر قول في مثال الضمائر  
وفي قص هدايا واخفاء شارب وكور على شيب يضيء لناظر  
وعنفقة مصلومة ولتعله قبالة في ردين رحيب الخواطر  
فتلك علامات تحيط بوصفهم وليس جهول القوم في علم خابري  
كان واصل بن عطاء خطيباً مصنفًا وعلمًا من أعلام الجدل ، قارع ارباب النحل  
وناظرهم بالحجة والمنطق ، وكان في ذلك يعي مسؤوليته كرئيس نحلة عليه المدافعة عن  
مبادئها وافحام خصومها<sup>(١)</sup>.

بالإضافة إلى هذه المعلومات عن مؤسس الاعتزال الواردة في كتب الجاحظ ،  
يخبرنا المسعودي أن واصلًا « قد توفي سنة احدى وثلاثين ومائة ، وهو شيخ المعتزلة  
وقديمها ، وأول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو أن الفاسق من أهل الملة  
ليس بمؤمن ولا كافر ، وبه سميت المعتزلة وهو الاعتزال »<sup>(٢)</sup>.

عدا المنزلة بين المنزلتين قال واصل بمبدأين آخرين من مبادئ المعتزلة الرئيسية  
هما نفي الصفات عن الله وهو ما أطلق عليه اسم التوحيد ، وقدرة العبد على أفعاله ،  
وهو ما يسمى بمبدأ العدل . ويذهب الشهرستاني إلى أنه اخذ القول بالقدر عن  
معبد الجهمي وغيلان الدمشقي<sup>(٣)</sup> ، ويخالفه الشريف المرتضى فيقول ان مبادئ  
الاعتزال من عدل وتوحيد مأخوذة عن كلام علي بن ابي طالب<sup>(٤)</sup>.

١- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ١٣-١٤ .

٢- المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .

٣- الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٤٧ .

٤- المرتضى ، الأمالي ، ج ١ ، ص ١٤٨ .



## الفصل الثالث

### الجاحظية

اخذ الجاحظ بمبادئ الاعتزال الخمسة الأساسية ، وهي العدل والتوحيد والمنزلة بين المتزلتين ، والوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولكنه افترق عن سائر المعتزلة بأراء خاصة انفرد بها ، فعد على أساسها صاحب فرقة مميزة عن فرق الاعتزال دعت الجاحظية .

ويمكن أن نوزع تلك الآراء على المواضيع التالية :

أ- الله .

ب- النبوة .

ج- الإمامة .

د- المعرفة .

## أ- الله :

تكلم الجاحظ عن ذات الله وصفاته ووجوده ومعرفته وعلاقته بالإنسان والعالم .

١ - ذاته وصفاته : فكرة الله هي الدعامة التي ترتكز عليها الديانات العالمية ، وهي محور الإيمان ، إذا انهارت بطل الدين وفسد الإيمان ، وإذا ثبت ترسخ الدين وخلص الإيمان .

والجاحظ كمسلم ، آمن بالله كما تمثل في القرآن ، خالق السماوات والأرض ، واحداً ، أولاً ، سرمدياً ، ليس كمثله شيء ، حياً ، رحيماً ، علياً ، سميعاً ، قديراً ، بصيراً . لكنه كمتكلم ، حاول أن يفلسف هذه الأفكار أو ينظر إليها على ضوء العقل . بدا الله مجعاً للصفات الحسنى « ان الله جواد لا يبخل ، صدوق لا يكذب ، وفي لا يقدر ، حلیم لا يعجل ، عدل لا يظلم . . »<sup>(١)</sup> .

وبناء على هذا كله يعتبر الله مثال الكمال الخلقي لا يعتوره نقص ولا يشتمل على أية صفة قبيحة ، ومن نسب اليه صفة قبيحة أخطأ . وقد شدد الجاحظ كسائر المعتزلة على عدل الله وعنايته بالبشر بحيث لا يريد لهم الا الصلاح كما شدد على صدق الله في تنفيذ ما وعد به الصالحين من الثواب وما توعد به الطالحين من العقاب .

والله بنظره شيء لا ينقسم ، وهو ليس جسماً ذا ابعاد كسائر الأجسام ، أي ليس له طول وعرض وعمق<sup>(٢)</sup> . وقد شن هجوماً كاسحاً على المشبهة الذين جعلوا الله جسماً ومثله بالإنسان .

اما صفات الله الاخرى كالسمع والبصر والحياة والعلم ، فلم يخالف فيها الجاحظ قول المعتزلة . ان الصفات هي عين الذات وليست قائمة بها او بغيرها . ان

١ - البغلاء ، ص ١٥٦ .

٢ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

الله حي لا بحياة وعالم بلا علم . . . (١) . يعني انه حي وحياته ذاته ، وعالم وعلمه ذاته ، وهكذا .

والله واحد لا اله سواه (٢) . وقد ركز المعتزلة على مسألة التوحيد انسجاماً مع روح الدين الإسلامي الذي شدد على وحدانية الله سنداً لقوله تعالى : ﴿ قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

والله هو الذي خلق العالم ، وهو الذي « يخترع الأجسام اختراعاً » (٣) أي انه يوجد ها بعد أن لم تكن على مثال يحتذيه .

٢ - معرفة : يستطيع الإنسان - برأي الجاحظ - أن يعقل الله ، ولكنه يعقله عقل إقرار لا عقل إحاطة . وكما يعلم الإنسان أن فيه نفساً وهو لا يعاينها ولا يدركها بحاسة من الحواس ، فكذلك يعلم أن ثمة الها ولكنه لا يعاينه ولا يدركه بحاسة من الحواس . وبناء على هذا نقول ان العقل يستطيع أن يعرف الخالق من جهة العبرة والدلالة لا من جهة الحس والإحاطة . وبالجملة انه يعرفه من جهة ما يوجب الإقرار به ولا يعرفه من جهة ما يوجب الإحاطة بماهيته . والناس مكلفون دينياً بأن يؤمنوا بوجود الله ويقفوا عند هذا الحد ولم يكلفوا الإحاطة به وبصفاته (٤) .

أما الصفات التي نضيفها على الله كالحياة والحكمة والجود ، فهي صفات إقرار وتثبيت وليست صفات إحاطة . نحن نعلم انه حكيم ولا نحيط بكنه ذلك وكذلك نعرف انه قدير ولا نحيط بكنه قدرته وسائر صفاته ، كما قد نرى السوء ولا ندرى ما هو جوهرها ، ونرى البحر ولا ندرى أين منتهاه . بل هو فوق هذه الأمثال ما لا نهاية له لان الأمثال كلها تقصر عنه . ولكنها تقود العقل الى معرفته (٥) .

١ - المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

٢ - البغلاء ، ص ١٥٦ .

٣ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

٤ - الدلائل والاعتبار ، ص ٧٥ .

٥ - المصدر عنه ، ص ٧٧ .

أما لماذا لا يستطيع العقل أن يعرفه معرفة إحاطة ولا يدركه إطلاقاً ، فلانه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام كما لطف النفس وارتفعت عن ارتفاعها بالبصر . وكما أن للبصر حداً يقف عنده ، فكذلك للعقل حد يقف عنده . والعقل لا يستطيع أن يعرف من الخالق شيئاً خلا انه موجود فقط ، فأما ماهيته وكيفيته وغايته فلا <sup>(١)</sup> .

ويشعر الجاحظ بأن الله هذا أصبح غير معلوم : « قالوا : افترطتم فيما تصفون من قصور العلم عنه حتى كأنه غير معلوم . فقلنا : كذلك هو من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه والإحاطة به ، وهو من جهة أخرى أقرب من كل قريب اذا استدل عليه بالدلائل الشافية » <sup>(٢)</sup> .

ولا ينسى الجاحظ أن يجيب على السؤال الذي يطرحه عليه المرء عندما يرى اختلاف الناس بشأن الله : لماذا يختلف الناس في الله ؟ يقول الجاحظ : ان الناس انما يختلفون في الله لقصر عقولهم عن مدى عظمته ، وطلبهم معرفته والإحاطة به دون الوقوف على الإقرار بوجوده وهي تعجز عن ذلك فما دون <sup>(٣)</sup> .

وهكذا يدعو الجاحظ العقل البشري الى الكف عن البحث في ماهية الله لانه عاجز عن معرفتها ، والاكتفاء بالإقرار بوجوده فقط .

٣ - وجوده : منذ القدم انقسم الناس بصدد وجود الله قسمين : قسم اقرّ به وقسم انكروه .

الذين انكروا وجود الله دعوا بالطبعيين لقولهم ان الطبيعة هي التي أوجدت الكائنات التي عليها دون أي تدخل من كائن اسعى منها يدعى الله مفارق لها .

---

١ - المصدر عينه ، ص ٧٧ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٧٧ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٧٧ .

يسفه الجاحظ دعوى الطبيعيين قائلاً : « فإن زعمت أن هذا من فعل الطبيعة سألناك عن هذه الطبيعة : أمي شيء له علم وقدرة على هذه الأفعال أم ليست كذلك ؟ فإن أوجبت لها العلم والقدرة فما امتناعك عن إثبات الخالق فإن هذه صفة الخالق ؟ فإن زعمت أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم وعمد فهو محال لأن أفعالها ما قد ترى من الصواب والحكمة . فاعلم أن هذا الفعل للخلاق العظيم ، وإن الذي سميته طبيعة هي سنته . » (١) .

وهكذا يرد الجاحظ على الطبيعيين بهذا القياس المحكم والمفحم : إذا كانت الطبيعة هي التي أوجدت هذه الكائنات العجيبة التركيب فينبغي أن تكون قد صنعتها بالقدرة والعلم ، فإذا كانت كذلك فهي الله ذاته وبذلك تصبح الطبيعة هي الله ويصبح الله هو الطبيعة . وبما أن الطبيعة غير قديرة وعالمة ، فمحال أن تخلق كائنات حكيمة رائعة ومحال أن تصدر عنها أفعال منتظمة دقيقة كالتي نرى ، إن هذا يحتاج إلى خالق عليم قدير وهو ما نسميه الله .

بيد أن بعض الطبيعيين وغيرهم قالوا أنه ليس ضرورياً اتصاف الطبيعة بالعلم والإرادة لتكون هي الخالقة . فالأشياء التي نراها في الطبيعة وجدت بالعرض والاتفاق أو الصدفة . والدليل على ذلك ما نجد في الطبيعة من شوائب أحياناً كأن يولد إنسان ناقصاً أو مشوهاً . ولم يكن الجاحظ جاهلاً حجة هؤلاء فعرض نظريتهم على الوجه التالي : « وقد كانت في القدماء طائفة انكرت العمد والتدبير في الأشياء ، وزعموا أن كونها بالعرض والاتفاق كمثل دياغوروس أو أناس من الطبيعيين . فكان مما احتجوا به هذه الآفات التي تولد على مجرى الطبيعة كالإنسان الذي يولد ناقصاً يداً أو زائداً أصعباً أو يولد مشوهاً مبدل الخلق . قالوا : فهذا دليل على كون الإنسان ليس من تعمد ولا تقدير بل بعرض وكيفما اتفق أن يكون » (٢) .

١ - الدلائل والاعتبار ، ص ٤٦ .

٢ - الدلائل والاعتبار ، ص ٦٦ .

وقد ترك الجاحظ الرد على هؤلاء لأرسطو وغيره من الفلاسفة اليونانيين الذين قالوا : « ان الذي يأتي بالعرض والاتفاق إنما هو شيء يأتي في الفرط مرة لاعراض تعرض للطبيعة فتتزلزل من سبيلها ، وليس بمنزلة الأمور الطبيعية الجارية على شكل واحد جريانا دائماً متتابعاً . ونحن نرى أصناف الحيوان تجري على أكثر ذلك ، على مثال ومنهاج واحد كالإنسان الذي يولد وله يدان ورجلان وخمس اصابع وغير ذلك مما عليه الجمهور من الناس . فأما ما يولد على خلاف ذلك فإنها هو لعل تكون في الرحم أو في المادة التي منها ينشئ الجنين كما قد يعرض في الصناعات » (١) .

ان الجاحظ ، وان كان يأخذ بالمذهب الطبيعي بوجه عام ، لا يذهب مثل الطبيعيين إلى احلال الطبيعة مكان الله .

وثمة فئة ثانية أنكرت وجود اله واحد مدبر لهذا العالم وهم المنانية الذين قالوا بوجود أصليين أو الهين لهذا العالم : اله الخير واله الشر يتمثلان بالنور والظلمة وحجتهم في ذلك اننا نرى في هذا العالم خيراً وشرّاً ، جمالاً وقبحاً ، سعادة وشقاء الخ . . فاذا كان الامر كذلك فلا بد من وجود الهين مختلفين يخلقان هذه الأشياء المتناقضة . واذا قلنا ان ثمة الهاً واحداً فقط يصنع الخير استحال علينا أن نفسر وجود الشر والنقص في العالم .

يتصدى الجاحظ للقائلين بأصليين للعالم ، كما تصدى للقائلين بالإهمال وعدم التدبير أو للقائلين بالطبيعة الخالقة ، فيرى أن ما في العالم من النظام والحكمة برهان على وجود الله وعلى خطأ هذين المذهبين ويقول : « ولكننا ننصرف إلى فن آخر من دقائق الخلقة فنبين عما فيه من الصواب والحكمة مع النظام والملاءمة . وفي ذلك توبيخ للقائلين بالإهمال والقائلين بأصليين متضادين ، لان الإهمال يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنظائر » (٢) .

١- المصدر عنه ، ص ٦٦ .

٢- المصدر عنه ، ص ٣ .

أما حججهم القائلة ان وجود الشر في الدنيا دليل على وجود اله خالق للشر  
 يختلف عن ذلك الالة الذي خلق الخير فيدحضها الجاحظ قائلاً : ان وجود الشر  
 ضروري ولا يتنافى مع وجود الخير بالنسبة لله الواحد الخالق المدبر ، ذلك لانه لولا  
 الشر والمحنة والاكدار لخرج الإنسان الى البطر والتجبر ولما بقي له دين أو دنيا . وقد  
 شرح رأيه بالشكل التالي : « وقد تنكر المعطلة أيضاً ما أنكرت المنانية في المكاره  
 والمصائب التي فيه هذه الأمور المكروهة . والقائل بهذا القول يذهب الى انه ينبغي أن  
 يكون عيش الإنسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر . ولو كان هذا هكذا لقد كان  
 الإنسان سيخرج من الأثر والعتو الى ما لا يصلح له معه دين ولا دنيا . . . » (١) .

ولم يكن جواب الجاحظ على المنانية مقنعاً لهم ولكل من يتساءل عن سبب  
 وجود الشر في العالم . فإذا كان ثمة اله رؤوف وكان هو الذي خلق العالم وما فيه من  
 خير وشر فيجب أن نفع بالتناقض ، إذ كيف يكون الله خيراً رحيماً رؤوفاً ويخلق مع  
 ذلك الشر ؟ أو كيف يصدر الشر عن الخير ، وكيف تصدر التعاسة والبؤس والآلام  
 عن الرحمة والرفقة ؟ .

يجيب الجاحظ على هذا الاعتراض بفكرة المحنة والاختبار وما الى ذلك عما سنلم  
 به في المنحى الخلفي .

بعد رد الجاحظ على منكري وجود الله من الطبيعيين ، وعلى أصحاب مذهب  
 الأنينية من المنانية ، يتقل الى الجانب الإيجابي في الموضوع وهو ايراد الأدلة على وجود  
 الله . فما هي تلك الأدلة التي جاء بها .

الدليل الأول على وجود الله هو النظام الذي نراه في العالم : ان « أولى العبر هيئة  
 هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما عليه . فلنك إذا تأملت العالم بفكرك وجدته  
 كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده : السماء مرفوعة كالسقف ، والأرض محدودة

كالبساط ، والنجوم منضودة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة في معادنها كالذخائر . . .  
والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه ، وضروب النبات مهياة لأربه ، وصنوف  
الحيوانات مصرفة في مصالحه . ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير  
وتدبير ونظام . وإن الخالق له واحد ، هو الذي الفه ونظم بعضه إلى بعض ، وذلك  
كما قال به الأولون فأحسنوا القول <sup>(١)</sup> .

يعترف الجاحظ أنه لم يتبع هذا الدليل ، بل سبقه إليه الأولون فأحسنوا القول  
فيه ، ولكنه لم يسم هؤلاء الأولين ، والأرجح أنه يقصد بهم الفلاسفة اليونان الذين  
اعتمدوا هذا الدليل ومنهم افلاطون وأرسطو .

إن تصور الجاحظ لهيئة العالم وتأليف أجزائه ينطوي على خيال رائع . فهو  
يشبه العالم بالبيت : السماء بمثابة السقف ، والأرض بمثابة البساط والنجوم بمثابة  
المصابيح ، وجواهر الأرض كالذخائر ، وضروب النبات والحيوانات مهياة لخدمة رب  
البيت وهو الإنسان . إن ما يسترعي الانتباه هو المركز الذي تبوأه الإنسان فيه : أنه  
مركز رفيع جداً يأتي في المرتبة الثانية بعد الله . فهو سيد هذا العالم سخر له كل ما فيه  
ينعم به ويتصرف بمقدراته . هذه الفكرة هي التي نفحت الفلسفة الحديثة بالنزعة  
الإنسانية المميزة ، فأصبح الإنسان هو موضوع الفلسفة الرئيسي ومقياس القيم .

والدليل الثاني هو دليل العناية ويسميه الجاحظ دليل الحكمة والصواب قائلاً :  
« ولكننا ننصرف إلى فن آخر من دقائق الخلقة فنبين عما فيه من الصواب والحكمة مع  
النظام والملاءمة » <sup>(٢)</sup> . ولقد أشار أبو عثمان كثيراً إلى هذا الدليل في كتاب الحيوان ،  
ولكنه جعله في كتاب « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » موضوعه الرئيسي .

يقدم الجاحظ أمثلة عديدة تبين مقدار تدبير الله وحكمته في خلقه . منها النار

١ - الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ، ص ٣ .

٢ - المصدر ذاته ، ص ١١ .

التي تكمن في الأشياء إذا ظهرت جميعاً أحرقت العالم ، فيخرجها الإنسان تبعاً لقضاء حاجاته الضرورية <sup>(١)</sup> .

ومن الأمثلة على التدبير والعناية الالهية الأصوات التي تحدث من اصطكاك الأجسام في الهواء فينقلها الهواء إلى السامع ، ومع أن البشر يتكلمون في حوائجهم طوال نهارهم وبعض ليهم فإن هذه الأصوات تتلاشى ولا يحتفظ بها الهواء ، ولو كان يحتفظ بها لامتلاء منها حتى يكرهنا ولاحتجنا إلى استبداله أكثر مما نحتاج إلى استبدال الفراطيس <sup>(٢)</sup> .

ومنها شبه القرد بالإنسان في الشكل : الرأس والوجه والصدر والنتنن والأحشاء والحركات ، ومحاكاة الإنسان القرد في الفطنة والذهن والشائلل <sup>(٣)</sup> .

ومنها الحواس الخمس التي جعلت في الرأس كالمصابيح فوق المارة لتمكن المرء من مطالعة الأشياء . وجعلت المحسوسات خمساً كل حاسة تدرك شيئاً محسوساً معيناً دون غيره <sup>(٤)</sup> .

ومنها أيضاً قوى النفس الإنسانية من عقل ووهم وحافظة وغيرها . أضف إلى ذلك المنطق الذي يعبر به الإنسان عن ضميره ويفهم غيره <sup>(٥)</sup> .

بيد أن دليل العناية أو الحكمة يلاقي اعتراضات عدة يحاول الجاحظ أن يرد عليها واحداً تلو الآخر .

الاعتراض الأول يذهب إلى أننا نجد في الناس نزعة إلى الشر وهم يقدمون على

---

١- المصدر عينه ، ص ١١ .

٢- الدلائل والإعبار ، ص ١٢ - ١٣ .

٣- المصدر عينه ، ص ٣٣ .

٤- المصدر عينه ، ص ٤٧ .

٥- المصدر عينه ، ص ٥٨ .

أعمال مؤذية وقلها وجدنا إنساناً كاملاً معصوماً عن الخطأ والمعصية ، فأبي تدبير وحكمة في خلقه على هذه الصورة ؟ يرد الجاحظ قائلاً : « إذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ولا يستحق الثواب عليها » <sup>(١)</sup> . وهو يعني انه بدون هذه الطوائع والميول المختلفة التي وجدت في الإنسان لا يكون ثمة معنى للامتحان والاختبار والثواب والعقاب . ولو كان كاملاً معصوماً عن الخطأ لما ارتكب خطيئة أو اقترف اثماً وبالتالي أصبح البشر سواسية في الفضل والبراءة .

والإعتراض الثاني يقول : اننا نلقى في العالم آفات كثيرة من أمراض ونكبات وهذا واقع يتناقض مع حسن التدبير . يجيب الجاحظ : إنها تحدث هذه الآفات والأمراض والأحداث لكي لا يركن الناس إلى طول السلامة فيغفلوا الفاجر في الركون إلى المعاصي ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر . فإن هذين الأمرين جميعاً يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة <sup>(٢)</sup> .

والإعتراض الثالث يذهب إلى أن هذه الآفات تصيب البر والفاجر وقد تصيب البر ويسلم منها الفاجر ، فكيف يكون هذا التدبير من الحكم ، وما الحجة في ذلك ؟ ويأتي جواب الجاحظ على الوجه التالي : ان الآفات وان كانت تنال الصالح والطالح جميعاً بلا تمييز فإن الله يجعل في ذلك صلاحاً للصنفين كليهما ، أما الصالحون فلان الذي مسهم من هذا يذكرهم نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر . وأما الطالحون فإن مثل هذا اذا نالهم كسر شرهم ووزعهم من المعاصي وعن الفواحش ، وكذلك يجعل لمن سلم منها من الصنفين صلاحاً في ذلك . . . وجملة القول أن الخالق تعالى يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير والمنفعة . . <sup>(٣)</sup> .

١ - المصدر عينه ، ص ٦٩ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٧٠ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٧٠ .

والاعتراض الرابع يتعلق بالموت الذي ينغص حياة الإنسان ويتهدها دائماً حتى يقضي عليها في النهاية مولداً الحشرات للأصدقاء والأقارب ، فلم لا يكون المړه غلداً في هذه الدنيا ؟ يجب الجاحظ انه لو كان كل رجل دخل العالم بقي فيه لضاقت الأرض بالبشر ولاحتاجوا الى المساكن والمزارع والمعايش الى جانب ما سيغلب عليهم من الحرص والشدة وقساوة القلوب ، ثم انهم سيملون الحياة <sup>(١)</sup> .

والاعتراض الخامس يتعلق بالظلم . كيف يكون في العالم تدبير ونحن نجد الناس بين عزيز وضعيف ، والقوي يظلم الضعيف ، ونجد الفاسق معافى موسعاً عليه دون أن يلقي عقوبة وهو الظالم المعتدي ؟ يجب الجاحظ ان هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاختبار والتجربة التي فضل بها الإنسان على الحيوان . ثم ان القوي والفاسق والمعتدي كثيراً ما يلاقون نتيجة أعمالهم في هذه الدنيا ويتنصف منهم المظلومون <sup>(٢)</sup> .

وأخيراً وامام كثرة الاعتراضات يعيا الجاحظ عن الإجابة منذرناً باننا لا ندرك دائماً كنه تدبير الله ومجاريه ، ونسمعه يردد : « ثم نقول أيضاً انه اذا كان القياس يوجب والشواهد تشهد بان للأشياء خالقاً حكيماً قادراً ، فما يمنعه أن يدبر خلقه . فإنه لا يصح في القياس أن يكون الصانع يهمل صنعته الا لإحدى خلال ثلاث : إما عجز وإما جهل وإما شرارة . وكل هذا محال في صنعة الخالق القديم تعالى ذكره . وذلك أن الفاجر لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه الخلائق العجيبة الجليلة ، والجاهل لا يهتدى لما فيها من الصواب والحكمة ، والشرير لا يتطول بخلقها وإنشائها . فإن كان هذا هكذا وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة وان كنا لا ندرك كنه ذلك التدبير ومجاريه . فإن كثيراً من تدبير الملوك لا يفهمه العامة ولا يدرك أسبابه ،

---

١ - المصدر منه ، ص ٧١ .

٢ - المصدر منه ، ص ٧١ .

لانه لا يعرف داخلة أمر الملوك وأسرارهم ، فإذا عرف سببه وجده صواباً قائماً على القياس والمحنة . . . (١) .

## ب- النبوة :

اهتم علم الكلام بمسألة النبوة كما اهتم بمسألة الله . وذلك لان النبي هو صلة الوصل بين الله والإنسان . فهو الذي يتلقى من الله الوحي وينقله الى الناس . وقد آمن الجاحظ كما آمن المسلمون بان الله نزل القرآن - كتابهم المقدس - على محمد بن عبدالله النبي الأمي المكتمل الصفات الخلقية بواسطة الملاك جبريل (٢) . وان النبي بشر بالإسلام ونشر لواءه بعد جهاد طويل فوق بطاح الجزيرة العربية ، وبذلك يكون قد أخرج العرب من جاهليتهم ، واتخذ من خيرة صحابته أعواناً على الدعوة وتنظيم المجتمع الجديد ، وهؤلاء ساروا على هدى الكتاب والسنة والإجماع حتى كان مقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث فذر الخلاف ونشأت البدع (٣) .

يعتبر الجاحظ النبي محمداً انساناً كسائر الناس لا يختلف عنهم الا بحمل الرسالة وبالكمال الخلفي وبالحكمة : « كان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويلبس العباء ، ويجالس المساكين ، ويمشي في الأسواق ، ويتوسد يده ، ويقص من نفسه ، ويلطع أصابعه ، ولا يأكل متكئاً ، ولم ير قط ضاحكاً ملء فيه ، وكان يقول : إنما انا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأشرب كما يشرب العبد ، ولو دعيت الى ذراع لأجبت ، ولو اهدي لي كراع لقبلت . ولم يأكل قط وحده ، ولا ضرب بيده ، ولا ضرب احداً بيده الا في سبيل ربه . ولو لم يكن من كرم عفوه وثخانة حلمه إلا ما كان فيه يوم فتح مكة ، لقد كان ذلك من أكمل الكمال وأوضح البرهان . وذلك

---

١ - الدلائل والاعتبار ، ص ٧٣ ، أنظر الفقرة هـ من هذا الفصل حيث عرضنا للطابع المميز للملاحظة بعنوان مجمل القول في الملاحظة .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩ .

٣ - آثار الجاحظ ، ص ١٣٥ .

انه حين دخل مكة عنوة ، وقد قتلوا اعمامه وبني اعمامه وأولياءه وأنصاره بعد أن حصروه في الشعاب ، وعذبوا أصحابه بأنواع التعذيب ، وجرحوه في بدنه وأذوه في نفسه ، وسفهاوا عليه وأجمعوا على كيدته ، فلما دخل بغير حدهم ، وظهر عليهم على صغر منهم قام خطيباً فيهم فحمد الله واثنى عليه ثم قال : أقول لكم كما قال اخي يوسف : لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين <sup>(١)</sup> .

عدا هذه الصفات الخلقية الرفيعة من كرم ورأفة ورصانة وزهد وتسامح ، كان النبي محمد حكيماً لم يتفوه مثل كلامه عربي ولا عجمي : « وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي ولا شاركة فيه عجمي ، ولم يدع لأحد ولا ادعاه احد ، مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً . فمن ذلك قوله : يا خيل الله اركبي . وقوله مات حتف انفه . وقوله : لا تتطحن فيه عثران . وقوله : الآن هي الوطيس . الخ . . . » <sup>(٢)</sup> .

يعتبر الجاحظ كلام النبي مثال البلاغة لانه كلام قل عدد حروفه وكثرت معانيه ، وجل عن الصنعة ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن المهجين السوقي ، فلم ينطق النبي إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق <sup>(٣)</sup> .

وقد أثبت أبو عثمان للنبي عدداً من الخطب البليغة كما أورد له في تضاعيف كتبه أحاديث كثيرة اعتبرها مصدراً من مصادره يستقي منها ولا يشك في صحتها . مثلاً على ذلك : قال ﷺ : « من رضي رفيقه فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه ، فلا تعذبوا خلق الله » - صالح المري عن الحسن البصري ، قال : قال رسول الله ﷺ « حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا البلاء بالدعاء » ، وعن

١ - البيان والبيان ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

٢ - المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

٣ - المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

عبد ربه بن أعين ، عن عبدالله بن ثمامة بن أنس ، عن جده ، قال رسول الله ﷺ :  
« قيدا العلم بالكتاب » (١) .

وبشأن جهل النبي للقراءة والكتابة يأتي الجاحظ برأي طريف ، وهو أن الله منع نبيه ﷺ ذلك ، وجعل الخط فيه دنية وصد العلم به عن النبوة (٢) .

وبصدد فهم النبي كلام السباع والإبل يقول الجاحظ ان هذه الحيوانات لم تنطق بحروف مقطعة ، ولكن النبي عرف ما تريده بالفراصة ، والاستدلال بالظاهر على الباطن ، وبالهينة والحركة ، واما بالإلهام واما بالوحي من قبل الله . وقد أورد هذا التعليل بمعرض حديثه عن تكليم الأنبياء للحيوانات ، ومنهم النبي محمد والنبي سليمان .

وكذلك لا ينكر الجاحظ الأعلام بالنبوة ، وهي الإشارات التي تدل مسبقاً على مجيء النبي في عصر من العصور : « الأعلام ضروب ، فمنها ما يكون كالبشارة في الكتب ، لكون الصنعة اذا وافقت الصفة التي لا يقع مثلها اتفاقاً وعرضاً لزمّت فيه الحجة ، وضروب آخر كالإرهاص للأمر والتأسيس له ، وكالتعبيد والترشيح . فإنه قل نبي إلا وقد حدثت عند مولده أو قبل مولده أو بعد مولده أشياء ولم يكن يحدث مثلها ، وعندئذ يقول الناس : أن هذا دليل ، وان هذا ليراد به أمر وقع أو سيكون لهذا نبأ ، كما تراهم يقولون عند الذوائب التي تحدث لبعض الكواكب في بعض الزمان . فمن الترشيح والتأسيس والتفخيم شأن عبد المطلب عند القرعة ، وحين خروج الماء تحت ركة جملة وما كان من شأن الفيل والطير الأبايل ، وغير ذلك مما اذا تقدم زاد في نبه ، وفي فخامة أمره ، والمتوقع أبداً معظم » (٣) .

١ - البيان والنبين ، ج ٢ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

٢ - ذم أخلاق الكتاب (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٩٠) .

٣ - الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

ويعتقد الجاحظ أن الأنبياء يموتون الموتى<sup>(١)</sup> . ويرد على الدهرية الذين ينكرون مثل هذه الاعتقادات التي لا يقرها العيان وما يجري مجرى العيان قائلاً : « وهذا كله عند الدهري مستنكر ، وإنما كان يكون له علينا سبيل لو لم يكن الذي ذكرنا جائزاً في القياس واحتجنا الى تثبيت الربوبية وتصديق الرسالة . فإذا كان ذلك جائزاً وكان كونه غير مستنكر ولا محال ولا ظلم ولا عيب ، فلم يبق له الا أن يسألنا عن الأصل الذي دعا الى التوحيد وإلى تثبيت الرسل . وفي كتابنا المنزل الذي يدل على انه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به »<sup>(٢)</sup> .

ثم ان الجاحظ - انسجماً مع تسليمه بما يتعلق بالنبوة من أخبار واعتقادات - يورد خبر جبريل الذي كان يمشي في الأرض على صورة دحية الكلبي زمن النبي محمد ، وخبر إيليس الذي كان يتراءى آنذ في السكك في صورة سراق المدلجي وصورة الشيخ النجدي . ومثل هذا كثير مما لا يحدث الا في زمن الأنبياء ، ونزول الوحي<sup>(٣)</sup> .

وهناك ناحية وقف عندها الجاحظ طويلاً وأولاهها الكثير من عنايته وهي ما اسماه حجج النبوة . لقد وضع كتاباً بهذا الاسم انتهى إلينا بعضه يبحث فيه عن البراهين التي تدل على نبوة محمد . والسبب الذي حمله على تأليف هذا الكتاب وجمع حجج الرسول وتفصيلها لا يعود لنقص مسها أو لوهم كان في أصلها من ناقلها والمخبرين عنها ، أو لان طعن الملحدين نهكها وفرق جماعتها<sup>(٤)</sup> ، وإنما السبب هو تدوينها وتنظيمها لينشط الى تفهمها وحفظها الناس « فلعل بعضهم أن يكون قد كان عرف فني أو تهاون بها فعمي ، بل لا نشك انها إذا كانت مجموعة بحبرة مستقاة

١ - المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

٢ - المصدر عنه ، ص ٩٠ .

٣ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

٤ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٤٢) .

مفصلة ، انها ستزيد في بصيرة العالم ، ويجمع الكل لمن كان لا يعرف الا البعض ويذكر الناس ويكون عدة على الطاعن . ولعل بعض من لحد في دينه وعمي عن رشدته وأخطأ موضع حفظه ان يدعو العجب بنفسه والثقة بما عنده الى أن يلتمس قراءتها ليتقدم في نقضها وافسادها ، فإذا قرأها فهمها ، وإذا فهمها انتبه من رقدته وأفاق من سكرته لعز الحق وذل الباطل ولإشراف الحجة على الشبهة <sup>(١)</sup> .

وينحي الجاحظ باللوم على الذين جمعوا القرآن ودونوه وحفظوه وأهملوا جمع حجج النبوة ، ولو انهم جمعوا علامات النبي وبراهينه وأنواع عجائبه لوفروا عليه مؤونة البحث والتنظيم ولما استطاع أحد من معاصريه أن يشك في وجودها وصحتها سواء كان زنديقاً أو دهرياً أو معانداً أو ماجناً أو مخدوعاً أو حدثاً مغروراً أو ضعيفاً أو متطرفاً <sup>(٢)</sup> . ويعزو سبب احجام السلف عن جمع علامات النبوة الى ظهورها واستفاضة أمرها بينهم بحيث انهم لم يخطر لهم ببال انه سيأتي زمن ينسى فيه الناس علامات النبوة لتباعد الدهور بينهم وبين عهد النبي .

أما السر في جهل الناس لعلامات النبوة في زمن الجاحظ فيكمن في ضعف العناية وقلة المبالاة والغرارة والحدائث ، ثم إقبالهم على دقيق الكلام قبل علمهم بجليله ، فضلوا السبيل لانهم قدموا الفرع على الأصل <sup>(٣)</sup> .

ثم أن الجاحظ يورد الحجج التالية التي تدل على النبوة :

أولاً : اتفاق الناس على مجيء النبي محمد في زمن معين وبلاد معينة على الرغم من اختلافهم في الطبائع <sup>(٤)</sup> . وينطلق أبو عثمان من مسلمة أو فرض يجتهد في تحقيقه وتثبته وهو « أن العدد الكثير من الناس المختلفي العلل المتضادني الأسباب المتفاوتي

١ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨) .

٢ - المصدر فيه ، ص ٢٤٤ .

٣ - المصدر فيه ، ص ٢٤٤ .

٤ - المصدر فيه ، ص ٢٥٧ .

الهمم ، يتفقون على تخرص الخبر الواحد في المعنى الواحد «<sup>(١)</sup> فهو يبرهن على أن الناس مختلفو الطباع ، وإن الله إنما خالف الطبائع ليوفق بينهم لانه لا يستقيم لهم معاش اذا كانت طباعهم متشابهة «<sup>(٢)</sup> . فإذا وجدناهم متفقين في مسألة ما أو خبر ما فمعنى ذلك أن هذا الخبر أو هذه المسألة صحيح . وإذا سأله سائل : كيف تكون الأخبار حجة وهي ليست معجزة ، ويستطيع الناس في كل عصر ان يحركوا الأخبار ويولدوها ويضعوها ؟ فيجيب الجاحظ أن الأخبار بذاتها ليست بحجة ، وإنما مجيء الأخبار هو الحجة ، والمجيء ليس أمراً مرهوناً بإرادة الناس ان أرادوا فعلوه وإن لم يريدوا تركوه . ان « المجيء أيضاً ليس هو فعلاً قائماً فيستطيعوه أو يعجزوا عنه ، وإنما هو الإنسان يعلم انه اذا لقي البصريين فأخبروه أنهم قد عاينوا بمكة شيئاً ، ثم لقي الكوفيين فأخبروه بمثل ذلك انهم قد صدقوا إذ كان مثلهم لا يتواطأ على مثل خبرهم على جهلهم بالغيب وعلى اختلاف طبائعهم وهممهم وأسبابهم «<sup>(٣)</sup> .

وإذا قال قائل : ان المنجمين ربما أتوا بالأخبار ، أجاب الجاحظ ان خطأ المنجمين كثير وصوابهم قليل ، ونحن لا نقدر أن نقف من أخبار المرسلين على خطأ واحد . . . والناس الذين يكذبون في الأخبار عن الأعراب والكهان هم في أخبارهم عن المنجمين أكذب «<sup>(٤)</sup> .

ثانياً : الاخبار عن الغيب والدعاء المستجاب : يعتبر الجاحظ من جملة حجج نبوة محمد « اخباره عما يكون واخباره عن ضمائر الناس وما يأكلون وما يدخرون ودعاؤه المستجاب الذي لا تأخير فيه ولا خلف «<sup>(٥)</sup> . فمن ذلك أنه دعا الله أن يجذب بلاد العرب عندما اشتد اذاهم له فأمسك الله عنهم المطر حتى مات الشجر

١ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٥٠ - ٢٥٥) .

٢ - المصدر عينه ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٢٥٨ .

٤ - المصدر عينه ، ص ٢٥٩ .

٥ - المصدر عينه ، ص ٢٦٢ .

والمواشي ، ثم عاد النبي فسأل ربه الخصب والغيث فلبى سؤاله . ومن ذلك أن النبي كتب لى كسرى يدعوهُ إلى الإسلام فمزق كسرى كتابه ، فدعا النبي سائلاً الله أن يمزق ملكه كل ممزق « فمزق الله عز وجل ملكه وجذ أصله وقطع دابره » (١) .

ثالثاً : نظم القرآن : ان نظم القرآن أهم حجة على النبوة بنظر الجاحظ . وهو المعجزة الكبرى التي أتى بها النبي فلم يستطع أحد أن يعارضه أو يأتي بمثله . وهذا هو مفهوم المعجزة « ان الحجة لا تكون حجة حتى تعجز الخليفة وتخرج من حد الطاقة كإحياء الموتى والمشي على الماء ، وقلق البحر ، وإطعام الثار في غير أوانها ، وإنطاق السباع وإشباع الكثير من القليل ، وكل ما كان جسماً مخترعاً وجرماً مبتدعاً » (٢) .  
وكالذي لا يتولاها الا الخالق ، ولا يقدر عليه إلا الله عز وجل ذكره .

ويمضي الجاحظ في تبيان كون القرآن معجزة تدل على النبوة ولا تقل شأنًا عن معجزة فلق البحر في العين فيقول ان النبي تحدى العرب قاطبة مع ما فيهم من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاة وأصحاب الرأي والمكيدة والتجارب والنظر في العاقبة قائلاً لهم « ان عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي وصدقتم في تكذبي » (٣) . فلم يستطع أحد من العرب في عصر النبي أو بعده أن يقلد القرآن ، وهم الذين عرفوا باللسن والبلاغة وأصناف النظم وحروف التأليف كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس والاسجاع والمنثور ، كما عرفوا بعدائهم للنبي وهجوه ومنازعة وتسفيهه . وكان أيسر عليهم أن يأتوا بسورة تحكي سور القرآن من محاربهه والتضحية بالأرواح والأموال في سبيل مقاومته (٤) .

كيف يفسر إذن عدم معارضتهم القرآن اذا كانوا يقدرون على ذلك ؟ يقول

١- حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٦٣) .

٢- المصدر عينه ، ص ٢٦٤ .

٣- المصدر عينه ، ص ٢٦٤ .

٤- المصدر عينه ، ص ٢٦٥ .

الجاحظ : ان أمرهم في ذلك لا يعدو احد شيتين : اما أن يكونوا عرفوا عجزهم فأضربوا عن محاولة التقليد لكي لا يتكشف أمرهم فلا يجدون سبيلاً الى اختداع الناس وهم الذين ادعوا القدرة على محاكاة القرآن كما يبدو من قوله تعالى : ﴿ واذ تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ . واما أن يكونوا قادرين على المعارضة ولكنهم انصرفوا عنها ، وهذا لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والحكماء مع اختلاف عللهم وبعد همهم وشدة عداوتهم على بذل الكثير وصون السير أن يطبقوا على ترك المعارضة ، ولا سيما أن النبي قد تحداهم <sup>(١)</sup> .

أما لماذا اختار الله هذه المعجزة وظهرها على لسان نبيه ولم يختار معجزة غيرها كخلق البحر أو قلب العصا حية أو احياء الموتى كما هو الحال بالنسبة الى موسى وعيسى فيجيب الجاحظ أن مرد ذلك الى أحوال الناس العقلية والاجتماعية التي تختلف بين عصر وآخر وشعب وسواه : « وإنا نكثر العلامات وتعظم على قدر طبائع أهل الزمان وعلى قدر الأسباب التي تتفق وتتهيا لقوم دون قوم ، وهو أن يكونوا جبابرة عتاة أو اغبياء منقوصين أو علماء معاندين أو فلاسفة محتالين أو قوماً قد شملهم من العادات السيئة ، وتراكم على قلوبهم من الالف للأمور المردية مع طول لبث ذلك في قلوبهم ، أو تكون نحلتهن وملتهن ودعوتهم تحتل من الأسباب والاحتيالات اكثر مما يحتمل غيرها من ذلك » <sup>(٢)</sup> .

ويوضح الجاحظ فكرته هذه فيقول ان قوم فرعون كان اعجب الأشياء عندهم السحر ، ولم يكن اصحابه قط في زمان اشد استحكاماً فيه منهم في زمانه فبعث الله فيه موسى لإبطاله وتوحيده وكشف ضعفه واظهاره . ولو اتاهم بكل شيء ولم يأتهم بمعارضة السحر لما صدقوه . « وكذلك زمن عيسى عليه السلام ، كان الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطب ، وكان عوامهم تعظمه على خواصهم ، فأرسله الله عز

١ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٦٤) .

٢ - المصدر منه ، ج ٧ ، ص ٢١٩ .

وجلل باحياء الموتى ، إذ كانت غايتهم علاج المرضى وإبراء الأكمه . . . مع أعطاه الله عز وجل من سائر العلامات وضروب الآيات» (١) . وكذلك الحال بالنسبة لأهل عصر النبي محمد ، كان أغلب الأمور عليهم واحسنها عندهم وأجلها في صدورهم حسن البيان ونظمه ضروب الكلام ، فبعثه الله عز وجل فتحدهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرين على أكثر منه ، فلم يزل يقارعهم بمعجزهم وذلك من أعجب ما أناء الله نبياً قط مع سائر ما جاء من الآيات والبراهين ، ولكل شيء باب ومأتى واختصار وتقريب . فمن أحكم الحكمة ارسال كل نبي بما يفهم أعجب الأمور عندهم ويبطل أقوى الأشياء في ظنهم (٢) .

رابعاً : الأخلاق الرفيعة التي لم تجتمع لأحد : يعتقد الجاحظ أن اجتماع المناقب الخلقية والحميدة في النبي آية على نبوته . لقد تولى النبي محمد بصفات سامية لا نجدها عند مخلوق سواء : « وذلك انا لم نرو ولم نسمع لأحد قط كصبره ولا كحلمه ، ولا كوفائه ، ولا كزهده ، ولا كجوده ، ولا كنجده ، ولا كصدق لهجته وككرم عشرته ، ولا كتواضعه ولا كعلمه ، ولا كحفظه ، ولا كصمته اذا صمت ، ولا كقوله اذا قال ، ولا كمجيب منشأه ، ولا كقلة تلونه ، ولا كعفوه ، ولا كدوام طريقته ، وقلة اقنائه » (٣) .

بقي علينا أن نشير الى فكرة قال بها الجاحظ ، وهي ضرورة بعث الأنبياء الى الناس لانهم لا يدركون مصالحهم بأنفسهم ولا يشعرون بمواقب أمورهم بغرائزهم دون أن ترد عليهم آداب المرسلين وكتب الأولين والأخبار عن القرون والجبابة الماضين (٤) . وهذا يعني أن عقل الإنسان عاجز عن ادراك التعاليم الدينية بنفسه دون واسطة

١ - المصدر عينه ، ص ٢٦٧ .

٢ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٦٨) .

٣ - المصدر عينه ، ص ٢٦٨ .

٤ - المصدر عينه ، ص ٢٥٠ .

الأنبياء وكتبهم وسنتهم . ثم ان الجاحظ يربط بين التكليف ومعرفة تعاليم الدين ، ويقول ان الله أراد من الناس العبادة وكلفهم الطاعة وأرسل إليهم رسله وبعث فيهم أنبياءه وقال : « لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١) .

ولعل اعتقاد الجاحظ بمعجز العقل عن ادراك الله وتعاليمه بدون مساعدة الأنبياء هو الذي ادى به الى التسليم بمثل هذه الأخبار اللاعقلانية عن النبوة . وموقفه هنا يختلف عن موقفه العقلاني من المسائل الطبيعية .

## ج - الإمامة :

الإمامة من المسائل الخطيرة في الفكر الإسلامي . فهي الى جانب كونها موضوعاً هاماً من موضوعات علم الكلام تعتبر سبباً رئيسياً من أسباب نشوء الفرق الكلامية والمذاهب الفكرية . بعد وفاة الرسول انقسم المسلمون فريقين حول من يخلفه : فريق أيد أبا بكر بالخلافة وفريق فضل علياً بن أبي طالب عليه السلام ، وهذا الفريق الأخير كوّن نواة مذهب الشيعة وظل يناضل حتى أوصل علياً الى سدة الخلافة . وما لبث أن غلب على أمره بعد مصرع علي ، بيد أنه بقي على ولائه لأبنائه ونادى بنظرية الإمامة . وفي عهد علي ظهرت فرقة الخوارج وهي قسم من جيشه انشقوا عنه بسبب التحكيم وكفروه لقبوله به ، وفي هذا العصر أيضاً ظهرت فرقة المرجئة (٢) الذين آثروا أن يقفوا على الحياد في الصراع الناشب على الخلافة بين الأمويين والعلويين والخوارج . أما البكرية أو العثمانية كما ساهم الجاحظ أو الذين والوا أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان فقد شكلوا طليعة مذهب أهل السنة والجماعة . وأما المعتزلة فهم جماعة من المفكرين الذين حكموا العقل في المسائل الكلامية المطروحة ووقفوا موقفاً وسطاً بين الفرق في مسألة الخلافة .

١ - المصدر عنه ، ص ٢٥١ .

٢ - من المرجئة ، راجع الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ١٤٦ ، البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ١٩٠ .

١ - ما هي الإمامة : الإمامة هي الخلافة ، والخلافة هي رئاسة المسلمين ، فالإمام هو الخليفة وهو الذي يلي شؤون المسلمين ويؤسسهم ويدبر أمورهم الدينية والدنيوية . وقد سمي خليفة لأنه خلف الرسول أو جاء بعده وتبوا مركزه في رئاسة الأمة ، وسمي إماماً لأنه يتقدم الناس في المكانة السياسية ويؤمهم في الصلاة <sup>(١)</sup> .

لقد استعمل الجاحظ كلمة الإمامة في جميع هذه المعاني التي ذكرنا . فالإمام هو القائد والحكم والقوة : « اتخذوا كتاب الله إماماً ، وارضوا به حكماً ، واجعلوه قائداً » <sup>(٢)</sup> . وهو الذي يقف امام المصلين « إذا انتقل الإمام من الصلاة فصادف زحاماً ومسجداً مستوراً بالبواري » <sup>(٣)</sup> .

اهتم الجاحظ بمسألة الإمامة في مطلع حياته الفكرية فألف عدداً من الرسائل والكتب حولها وهو في البصرة قبل انتقاله الى بغداد واتصاله بالمأمون <sup>(٤)</sup> . وقد أشار الى أن هذه الكتب اطلع عليها المأمون وأعجب بها ، وقد استقدم الجاحظ الى قصره واحتفى به وقربه بسبب ذلك « ولما قرأ المأمون كتيبي في الإمامة فوجدتها على ما أمر به . . . » <sup>(٥)</sup> . لقد ضاعت هذه الكتب ولم يبق منها سوى شذرات سنحاول أن نتبين رأي الجاحظ في الإمامة من خلالها .

٢ - ضرورة الإمامة : ينطلق الجاحظ من فكرة اساسية هي أن الناس بحاجة الى إمام يعرفهم مصالحهم الدينية والدنيوية <sup>(٦)</sup> ، لانهم يرايه عاجزون عن إدراك تلك

١ - ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩١ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

٣ - الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

٤ - راجع حول الإمامة :

Pellat , L'imamat dans la doctrine de Gahiz in studia islamica , Vol. XV, 1962, PP.23-52.

٥ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

٦ - استنفاي الإمامة آثار الجاحظ ، ص ١٤٤ .

المصالح بأنفسهم<sup>(١)</sup> . ولماذا يعجز الناس عن إدراك مصالحهم بأنفسهم؟ يجب الجاحظ أن عاجزهم متأث عن جراح طبائعهم وغلبة شهواتهم وكثرة جهلهم وشدة نزاعهم<sup>(٢)</sup> . وإذا قيل له : أليس لهم عقول يستطيعون بها معرفة هذه المصالح ؟ يرد قائلاً : نعم أن للناس عقولاً لى جانب الغرائز والشهوات ، ولكنها لا تقوى على كبح جماح تلك الشهوات اذا لم تساعد بالتعليم والتجربة ولم تدفع الى النظر والتنقيب<sup>(٣)</sup> .

يستوي هذا الأمر في المصالح الدينية والمصالح الدنيوية : « ولو أن الناس تركهم الله تعالى والتجربة وخلاهم وسير الأمور وامتحان السموم واختبار الأغذية ، وهم على ما ذكرنا من ضعف الجيلة وقلة المعرفة وغلبة الشهوة وتسלט الطبيعة مع كثرة الحاجة والجهل بالعاقبة لأثرت فيهم السموم ولافناهم الخلط ولأجهز عليهم الخطب ولتولدت الأدواء وترادفت الاسقام حتى تصير منايأ قاتلة وحترفاً متلفة ، إذ لم يكن عندهم الا أخذها والجهل بحدودها ، ومنتهى ما يجوز فيها والزيادة فيها وقلة الاحتراس من توليدها . فلما كان ذلك كذلك علمنا أن الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم الا لصالحهم ، ولا يجوز صلاحهم الا بتنقيتهم ، ولولا الأمر والنهي لما كان للتنقية وتعديل الفطرة معنى »<sup>(٤)</sup> .

هذا في شؤون الدنيا ، أما في شؤون الآخرة فعجز الناس أعظم لان علم الدنيا مباشر وعلم الدين غامض لا يخلص المرء الى معرفته إلا بالطبيعة الفائقة والعناية الشديدة مع تلقين الاثمة . ويعطي الجاحظ مثلاً مقارناً فيقول انه اذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحبه للبقاء ورغبتهم في النماء وحاجتهم الى الكفاية ومعرفتهم بما فيها من السلامة لا يبلغون بأنفسهم معرفة ذلك واصلاحه ، وعلم ذلك جلي ظاهر سببه متصل ببعضه ببعض كدرك الحواس وما لاقاها ، فهم عن التعديل والتجوير

١ - استنطاق الإمامة ، آثار الجاحظ ، ص ١٤٤ .

٢ - المصدر عينه ، ص ١٤٣ .

٣ - حجج النبوة ، (آثار الجاحظ ، ص ٢٤٩ .

٤ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ١٤٣ - ١٤٤) .

وتفضيل التأويل والكلام في مجيء الأخبار وأصول الأديان أعجز واجدر الا يلغوا منه الغاية ولا ينالوا منه الحاجة لان علم الدنيا أمران : اما شيء يلي الحواس واما شيء يلي علم الحواس ، وليس كذلك الدين « (١) .

والدليل على أن الناس لا يلغون بأنفسهم غاية مصالحهم في دينهم ودنياهم هو ارسال الأنبياء اليهم من لدن الله . فلو كانوا يستطيعون بحقولهم معرفة مصالحهم لكان ارسال الرسل قليل النفع يسير الفضل أو لم تكن ثمة حاجة لبعثهم (٢) .

ولا بد من الإشارة هنا الى أن الجاحظ أقل ثقة بعقل الإنسان من سائر المعتزلة فهو برأيه عقل عاجز عن معرفة الكثير من أمور الدين والدنيا معاً . وإذا كان هذا الرأي مقبولاً فيما خص الدين فإنه غير مقبول فيما خص شؤون الدنيا لان الإنسان استطاع بتفكيره وتجاربه أن يتقدم في ميادين العلوم المختلفة ، وان يبني الحضارات العريقة الشامخة .

وثمة فكرة أخرى لم يحالفه فيها التوفيق وهي زعمه أن الإمام يلقي الناس علوم الدنيا الى جانب علوم الدين . ونحن نعلم أن الأديان ورجالها اهتموا بالشؤون الدينية بينما نشأت العلوم الدنيوية المختلفة وتسرقت على أيدي الباحثين الذين لم يهتموا بالعلوم الدينية ولم يأخذوا معارفهم عن علماء الدين وكتبهم كعلوم الطب والفيزياء والرياضيات والطبيعات .

٣- مهام الإمام : للإمام مهام عديدة وهي تهدف في مجملها ، كما قلنا ، الى إرشاد الناس لمصالحهم الدنيوية والدينية وتبدير أمورهم .

ان أولى هذه المهام تنبيه الرعية وتحذيرها من الأعمال الشريرة وايضاح الطرق المؤدية الى الحق والصلاح والوعد بالثواب : « وعلى الجواد ذي الرحمة في جوده ورحمته أن

---

١- إستحقاق الإمامة ، (آثار الجاحظ ، ص ١٤٤) .

٢- المصدر عينه ، ص ١٤٤ .

يفعل ما هو أفضل في الجود وابلغ في الإحسان والطف في الانعام من ايضاح الحجة وتسهيل الطرق والإبلاغ في الموعظة مع ضمان الوعد بالغاية من الثواب والدوام واللذة والتوعد بغاية العقاب في الدوام بالمكروه ، إلى عباده الذين كلفهم طاعته وأهل الفاقة إلى عائدته ونظره وإحسانه ، فإن قبل ذلك قابل فقد أصاب حظه ، وإن أبى ذلك فلنفسه ظلم ، وقد صنع الله به ما هو أصلح وإن لم يستطع العبد نفسه <sup>(١)</sup> .

وثانيها محاربة الفساد بالضرب على أيدي السفلة والدعار وهمج العوام حتى يستريح الضعيف ويأمن الخائف وينتشر التاجر <sup>(٢)</sup> . والعقوبات التي يلجأ إليها الإمام عديدة ومختلفة ، منها القمع الشديد في الأجل والقصاص العادل ثم التنكيل في العقوبة على الخيانة ، ثم إسقاط القدر وإزالة العدالة مع الأساء القبيحة والألقاب المهينة ، ثم الإحافة الشديدة والحبس الطويل والتغريب عن الوطن ، ثم الوعيد بنار الأبد مع فوت الجنة <sup>(٣)</sup> .

ويعود الجاحظ إلى نعمة الطباع والشهوات والغرائز التي تدفع الإنسان إلى الآثام والشور . ويقول انه لا سبيل للوقوف في وجه طغيانها إلا إذا علم صاحبه أن فوقه ناقماً عليه ، وإن له متقماً لنفسه أو مقتضياً منه لغيره <sup>(٤)</sup> . وإن الناس لو تركوا شهواتهم وخلعوا أهواءهم وليس معهم في عقولهم إلا حصّة الغريزة ونصيب التركيب ثم أدخلوا من المرشدين والمؤدبين والمعترضين بين النفوس وأهوائها وبين الطباع وغلبتها على الأنبياء وخلفائهم لم يكن في قوى عقولهم ما يداوون به أدواءهم ويخبرون من أهوائهم ويقولون به لمحاربة طبائعهم ويعرفون به جميع مصالحهم <sup>(٥)</sup> .

١- استحقاق الإمامة ، (آثار الجاحظ ، ص ١٤٨).

٢- المصدر عينه ، ص ١٤٩ .

٣- المصدر عينه ، (آثار الجاحظ ، ص ١٥٤).

٤- المصدر عينه ، ص ١٥٥ .

٥- المصدر عينه ، ص ١٥٦ .

٤ - صفات الإمام : يجب أن تتوافر في الإمام صفات خلقية وعقلية تجعله أفضل أهل دهره <sup>(١)</sup> والسبب في ذلك هو أن من يتقدم الناس ويقودهم ويسودهم ينبغي أن يكون متحلياً بخصائص رفيعة تؤهله للقيام بهذه الرسالة السامية الصعبة . ثم إن الإمام هو خليفة رسول الله ﷺ ومن التعظيم لمقام رسول الله ﷺ إلا يقام فيه إلا أشبه الناس به في كل عصر ، ومن الاستهانة به أن يقام فيه من لا يشبهه وليس في طريقته <sup>(٢)</sup> .

هذا الشبه بين الإمام والرسول يقتصر على أخذ الإمام بسيرة الرسول . فأما مقارنة الرسول ومداناته فليس بجائز ، ولا ينبغي أن تمناه أو ندعوه به <sup>(٣)</sup> .

أما الصفات التي يجب أن يتحل بها الإمام فهي التالية :

١- العقل : وهو يعني راحة الفطنة والقدرة على التفكير السليم .

٢- العادات الحسنة : يعني بها الدرية على التفكير وحسن التصرف وممارسة شؤون الولاية ، مع الحزم والعزم .

وقد عبر الجاحظ عن مجمل هذه الصفات قائلاً : « فإن قالوا : فما صفة أفضلهم ؟ قلنا : أن يكون أقوى طبائعه عقله . ثم يصل قوة عقله بشدة الفحص وكثرة السماع ثم يصل شدة السماع وكثرة الفحص بحسن العادة ، فإذا جمع إلى عقله علماً وإلى علمه حزماً وإلى حزمه عزمًا فذلك الذي لا بعده . . . » <sup>(٤)</sup> .

واضح أن الجاحظ يخالف الزيدية الذين اشتروا في الإمام شروطاً مختلفة وقد عرض لهذه الشروط التي قالت بها الزيدية وهي التالية :

أ- القدم في الإسلام حيث لا رغبة ولا رهبة إلا من الله تعالى واليه .

١- المصدر عينه ، ص ١٥٨ .

٢- المصدر ذاته ، ص ١٥٨ .

٣- المصدر ذاته ، ص ١٥٨ .

٤- المصدر عينه ، (آثار الجاحظ ، ص ١٥٨) .

ب - الزهد في الدنيا لان أزهد الناس في الدنيا ارغبهم في الآخرة وآمنهم على نفائس الأحوال وعقائل النساء وإراقة الدماء .

ج - الفقه الذي به يعرف الناس مصالح دنياهم ومرشد دينهم .

د - المشيء بالسيف كفاحاً في الذب عن الإسلام وتأسيس الدين وقتل عدوه واحياء وليه <sup>(١)</sup> .

٥ - اختيار الإمام :

من ادق القضايا الطريقة التي يقام بها الإمام : قال الخوارج بالشورى ، وقال الشيعة بالوصية ، وقال أهل السنة بالبيعة من قبل أهل الحل والعقد . أما الجاحظ فقد ذهب مذهباً جديداً فيقول ان اختيار الإمام يقتصر على الخاصة دون العامة وذلك « لان العامة لا تعرف معنى الإمامة وتأويل الخلافة ، ولا تفصل بين فضل وجودها ونقص عدمها ، ولأي شيء اريدت ، ولأي أمر أملت ، وكيف مأتاها والسييل إليها ، بل هي مع كل ريح تهب وناشئة تنجم ، ولعلها بالمبطلين أقر عيناً منها بالمحقين . وإنما العامة أداة الخاصة تبتذلها للمهن وترجي بها الأمور وتوصل بها على العدو وتسد بها الثغور ، ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الإنسان من الإنسان . . » <sup>(٢)</sup> .

ان هذه النخبة أو الخاصة التي قال بها الجاحظ وفرق بينها وبين عامة الشعب وجعلها في مرتبة ارفع وحصر فيها حق اختيار الإمام هم العلماء ورجال الفكر على الأرجح .

ان سوء الظن بالعامة والشكوى من جهلها ظهر عند مفكرين آخرين جاؤوا بعد الجاحظ أمثال الغزالي وابن رشد وابن طفيل . ويعتبر من أقدم من قال بوجوب ابعاد العوام عن علم الكلام ، وقد صور تحبطهم فيه أبرج تصوير حيث يقول : « ولو برز عالم على جادة منهج وقارعة طريق فتازع في النحو واحتج في العروض وخاض في

١ - المصدر عينه ، ص ١٣٦ .

٢ - الضمائية ، ص ١٥٠ .

الفنيا وذكر النجوم والحساب والطب والهندسة وأبواب الصناعات ، لم يعرض له ولم يفاغحه إلا أهل هذه الطبقات ، ولو نطق بحرف في القدر حتى يذكر العلم والمشينة والاستطاعة ، وهل خلق الله الكفر وقدره ، أو لم يخلقه ولم يقدره ، لم يبق حال أعثر ولا بطل غث ، ولا خامل غفل ، ولا غبي كهام ، ولا جاهل ، إلا وقف عليه ولاحاه وصوبه وخطاه . . واستفوى أمثاله فأشعلوها فتنة وأضرموها ناراً<sup>(١)</sup> . ان العوام ينظر الجاحظ عاجزون عن فهم جوهر الدين ، ويرى أن معرفة العوام للدين ينبغي أن تقف عند حدود التنزيل المجرد بغير تأويل ، وجملة الشريعة بغير تفسير . أما تأويل المنزل وتفسير المجمل ، وغامض السنن فيجب أن يقتصر على الخاصة<sup>(٢)</sup> .

ان هذه الخاصة التي تتولى اختيار الإمام يجب عليها الاضطلاع بهذه المهمة والقيام بهذا الفرض . ولكن هذا الفرض يسقط عنها إذا حال دون ذلك سبب قاهر ومن الأسباب القاهرة يذكر الجاحظ وقوف العامة ضد الخاصة مع جند الباغي المتغلب وغموض المستحق للإمامة ، والتقية<sup>(٣)</sup> .

وكيف تعرف الخاصة الشخص المستحق للإمامة من بين جميع الناس وأهل الفضل كثر ؟ . يجب الجاحظ على هذا السؤال قائلاً انه لا بد أن يظهر رجل أعلم الناس بالدين والدنيا . ولا بد أن يسمع به الناس ويبين كما بان عند المعتزلة عمرو بن عبيد ، وكما بان عند الخوارج مرداس بن أدية<sup>(٤)</sup> .

بيد أن الجاحظ لا يعارض وجهين آخرين لإقامة الإمام هما الوجه الذي تم به اختيار عثمان بن عفان من بين الستة الذين عينهم عمر للشورى قبل وفاته ، والوجه الذي اختير به أبو بكر الصديق بعد موت النبي محمد<sup>(٥)</sup> .

١- المصدر عنه ، ص ٢٥٤ .

٢- المصدر عنه ، ص ٢٥٣-٢٥٤ .

٣- المصدر عنه ، ص ٢٦١-١٦٢ .

٤- العثانية ، ص ٢٦٦ .

٥- العثانية ، ص ٢٧٠ .

وأما الوجه الذي تبنته الشيعة والذي يقوم على النص والوصية للخلف من قبل السلف ولعلي من قبل النبي ، فيرفضه الجاحظ قائلاً : « وقد تفحصنا القرآن من أوله الى آخره فلم نجد فيه آية تنص على إمامة . . . فهذا باب لا تقدرّون من قبله على حجة . وليس لكم في باب الخبر والإجماع متعلق ولا سبب مع قول الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، وقول المهاجرين : بل منا الأمراء ومنكم الوزراء . . . » (١) .

٦ - عدد الائمة : اعتبر المسلمون أنفسهم أمة واحدة ذات كيان واحد ورئيس واحد . وقد استطاع الخلفاء في صدر الإسلام والعصر الأموي والنصف الأول من العصر العباسي أن يحافظوا على وحدة الدولة المترامية الأطراف ، ولكنهم عجزوا عن صيانة تلك الوحدة منذ القرن العاشر الميلادي . إذ تفككت دولتهم إلى دويلات متعددة . فاستغل البويهيون بإيران والعراق والحمدانيون بشمال سوريا ، والأخشيد بمصر ، وكان عبد الرحمن الداخل قد أسس دولة أموية جديدة بالأندلس في منتصف القرن الثامن على أثر انهيار دولة الأمويين في الشرق . كما استقل الغزنويون بشرق الأمبراطورية الإسلامية فيما يلي إيران . وبالرغم من أن أمراء هذه الدويلات ظلوا يعترفون بخليفة بغداد الاسمي ، فإنهم كانوا مستقلين عنه استقلالاً تاماً سياسياً وادارياً وعسكرياً ، ولم يكن له على كل حال حول ولا طول ولا سلطان . وعندما نشأت الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا واستولت على مصر لقب ملوكها بالخلفاء ، وكذلك فعل ملوك دولة الأمويين في الأندلس ، وهكذا تعدد الخلفاء ولم يعد هناك خليفة واحد يرثس الأمة الإسلامية .

ويذكر الجاحظ أن فكرة تعدد الخلفاء أو الائمة قال بها قوم في عصره وذهبوا إلى

١- المصدر cited ، ص ٢٧٣ ، آثار الجاحظ ، ص ١٥٠ .

« أن الناس ان تركوا ان يقيموا اماماً واحداً جاز لهم ذلك ولم يكونوا بتركه ضالين ان يقيموا اثنين ، وجائز أن يقيموا أكثر من ذلك » (١).

كما يذكر الجاحظ أن فئة قالت بعدم تعيين جنسية الإمام ، إذ يجوز برأيهم أن يكون عربياً أو أعجمياً أو مولى (٢) . ولم يسم الفرقة التي ينتسب إليها أصحاب هذا المذهب ولكننا نعلم أن الخوارج هم الذين نادوا بها . ولقد كان الأنصار أول من طالب بتعدد الخلفاء عند موت النبي محمد إذ قالوا للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير ، فأجابهم أبو بكر : بل منا الأمير ومنكم الوزير ، فاذعنوا للأمر . ولم يكن هذا رأي الشيعة الذين حصروا الخلافة بالهاشميين القرشيين من سلالة علي بن أبي طالب ، ولم يكن أيضاً رأي العباسيين الذين حصروا الخلافة بالهاشميين من ولد العباس عم النبي ، وكذلك لم يكن هذا رأي أهل السنة والجماعة الذين حصروا الخلافة في قریش . لم يؤيد الجاحظ تعدد الخلفاء لأسباب أوردها أهمها :

١ - أن الحكام اذا تعددوا اشتدت منافستهم في الغلبة . وهذا يعود إلى طبيعة النفس البشرية التي تنزع إلى الظهور والتحاسد والمباهاة بين الأصبهار والأعمام والمتقاربين في الصناعات كالكلام والنجوم والفتيا والنحو والعروض والتجارة والصباغة والفلاحة (٣).

٢ - أن التاريخ يقدم لنا البرهان على سوء تعدد الحكام : « وهل رأيتم ملكين أو سيدين في جاهلية أو اسلام من العرب جميعاً أو من العجم ، ولا يتحيف احدهما من سلطان صاحبه ولا يتهك أطرافه ولا يساجله الحروب ، إذ كل واحد منهما يطمع في حد صاحبه وطرفه لتقارب الحال واستواء القوى . . » (٤).

١ - استحقاق الإمامة ، (آثار الجاحظ ، ص ١٤٦).

٢ - المصدر حقه ، ص ١٤٦.

٣ - المصدر حقه ، ص ١٥٦.

٤ - استحقاق الإمامة ، (آثار الجاحظ ، ص ١٥٨).

ويستهي أبو عثمان من بحثه إلى تقرير وجوب قيام الإمام ، وعدم تعدده ، وواجباته حيث يقول : « وإذا كان قول المهاجرين والأنصار والذين جرى بينهم التنافس والمشاحنة على ما وصفنا في يوم السقيفة ، ثم صنع أبي بكر وقوله لطلحة في عمر ، وصنع عمر في وضع الشورى وتوعده لهم بالقتل ان هم لم يقيموا رجلاً قبل انقضاء المدة ونجوم الفتنة ، ثم صنع عثمان وقوله وصبره حتى قتل دونها ولم يخلعها ، وأقوال طلحة والزبير وعائشة وعلي رضي الله تعالى عنهم ، ليست بحجة على ما قلنا . . . فليست في الأرض دلالة ولا حجة قاطعة . وفي هذا الباب الذي وصفنا من حالانهم وبيننا دليل على أنهم كانوا يرون أن إقامة الإمام فريضة واجبة ، وان الشركة عنها منفية ، وان الإمامة تجمع صلاح الدين وإيثار خير الآخرة والأولى » (١).

بقيت ناحية اخيرة تكلم عليها الجاحظ هي الفرق بين الإمام والنبي والرسول . لقد جعل كلا من النبي والرسول إماماً حيث يقول : « فلما كان ذلك كذلك علمنا انه لا بد للناس من إمام يعرفهم جميع مصالحهم ، ووجدنا الائمة ثلاثة : رسول ونبي وإمام . فالرسول نبي إمام ، والنبي إمام وليس برسول ، والإمام ليس برسول ولا نبي » (٢).

ان الرسول أرفع مرتبة من النبي والإمام ويحتل الدرجة الأولى من حيث الفضل ثم يليه النبي الذي يأتي في الدرجة الثانية ، واخيراً ينزل الإمام الدرجة الأخيرة في سلسلة المراتب . أما الفرق بينهم فهو فرق في المقومات والطبائع والغرم والتركيب والغرض الذي يتغير بتغير الزمان .

فالرسول هو الذي يشرع الشريعة ويتدىء الملة ويرشد الناس إلى سواء السبيل والناس قابلون للتعليم ولكنهم لا يستغنون بأنفسهم عن إرشاد الرسل وتلقين الائمة ،

١- المصدر عينه ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

٢- المصدر عينه ، ص ١٤٤ .

ولهذا مست الحاجة إلى إرسال الرسل ، وجاز أن يكون الرسول مرة عربياً ومرة عجمياً لأنه مستغن عن شرف الحسب والأصل بشرف الشريعة التي أتى بها ، والآيات والأعاجيب التي تظهر على يديه والتي يعنو لها الغبي والعاقل والمعاند والقوي والمغتر بهاله وأصله وقدره (١) .

أما النبي فليس برسول أي ليس حامل رسالة ، والرسالة هي الشريعة ، ودوره هو دور المؤكد والمبشر لما أتى به الرسول أو لما يأتي به . « وتوكيد النبي المبشر يحتاج من الأعلام إلى دون ما يحتاج إليه المبتدئ لأصل الملة والمظهر لفرض الشريعة ، الناقل للناس عن الضلال القديم والعادة السيئة والجهل الراسخ » (٢) .

أما الإمام فهو خليفة النبي أو الرسول في رئاسة الناس وقيادتهم وهو مؤتمن على تطبيق الشريعة التي أتى بها الرسول أو بشر بها النبي ، والمحافظة عليها . ويجب أن يتشبه بالنبي من حيث السيرة ، وينبغي أن يسير على سنة النبي . أصاً من حيث الطبيعة والتركيب فالفرق بينهما شاسع ، ولا ينبغي أن يطمع أحد في أن يقارب الإمام بالرسول أو يدانيه « فهذا لا يجوز ولا يسع تمنيه والدعاء به » (٣) .

## د- نظرية المعرفة :

المعرفة هي العلم بالأشياء ، وتتناول الظواهر والأفاعيل التي تصدر عن الكائنات الجامدة والحية . وقد عبر الجاحظ عن ذلك بقوله : « ولم نعرف العقل وعدمه ونقصانه ، وإفادته ، وأقدار معارف الحيوان إلا بما يظهر منها . وبذلك الأدلة عرفنا فرق ما بين الحي والميت ، وبين الجهاد والحيوان » (٤) .

١- إمتحان الإمامة ، (آثار الجاحظ ، ص ١٤٥) .

٢- المصدر عينه ، ص ١٤٦ .

٣- المصدر عينه ، ص ١٥٨ .

٤- الحيوان ، ج ٤ ، ص ٨١-٨٢ .

ان ملكة المعرفة طبيعة في الإنسان محدودة والكتب تشحذها ولا توجد لها . ١٠ ان الكتب لا تحمي الموتى ولا تحول الأحمق عاقلاً إنها تشحذ وتفنتق وترهف وتشفي ، ومن أراد أن يعرف كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه . . . فمن كان ذكياً حاقظاً فليقصد إلى شيتين أو ثلاثة ولا ينزع عن الدرس والمطارحة . . . ١١ (١) .

### المسألة الأولى : أنواع المعرفة

المعرفة نوعان : معرفة حسية ومعرفة عقلية . يبلغ الإنسان المعرفة الأولى بطريق الحواس الخمس التي تحيط بجميع الكائنات في العالم ، ويبلغ الثانية عن طريق العقل .

لم يميز الجاحظ تمييزاً دقيقاً بين موضوع المعرفة الحسية وموضوع المعرفة العقلية ويستفاد من أقواله أن الحس يقتصر على ظواهر الأمور بينما لا يرضى العقل بالظواهر بل يتفقد إلى ما وراءها أي إلى بواطن الأمور ويرد : « وللأمر حكمان حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » (٢) .

وهو يعتبر المعرفة العقلية أرقى من المعرفة الحسية وينصح المرء بأن يرتفع من معرفة الحواس إلى معرفة العقول . ولا يعني ذلك أنه يمكن الاستغناء عن المعرفة الحسية . ان لها عملاً هاماً إذ بها يميز الإنسان بين المضار والمنافع والجديد والردىء والملد والمؤلم ، ومع ذلك يبقى للعقل مهمة الحكم على معطيات الحواس لانتقاء الأصوب والأفضل . وهو يشرح فكرته هذه فيقول : ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى ، كما انه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى . ولولا تمييز المضار من المنافع والردىء من الجيد بالعيون المجعولة لذلك لما جعل الله عز وجل العيون المدركة . . . وللعقل في خلال ذلك مجال للرأي تقلب ، وتنتشر للدخاطر

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٩ - ٦٠ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

أسباب ، وينتهي لصواب الرأي أبواب ، وتكون المعارف الحسية والوجدانات الغريزية وتميز الأمور بها إلى ما تميزه العقول وتحصره المقاييس . وليكن عمل الدنيا سلباً إلى عمل الآخرة ويرقى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول « (١) .

ويعود الجاحظ مرة أخرى إلى المقارنة بين الإنسان والحيوان بصدد الحس والعقل في المعرفة . فيقول ان الحيوانات ذوات طبائع مسخرة وغرائز مجبولة تهتدي بها إلى النافع والضار وتقوم بعملها بمتهى الإتقان فتميز السم القاتل من الشهد النافع ، وتنسج العنكبوت بيتها وهو أعجب من العجب ، وتصنع النحلة خلاياها المدهشة التقسيم (٢) . أما الإنسان فلا يستطيع أن يركن إلى إحساسه وغريزته لأنها عرضة للخطأ والضلال ، ويحتاج للاستعانة بعقله ليوازي بين الأحاسيس ويميز بين النافع والضار والحسن والقبيح : « فالعادة القائمة والسنن الذي لا يخطئ » ولا يغادر ، والنظام الذي لا ينقطع ولا يختلط في ذوي التمكين والاستطاعة وفي ذوي العقول والمعرفة ، إن أبدانهم متى أحست بأصناف المكروه والمحجوب وازنوا وقابلوا ، وغايروا وميزوا بين اثم الخيرين وأنقص الشرين ، ووصلوا كل مضره ومنفعة في آجل والعاجل ، وتبعوا مواقعها وتدبروا مساقطها لما عرفوا أوزانها ، واختاروا بعد ذلك أثم الخيرين وأنقص الشرين . . . » (٣) .

#### المسألة الثانية : طرق المعرفة

للمعرفة طرق عديدة ومختلفة لم يقتصر الجاحظ على واحدة منها وإنما ذكرها جميعاً وقال بها جميعاً وسلك معظمها في مساره الفكري . أهمها الشك والمنطق والتجربة والسماع والعيان وتداعي الأفكار والإلهام والتلقين . وسنقول كلمة في كل منها :

١- الحيوان ، ج ٢ ، ص ١١٥-١١٦ .

٢- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

٣- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

الشك عند الجاحظ ضرب من الحيرة والوجوم يعتري المرء فيعلق حكمه على الأمور . وهو حالة شديدة على النفس تسبب لها الكرب والتعب والضيق . وقد أحسن الجاحظ في التنبيه إليها إذ قلما نجى انسان منها . وهي تبلغ ذروتها من القساوة عند المفكرين الكبار أمثال الغزالي والقديس اغسطين اللذين ابدعا في عرض التجربة الموهقة التي خضعوا لها عندما انتابها الشك ، الأول في كتابه « المنقذ من الضلال » والثاني في كتابه « الاعترافات » . لم يمر الجاحظ بمثل تجربة هذين الفيلسوفين ، ولكنه لاحظ اعراضها في النفس فقال : « ولم يكن على ظهرها ( الدنيا ) محق يجد عز الحق ، ومبطل يجد ذلة الباطل ، وموقف يجد برد اليقين ، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم . ولم يكن للنفوس آمال ولم تشعبها الأطماع » (١) .

بيد أن الشك على الرغم مما يرافقه من ارتباك فكري وارهاق نفسي مفيد لانه يؤدي إلى اليقين في النهاية . فهو بمثابة مرحلة تسبق مرحلة اليقين لا بد من اجتيازها ، ومن لا يمر بها لا يمكن أن يبلغ اليقين والاعتقاد . « فلم يكن يقين حتى كان قبله شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » (٢) .

لم جعل أبو عثمان من الشك سبيلاً إلى اليقين ؟ لانه محطة يتوقف فيها الذهن ليتعرف على مختلف الآراء والاتجاهات . قبل اختيار الاتجاه الصحيح والرأي السديد . وبعد التوقف يأتي الثبوت ، وبعد الثبوت يأتي اليقين . ويلخص الجاحظ هذه المراحل التي يقطعها العقل في انتقاله من الشك إلى اليقين قائلاً : « وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها المرجبة له لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً ، فلم لم يكن في ذلك الا تعرف التوقف ثم الثبوت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه » (٣) .

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

٢- المصدر منه ، ج ٦ ، ص ٣٦ .

٣- المصدر منه ، ج ٦ ، ص ٣٥ .

ان مسيرة العقل في التفتيش عن الحقيقة تمر بالشك ثم التوقف ثم الثبوت  
واخيراً اليقين .

يستعمل الجاحظ لفظة التوقف بمعنى التنبه للأمر وفهمه ولذا يقال وقف على  
الشيء أي اطلع عليه وتنبه اليه . واستعملها أيضاً بمعنى الامتناع عن المضي في  
الأمر، أو تعليق الحكم <sup>(١)</sup> . فالمرء عندما يصادف اثناء البحث شيئاً يشك في حقيقته  
يتوقف عنده للنظر فيه وتفحصه ، ونسمعه يقول في هذا المعنى : « فعلت أن فرط  
الإعجاب من القائل متى وافق صناعة المادح رسخ في التركيب هواه وورست في القلوب  
أوتاده واشتد على الناظر افهامه وعلى الخصم بالحق توقيفه » <sup>(٢)</sup> .

والتوقف أعلى مرتبة في سلم المعرفة من التذكر والتنبيه اللذين يقتصران على  
الالتفات الى الأمر دون المكوث عنده ، والتأمل فيه . ويستفاد هذا المعنى من قول  
الجاحظ في سياق كلامه عن إعجاز القرآن : « ليؤلف واحد من شعرائكم  
وخطباءكم كلاماً في نظم كلامه كأقصر صورة يذكلكم بها وكأصغر آية دعاكم إلى  
معارضتها ، بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكروهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينبههم ، بل  
لم يرض بالتنبيه دون التوقف » <sup>(٣)</sup> .

أما الثبوت فيعني التأكد من حقيقة الشيء وصدقه ، فهو ينفي الجهل والخطأ  
من جهة ، ويبين الحق من جهة ثانية . وفي هذا المفهوم يقول : « فإذا أفرط المديح  
وخرج عن المقدار احتاج أن يثبت بالعيان أو الخبر الذي لا يكذبه مثله » <sup>(٤)</sup> . ويقول  
أيضاً : « وكانوا يأمررون بالتيين والثبوت ، وبالتحرز من زلل الكلام ، ومن زلل الرأي ،  
ومن الرأي الدبري » <sup>(٥) (٥)</sup> .

١- الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٢٦ ، ج ١ ، ص ١٦ .

٢- آثار الجاحظ ، ص ٥٢ .

٣- حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٦٥) .

٤- الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ .

٥- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

٥- الدبري : الذي يمنع بعد فوات الألوان (لسان العرب ، ابن منظور) .

ان الثبوت مرحلة تعقب التوقف وتتبع عنه ، إذ بعد التوقف يتقل الذهن إلى الثبوت ، وبعد الاطلاع على الأمر أو تفهمه يبدأ بالتأكد من صحة ما فهم . نستنتج هذا المعنى من كلام الجاحظ حيث يقول : « وإذا كانت البهيمة إذا احست شيئاً من أسباب القانص احدث نظرها واستغرقت قواها في الاسترواح ، وجمعت بالها للسمع ، كان الإنسان العاقل أولى بالثبوت ، واثق بالتعرف » (١) .

ويلاحظ الجاحظ درجات في الشك . فهناك شك ضعيف ، وهناك شك قوي (٢) . كما يلاحظ أن الناس يتفاوتون في حظوظهم من الشك . « فالعوام أقل شكوكاً من الخواص لانهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب » (٣) وإنما نراهم يتقبلون الأخبار والآراء على علاتها . وربما كان مرجع ذلك إلى ضيق ثقافتهم وضعف نزعة النقد والتمييز لديهم . وما اعتقادهم بالخرافات والأوهام وتصديقهم الأخبار الملفقة وتمسكهم بالمعتقدات الضالة سوى مظهر من مظاهر انعدام التوقف والثبوت في تفكيرهم .

وإذا كان الجاحظ يدعو إلى الشك فلا يعني ذلك انه كان مولعاً به . لقد كان يدعو إلى الاقتصاد فيه ووضعه في مواضعه ، فلا يلجأ إلى الشك إلا في موضع الشك ، ولا يجب أن نركن إلى اليقين إلا في موضع اليقين » وفي هذا : يقول : « ولما قال أبو الجهم للمكي : أنا لا أكاد اشك ، قال المكي : وأنا لا أكاد أوقن . ففخر عليه المكي في مواضع الشك كما فخر عليه ابن الجهم في مواضع اليقين . . . » (٤) .

ويؤكد من جهة أخرى أن الشك إذا اسرف فيه غدا مرضاً يورث الضعف وعادة

١- البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

٢- الحيوان ، ج ٦ ، ص ٣٥ .

٣- المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٣٦ .

٤- المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٣٥ .

لا يستطيع المرء الفكاك منها : « واعلم ان من عود قلبه التشكك اعتراه الضعف ،  
والنفس عزوف فما عودتها على شيء جرت عليها » <sup>(١)</sup> . ويخطيء من يزعم ان الشك  
واجب في كل شيء الا العيان <sup>(٢)</sup> . ذلك لان للشك مواضع يحسن فيها ، اذا  
استعمل في غيرها غدا خطأ ومضرة .

ان نظرية الجاحظ في الشك طبقها عملياً في ابحاثه ، فهو يعتمد الى الشك  
عندما يقع على خبر كاذب أو اعتقاد فاسد أو فكرة خاطئة أو خرافة مستحيلة . وهو  
لا يكتفي بابتداء عدم ارتياحه في الموضوع ، بل ينتقد ويسخر مبنياً اسباب الشك  
ومواضع الضعف وأوجه الخطأ والصواب بعقل راجع ومنطق سديد وشغف بالحقيقة  
وقدرة على المحاكمة وثقة بالنفس جعلته يشك حتى في آراء أرسطو وينتقدها ، ولم  
تنج من نقده فرقة من فرق الكلام التي ناوأ المتعزلة . وأصاب بعض سهامه استاذ  
النظام ، كما سبق .

## ٢- المنطق :

ليس للجاحظ مؤلفات في المنطق وسمت بهذا الاسم . وهذا أمر يلفت النظر  
لأنه لم يترك باباً من أبواب المعرفة الا طرقة . فهل أهمل هذا الباب وعزف عن الكتابة  
فيه ؟ أم تراه كان جاهلاً بوجود هذا العلم وأهميته ؟ .

لم يكن الجاحظ جاهلاً بوجود علم المنطق ، وقد ذكر مؤلفاً اسمه كتاب المنطق  
وشكا من صعوبة فهمه حيث يقول : « الا ترى أن كتاب المنطق الذي رسم بهذا  
الاسم لو قرأته جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره ؟ . . » <sup>(٣)</sup> . كما  
كان يعرف جيداً أن أرسطو هو صاحب ذلك الكتاب الذي نقل الى العربية في عصر  
الجاحظ ، وكان يطلق على الفيلسوف اليوناني الكبير لقب صاحب المنطق <sup>(٤)</sup> . ثم

---

١- حجاج النوبة (آثار الجاحظ ، ص ٢٦٢) .

٢- المصدر عينه ، ص ٢٥٥ .

٣- الحيوان ، ج ١ ، ص ٩٠ .

٤- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٩ ، الحيوان ، ج ٧ ، ص ٦٢٢ .

انه المح الى غرض هذا العلم وهو التمييز بين الخطأ والصواب حيث يقول : « وهذه  
يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها . وهذه كتبها في المنطق التي جعلتها الحكماء  
بها تعرف السقم من الصحة والخطأ من الصواب . . » (١) .

إذا ما هو مفهوم الجاحظ للمنطق ؟ لقد استعمل لفظة « منطق » كثيراً في كتبه  
وأعطاهها معاني متنوعة . فهي تدل على وسيلة التفاهم أيا كان نوعها حيث يقول :  
« ولللحيوانات منطق تفاهم به حاجات بعضها البعض ، ولا حاجة بها الى أن يكون لها  
في منطقها فصل تحتاج الى استعماله » (٢) .

وهي تدل على صناعة علم معين حيث تقول : « ولليونان فلسفة وصناعة  
منطق وكان صاحب المنطق نفسه بكى اللسان غير موصوف بالبيان » (٣) .

وهي تعني أيضاً البيان أو الإفصاح عما في الضمير من المعاني بواسطة الألفاظ  
وغيرها من الدلالات حيث يقول : « وقلنا في الحاجة الى المنطق . . . وكيف صار أعم  
تفعلاً وصار هو المشتق منه والمحمول عليه ، وكيف جعلنا دلالة الأسماء الصامتة نطقاً ،  
والبرهان الذي في الأجرام الجامدة بياناً . . » (٤) .

يستنتج من هذا ان الجاحظ فهم المنطق فهماً خاصاً مغايراً لمفهوم أرسطو . لقد  
اتخذ المنطق عنده مفهوم البيان أو طريقة التعبير عما في النفس من الأفكار ، وعلى هذا  
الأساس يمكن اعتبار كتاب « البيان والتبيين » بحثاً في المنطق ، كما نستطيع القول ان  
الجاحظ لم يفهم كتاب المنطق المذكور المنسوب الى أرسطو على حقيقته ، وقد أقر هو  
نفسه بعسر فهمه حتى لم يعنى فهمه جميع خطباء العرب وبلغاء الأمصار على حد  
تعبيره .

١ - المصدر منه ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

٢ - الحيوان ، ج ٧ ، ص ٥٦ .

٣ - البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

٤ - الحيوان ، ج ٦ ، ص ٦ .

وإذا كان قد علق من كتاب المنطق شيء في ذهن أبي عثمان فهو مواضيع الخطابة والعبارة والشعر التي اطنب في الحديث عنها . أما سائر موضوعات المنطق كالمقولات والقياس والبرهان والجدل والسفسطة فلم يكن عند الجاحظ المأم بها .

انه يستعمل الفاظ البرهان والجدل والقياس في معان بعيدة كل البعد عن المعاني التي اتخذتها في منطق ارسطو .

ان البرهان هو الدليل والاستدلال يعني التعرف على الأمر بواسطة الدليل أو الدلالة . يستفاد هذا المعنى من قول الجاحظ : « فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجهاد في الدلالة وفي عدم الاستدلال واجتمع للإنسان أن كان دليلاً مستدلاً . »<sup>(١)</sup> . والدلالة هي الوسيلة التي تبين الشيء وتظهر حقيقته . والدلالات بنظره خمس هي اللفظ والحساب والحركة والخط والحال لا تنقص ولا تزيد<sup>(٢)</sup> .

ان الدليل إذن هو الشاهد على الأمر أو البرهان على وجوده . ويكون تقليدياً كما في قوله : « ومن الدليل على أن الله حل تلك العقدة وأطلق ذلك التعقيد والحبسة قوله : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي »<sup>(٣)</sup> . كما يكون الدليل طبيعياً حسب قوله « ولا يقر ( الدهري ) بأن في العالم برهاناً يدل على صانع ومصنوع وخالق ومخلوق »<sup>(٤)</sup> .

ويتألف الاستدلال من عنصرين هما المستدل والدليل . أما المستدل فهو العقل ، وأما الدليل فهو العيان أو الخبر . ولا بد من تضافهما معاً ليتم الاستدلال وقد أوضح ذلك في قوله : « فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما حلة الاستدلال وأصله . ومحال كون القرح مع عدم الأصل ، وكون الاستدلال مع عدم الدليل .

١- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٧٣ ، ج ٦ ، ص ٧٢ .

٢- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٥٦ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٨ .

٤- الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٢ .

والعقل مضمن بالدليل والدليل مضمن بالعقل ، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر ، والعقل نوع واحد والدليل نوعان : أحدهما شاهد عيان والآخر خبر يدل على صدق . . . (١) .

ونجد عند الجاحظ لفظة الاستنباط وقد استعملها الجاحظ بمعنى الوصول الى المعرفة بواسطة البحث والتجربة . يؤخذ هذا المعنى من قول الجاحظ : « وخبرني عن كلام عيسى في بطن أمه ثم في المهد ، وعن عقل يحى في حال الصبا ماكانا في حالهما ينطقان بما لا يعلمان أم ينطقان بما يعلمان ؟ وكيف علمهما : عن التجربة والاستنباط ، وعن تمام أداة ، وكمال آلة ؟ أم عن طريق الإلهام والإخراج من العادة؟ » (٢) .

وأما القياس فهو الحكم في المسألة العارضة عن طريق مقارنتها بمسألة ثانية تشبهها في العلة أو السبب . وباختصار انه لزوم الحكم ذاته على مسألتين متشابهتين في العلة . وقد عبر عن هذا بقوله : « اعرف الأمثال والأشياء ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله واشبهها بالحق فيما ترى » (٣) .

### ٣- الجدل :

لجأ الجاحظ إلى الجدل على نطاق واسع حتى غدا سمة مميزة لتفكيره . وحيثما التفتنا في آثاره نجد الجدل يطالعنا بوضوح وقوة : في الحيوان ، والبخلاء ، والبيان والتبيين ، والرسائل الخ . . . يجعل من الجدل منهجاً يلتزمه .

والجدل عند الجاحظ يختلف عن مفهوم الجدل عند أرسطو . ان الجدل عند أرسطو نوع من القياس يقوم على مقدمات احتمالية وذاتية . أما الجدل عند الجاحظ فيقوم على التناقض بين الأفكار . ففي كل جدال أفكار متناقضة تصادم وتختصم

١ - حجاج النوبة (آثار الجاحظ ، ص ٢٤٣) .

٢ - رسالة التريخ والتدوير ، ص ٨٧ .

٣ - البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

تماماً كما يختصم الخصوم فيما بينهم . كل فريق يهاجم الآخر ويحاول تحطيمه وإحراز النصر عليه . ولهذا قيل « من جادل قاتل » (١) .

هذه الصورة من العراك الفكري التي يسميها الجاحظ تارة جدلاً وطوراً مناظرة تتجلى بوضوح في كتاب « البخلاء » حيث نلقي الجاحظ يعرض مناظرة معقدة تدور بين البخلاء والكرماء . يثبت في القسم الأول من الكتاب آراء البخلاء ونواديرهم ، وتعتبر رسالة سهل بن هارون (٢) التي وجهها إلى بني عمه حين ذموا مذهبه في البخل دفاعاً عن البخل وتبريراً لمذهبه ورداً للتهمة التي رمي بها . ويثبت في القسم الثاني آراء الكرماء التي تتضمنها رسالة أبي بكر العاص الثقفي (٣) ، حيث يشيد صاحبها بالكرم ويدافع عنه ويذكر الحجج التي تسنده ، كما يفند أقوال البخلاء ويرد عليها مبيناً تهافتها وخطأها . وفي القسم الثالث والأخير من الكتاب يقول الجاحظ الكلمة الفصل في الجدل ، ويحكم بين المتخاصمين : الخير في الاقتصاد .

وفي مقدمة كتاب الحيوان يعتمد الجاحظ أسلوب الجدل فيتصور شخصاً يخاصمه ويوجه إليه الانتقادات ويبين العيوب التي وجدها في كتب الجاحظ ، فيرد عليه أبو عثمان مدافعاً عن آرائه وكتبه ومنهجه ، بأسلوب ساخر ، ولكنه قوي العارضة . وعندما يشرع في الكلام على الحيوانات يثبت مناظرة طويلة تجري بين شيخين من شيوخ المعتزلة أحدهما يدافع عن الكلب مبيناً حسناته مشهراً بمساوئ الديك ، والآخر يدافع عن الديك مظهراً مزاياه مندداً بمساوئ الكلب .

وفي رسالة العثمانية نرى الصورة ذاتها تتكرر : جدل يدور بين خصمين : العثمانية الذين يقدمون أبا بكر الصديق على علي بن أبي طالب ، والشيعية الذين يفضلون علياً على أبي بكر . يعرض الجاحظ آراء هؤلاء وآراء أولئك ثم يسرد انتقادات الخصوم ودفاعاتهم .

١ - التريخ والتدوير ، ص ٧ .

٢ - البخلاء ، ص ٩ .

٣ - المصدر عينه ، ص ١٥٤ .

وفي رسالة الحكمين وتصويب رأي الإمام علي بن أبي طالب ، يقدم الجاحظ نقاشاً عتدماً بين فريقين : أنصار علي وأنصار معاوية . أما أنصار علي فيؤيدون موقفه في معركة صفين ويتخذون موقف معاوية والخوارج بحجج عديدة . بينما يعيب أنصار معاوية موقف علي ويصورون موقف معاوية بحجج كثيرة يردون بها على أنصار الإمام علي .

وفي الجزء الأول من كتاب البيان والتبيين يعمد الجاحظ إلى المنهج ذاته فيقيم مقابلة بين العمي والبيان مبنياً حسنات كل منهما ومساوئه ثم يورد الآراء والأقوال المتعارضة بصدد البلاغة . وهكذا يمضي الجاحظ في استخدام المنهج الجدلي إلى غايته .

يمتاز جدل الجاحظ بالموضوعية . فهو يقف موقف المتفرج من الخصوم الذين يتجادلون ولا يدع آراءه الذاتية تظهر إلا بعد الانتهاء من المناظرة أو لا يدعها تظهر أبداً . وعندما يعرض رأياً ما يشرحه ويبسطه بوضوح وقوة حتى تحاله بحججه ، فإذا عرض الرأي المعاكس ظننا أنه يميل إليه لحسن تبيانه وتقديمه . وقد أشار إلى هذه الناحية عندما رد على شخص اتهمه بميله إلى العثمانية بما يلي : « وعتبتني بحكاية قول العثمانية وأنت تسمعتني أقول في أول كتابي : وقالت العثمانية والضرارية ، كما سمعتني أقول : قالت الرافضة والزيدية فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول العثمانية ، فهلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة ، وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية ، كما كنت عندك من الناصبة لحكاية قول الناصبة ؟ » (١) .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو التالي : هل كان جدل الجاحظ منتجاً أو عقيماً ؟ أو بتعبير آخر ما هي فائدته على صعيد المعرفة ؟

إن للجدل فائدة أكيدة هي احتكاك الأفكار الذي يولد إشعاعات تنير الأذهان

ونميط اللثام عن كثير من الملابس والغوامض التي تكتنفها . ان الحاجة الى الحوار اصبحت حقيقة ثابتة وحاجة ماسة لفض النزاعات في جميع ميادين الفكر والسياسة والاجتماع . لم يكن الجاحظ ساهياً عن هذه الحقيقة ، فكان يقصد الى الجدل قصداً ليقارن الأفكار والمواقف ، ويتبين ما فيها من حق وباطل أو من خطأ وصواب ، أو ليستوضح مسائل غامضة . فنسمعه يقول مثلاً : « ومضيت أنا وأبو اسحق النظام وعمرو بن نهوي ، نريد الحديث في الجبان ، ولتناظر في شيء من الكلام . . . فطال بنا الحديث وجريتنا في ضروب من الكلام . . » (١) .

ان جدل الجاحظ لم يكن عقياً سفسطائياً ، لقد كان يتوصل غالباً الى نتائج قيمة كما هو الحال في كتاب البخلاء ورسالة الحكمين حيث نراه ينتهي الى حل لمشكلة البخل والكرم وهو أن الاقتصاد هو الفضيلة ، كما ينتهي الى حل بشأن صفين هو تصويب موقف الإمام علي بن أبي طالب .

والخلاصة أن الجدل يعني في نظر الجاحظ المناظرة أو المقابلة بين قضيتين أو فكرتين أو موقفين متناقضين ، ويعتمد المتناظرون في خصومتهم وابداء آرائهم والرد على آراء خصومهم على المقدرة الخطابية ، وقد عبر الشاعر عن التلازم بين الجدل والبيان أو المقدرة الخطابية بقوله :

ما كانَ اغنى رجلاً ضلَّ سعيهمُ      عن الجدالِ واغشاهمُ عن الخطبِ (٢)

وقوام الجدل سوق العلل أو الأسباب للدفاع عن رأي أو موقف لمهاجمة الرأي المخالف كما يتضح من قول الشاعر :

يا أجدل الناس ان جادلتَه جدلاً      وأكثر الناس ان عاتبته عدلاً (٣)

١ - البخلاء ، ص ٣٨ .

٢ - البيان والنبين ، ج ١ ، ص ٣٤ .

٣ - البيان والنبين ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

وفي الجدل لا بد من الاحتجاج . وقد فهم الجاحظ الاحتجاج بمعنى إيراد الحجج ، والحجة هي الشاهد أو المستند الذي يدعم القضية . فالبخيل يحتاج لبخله بمعنى انه يدافع عن مذهبه في الشح وجمع المال ، ويرد التهم الموجهة اليه . يقول الجاحظ بهذا المعنى : « وقلت أذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء . . . أو ليس لو أظهر البخيل الجهل والغباوة وانتحل الغفلة والحماقة ثم احتج بتلك المعاني الشداد وبالألفاظ الحسان وجودة الاختصار ، وتقريب المعنى ، وبسهولة المخرج وإصابة الموضوع ، فكان ما ظهر من معانيه مكذباً لما ظهر من جهله ونقصانه . . » (١) .

ومن مقتضيات الجدل البرهان ، وهو يعني كما قلنا الدليل أو العلامة التي تشير الى الشيء . والبرهان يختلف عن الحجة في منحى الإثبات . ان الحجة لا تهدف الى إثبات وجود الشيء لانه موجود لا يحتاج الى إثبات أو لانه مسلم بوجوده ( بخيل البخيل مثلاً ) ، وإنما يؤتى بها لتدافع عن صحته . أما البرهان فيرمي الى إثبات الشيء الذي يشك في وجوده (٢) . فنقول : ان البرهان على وجود الله هو كذا ، أو نقول ان البرهان على نبوة موسى عصاه . « وقد جمع الله لموسى عليه السلام في عصاه من البرهانات العظام والعلامات الجسام ما عسى أن يفي ذلك بعلامات عدة من المرسلين والجماعة والنبين » (٣) .

والحجة نوعان : عيان ظاهر وخبر قاهر (٤) . والحجة هنا لا تختلف كثيراً عن الدليل .

وإذا كان الجاحظ يخالف أرسطو في مفهوم الجدل كما قلنا الا انه يلتقي وأياه على القول بفائدته .

١ - البخلاء ، ص ٥ - ٦ .

٢ - علي بن مسلم ، معجم الجاحظ الفكري ، ص ١٠ .

٣ - البيان والنبين ، ج ١ ، ص ٥٣ .

٤ - حجج النبوة ، (آثار الجاحظ ، ص ٢٤٣) .

لقد اعترف أرسطو بفائدة الجدل في ثلاثة أشياء هي الرياضة والمناظرة والفلسفة، فهو يمكننا من الاطلاع على آراء الغير ويسهل علينا إدراك ما فيها من حق وباطل<sup>(١)</sup>.

#### ٤- التجربة :

التجربة حادثة أو سلسلة حوادث يراها المرء فيستنتج منها حكماً أو قاعدة يمكن تطبيقها في الحوادث المشابهة في معطياتها وظروفها . وبهذا المعنى يقال تجارب الحياة وتجارب الأمم . ويرادفها لفظ الاختبار . وهذا ما يستفاد من قول الجاحظ : « يزعم كثير من الشيوخ المعمرين وأهل التجربة المختبرين انهم اختبروا اعمار ضروب الناس فوجدوا طول الأعمار في الحصيان أهم منه في مثل اعدادهم من جميع الرجال . . . »<sup>(٢)</sup>.

ويقرن الجاحظ التجربة بالاستنباط وهو استخراج الحكم بناء على البحث والتنقيب . وربما نظر الجاحظ في إعطاء الاستنباط هذا المفهوم الى المعنى اللغوي الرضعي للفظ الذي يفيد استخراج ماء البئر بعد التنقيب عليه في جوف الأرض ، وهذا ما عناه في قوله « ومن يعجز عن نظم الكثير وعن وضعه في مواضعه هو عن بلوغ آخره وعن استخراج كل شيء فيه اعجز . والمتع أهون من الاستنباط ، والحصد أيسر من الحرث . . . »<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يقترن الاستنباط بالتجربة ويأتي بعدها أو انطلاقاً منها ، فلا بد من أن يمر المرء بتجربة أو حادثة ليستخرج منها أو يستنبط حكماً أو قاعدة أو علماً .

---

١- أرسطو ، المنطق (تحقيق ونشر عبد الرحمن بدوي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩) ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ .

٢- الجوهان ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

٣- المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ١٩٩ .

إن الاستنباط بهذا المعنى هو الإستقراء ، ولكن الجاحظ لم يستعمل هذه اللفظة التي شاعت <sup>(١)</sup> فيها بعد على نطاق واسع في الأبحاث المنطقية ودراسة المناهج الفلسفية والعلمية . وهو يشمل ثلاث مراحل هي التجربة ثم الفرض ثم التحقيق .

لقد طبق الجاحظ الاستنباط أو الاستقراء في بعض أبحاثه دون أن يدري انه انتهى الى المنهج العلمي التجريبي الذي قنن أصوله فرنسيس بيكون (١٦٢٦م) في القرن السابع عشر . وإثبات ما نذهب اليه لا بد من برهان وليكن نصاً للجاحظ مأخوذاً من كتاب الحيوان نعتقد أن المنهج العلمي التجريبي مراعى فيه : « كنت في منزلي نائماً في ظلمة ، وقد كنت جمعت رؤوس افاع كن عندي لأرمي بها ، واغفلت تحت السرير رأساً واحداً ، ففتحت عيني تجاه السرير في الظلمة ، فرأيت ضياء الا أنه ضعيف رقيق . فقلت : عين غول أو بعض أولاد السعالى ، وذهبت نفسي في ألوان من المعاني ، فقممت فقدحت ناراً ، وأخذت المصباح معي ، ومضيت نحو السرير فلم أجد تحته إلا رأس أفعى فأطفأت السراج ونمت وفتحت عيني ، فإذا ذلك الضوء على حاله ، فنهضت فصنعت كصنعتي الأولى حتى فعلت ذلك مراراً . قال : فقلت آخر مرة : ما أرى شيئاً الا رأس أفعى ، فلو نحيت ! فتحيت واطفأت السراج ، ثم رجعت الى منامي ففتحت عيني فلم أر الضوء ، فعملت أنه من عين الأفعى ، ثم سألت عن ذلك فإذا الأمر حق ، وإذا هو مشهور في أهل هذه الصناعة » <sup>(٢)</sup> .

ان مراحل البحث العلمي التجريبي متوافرة الى مدى بعيد في هذا النص ! فهناك ملاحظة دقيقة للظاهرة التي تدرس أي انبعاث الضوء من عين الأفعى : انه في غرفة نومه اثناء الليل المظلم ، يفتح عينيه فيرى ضياء ينبعث من تحت السرير ولكنه ضياء ضعيف رقيق .

١ - وردت لفظة استقراء في كتاب المنطق لأرسطو بمعنى الذهاب من الأمور الجزئية - الى الأمر الكلي : أرسطو - المنطق ،

ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

٢ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

وبعد الملاحظة يأتي دور الفرض : لقد فكر في مصدر هذا الضوء فذهبت  
نفسه في ألوان المعاني فافتراض أن مصدر الضوء عين غول أو بعض أولاد السعالي .

ومن ثم ينقلب الباحث إلى المرحلة الثالثة أي مرحلة التحقق واكتشاف الحقيقة  
فيضيء مصباحاً ويمضي نحو السرير وينظر اذا كان ثمة غول كما افترض فلم يجد  
غولاً وإنما وجد رأس أفعى .

وليتأكد من انه لم يكن متوهماً أو غدوعاً كرر التجربة مراراً : أطفأ سراجَه وعاد  
إلى فراشه وأغمض عينيه ثم فتحهما من جديد ونظرا فرأى ما رآه سابقاً : ضوءاً ينبعث  
من تحت السرير . وعندئذ أدرك أن افتراضه خاطيء وإن معطيات التجربة الأولى  
والتجربة الثانية واحدة لم تتغير ففكر في افتراض جديد وهو أن يكون مصدر الضوء  
عين الأفعى التي ترك رأسها تحت السرير . ولكي يتحقق من صحة هذا الفرض لجأ  
إلى طريقه الخلف فتحى رأس الأفعى واسدل الظلمة من جديد ونظر إلى حيث كان  
مصدر النور فلم ير ضوءاً ينبعث من تحت السرير ، فاكشف الحقيقة العلمية التالية  
وهي أن عين الأفعى تضيء في الليل وتأكدت له صحة فرضه الأخير .

وهكذا نرى المنهج العلمي مطبقاً على أجل وجه : ملاحظة دقيقة ، وفرض  
وتحقق من الفرض بواسطة تكرار التجارب .

إن الملاحظة والتجربة تقومان على المشاهدة المباشرة بالعين ، وهذا ما كان أبو  
عثمان يدعوه العيان . وهو يعتبره ضرورياً في الأبحاث العلمية للوصول إلى الحقائق  
ولشفاء النفس من الشكوك التي تعتمريها بصدد صحة المسائل أو صدقها . إن العيان  
في نظر الجاحظ من أهم مصادر المعرفة وأوثقها ولذا كان يعول عليه ويسمى لتوافره  
ويقول : انه ليس يشفيني الا المعاينة <sup>(١)</sup> .

وهكذا غدا العيان محكاً لاختبار صحة الخبر ووسيلة لإزالة الشك عند الجاحظ وكان اذا سمع خبراً لا يصدقه ولا يرتاح اليه كل الراحة إلا إذا شاهد بأمر عينه مجرياته ، ونراه ينتقد أرسطو على زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعام الا ببعض الماء ، ويعقب عليه قائلاً : « فأبي عيان دل على ذلك » (١) .

والعيان أقوى حجة من الاستنباط وأكثر إقناعاً . والدليل على ذلك هو أن ابا عثمان رأى « من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به استنباطاً ، ولم ير من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به عياناً » (٢) .

ثم ان العيان أجزل فائدة من الوصف لان الوصف يتناول شيئاً غائباً بينما موضوع العيان الشيء الحاضر الماثل أمام الإنسان . ومهما كان الوصف دقيقاً فهو لا يستطيع أن يقدم للمرء ما يقدمه له العيان من الإحاطة وجلاء العلم والثقة ، ونسمعه يقول في ذلك : « فقلنا له : قد تربي الصفة على العيان ، فلما رأيتها ، رأيت العيان قد أربي على الصفة . . » (٣) .

ان الملاحظة العلمية تتصف بالدقة والموضوعية والحذر (٤) . وهذه الصفات توافرت على وجه لا بأس فيه ولو لم يكن عن وعي تام عند الجاحظ . ان دقة ملاحظة الجاحظ تطالع القارىء في كل عبارة خطها قلمه ، فهو عين يقظة ترقب كل شادة وواردة تمر أمامها ، ويصور ما يرى بأمانة وإحاطة وكأنه آلة فوتوغرافية تلم بالمكان والزمان والحركة والصوت والأشكال والألوان ، لا يغادر من الظاهرة التي يتناولها شيئاً دون أن يحصيه .

١- المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٥٤١ .

٢- رسالة التريب والتدوير ، ص ٧٣ .

٣- البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

٤- قاسم ، المنطق الحديث ومناهج البحث (الكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د. ت. ، ط ٣) ص ١٠٧ وما بعدها .

أما الموضوعية فتظهر بوضوح في أبحاث الجاحظ . انه ينحى ذاته جانباً ولا يدع الهوى يسيطر عليه . همه الأوحـد التفتيش عن الحقيقة . وهو لا يطلق لخياله العنان لينقله إلى عالم الأوهام والأحلام والأساطير ، فهو واقعي لا يبالى إلا بما يقدمه له الواقع ويصـدف عن كل ما لا يتوافق معه .

وأما حذر الجاحظ فلا يخفى على ذي نظر ، يتمثل حذره بروحه النقدية التي تبين مواقع الخطأ والصواب والحسن والقيـح بـفـطنة وذكاء عجيـبين . وإذا كانت الروح النقدية عند الجاحظ مختلطة بالسخرية والمزاح والفكاهة فهذا لا يضرها في شيء ولا يؤثر على الروح العلمية لانه يعرف كيف يمزج الجد بالهزل ، ومتى يقصد إليه أو ينزع عنه ، كما يدرك بوضوح الغاية منه .

ان عيب الجاحظ يعود إلى قلة التجارب التي كان يجربها ، وربما استطعنا أن نغزو ذلك إلى قصور وسائلها في عصره . وإلى المستوى العلمي البدائي الذي كان سائداً . ومن التجارب التي عرضها في كتاب الحيوان جمع جرد وعقرب في قارورة زجاج وتركهما يعتركان وملاحظة ما يجري بينهما ، أو اجراء التجربة على نطاق أوسع وذلك بحشر عشرين عقرباً وعشرين فأرة في برنية زجاج ومراقبة سلوكها لمعرفة طبائعها . كما نراه يصف وصفاً جميلاً تجربة اجريت على جرذين ربط كل منهما بخيط وقربها من بعضهما البعض فراحا يكران ويفران ، وكأنهما في ساحة وغى <sup>(١)</sup> . ونخبنا انه اجري تجربة على افعى وعود الشذاب ليختبر صحة الزعم القائل ان الأفاعى تكره ريح الشذاب <sup>(٢)</sup> .

أما الفرض فهو ضرب من الحدس بالقانون الذي يختمى وراء الظاهرة التي تدرس ، ولم يستعمل الجاحظ لفظ الفرض وإنما استعمل بمعناها لفظ الحدس . ان

١- الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٤٦-٢٤٨ .

٢- المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٣٩ .

الحدس ادراك مباشر للسبب الذي يختبئ وراء المعطيات الحسية أو العقلية . ان هذا المفهوم مستفاد من قول الجاحظ : « كان أياس صادق الحدس نقاباً ، وكان عجيب الفراسة ملهماً . »<sup>(١)</sup> . فالحدس كما يبدو يقرب من الإلهام ، والمعرفة الحدسية هي التي يصل إليها المرء بدون معلم . وبهذا المعنى يقول الجاحظ : « فظننت انه حدس ولم يقل بعلم »<sup>(٢)</sup> .

والظن بنظر الجاحظ وسائر العرب الخطوة الأولى في طريق العلم ، وهو يقوى كلما توافرت الدلائل حتى ينتهي المرء إلى غاية يتخلص فيها من جميع الشكوك . وهو يعلن « أن أول العلم بكل غائب الظنون ، والظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل . فكلما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب »<sup>(٣)</sup> .

وأما التحقق - وهو المرحلة الأخيرة من مراحل المنهج العلمي - فلم يهمله الجاحظ . لقد رأينا ماذا صنع عندما اراد أن يحقق غرضه في مسألة الضوء المنبعث من عين الحية ، وفي تجربة الظليم الذي يتلع الجمر . انه عمد إلى طريقة الحذف وطريقه التكرار بإدخال عنصر جديد مختلف عن عناصر التجربة الماضية . وربما توضع لنا الأمر أكثر في التجربة التي ذكرها حول القرابة بين الإنسان والنار . لقد لاحظ ظاهرة طبيعية هي أن النار تعيش حيث يعيش الإنسان وتموت حيث يموت أو لا يقوى على العيش . فراح يفكر في سر ذلك فلم يهتد ، وانبرى يستعرض التجربة تلو التجربة حتى لاح له السبب باستحياء ، وهو حاجة كل منهما إلى الهواء ليقوى . ولتنصت إليه يصف لنا بحثه الطريف قائلاً : « قال : ووصف بعض الأوائل شبه ما بين النار والإنسان ، فجعل ذلك قرابة ومشاكلة . . . قال : وإنما قضيت لها بالقرابة لاني

٣- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٣ .

٤- الحيران ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

٥- للمعاد والمعاش (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢١) ، والجاحظ يخالف في هذا أرسطو الذي يقول ان الظن غير العلم .

أنظر : أرسطو ، المنطق ، ج ٢ ، ص ٤٠٢-٤٠١ .

وجدت الإنسان يحيا ويعيش في حيث تحيا النار وتعيش ، وتموت وتتلف حيث يموت الإنسان ويتلف . وقد تدخل نار في بعض المطامير والجباب والمغارات والمعادن فتجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى صار في ذلك الموضع مات . ولذلك لا يدخلها أحد ما دامت النار إذا صارت فيها ماتت . ولذلك يعتمد أصحاب المعادن والحفائر اذا هجموا على فتق في بطن الأرض أو مغارة في أعماقها أو اضعافها ، قدموا شمعة في طرفها أو في رأسها نار ، فإذا ثبتت النار وعاشت دخلوا في طلب الجوهر من الذهب وغير ذلك ، وإلا لم يتعرضوا له . وإنما يكون دخولهم بحياة النار وامتناعهم بموت النار . وكذلك إذا وقفوا على رأس الجب الذي فيه الطعام لم يجسروا على النزول فيه حتى يرسلوا في ذلك الجب قنديلاً فيه مصباح ، أو شيئاً يقوم مقام القنديل ، فإذا مات لم يتعرضوا له ، وحركوا في جوفه اكسية وغيرها من أجزاء الهواء . . . (١) .

وهناك ناحية هامة عاجلها الجاحظ هي علاقة القياس بالاستنباط أو مكانته في المنهج التجريبي العلمي . يقول الجاحظ ان لكل منهما ميداناً خاصاً يقتصر عليه دون الآخر ، كما يقر أن الأبحاث الطبيعية تقوم على الملاحظة والتجربة ولا تخضع للقياس . لقد أعلن رأيه هذا في معرض كلامه عن الكركدن التي زعموا أن ولدها قبيل الولادة بأيام ربما أخرج رأسه من ظليتها ليأكل من أطراف الشجر حتى إذا شبع أعاد رأسه إلى جوفها فإذا ثبت مدة مكثه في جوف أمه وضاق به الرحم ولد قوياً على الكسب والحضر والدفع عن نفسه (٢) .

يتأمل الجاحظ هذا الخبر فيشك فيه ويعرضه على القياس المنطقي فينكره ، ومع ذلك يعتبر أن القياس لا يستطيع أن يجزم بكذب هذا الخبر على الرغم مما يبدو فيه من خرافة لأنه ظاهر على السنة الهند . « ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من فرج امه

١ - الحيوان ، ج ٥ ص ١٠٩ - ١١٠ .

٢ - المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ١٢٤ .

حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه في فرج أمه . ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا ممتنعاً في الطبيعة ، وأرى جوازه موهوماً غير مستحيل ، إلا أن قلبي ليس يقبله ، وليس في كونه ظلم ولا عبث ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات المحمودة ، ولم نجد القرآن ينكره والإجماع يدحضه ، والله هو القادر دون خلقه ، ولست ابت بإنكاره وإن كان قلبي شديد الميل إلى رده . وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرفونه إلا بالعيان الظاهر والخبر المتظاهر « (١) .

## ٥- التلقين :

وسيلة من وسائل المعرفة أشار إليها الجاحظ في مؤلفاته . ويرادف التلقين التعليم كما يفهم من قوله التالي : « فإن الحيوان يلقن ويحكى ويكيس ويعلم فيزداد بالتعليم في هذه التي ذكرنا وهي الدب والقرد . . » (٢) .

ولا بد في التلقين من التمرين والتدريب والتدريج . وهي مبادئ هامة في التربية التي تراعى في مقدار المادة العلمية ونوعها من الناشئة ونموهم وما إلى ذلك . وهذا ما أراده الجاحظ في قوله مشيراً إلى تعلم إسماعيل بن إبراهيم العربية : « والقول في نطق الله عز وجل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام بالعربية على غير التلقين والتمرين ، وعلى غير التدريب والتدريج ، وكيف صار عربياً عجمي الأبوين » (٣) .

لقد تنبه الجاحظ إلى العلاقة بين التلقين والذكاء . وفهم الذكاء بأنه استطاعة الفهم والتعلم بحيث إننا نستطيع أن نقيس ذكاء المرء بسرعة لقنه ، فكلما كان أسرع فهماً واكتساباً للمعرفة كان أشد ذكاء . وهذا ما عناه بقوله : « أما الذكاء - مفتوح الذال معدود - فحدة الفؤاد وسرعة اللقن . . » (٤) .

١- الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٢٥ .

٢- المصدر منه ، ج ٦ ، ص ٣١٦ .

٣- البيان والبيان ، ج ٤ ، ص ٥ .

٤- الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

كما أشار إلى أن خير مراحل العمر مؤاتة للتعلم عند الإنسان مرحلة الصغر ، وقد سمع الأحنف رجلاً يقول : التعلم في الصغر كالنقش في الحجر ، فقال الأحنف : «الكبير أكبر عقلاً ولكنه أشغل بالاً» (١) .

ويعتمد التعليم على طرق شتى أهمها المشاهدة بالعين وضرب الأمثال . . . وهكذا يصبح « مدار العلم على الشاهد والمثل » (٢) .

ثم إن العلم لا حدود له ولا نهاية لأن موضوعاته واسعة متشعبة انه خضم « لا يدرك غوره ولا يسبر قعره ولا يبلغ غايته ولا تستقصى اصنافه ولا يبسط آخره . . » (٣) .

غير أن العلم الذي يكتسبه المرء لا يحتفظ به كله إذ تهدده آفات النسيان والنكد والإضاعة والاستجاعة . ويقصد بالنكد الكذب وبالإضاعة وضعه في غير محله وبالإستجاعة الشبع منه (٤) .

ويربط الجاحظ بين العلم والعمل ، ويرى أن على المرء أن يقرن العلم بالعمل إذ لا خير في علم لا يعمل صاحبه بموجبه في حياته . والعالم مسؤول أكثر من الجاهل أمام الله ، وهكذا يبني الجاحظ الإيمان على العلم كالمعتزلة ويقول : « ولأن تعمل ولا تعلم خير من أن تعلم ولا تعمل . إن الجاهل لم يوت عن سوء نية ، ولا استخفاف بربوبية ليس كمن قهرته الحجة وأعرب الحق له مفصلاً عن نفسه فأثر الغفلة والخسيس من الشهوة على الله عز وجل » (٥) .

## ٦- الإلهام :

ربما كان الإلهام أكثر المسائل تعقيداً وطرافة ، وأدعاهاً للخلاف بين المفكرين

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

٢- المصدر هينه ، ج ١ ، ص ١٨٣ .

٣- الحيران ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

٤- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

٥- المصدر هينه ، ج ٣ ، ص ١٦ .

والفلاسفة ورجال التربية منذ أقدم العصور . ومع ذلك يعتبر وثيق الثقة بالمعرفة ، بل هو جوهر المعرفة .

والرأي السائد هو أن الإلهام ضرب من المعرفة الروحية يقوم بأن يلقي الله الى النبي بمعلومات فائقة لا يتوصل إليها العقل والحس عن طريق التفكير أو الاتصال بالعالم الخارجي ويسمى الإلهام عندئذ وحياً . وقد استعمل الجاحظ اللفظة بهذا المعنى في قوله : « ان الله اهم اسماعيل العربية الهاماً » (١) .

ولكن أبا عثمان يستعمل هذه اللفظة لتدل على كل معرفة يتوصل إليها المرء دون معونة أحد ودون أعمال الفكر ودون المعاناة والتقيب . وهذا ما يؤخذ من كلامه التالي : « كل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة . . » (٢) .

والفرق واضح بين نوعي الإلهام السابقين : فمصدرهما مختلف وموضوعهما مختلف وحاملهما مختلف . ان مصدر الإلهام هو الله حسب المفهوم الأول وهو غير معروف بالضبط حسب المفهوم الثاني . وان موضوع الإلهام هو التنزيل حسب المفهوم الأول وهو المعارف المتنوعة العلمية والفنية حسب المفهوم الثاني . وحامل الإلهام هو النبي حسب المفهوم الأول ، وهو سائر الناس حسب المفهوم الثاني .

ان الإلهام حسب المفهوم الثاني نوع من الحدس . وقد اتينا على أهمية الحدس في كلامنا على المنهج العلمي التجريبي وقلنا انه اكتشاف السبب الكامن وراء الظاهرة الحسية أو العقلية ، أو هو معرفة مباشرة عرفانية تحصل في العقل دون أن نعرف كيف حصلت ومن اين اتت (٣) .

---

١ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٦ .

٢ - المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٥ .

٣ - الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

وقد أطلق على مثل هذه المعرفة اسم العبقريّة إذا كانت موضوعاتها خطيرة وإبداعية ، وعزوها إلى أرواح خفية كالشياطين والآلهة . ولفظة عبقريّة مشتقة من عبقر في الجزيرة العربيّة اعتقد القدامى انه موطن الشياطين الذين يلهمون الشعراء الشعر<sup>(١)</sup> .

وللجاحظ كتاب اسمه ( الإلهام ) ضاع . يقول القاضي عبد الجبار انه شرح فيه نظريته في المعرفة القائلة ان العلم لا يتولد بالنظر<sup>(٢)</sup> .

### المسألة الثالثة : المعرفة طباع :

انفرد الجاحظ بنظرية جديدة في المعرفة خالف فيها سائر المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة ، مما عرضه لحملة عنيفة من النقد شنّها عليه هؤلاء وعلى رأسهم الجبائي والقاضي عبد الجبار .

يقول الجاحظ ان المعرفة تحصل للإنسان طباعاً . ولقد مر معنا انه لا يفرق بين الطبع والطبيعة ويعني بهما ما فطر عليه المرء من غرائز وميول . وبما أن اداتي المعرفة الرئيسيتين هما العقل والحس ، وبما أن العقل والحس طبيعتان أو غريزتان تولدان مع الإنسان لذلك كانت المعرفة التي تنتج عنهما طباعاً .

لقد أشرنا الى تمييز الجاحظ بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية ، ومن الفوارق التي يذكرها بينهما أن الحس تحصل به المعرفة مباشرة دون القصد والبحث والنظر والحاجة ، وبينما لا تعمل غريزة العقل إلا إذا كانت ثمة حاجات ودواع تبعث على النظر وعلى طلب الحيلة وهذا ما أراد توضيحه بقوله : « وهذا كله ( أنواع المعارف ) لا ينال إلا بغريزة العقل ، على أن الغريزة لا تنال ذلك بنفسها بل بما باشرته حواسها دون النظر أو التفكير والبحث والتصفح ، ولن ينظر ناظر ولا يفكر مفكر دون الحاجة التي

١- الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٨٩ .

٢- عبد الجبار ، المعنى ، ج ١٢ ، ص ١٤٠ .

تبعث على الفكرة وعلى طلب الحيلة . . . (١) .

ويلاحظ الجاحظ صراعاً بين العقل وسائر الغرائز أو الطبايع كالغضب والرضا والبخل والسخطاء والجزع والصبر الخ . . . ويقول ان العقل لا يستطيع أن يكبح جماحها إلا إذا شحذ ونمي بالتجارب ودفع إلى النظر تحت تأثير الحوائج والدواعي . ان الله وضع « في الإنسان طبيعة الغضب وطبيعة الرضا والبخل والجزع والصبر والرياء والإخلاص والكبر والتواضع والسخط والقناعة ، فجعلها عروفاً ، ولن تفي قوة غريزة العقل لجميع قوى طبائعه وشهواته حتى يقيم ما اعوج منها ويسكن ما تحرك دون النظر الطويل الذي يشدها ، والبحث الشديد الذي يشحذها ، والتجارب التي تمكنها ، والفوائد التي تزيدها حثكة ، ولن يكثر النظر حتى تكثر الخواطر ، ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الحوائج ، ولن تبعد إلا لبعد الغاية وشدة الحاجة » (٢) .

ثم ان العقل وحده لا يستطيع أن يحرز في العلم إلا اليسير ولا بد له من الكتب الدينية ومن الآثار التي خلفها السلف المتقدمون والتي أودعوها نتائج تجاربهم وزبدة عقولهم . « ولو أن الناس تركوا وقدر غرائزهم ولم يهاجوا بالحاجة على مصلحتهم ، والتفكير في معاشهم وعواقب أمورهم ، واجتأوا إلى قدر خواطرهم التي تولدها مباشرة حواسهم ، دون أن يسمعوا خواطر الأولين وأدب السلف المتقدمين وكتب رب العالمين لما ادركوا من العلم الا اليسير ولما ميزوا من الأمور الا القليل » (٣) .

والناس مختلفون في القدرة على تحصيل المعرفة . لقد خلقوا متبايني الطباع متفاوتي الاستطاعة على الفهم والتعلم . وهكذا لا يستوي المجنون والعاقل والطفل والبالغ والحكيم والغبي في القدرة على النظر وتلقي المعارف : « ولولا أن الله تعالى أراد تشريف العالم وتربيته ، وتسويد العالم ورفع قدره ، وان يجعله حكيماً وبالعواقب عليماً ، لما سخر له كل شيء ولم يسخره لشيء » ، ولما طبعه الطبع الذي يجيء منه أريب

١ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٤٩) .

٢ - المصدر عينه (آثار الجاحظ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠) .

٣ - المصدر عينه (آثار الجاحظ ، ص ٢٥٠) .

حكيم وعالم حليم ، كما انه عز وجل ذكره ، لو اراد أن يكون الطفل عاقلاً والمجنون عالماً لطبعهم طبع العاقل ، ولسواهم تسوية العالم ، كما اراد أن يكون السبع وثاباً والحديد قاطعاً والسم قاتلاً والغذاء مقيماً ، فكذلك اراد أن يكون المطبوع على المعرفة عالماً والمهيأ للحكمة حكيماً ، وذو الدليل مستدلاً ، وذو النعمة مستنماً<sup>(١)</sup> .

أما لماذا اختلف الناس في قدراتهم وطبائعهم فلأن الله وجد ذلك في مصلحتهم ، إذ لولا هذا الاختلاف لما استقامت أمورهم وحل بهم البوار والاضطراب . وقد شرح الجاحظ فكرته هذه حيث يقول : « واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يجب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب ، مرتنين بالعلل لرغبوا عن الحجة أجمعين ، وعن البيطرة والقصابة والدباغة ، ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ومسهل ذلك عليهم »<sup>(٢)</sup> .

وإذا اعترض معترض وزعم أن هذا القول يؤدي إلى الجبر لأن الناس مسخرون لطبائعهم وقدراتهم لا يستطيعون التخلص من سلطاتها ولا التحرر من حدودها ، أجاب أبو عثمان أن الناس مسخرون بأمور ومخيرون بأمور أخرى ، وإذا كان الله قد سخرهم في بعض النواحي فإنما فعل ذلك لحيرهم ومنفعتهم ، ولا يجوز أن يسخرهم الله للشر والفساد . والمسائل التي أطلق الله فيها حرية الإنسان هي كما يفهم من قول الجاحظ الخلقيات والعقائد وما ورد فيه الأمر والنهي .

وهو يشرح رأيه هذا على النحو التالي : « وأنت إذا رأيت ألوانهم وشبائلهم واختلاف صورهم ، وسمعت لغاتهم ونغمهم ، علمت أن طبائعهم وعلمهم المحجوبة الباطنة على حساب أمورهم الظاهرة . وبعض الناس وإن كانوا مسخرين

١ - حجاج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٥٠) .

٢ - المصدر عينه (آثار الجاحظ ، ص ٢٥٢) .

للحياة فليسوا بمسخرين للفسق والخيانة والأحكام والصدق والامانة . وقد يسخر الملك لقوم بأسباب قديمة وأسباب حديثة فلا يزال ذلك الملك مقصوراً عليهم ما دامت تلك الأسباب قائمة . فليس إذا كانوا ملك مسخرين ، وكان الناس مسخرين لهم بالجبرية والتخوة والفظاظة والقسوة ولطول الاحتجاب والاستتار وسوء اللقاء والتصنيع . وقد يكون الإنسان مسخراً لأمر ومخيراً في آخر . ولولا الأمر والنهي لجاز التسخير في دقيق الأمور وجليلها وخفيها وظاهرها ، لأن بني الإنسان إنما سخروا له إرادة العائدة عليهم ولم يسخروا للمعصية ، كما لم يسخروا للمفسدة . وقد تستوي الأسباب في مواضع وتفاوت في مواضع ، كل ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ومرشد الدين <sup>(١)</sup> .

ويعود الجاحظ لتوضيح مذهبه في اختلاف القدرات والميول بين الناس فيقول إنهم لا يتفاوتون في ميولهم النفسية فقط كالبخل والسخاء والغضب والرضا والشجاعة والجن ، وإنما يتفاوتون أيضاً في استعداداتهم العقلية . وهذا ما يهمننا بصدد نظريته في المعرفة . وهكذا نرى شخصاً ذا نزعة علمية وآخر ذا موهبة رياضية وثالثاً يجب الطبيعيات الخ . . . والذي فرق هذه الأقسام وسخر هذه النفوس وحرف هذه العقول لاستخراج هذه العلوم من مدافنها ، وهذه المعاني من مخابنها ، وهو الذي سخر بطليموس مع ملكه وفلاناً وفلاناً للتفرغ للأمور السماوية والرعاية . والنجوم واختلاف سير الكواكب ، وكل ميسر لما خلق له ، لتتم النعمة ولتكمل المعرفة . وإنما تأبى التسيير للمعاصي ، فأما الصناعات فقد تقصر الأسباب بعض الناس على أن يصير حائكاً وتقصر بعضهم على أن يكون صيرفياً ، فهي ان قصرته على الحياة فلم تقصره على خلف المواعيد وعلى إبدال الغزل وعلى تشقيف العمل دون الأحكام

١ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٥٤) .

والصدق وأداء الأمانة ولم تقصر الصيرفي على التطفيف في الوزن والتغليط في الحساب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (١) .

وهكذا يفصل الجاحظ بين الغرائز والميول ومن جهة ، وبين الصفات الخلقية من جهة ثانية . ويؤكد على أن الناس وإن خضعوا لطباعهم فإنهم غير مجبرين على سلوكهم الخلقى والدني .

ويمضي الجاحظ أبعد من ذلك في نظريته ، فيزعم أن كل إنسان يملك استعدادات معينة لقن من الفنون أو ضرب من ضروب المعارف . وأن تلك الاستعدادات تكمن فيه كما تكمن الحبوب تحت الأرض تنتظر الوقت الملائم لتنبث وتتفتق دون أن يكون ذلك خاضعاً لإرادته ودون أن يستطيع معرفة أسبابها ، لأن تلك الملكات الكامنة منذ الولادة لا تخضع لقانون الوراثة أو لأي تعليل . ولنسمع ما يقوله بهذا الشأن : « قد زعم أناس أن كل إنسان فيه آلة لمرفق من المرافق وأداة لمنفعة من المنافع ولا بد لتلك الطبيعة من حركة وإن أبطأت ، ولا بد لذلك الكامن من ظهور . فإن أمكنه ذلك بعثه ، وإلا سرى إليه كما يسري السم في البدن ، ونمى كما ينمى العرق . كما أن البزور البرية والحببة الوحشية الكامنة في أرحام الأرضين لا بد لها من حركة عند زمان الحركة ومن التفتق والانتشار . وإذا صارت الأمطار لتلك الأرحام كالنطفة وكان بعض الأرض كالأم الغاذية فلا بد لكل ندي قوي أن يظهر قوته كما قال الأول ولا بد للمصودر يوماً من النفث . وقال : ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر . ولذلك صار طلب الحساب أحق على بعضهم ، وطلب الطب أحب لى بعضهم ، وكذلك النزاع لى الهندسة ، وشغف أهل النجوم بالنجوم ، وكذلك أيضاً ربما تحرك له بعد الكبيرة وصرف رغبته إليه بعد الكهولة ، على قدر قوة العرق في بدنه ، وعلى قدر الشواغل له وما يعترض عليه ، فنجد واحداً يلهمج بطلب الغناء واللحن ، وآخر يختار طلب الملك ، ونجد حرصهم على قدر العمل الباطنة المحركة له ، ثم لا تدري

كيف عرض لهذا السبب دون الآخر إلا بجملة من القول ، ولا نجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض يعلم لم اختار ذلك في جملة ولا تفسير ، إذ كان لم يجد منه على عرق ولا اختاره على أرث» (١) .

ويلخص الجاحظ شروط المعرفة بالتركيب الغريزي للعقل ، وبالدواعي الخارجية . فإذا توافر هذان العنصران صرف المرء وهمه إلى النظر فوقعت المعرفة . أما إذا أصيب العقل بأفة أو عرضت حوادث غير ملائمة امتنعت المعرفة . وهذا ما يفهم من قوله : « وإنما يتمتع البالغ من المعارف قبل أمور تعرض له من الحوادث ، وأمور في أصل الغريزة فإذا كفاهم الله تلك الآفات وحصنهم من تلك الموانع ووفر عليهم الذكاء وجلب إليهم جياذ الخواطر وصرف أوهامهم إلى التعرف وحبب إليهم التبين وقعت المعرفة وتمت النعمة » (٢) .

هذا موجز نظرية المعرفة على النحو الذي ظهرت به في آثاره التي انتهت إليها غير أن القاضي عبد الجبار يقول ان له كتابين يعالجان هذا الموضوع هما كتاب الإلهام وكتاب المعرفة . كما يقول ان بعض شيوخ المعتزلة لم يرضوا عن نظريته : منهم أبو هاشم الجبائي وأبو علي الجبائي اللذان انتقدها ونقضا كتابيه المذكورين . ويبدو أن القاضي يؤيدهما في مخالفتها الجاحظ وقد عرض انتقاداتهما في كتابه المغني (٣) .

يلخص القاضي عبد الجبار نظرية الجاحظ في المعرفة بالمقطع التالي : « اعلم انه رحمه الله انه كان يقول في المعارف انها تقع ضرورة بالطبع عند النظر في الأدلة . ويقول في النظر انه ربما وقع طبعاً واضراً وربما وقع اختياراً . فمتى قويت الدواعي في النظر

---

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

٢- البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧ .

٣- عبد الجبار ، المغني (مطبعة مصر ، القاهرة ، د. ت. ، د. ط. ) ج ١٢ ، ص ٢٣٥ وما بعدها .

وقع اضطرار بالطبع ، وإذا تساوت وقع اختيار . فأما ارادة النظر فإنه مما يقع باختيار كإرادة سائر الأفعال . وهذه الطريقة دعت إلى التسوية بين النظر والمعرفة وبين إدراك المدركات في أن جميع ذلك يقع بالطبع . وكذلك يقول في التحريكة بعد الاعتماد ، لأنه يذهب في التولد مذهب أصحاب الطبائع . ولكنه فيما يقع من القادر يخالف طريقتهم لأنه يقول : إنما تقع بالطبع عند الحوادث والدواعي ، فيرجع في ذلك إلى حال للجملة نعتيها . وليس كذلك طريقة أصحاب الطبائع . وقد تصرف شيخنا أبو علي رحمه الله معه في ذلك كل مذهب ونقص عليه الكلام بما الوجه لك على إيجاز<sup>(١)</sup> .

ومن الخير أن نورد اعتراضات الجبائي وتلميذه القاضي عبد الجبار على نظرية المعرفة عند الجاحظ ، لأنها تساعدنا على القاء الأضواء عليها ورؤيتها بوضوح : إذا صح أن النظر من فعل الناظر إذا تساوت الدواعي ، واقع بحسب قدرته ، فكذلك يجب وإن قويت الدواعي ، لأن قوة الدواعي لا تغير حال القدرة عما كانت عليه لا من جهة الانتقاء ولا من جهة أن العقل يستحيل بها . لأن قوة الدواعي لا تنافي القدرة لانه اعتقاد ، ومن شأن الاعتقاد والظن أن لا ينافيا القدرة<sup>(٢)</sup> .

وإذا وقعت المعرفة بالطبع بدون قصد فلا يصح أن يذم الله الإنسان أو يحاسبه لإعراضه عن النظر والتدبر ، بينما يحمد العاقل لأجل النظر والتدبر ، وهو القائل في كتابه « أفلا يتدبرون القرآن ، أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض » إلى غير ذلك<sup>(٣)</sup> .

وإذا رجع الجاحظ إلى المعرفة بالمحل فهذا يلزمه نفي القدرة . والجاحظ يقول أن

١- المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ٣١٦ .

٢- المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ٣١٦ .

٣- القاضي عبد الجبار ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ .

الإنسان قادر على أفعاله فكيف يوفق بين الأمرين <sup>(١)</sup> .

وإذا كانت المعرفة طباعاً فماذا يمنع أن تقدم للبليد والبطيء الفهم ولعمامة الناس ، وماذا يمنع ألا تقع لأهل النظر والأدلة <sup>(٢)</sup> .

ويقع الجاحظ في التناقض فهو من جهة يقول ان المعرفة تقع بالطبع بينما يقول من جهة ثانية ان التكليف لا يصح الا بشروط منها أن تكون الأدلة قائمة ، وان يكون المكلف عارفاً بالعادات . . . فإذا كانت المعرفة تقع بالطبع فما الحاجة إلى معرفته بهذه الأدلة المقدمات . الا يكفي المكلف أن ينظر فيما شاهده من الأدلة فيقع النظر وتقع المعرفة بعده طباعاً ؟ <sup>(٣)</sup> .

ويقول الجاحظ ان الذم يلحق فقط من عرف الله وعرف انه يستحق العقاب من جهته على المعاصي ، والشواب على الطاعات ، ومن لم يعرف ذلك فالتكليف زائل عنه ، وإذا طبق الجاحظ رأيه هذا على من كذب بالرسول وعانده لكان حكمهم حكم المنافقين المستحقين للعقاب والذم إذ كانوا يعرفون الله ورسوله ، أما حكم من لم يعرف الله ورسوله فزوال الحجة وعدم استحقاق العيب والذم ، وهذا مناف لما هو متعارف من أمر التكفار <sup>(٤)</sup> .

ويعتمد الجاحظ في مذهبه على انعدام القصد في المعرفة بالطبع لأنها معرفة تقع بالحدس والاتفاق دون عمد . وكل فعل هذا حاله لا يجوز أن يستحق به صاحبه المدح والذم ولا يدخل بالتالي تحت التكليف . والنظر إذا لم يعرف فاعله من قبل انه يؤدي الى معرفة مخصوصة لم يجوز ان يدخل تحت التكليف ولا أن يتعلق به مدح وذم . ولهذا قال الجاحظ : « لا يستحق الذم على المعصية إلا بعد أن يعلم انها موافقة لسخط الله

١- المصدر عنه ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ .

٢- المصدر عنه ، ج ١٢ ، ص ٣٢١ .

٣- المصدر عنه ، ج ١٢ ، ص ٣٢١ .

٤- المصدر عنه ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢-٣٢٤ .

تعالى ، والطاعة لا يستحق بها الثواب إلا مع العلم انها توافق رضاه <sup>(١)</sup> . والصحيح هو أن النظر طريق معلوم للنظر يميزه عن غيره ، وللناظر طريق يعلم به وجوب هذا النظر في طريقه . ولما كان كذلك خرج بهذه الصفة عما يقع باتفاق وחדس ، ولحق الأفعال الواجبة .

يقول الجاحظ ان معرفة الله تكون من جهة الأنبياء ويظهر المعجزات عليهم ، ولولا ظهور المعجزات على الأنبياء لما حصلت معرفة الله . أما الجبائي فيخالفه ويقول : أن معرفة الله يجب أن تسبق النظر في النبوات <sup>(٢)</sup> .

ان من يقدم على اقرار المعاصي كالزنا والقتل والسكر وغيرها من الكبائر تحت تأثير الشهوة يجب ، حسب نظرية الجاحظ ، أن لا يستحق ذماً لأنه عندما تشتد الشهوة يقع ذلك منه طباعاً لا اختياراً ولأنه لما عرف بعد العقاب والثواب <sup>(٣)</sup> .

وإذا كانت المعرفة تقع طباعاً فيمكن معرفة الله دون بعثه الأنبياء فلماذا أرسلهم الله إذن ؟ <sup>(٤)</sup> .

يقول الجاحظ اننا نعرف الأنبياء بالمعجزات التي يأتون بها ، كما يقول ان المعجزات أعراض ، ويقول أيضاً أن الأعراض من فعل الطباع أو الأجسام وليست من فعل الله الذي لا يخلق سوى الأجسام . وبناء على مذهب الجاحظ كيف يمكن أن تدل المعجزات التي ليست من فعل الله على الله ؟ <sup>(٥)</sup> .

ان نظرية الجاحظ تجعل المناظرة في شأن الله من غير فائدة . وذلك لانهم ان عرفوا فحال الجميع واحدة ، وان كان فيهم من لا يعرف فالحجة عنه زائلة ، فلا

---

١- الفاضل عبد الجبار ، المغني ، ج ١٢ ، ص ٣٢٤ .

٢- المصدر عينه ، ج ١١ ، ص ٣٢٨ .

٣- المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩ .

٤- المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩ .

٥- المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩ .

يصح توبيخه على ترك النظر والمعرفة ، وينبغي أن يولي أمره إلى الله تعالى في فعل النظر والمعرفة منه . وهذا يوجب كون النظر والمناظرة عبثاً لا فائدة منها ، ويوجب مثل ذلك في تصنيف الكتب والتشاغل بكل هذا الجنس . وبين أنه لا يمكنه أن يفصل بين حاله وحال أصحاب الإلهام في هذا الباب من حيث يقول بالنظر دونهم ، وذلك لأنه يلزمه الاستغناء عن النظر من حيث كانت المعرفة طبعاً واضراً وان تكون حاله كذلك كحال القائم بالإلهام (١) .

يقول الجاحظ أن الله يعرف من قبل الإنسان بواسطة الرسل « إذا ظهرت الآيات عليهم ، وشرط في ذلك أن يكون قد تقدم له العلم بالفرق بين الخيل والمعجزة ووقف على ما يصح من العباد الوصول إليه وما لا يصح وما لا يجوز في العادة وما لا يجوز » . أما معرفة الله بالحركة والسكون والجماع والافتراق وحدث العالم واثبات الحدث بدونها فممتنعة لأن ذلك يدق ويلطف ويبعد بلوغ كنهه ولا يجوز أن يكلف الله الإنسان معرفته بهذه الطريقة .

أن رأى الجاحظ لا ينطبق على أهل الخيال والحزائر والمهن ، فهؤلاء يستطيعون أن يلاحظوا تغير الأحوال على الأجسام وتعلق الفعل بالفاعل ، والوصول إلى معرفة الأعراض واثبات فاعل مخالف لها لحدوث الأمور التي يتعذر مثلها علينا . أن هذا الأمر أيسر عليهم من معرفة الفرق بين المعجزة والخيل (٢) .

يقول الجاحظ أنه يتمتع أن يتفق العدد الكبير على الضلال ، فيخالفه شيوخ المعتزلة ويقولون أن العدد الكبير قد يتفقون على الضلال ، والدليل على ذلك جماعات الكفار الذين قاتلهم النبي وذمهم ، فإرد الجاحظ أنه قاتلهم لأنهم كانوا عارفين ، ويورد آيات قرآنية كثيرة تدل على معرفتهم بأنهم يعرفون الله ويماندونه . مثل

١- عبد الجبار ، الغني ، ج ١٢ ، ص ٣٢١ .

٢- المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ٣٤٢-٣٤٣ .

الآية ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون ﴾ (٧٧ بقرة) والآية ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون ﴾ (٧٠ آل عمران) والآية : ﴿ وممت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وحاولوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ (٥ غافرة) والآية : ﴿ بل جاءهم بالحق واکثرهم للحق كارهون ﴾ (٧٠ المؤمنون) والآية : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ <sup>(١)</sup> (١٤٦ البقرة) .

هنا ينبري أبو علي الجبائي لإيراد آيات قرآنية تحالف هذه الآيات التي استشهد بها الجاحظ بعد أن يفسرها تفسيراً مغايراً لتفسير الجاحظ يتفق مع نظريته إلى المعرفة كالآية : ﴿ ما علمت لكم من غير الله غيري ﴾ (٣٨ القصص) والآية : ﴿ فهم في رأيهم يترددون ﴾ (٤ التوبة) والآية ﴿ وتظنون بالله الظنون ﴾ (١٠ أحزاب) وينتهي إلى القول ان الذي ظهر من الأنبياء من حجاج مع اقوامهم مثل محاجة إبراهيم لعدو الله ، ومحاجة موسى لفرعون ، تدل على انهم كانوا بالله ويسائر الحق غير عارفين <sup>(٢)</sup> .

ان زعم الجاحظ أن المعرفة تقع بالطبع يؤدي إلى القول ان العلم لا يتولد من النظر وحجته واردة في كتابه الإلهام حيث يقول : « إذا ثبت أن العقلاء الناظرين في أصول الدين وفروعه يختلف حالهم كما يختلف حال الساعي في طلب الشيء ، فيخيب أحدهما دون الآخر ، بل قد يخيب الساعي ويصل إليه القاعد ، وقد يحرم الحازم الشيء وان وصل إليه المضيع ، فيجب أن يدل ذلك على أن العلم لا يتولد عن النظر » <sup>(٣)</sup> .

يرد عليه القاضي عبد الجبار قائلاً أن النظر يولد العلم ولا علم دون نظر ، وإذا رأينا الناس يختلفون في إدراك الحقائق على الرغم من أنهم جميعاً ينظرون « فلانهم لا

١- المصدر عنه ، ج ١٢ ، ص ٣٣٢-٣٤٢ .

٢- عبد الجبار ، المغني ، ص ٣٤٠-٣٤١ .

٣- المصدر عنه ، ج ١٢ ، ص ١٤٠ .

ينظرون في الأدلة على وجه واحد كما ذكرنا من الوجوه ، ولو نظروا على وجه واحد لأدوا الى العلم ، كما ان الرماة إذا رموا جميعاً في سمت واحد وجبت الإصابة ، وإنها صح في سائر الأشياء ما ذكره لانه لا يولد المطلوب « (١) .

واخيراً يقول الجاحظ ان التكليف لا يجوز في المعرفة لانها تقع بالطبع وينعدم فيها الاختيار ، ولا تكليف دون توافر الاختيار . أما النظر فلا يجوز فيه التكليف إذا قويت الدواعي ، ويجوز التكليف إذا تساوت الخواطر والدواعي .

يرد القاضي عبد الجبار قائلاً ان المعرفة كسائر الأفعال لا تقع بالطبع وإنما تقع من القادرين والإنسان قادر عليها وغتار وليس مجبراً . أما التكليف فإنه يقتضي شرطاً واحداً ليصح هو تمكن المكلف من أدائه على الحد الذي كلف ، وإنما تختلف الأفعال التي يتناولها التكليف فيما يحتاج إليه المكلف حتى يمكنه القيام به . ففيه ما يحتاج من القدرة إلى آلة وفيه ما يحتاج إلى أدلة أو علم إلى ما شاكل ذلك ، ولا يجب من حيث اختلف في هذه الوجوه أن يختلف فيها الشرط الذي ذكرناه ، بل الشرط متفق وما معه يحصل ذلك الشرط يختلف . فلا يمتنع في المعرفة خاصة أن لا يعتبر في حصولها أن يكون المكلف عالماً بها على التفصيل من قبل ليتمكن من فعلها ، وان وجب اعتبار هذا الشرط في غيرها « (٢) .

هذه هي مجمل اعتراضات الجبائي والقاضي عبد الجبار على نظرية الجاحظ في المعرفة . وهي اعتراضات خطيرة إذا صحت أدت الى تدمير نظرية الجاحظ . ولا بد قبل إصدار الحكم في مدى صحة النظرية ونقضها من تحديد مفاهيم المعرفة والنظر والطبع عند كل من الجاحظ والقاضي .

إن النظر هو الفكر كما يفهم من أقوال القاضي « والفكر هو تأمل حال الشيء »

١ - المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ١٤١ .

٢ - عبد الجبار ، المغني ، ج ١٢ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

والتمثيل بينه وبين غيره أو تمثيل حادثة في غيرها . وهذا ما يجده العاقل في نفسه اذا فكر في أمر الدين والدنيا « (١) .

وللفكر أو النظر موضوع ، وموضوعه هو الشيء الذي يتأمله ، ولا بد من توافره ليكون هناك معرفة « (٢) .

أما شرط تولد العلم أو المعرفة فهي العقل والدليل ، لى جانب النظر والموضوع . وهكذا نجد النظر يؤدي إلى تولد العلم اذا « كان نظراً من عاقل في دليل معلوم على الوجه الذي يدل » « (٣) .

أما المعرفة فهي العلم ، وقد عرفه القاضي بأنه : « اعتقاد الشيء على ما هو به » « (٤) مع سكون النفس الذي يختص به العلم . وهو يتولد من النظر كما قال ، والدليل على هذا انه « عند النظر في الدليل يحصل اعتقاد المدلول على طريقة واحدة إذا لم يكن هناك مانع ، ويحصل هذا الاعتقاد عنده بحسبه ، لانه لا يحصل اعتقاد غير المدلول لانه اذا نظر في دليل حدوث الأجسام لم يحصل عنده اعتقاد النبوات . . . » « (٥) .

أما الطبع فهو محل الفعل تبعاً لقول القاضي : « ان الطبع الذي أضافوا الفعل إليه لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون صفة للمحل أو معنى فيه . . . » « (٦) .

ان مفاهيم المعرفة والنظر عند الجاحظ لا تختلف كثيراً عن مفاهيمها عند القاضي عبد الجبار . فالنظر كما حدده القاضي هو عين الاستدلال كما حدده الجاحظ ، والمعرفة هي العلم بالشيء عند كليهما . أما الطبع فهو المحل والجوارح

---

١- المصدرية ، ج ١٢ ، ص ٤ .

٢- المصدرية ، ج ١٢ ، ص ٩ .

٣- المصدرية ، ج ١٢ ، ص ١١ .

٤- المصدرية ، ج ١٢ ، ص ١٣ .

٥- عبد الجبار ، المغنى ، ج ١٢ ، ص ٧٧ .

٦- المصدرية ، ج ١٢ ، ص ٢٥-٢٦ .

والغرائز التي تولد مع الإنسان وبها تتم المعرفة بنظر الجاحظ ، بينما لا يقر القاضي بأن الطبع أو المحل يولد المعرفة ، وهذا هو أساس الخلاف بينهما .

أن القاضي يتهم الجاحظ بأنه يذهب إلى أن الإنسان ليس قادراً على المعرفة وليس متحكماً بها لقوله بالطباع ، والقول بالطباع يؤدي بنظر القاضي إلى نفي القدرة والاختيار عنده . بينما يرى القاضي العكس ويذهب إلى أن الإنسان مرید لأفعاله قادر عليها بما في ذلك المعرفة : « ولو كان الفعل يقع في المحل بطبعه لوجب الاتقاع أفعال جوارحه بحسب قصده ودواعيه وعلمه وإدراكه ، فإذا ثبت وقوعها بحسب هذه الأحوال فيجب القضاء بطلان كونها فعلاً للمحل . ولا يمكن أن يقال إن المحل الذي فيه الإرادة يحمل سائر المحال على الفعل لأن هذا الفعل ينقص القول بأن هذه الأفعال تقع بطبع المحال . . . » (١) .

والحق أن الجاحظ عندما يقول إن الإنسان غير قادر على المعرفة فهو يعني أنه لا يستطيع التحكم بها ، ولا يعني أبداً أنه عاجز عن تحصيلها . وهو لا يلغي دور الإرادة في المعرفة ولكنه يجعل ذلك الدور محدوداً : إن الإرادة تقتصر على حمل العقل على النظر فإذا حصلت المعرفة بعد ذلك فحصولها يكون وليد العقل المفكر لا وليد الإرادة الحرة . وبما أن العقل غريزة أو طبع فهو عندما يعمل لا يتحكم به صاحبه ولا يستطيع أن يقره على اكتشاف العلم ، كل ما يستطيع عمله هو إرادة المعرفة أي حمل العقل على التفكير أو النظر أما كيف يعمل العقل وما هي حصيلة عمله فأمر لا يدخل في نطاق إرادة الإنسان أو قدرته .

إن القاضي يخضع عمليات التفكير عند الإنسان لإرادته ، بينما يقول الجاحظ إنها لا تخضع للإرادة . القاضي ينظر إلى العقل كما ينظر إلى آلة الكترونية يكفي أن نطلب منها التفكير ونقدم لها مادة العمل لتتحرك ونجيبنا إلى ما نريد . ولهذا يقول إن

---

١- المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ٢٥ .

الإنسان إذا نظر في الشيء ووفر له الدليل استطاع أن يصل الى المدلول أو العلم . أما الجاحظ فهو على العكس يعتبر التفكير عملية معقدة عسيرة تتداخل فيها عوامل شتى من تركيب غريزي ودواع خارجية وداخلية .

وتلعب الدواعي دوراً هاماً في المعرفة بنظر الجاحظ ، فهي التي تؤثر على العقل وتحمله على الحركة والعمل . وإذا قويت وقع النظر بالطبع وإذا تساوت وقع النظر اختياريّاً . أما بنظر القاضي عبد الجبار ، فالدواعي لا تؤثر في قدرة الإنسان على النظر نفيّاً أو إحالة .

الواقع أن الدواعي تؤثر في عملية التفكير واكتساب المعرفة فهي حوافز ومثيرات تحدث في الدماغ انعكاسات واستجابات مختلفة تتولد عنها الأفكار . والجاحظ لا يدعي أن الدواعي تزيد في قدرة الإنسان على النظر أو تضعفها — ويبدو أن القاضي فهم فكرة الجاحظ فهماً خاطئاً — ان الجاحظ يقول ان في الإنسان طاقات عقلية محدودة بحكم تركيبه الغريزي والجسمي ، وهذه الطاقات والاستعدادات تحركها الدواعي الى العمل والإنتاج دون أن تزيد أو تنقص منها .

ان تأكيد الجاحظ على أهمية الدواعي في التفكير ، ونظرته الى العقل كملكة فطرية أو طبع أو غريزة تثيرها الدواعي الى العمل فتتولد عن ذلك المعرفة ، يجعله ممهداً لنظرية الانعكاس الشرطي الحديثة .

أما مسألة الجبر والاختيار وعلاقتها بالمعرفة والتكليف وبالمذموم والذم والثواب والعقاب فقد كان الجاحظ واضحاً في تقسيمه الأفعال الى قسمين : قسم يتعلق بالمعرفة الاضطرابية والميول والغرائز وهذا لا يخضع للتكليف والحساب والعقاب . لان الإنسان مجبر عليه ، وقسم يتعلق بالأمر والنهي وسائر ما نص عليه الدين وهو يخضع للتكليف والحساب لان الإنسان مخير فيه ومكلف وعالم به .

وأخيراً يتهم القاضي الجاحظ بأنه الغنى دور النظر وقال انه لا يولد المعرفة .  
ويبدو مرة أخرى انه لم يفهم الجاحظ جيداً في هذه المسألة . لان الجاحظ يؤكد على  
أهمية النظر في المعرفة ويقول ان العقل لا بد له من التفكير الطويل والشحذ المتواصل  
والتجارب التي تحنكه لكي يستطيع أن يقوى ويقف في وجه الغرائز والشهوات . وهذا  
ما يقوله بهذا الصدد « ولن نفي قوة غريزة العقل لجميع قوى طبائعه وشهواته حتى  
يقوم ما أعوج منها ويسكن ما تحرك دون النظر الطويل الذي يشدها والبحث الشديد  
الذي يشحذها والتجارب التي تحنكها والفوائد التي تزيد فيها . ولن يكسر النظر  
حتى تكثر الخواطر ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الحوائج ، ولن تبعد إلا لبعدها الغاية  
وشدة الحاجة » (١) .

ويخالف الجاحظ القاضي الذي يقول ان إمامة صحة العلم هي سكون نفس  
العالم الى ما علمه به ، لان الجاهل بنظر الجاحظ قد تسكن نفسه الى ما اعتقده  
أيضاً (٢) .

غير أن الجاحظ يتفق مع القاضي في موضوعية الحقيقة أو وجودها بذاتها وفي  
عدم نسبية المعرفة . وهما بذلك يخالفان الشكاك الذين يزعمون « أن لا حقيقة للأشياء  
بنفسها وحقيقتها . . كالعسل الذي يجده المعتدل المزاج حلواً وصاحب المرة الصفراء  
الذي يجده مرّاً . » (٣) .

هـ - مجمل القول في الجاحظية :

والخلاصة ان الجاحظ يوافق المعتزلة في نفي الصفات عن الله ، فهو عندما يقول

١ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠) .

٢ - عبد الجبار ، المفنى ، ج ١٢ ، ص ٣٦ .

٣ - المصدر عينه ، ج ١٢ ، ص ٤٧ .

عن الله انه « حي لا ب حياة ، وعالم لا بعلم »<sup>(١)</sup> ، يذكربنا بقول أبي الهذيل في ذلك :  
 « ان الله عالم بعلم وعلمه ذاته ، قادر بقدرته وقدرته ذاته ، حي ب حياة وحياته ذاته »<sup>(٢)</sup> .  
 والفرق بين القولين هو أن الأول ينفي الصفة اطلاقاً ولا يعترف الا بالذات بينما يثبت  
 الثاني الصفة ويعملها عين الذات ، وكلا القولين يؤدي الى التعطيل .

ولكنه يختلف عن أبي الهذيل العلاف والنظام في ما عرف بمعرفة الله . فبينما  
 ذهب هذان الأخيران الى أن الإنسان العاقل يجب عليه أن يحصل معرفة الباري بالنظر  
 والاستدلال ، قال الجاحظ « ان الناس لم يعرفوا الله من قبل الرسل ولم يعرفوه من قبل  
 الحركة والسكون والافتراق والزيادة والنقصان » كما يدعي الفلاسفة . واذا كان  
 بعضهم قد عرفوا وجوهاً أخرى من الدلالة على الله فإننا تم لهم ذلك بعد أن عرفوه من  
 الرسل<sup>(٣)</sup> .

وهذه المعرفة تقتصر على الوجود ولا تطلال الماهية ، أي أن معرفة الله هي معرفة  
 إقرار بوجوده لا معرفة إحاطة بصفته<sup>(٤)</sup> .

وهو يخالف هشام بن الحكم في علم الله للأشياء . لقد زعم هشام أن الله  
 يعلم ما تحت الثرى بالشعاع المتصل منه الذهاب في عمق الأرض . فعقب الجاحظ  
 على ذلك قائلاً : « ولو زعم هشام أن الله تعالى يعلم ما تحت الثرى بغير اتصال ولا  
 خبر ولا قياس كان قد ترك تعلقه بالمشاهدة وقال بالحق »<sup>(٥)</sup> .

وكذلك يخالف الجاحظ هشام بن الحكم الذي يقول ان علم الله حادث ،  
 وإنه كان غير عالم ثم علم<sup>(٦)</sup> .

١ - الخلاء ، ص ٥٧ .

٢ - الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

٣ - مسائل وجوابات في المعرفة (المشرق ، ١٩٦٩ ، تحقيق بلا) ص ٣٢٣ .

٤ - الدلائل والاعتبار ، ص ٧٥ .

٥ - الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ج ١ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

٦ - الحياط ، الانتصار ، ص ٦٠ ، ص ١٢٦ .

ويصدد النبوة وما يتعلق بها من معجزات وتكليف شرائع وأخبار ، يقف الجاحظ مواقف مميزة . فهو يخالف أبا الهذيل العلاف في مسألة التكليف ومعرفة الشرائع . يقول أبو الهذيل بالتكليف قبل ورود السمع ، وأن على الإنسان أن يعرف الله بالدليل وإن قصر في المعرفة استوجب العقوبة ، وعليه أيضاً أن يعلم الحسن من القبيح فيقدم على الحسن كالصدق والعدل ويعرض عن القبيح كالكذب والجور <sup>(١)</sup> . أما الجاحظ فيذهب خلاف ذلك ، ويقول إن الإنسان قبل ورود السمع والتكليف غير مسؤول عن مخالفة الأحكام الدينية لأن الناس عاجزون عن إدراك الأحكام الدينية بعقولهم وبدون الأنبياء والكتب <sup>(٢)</sup> .

ويخالف الجاحظ أبا الهذيل أيضاً في مسألة خلق القرآن . أن مذهب أبي الهذيل يتلخص في أن بعض القرآن لافي عل وهو قوله كن ، وبعضه في محل كالأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وكأن أمر التكوين عنده غير أمر التكليف <sup>(٣)</sup> . إن أبا الهذيل يعتبر القرآن مخلوقاً على المجاز من حيث هو إرادة وقول أو من حيث هو إرادة ووجود كن . أما من حيث كونه مؤلفاً من كلام وأصوات وخبر وأمر ومعان فهو مخلوق على الحقيقة <sup>(٤)</sup> . لا يميز الجاحظ هذا التمييز ، ويرفض اعتبار القرآن مجرد أصوات ومقاطع كما يزعم أهل السنة <sup>(٥)</sup> ، ويذهب إلى أنه جسم وصوت ، وذو تأليف ونظم وتقطيع ، وخلق قائم بذاته مستغن عن غيره ، ومسموع في الهواء ، ومرئي في الورق ، ومفصل وموصل ، ذو اجتماع واقتران ، ويتحمل الزيادة والنقصان ، والفناء والبقاء ، ما احتملته الأجسام ووضعت به الأجرام . إن كل ما كان كذلك مخلوق في الحقيقة دون المجاز وتوسع أهل اللغة <sup>(٦)</sup> .

١- الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٢ .

٢- حجاج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٥١) .

٣- الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٦ .

٤- الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ج ٢ ، ص ٥١١ .

٥- نفي التشبيه ، (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٩) .

٦- آثار الجاحظ ، دهر ، ٢٧٢ .

وهكذا نرى الجاحظ يستقل برأيه عن أهل السنة والجماعة الذين يعتبرون القرآن مجرد أصوات ومقاطع ، وعن بعض المعتزلة الذين قالوا انه جسم وليس بصوت وتقطيع ونظم وتأليف ، لان الصوت بنظرهم عرض يحدث عن احتكاك جسمين أو جوهرين ، ولا بد له من مكانين : مكان زال عنه ، ومكان زال اليه ، ولا بد من هواء بين المصطكين . وقال هذا الفريق ، ومنهم معمر وأبو كلدة وعبد الحميد وثمامة ان افعال الطبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة ، وان القرآن جسم مخلوق على المجاز لا على الحقيقة <sup>(١)</sup> .

وأخيراً يعارض الجاحظ أبا الهذيل والنظام معاً في شروط الخبر الصحيح . قال أبو الهذيل ان الحجة لا تقوم فيما غاب الا بخبر عشرين فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر ، ولا تخلو الأرض من جماعة هم أولياء الله معصومون لا يكذبون ولا يرتكبون الكبائر ، فهم الحجة لا التواتر ، إذ يجوز أن يكذب جماعة ممن لا يحصون عدداً إذا لم يكونوا أولياء الله ، ولم يكن فيهم واحد معصوم <sup>(٢)</sup> . وذهب النظام إلى أن الإجماع ليس حجة في الشرع ، وكذلك القياس في الأحكام الشرعية ، وإنما الحجة في قول الإمام المعصوم . ثم ان الخبر المتواتر الذي يتناقله العدد الكثير يمكن أن يكون كاذباً <sup>(٣)</sup> . أما الجاحظ فيذهب عكس ذلك ، إذ الإجماع برأيه حجة ، والخبر الذي يتناقله العدد الكثير لا يمكن أن يكون كاذباً لأن الناس الكثيرين لا يتفقون على تحرص الخبر الواحد في المعنى الواحد في الزمن الواحد <sup>(٤)</sup> .

وفي مسألة اعجاز القرآن يفترق الجاحظ عن استاذه النظام أيضاً ، فيبينما يقول النظام ان نظم القرآن وبلاغته ليسا معجزة للنبي أو دليلاً على النبوة ، وإنما إعجازه

١ - المصدر عنه ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ .

٢ - الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٣ .

٣ - البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ١٣٨ ، الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٧ .

٤ - آثار الجاحظ ، ص ٢٥٥ .

كائن في الإخبار عن الغيوب الماضية والآتية ، ومن جهة صرف الدواعي عن معارضته ، ولو خلاهم الله لكانوا قادرين على أن يأتوا بمثله ، ويذهب الجاحظ إلى خلاف ذلك ويقول أن نظم القرآن وبلاغته معجزة تدل على نبوة محمد ، وقد عجز العرب عن معارضته بعد أن تحداهم النبي في ذلك <sup>(١)</sup> .

وبصدد الإمامة نجد للجاحظ نظرية متكاملة لا نعهد لأحد من شيوخ المعتزلة ما يضارعها : لقد كانت لهم مواقف متباينة من الخلفاء الراشدين الأربعة : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . ويقسمهم ابن أبي الحديد ثلاثة أقسام :

١ - قسم يفضل أبا بكر على علي ويجعل ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة وهم عمرو بن عبيد ، وإبراهيم النظام ، والجاحظ ، وثمامة بن اشرس ، وهشام الفوطي ، ويوسف الشحام ، وغيرهم من قدامى البصريين .

٢ - قسم يفضل علياً على أبي بكر وهم البغداديون قاطبة قداماؤهم ومتأخروهم وهم بشر بن المعتمر ، وعيسى بن صبيح ، وجعفر بن مبشر ، وأبو جعفر الإسكافي ، وأبو الحسين الخياط ، وعبدالله البلخي ، وتلامذته . ثم بعض البصريين المتأخرين أمثال أبي علي الجبائي ( وكان من قبل متوقفاً ) والقاضي عبد الجبار بن أحمد بعد توقف ، وغيرهما .

٣ - وقسم توقف فلم يفضل أحدهما على آخر وإن كان يفضل علياً على عثمان منهم واصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف <sup>(٢)</sup> .

لا يبدو هذا التصنيف دقيقاً ، ولا يوافق عليه الشهرستاني مثلاً فهو يقول أن عمرو بن عبيد توقف مثل واصل ، وإن النظام فضل علياً وقال إن إمامته جاءت بنص من الرسول .

---

١ - المصدر عينه ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

٢ - ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ( دار أحباء التراث العربي ، بيروت ، د . ط . ، د . ت . ) مج ١ ، ج ١ ، ص ٣ .

أما الجاحظ ، فإن موقفه يبدو بوضوح في رسائل العثمانية ، والنابنة ، والحكمين . انه لا يفضل أبا بكر على علي ولا علياً على أبي بكر ، ويعتبر الخلفاء الراشدين الأربعة سواء في الفضل ويجلهم جميعاً . ولكن يحتقر معاوية ويطعن في خلافته (١) .

وبصدد المعرفة نجد عند الجاحظ نظرية أصيلة أيضاً يخالف بها سائر المعتزلة . فهو ينتقد بشر بن المعتمر وأصحابه الذين يزعمون أن المعارف كلها فعل الفاعلين الا معرفة لم يتقدمها سبب منهم كالذي تجده الحواس بغتة أو يرد على النفس في حال عجز أو غفلة . وعلى هذا الأساس يعتقدون أن معرفة الله هي نتيجة التفكير والمناظرة ، وان المعرفة بصدق الأخبار كالعلم بالأمصار النائية والأيام الماضية حصيلة الاكتساب والاختيار . وان درك الحواس فعل الإنسان لان الفاتح بصره لو لم يفتح لم يدرك والفتح فعل إرادي (٢) .

وكذلك يهاجم النظام الذي يزعم أن « أن المعارف ثمانية أجناس ، واحد منها اختيار وسبعة منها اضطرار ، فخمسة منها درك الحواس الخمس ، ثم المعرفة بصدق الأخبار كالعلم بالقري والأمصار والسير والآثار ، ثم معرفة الإنسان اذا خاطبه صاحبه انه موجه بكلامه اليه وقاصد به نحوه . وأما الاختيار فكالعالم بالله وتأويل كتابه والمستنبط من علم الفتيا وأحكامه ، وكل ما كان فيه الاختلاف والمنازعة ، وكان سبيل علمه النظر والفكرة » (٣) .

ويبدو أيضاً غير راض عن معمر الذي يزعم أن العلم عشرة أجناس ، خمسة منها درك الحواس والعلم ، السادس كالسير الماضية والبلدان النائية ، والسابع العلم بقصد المخاطب وإراداته للسامع عند المحاورة ، والثامن علم الإنسان بوجوده

١- النابنة ، (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٧-١٠ .

٢- مسائل وجوابات في المعرفة (دار المشرق ، ١٩٦٩ ، بيروت تحقيق بلا ٣١٦-٣١٧ .

٣- المصدر عنه ، ص ٣١٨ .

والتاسع علم الإنسان من أحاديث أو قديم والعاشر علمه بانه محدث وليس بقديم<sup>(١)</sup>.

وهو يذهب إلى أن جميع المعارف تقع اضطراراً للإنسان بها في ذلك معرفة الله . فمعرفة الله تتم بواسطة الرسل ، ومعرفة صدق الرسل تتم اضطراراً لا اكتساباً . ان الإنسان البالغ يستطيع أن يميز صدق النبي من كذب المتنبي رأساً دون نظر وإعمال فكر لان تجاربه منذ طفولته إلى أن بلغ هيأته لذلك . ويشرح الجاحظ فكرته على الوجه التالي : « ان التجربة على ضربين : احدهما أن يقصد الرجل الى امتحان شيء ليعرف نخبه كما عرف منظره ، والآخر أن يهجم على علم ذلك من غير قصد ، وقد سمى الإنسان مجرباً قاصداً أو هاجماً . فيزعم أن الإنسان مذ سقط من بطن امه الى أن يبلغ ، مقلب في الأمور المختلفة ومصرف في خلال الحالات المعروفة التي تلقىه الدنيا بها تورد عليه من عجائنها ، ويزداد في كل ذلك معرفة ، وتفيده الأيام في كل يوم تجربة ، كما يزداد لسانه قوة وعظمه صلابه ولحمه شدة ، من أم تناغيه وظئر تلهيه وطفل يلاعبه وطبيب يعالجه ونفس تدعوه وطبيعة تعينه وشهوة تبعثه ووجع يقلقه ، كما يزداد الزمان من قوته ويشد عظمه ولحمه ، ويزيده الغذاء عظماً وكثرة الغضب والتغليب جلدأ ، فإذا درج وجبا وضحك وبكى وامكنه أن يكسر اناء أو يكبه أو يسود ثوباً أو يضرب صيباً فضرب دبره الخادم وانتهره القيم ، فلا يزال ذلك دأبه حتى يفهم الإغراء والزجر والتعدي والانتهاز ، كما يعرف الكلب اسمه إذا الح عليه الكلاب به ، وكما يعرف المجنون لقبه ، وكما يحضر الفرس من وقعة السوط لكثرة وقعه بعد رفعه عليه . . . فإذا استحكمت هذه الأمور في قلبه وثبتت في خلده وصحت في معرفته فهو حيثئذ بالغ محتمل ، وعندئذ يسخر الله سمعه للخبر المثلج أو بصره لمعاينة الشاهد المنقح على يدي الرسول الصادق . . . فلا يحتاج عند معاينته رسولاً يحمي الموتى

---

١- المصدر عينه ، ص ٣١٨-٣١٩.

ويرى الأكمه والأبرص ويفلق البحر إلى تفكير ولا تمثيل ولا إمتحان ولا تجربة لأن قد فرغ من ذلك كله أجمع . . . (١) .

يرجع الجاحظ إلى مقدمات المعرفة ، هذه المقدمات تتكون اضطراراً في سني الطفولة من التجارب الكثيرة المتنوعة التي يمر بها الطفل فيحصل منها على معاني الصدق والكذب والصنم والوجوب والامتناع والتعدي والانتهاز الخ . . وعلى أساس هذه المعاني الأولية كما سماها الفلاسفة يميز الإنسان عند بلوغه صدق الرسل من كذب المتنين .

والهام في الأمر هو أن هذه المعاني الأولية أو المقدمات تنشأ لدى الطفل من التجارب المتكررة التي يمر بها بشكل عضوي دون إرادة أو وعي منه . وهو في ذلك يشبه الحيوانات « كالكلب الذي يعرف اسمه إذا الح عليه الكلاب به ، والفرس الذي يركض من وقع السوط لكثرة وقعه بعد رقه الصوت » . وهذا ما يذكرنا بنظرية بافلوف في الانعكاس الشرطي .

هناك مبدأ آخر يستند إليه نظريته في المعرفة هو « أن المفكر لا يبلغ من جهله أن يستشهد الخفي ، بل من شأن الناس أن يستدلوا بالظاهر على الباطن إذا أرادوا النظر والقياس » (٢) . وهذا يعني أن البالغ عندما ينتظر في المسائل أو يفكر فيها فإنها ينطلق من الدليل المعروف الظاهر إلى المستدل عليه الباطن الخفي ، أي يذهب من المعلوم إلى المجهول ، وهذا المعلوم قد حصل عليه في سني الطفولة اضطراراً كما سبق القول (٣) .

---

١ - مسائل وجوابات في المعرفة ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

٢ - مسائل وجوابات في المعرفة ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

٣ - أنظر حول المعرفة عند الجاحظ :

a> Georges vajda , la connaissance naturelle de Dieu selon Al-Gahiz critiquee par les Mutezilites , in studia Islamica, Vol.XXIV, 1966 , PP.9-33.

b> Marie Bernard , Le savoir entre la volonte' et le spontaneite' selon An- Nazzam et Al-Gahiz , in studia Islamica , Vol. XXXIV , 1974 , PP . 25-57.

بقيت مسألة كان للجاحظ فيها رأي مستقل هي حرية الإنسان وما يترتب عليها من تكليف . ويذهب الجاحظ إلى أن الإنسان يكون حراً إذا كان مستطيعاً ، ولا يكون مستطيعاً إلا إذا توافرت شروط ترجع إلى صحة الجسم واعتدال المزاج والعلم بكيفية الفعل وحضور النوازع .

وعدا الاستطاعة ثمة سبب آخر للحرية هو التسوية بين العقل والغريزة في النفس فإذا غلب العقل أو غلبت الغرائز حصل الفعل اضطراراً أو طباعاً ولا يكون للإرادة مجال للاختيار . عبر الجاحظ عن ذلك بقوله : « ان العقل حارس والطباع محروسة والنفس عليها موقفة ، فإذا كان الحارس أقوى من طباعها كان ميل النفس معه طباعاً ، لأن من شأن النفس الميل إلى أقوى الحارسين وأمتن السبيين ، ومتى كانت القوتان متكافئتين كان الفعل اختياراً ومن حد الغلبة خارجاً ، وإن كانت الغلبة تختلف في اللين والشدّة ، وبعضها أخفى وبعضها أظهر . . . ومتى قويت الطبيعة على العقل أوهنته وغيرته ، ومتى توهم وتغير تغيرت المعاني في وهمه وتمثلت له على غير حقيقتها . ومتى كان كذلك كان عن إدراك ما عليه في العاقبة أبعد وزينت له الشهوات ركوب ما في العاجلة ، ومتى أيضاً فضلت قوى عقله على قوى طباعه أوهنت طباعه ، ومتى كانت كذلك أثر الحزم والأجلة على اللذة العاجلة طباعاً لا يمتنع منه وواجباً لا يستطيع غيره »<sup>(١)</sup>.

أما التكليف فلا يترتب على الإنسان إلا في حال توافر الحرية ، لأن الله لا يكلف أحداً فعل شيء ولا تركه إلا وهو مقطوع العذر زائل الحجة ، وليس عدلاً أن يكلف الله الإنسان فعلاً لا يستطيعه أو لا يعلمه أو لا يكون حراً في صنعه : « وإنما تكون النفس مختارة في الحقيقة ومجانبة لفعل الطبيعة إذا كانت اخلاطها معتدلة وأسبابها متساوية وعللها متكافئة . فإذا عدل الله تركيه وسوى أسبابه وعرفه ما عليه

١ - مسائل وجوابات في المعرفة ، ص ٣٢٣ .

وما له كان الإنسان للفعل مستطيعاً في الحقيقة وكان التكليف لازماً له بالحجة . ولولا انك تحتاج إلى التعريف بأن المأمور المنهي لا بد له من التسوية والتعديل لما قال الله تعالى : ﴿ والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فאלهمها فجورها وتقواها ﴾ الشمس : ٦-٨ ، ولو جاز أن يعلم موضع غيها ورشدها من غير أن يسويها ويبينها لكان ذكر التسوية فضلاً من القول ، والله يتعالى عن هذا وشبهه علواً كبيراً <sup>(١)</sup> .

ويرد الجاحظ على الذين ادعوا أن قوله بالطباع ينفي التكليف عن الإنسان لانتفاء الحرية قائلاً : « وليس قولنا : طبع الإنسان على حب الاخبار والاستخبار حجة له على الله ، لانه طبع على حب النساء ومنع الزنا ، وحبب اليه الطعام ومنع من الحرام ، وكذلك حبب إليه أن يجبر بالحق النافع ويستخير عنه ، وجعلت فيه استطاعة هذا وذاك فاختر الهوى على الرأي » <sup>(٢)</sup> .

تلك هي مبادئ الجاحظية ، وهناك آراء نحلها ابن الراوندي الجاحظ لم يؤيدها الخياط في كتابه الانتصار ، واتهم ابن الراوندي بوضعها . وهي أن الله لا يدخل احداً في النار ولا يخلد أحداً فيها وإنما النار تدخل النار إليها وتخلده فيها <sup>(٣)</sup> . وان الأنبياء ارتكبوا المعاصي <sup>(٤)</sup> . وان الله لا يقدر أن يزيد ذرة في الخلق أو ينقص ذرة منه لانه علم أن أصلح الأمور كونه على ما هو عليه في العدد <sup>(٥)</sup> . والقول ان الله صورة أو انه تشكّل بهيئة صورة <sup>(٦)</sup> . والقول ان الله لا يستطيع أن يفني الحجر أو يعرّيه من أفعاله <sup>(٧)</sup> .

١- رسائل وجوابات في المعرفة ، ص ٣٢٣ .

٢- كتابان السر وحفظ اللسان (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٤٥) .

٣- الخياط ، الانتصار ، ص ٩١-٩٢ .

٤- المصدر عينه ، ص ٩٥ .

٥- المصدر عينه ، ص ١٢٩-١٣٠ .

٦- المصدر عينه ، ص ٤٤ .

٧- المصدر عينه ، ص ١٤٧ .

وقد تابع ابن الراوندي في نسبة هذه الآراء للجاحظ كثيرون من القدماء أمثال  
البغدادي والشهرستاني ، ومن المحدثين أمثال زهدي جار الله <sup>(١)</sup> . وأظن أن هؤلاء  
تجنوا على الجاحظ لأنني لم أجد في كتبه شيئاً من هذه الآراء .

وعلى الرغم من مخالفة الجاحظ للمعتزلة بالعديد من الآراء ، فإنه كان فخوراً  
بمذهبهم مقدراً لفضلهم ، وقد ألف كتاباً في هذا الموضوع سماه « فضيلة المعتزلة »  
ضاع ولم يبق منه سوى نصف على هامش الكامل للمبرد ، وهو يعتبر المعتزلة أصحاب  
فضل كبير على الإسلام لأنهم زادوا عنه ووقفوا في وجه أعدائه والمنحرفين عن  
مبادئه <sup>(٢)</sup> .

---

١- زهدي جار الله ، المعتزلة (الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ط ١) ، ص ١٤٥-١٤٨ .

٢- الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .



## الفصل الرابع

### موقف الجاحظ من الفرق

ان المنحى الكلامي عند الجاحظ لا يتضح إلا بتبيان موقفه من الفرق الكلامية . ذلك لأن علم الكلام إنما هو جدل حول العقائد الدينية ، وهذا الجدل احتدم بين أصحاب الفرق المختلفة التي كانت تتصارع وتحتصم . وقد خاض الجاحظ حلبة ذلك الصراع مدافعاً ومهاجماً أصحاب الفرق من شيعة وخوارج وسنة ومجوس ودهرية .

#### أ- الشيعة :

يدعو الجاحظ إلى ترك التشيع واعتناق الاعتزال قائلاً « فالزم نفسك قراءة كتبهم ولزوم بابي ، وأبتدىء بنفي التشبيه والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال » (١) . كما يتهمهم من معتقدات الشيعة كقولهم ان عتقاء مغرب ستنظّل بجناحيها الشيعة « وخبرني عن عتقاء مغرب ، وما أبوها ، وما أمها ، وهل خلقت وحدها أم من ذكر وانثى ، ولم جعلوها عقياً وجعلوها انثى ، ومتى تمهد لذلك الصبي ، ومتى

---

١ - التزييع والتدوير ، ص ٩١ .

تظلل بجناحيها شيعه الإمام ، ومتى يلقى في فيها اللجام ، ومتى يباع له الكبريت الأحمر ، ويساق إليه جبل الماس « (١) » .

ويسأل أحد الشيعة عن المصدر الذي استقى منه أهل مذهبه القول بالبداء والقول ان العلم حادث . كما يسأل عن حجتهم بالرجعة والمناسخة ، ويستفسر عن ما يقولونه في النفس ، وتساؤله هذا ينضح بالسخرية والتهكم .

وتبلغ سخريته ذروتها عندما يتناول أهم فكرة في مذهب الشيعة وهي الإمامة التي جعلوها وراثية ابتداء من علي بن أبي طالب ثم (٢) في أولاده واحفاده ، حتى قالت فرقة منهم إنها لا تصلح في الأخوة ويجب أن تنتقل من الأب إلى الابن « والإمامة اليوم لا تصلح في الأخوة ، ولو صلحت في الأخوة كانت تصلح في ابن العم ، ثم انها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح الا في الولد ، وفي هذا القياس انها بعد أعوام لا تصلح الا ببقاء الإمام نفسه إلى آخر الأبد ، وهذا هو علة أصحاب المناسخة ، وانت رافضي ، ولم يكن هذا عندك ، فأهد إلى الآن من خالص التوتياء كما اهديت اليك باب التناسخ « (٣) . وكان الجاحظ يتنبأ بما آلت إليه الإمامة بعد موته بسنوات قلائل عند الشيعة الإمامية .

ويتهم الجاحظ الشيعة بأنهم قالوا ان الأنبياء يمكن أن يخطئوا ويعصوا ويضلوا ، بينما الائمة معصومون لا يخطئون ولا يعصون (٤) .

وينقسم الشيعة عدة فرق أهمها اثنتان هما الزيدية والإمامية (٥) . وكثيراً ما يطلق على الإمامية اسم الرافضة لانهم رفضوا أمامة ابي بكر وعمر وعثمان . بينما اعترف

---

١ - المصدر منه ، ص ٣٦ .

٢ - المصدر منه ، ص ٤٦ .

٣ - المصدر منه ص ٧٢ - ٧٣ .

٤ - التزيح والتدوير ، ص ٧٥ .

٥ - استنطاق الإمامة (آثار الجاحظ ، ص ١٣٦) .

الزيدية بخلافة هؤلاء الثلاثة وقالوا ان خلافة المفضول تجوز مع وجود الأفضل إذ قد يكون الرجل أفضل الناس ويلي عليه من هو دونه في الفضل حتى يكلفه الله طاعته إما للمصلحة وإما للإشفاق من الفتنة وإما للتغليط في المحنة وتشديد البلوى والكلفة<sup>(١)</sup>. وهكذا كان علي برأيهم أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وأولاهم بالخلافة لأنه اشتمل الصفات التي تؤهله للخلافة دونهم وهي أربع : القدم في الإسلام ، والزهد في الدنيا ، والفقه في الدين ، والجهاد<sup>(٢)</sup> . ولكن الناس كانوا على غير علي أقل فساداً واضطراباً وأقل طعنًا وخلافًا ، فمنهم من قتل علي أباه وابنه أو أخاه أو ابن عمه أو حيه أو صفيه أو سيده أو فارسه ، ومنهم من غمته حادثة علي وانق ان يلي عليه أصغر منه . ومنهم رجل عرف شدة علي وعدم تسامحه في دينه ودنياه . ومنهم من كره أن يكون الملك والنبوة في بيت واحد<sup>(٣)</sup> . وإزاء هذا الواقع خاف علي ان هو أعلن نفسه خليفة بعدما قبض النبي أن يتفرق المسلمون ، فدعاه ذلك إلى عدم الإظهار والتجافي عن الأمر وتأيد أبي بكر ثم عمر ثم عثمان بالخلافة<sup>(٤)</sup> .

هذا ملخص دعوى الزيدية حكاها الجاحظ دون أن يبدى رأيه فيها . ويبدو انه كان يفضلهم على غيرهم من فرق الشيعة .

أما الإمامية أو الرافضة فقد صب جام غضبه عليهم وانتقدتهم نقداً لاذعاً وحاول أن يهدم اساس عقيدتهم فقال ان الإمامية « جعلوا القرابة والحسب سبباً إلى الإمامة »<sup>(٥)</sup> ، وزعموا أن النبي أوصى بالخلافة بعده لعلي بن أبي طالب في خطبة السوادع التي القاها عند غدير خم . وهذا زعم منهم لا يؤيده العقل ولا الخبر ولا القرآن . فليس في القرآن نص على إمامه أحد ، ولو كان النبي أوصى بالخلافة لعلي لما

١ - المصدر عينه ، ص ١٤٢ .

٢ - المصدر عينه ، ص ١٣٦ .

٣ - المصدر عينه ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

٤ - استحقاق الإمامة (آثار الجاحظ ، ص ١٤٠ - ١٤١) .

٥ - المصدر عينه ، ص ١٤٢ .

وجدنا الأنصار يقولون عند وفاة النبي : منا أمير ومنكم أمير وهم أعلم الناس بالنبي وأحرصهم على دينه بعدما ظهر منهم من التضحية في سبيل الإسلام والذود عنه . ولم يجمع الرواة على هذه الوصية<sup>(١)</sup>.

عدا الزيدية والإمامية بكثرة الجاحظ من ذكر الغالية وهم فئة من الشيعة غالت في تقديس علي والتعصب له ولكنها انقسمت إلى فرق متعددة منها المنصورية والشميطية والكميلية والسبئية<sup>(٢)</sup>.

ودفعه كرهه للشيعة إلى تأليف كتاب يرمي إلى نقد مذهبهم وتفضيل الاعتزال عليه اسماء « فضيلة المعتزلة » . لقد ضاع هذا الكتاب عدا نفا منه على هامش كتاب الكامل للمبرد ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى ما ذكره الحسين الخياط المعتزلي في كتاب « الانتصار » ، ويرد فيه على ابن الراوندي الذي كان قد ألف بدوره كتاباً اسمه « فضيحة المعتزلة » رداً على كتاب الجاحظ الأنف الذكر . يقول الخياط ان الجاحظ تناول في فضيلة المعتزلة الأبواب التالية المتعلقة بالتشيع :

١ - باب ذكر فيه جنايتهم على ولد رسول الله ﷺ بمنعهم من التفرقة في الدين وإيماهم إياهم ان الله يلهمهم العلم الهاماً بغير تعلم وطلب .

٢ - باب ذكر فيه قول من قال منهم بالجسم والماهية وحدوث العلم ، والقول بالرجعة ، و اضافتهم جميع ما اختلفوا فيه إلى انتمهم .

٣ - باب ذكر فيه أن فيهم طبقة تزعم أن الله ينتقل في الصورة ، وطبقة تزعم أن علياً هو الله<sup>(٣)</sup>.

أما القول بالجسم فيعني أن الله يتراءى بصورة جسم . وهذا كفر بنظر الجاحظ لانه يؤدي إلى التشبيه .

١ - المصدر عنه ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

٢ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ - ٢٧٢ .

٣ - الخياط ، الانتصار ، ص ٣٠٣ - ١٠٤ .

أما حدوث العلم فيعني أن الله قد كان غير عالم فعلم . ولهذا تبدو له البدوات وهذا ما يسمى بالبداء ومفاده أن الله يأمر بشيء ثم يبدو له أن يغير رأيه فيه فيأمر بعكسه .

وينسب الجاحظ إلى الشيعة القول أن الله هو الذي يضطر عباده إلى الكفر والمعصية بالأسباب والمهيئات . كما ينسب إليهم القول بالرجعة إلى دار الدنيا قبل الآخرة . ويلصق بهم القول أن القرآن قد غير فيه وبدل وحرف عن مواضعه وزيد فيه ونقص كما يتهمهم بالقول أن الفرائض والسنن قد غيرت وزيد فيها ما ليس منها<sup>(١)</sup> .

٢- أهل السنة والجماعة :

ثم إن الجاحظ يحدثنا عن الصراع الذي نشب بين المعتزلة وأهل الجماعة<sup>(٢)</sup> . فيخبرنا أنهم البوا الناس على المتكلمين ، وانضمت إليهم جماعات كثيرة ومال إليهم العوام والطغام والسفلة . وأصبح لهم رؤساء وائمة وقصاص متفقهون ومتكلمون ، وبلغ بهم العداء للمعتزلة أنهم اسقطوا شهادة هؤلاء المعتزلة وهاجموهم وأخافوهم واعتدوا عليهم فما كان من المعتزلة إلا أن استنجدوا بالسلطان فنصرهم الخليفة على الحشوية العوام المشبهة وضرب على أيديهم ونقص من قوتهم فتحول إلى الاعتزال رجال من قادتهم واعلامهم وارتاب قوم منهم ووافق آخرون . كل هذا تم على يد القاضي أحمد بن أبي دؤاد في عهد المعتصم<sup>(٣)</sup> .

وبعد فشل هؤلاء الحشوية المشبهة باستعمال العنف مع المتكلمين وتحريض الرعاع والسفلة عليهم لجأوا إلى الكلام بعد أن كانوا يجرمونهم<sup>١</sup> لانهم ينسوا من القهر

---

١- المصدر عنه ، ص ١٠٦-١٠٧ .

٢- هم أهل السنة والجماعة ، وكان الجاحظ يطلق عليهم تسميات عدة : العامة والثابتة والحشوية والحدِيثين والبكرية والعثمانية (أنظر البيان والتبيين ج ١ ، ص ٢٣ ، ج ٢ ، ص ١٦ آثار الجاحظ ، ص ٢٧ رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، رسالة العثمانية ، ص ٢٥٣) .

٣- رسالة في نفي التشبيه (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٨٣-١٨٥) .

بالخشوة والسفلة والباعة وبالولاة الفسقة ، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة ، ولا بد لمن كانت هذه صفته وهذا نعته من أن يستعمل الحيلة والحجة إذا اعوزه البطر والصلوة ، وكل من كان غيظه يفضل عن حلمه ، وحاجته تفضل عن قناعته فواجب أن ينكشف قناعه ويظهر سره ويبدو مكنونه . وقد اطعمني فيهم مناظرتهم لنا ومقايستهم لأصحابنا وقد صاروا بعد السب يحفون ، وبعد تحريم الكلام يجالسون ، وبعد التصامم يستمعون وبعد التجليح يدارون « (١) .

أن الخشوية كانوا اعداء الأعداء للمتكلمين ولعلم الكلام مع أن علم الكلام هو الذي حارب الشبهات وحمل الدين ولولاه « لم يقيم الله دين ولم ين عن الملحددين ولم يكن بين الباطل والحق فرق ولا بين النبي والمنبي فصل ولا بانث الحجة من الحيلة والدليل من الشبهة . . » (٢) .

ان إشادة الجاحظ هذه بعلم الكلام كانت توطئة مهد لها للتحريض على أهل الخشو ودعوة للسلطان لكي يضرب على أيديهم نصره للدين ذاته « إذ ليس ينبغي لديان أن يواد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (٣) .

أما معتقدات أهل الجماعة التي لم تعجب الجاحظ فوجه إليها نقده المر فهي  
التالية :

أ - قولهم بالجبر : انهم يقولون ان كل شيء بقضاء الله وقدره وان الإنسان لا حيلة له ولا إرادة ولا خيار ، وان الكفر والإيمان مخلوقان فيه مثل العمى والبصر .

ب - قولهم بالجور : يزعمون أن الله يفعل الخير والشر والعدل والظلم حتى انه يعذب الأبناء ليغيظ الآباء .

١ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

٣ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

ج- قولهم بالتشبيه : يذهبون إلى أن الله جسم له صورة وحد ، وهو يرى بلا كيف .

د- قولهم ان القرآن غير مخلوق وانه كلام الله ، وهو حجة وبرهان ، وقد تولى الله تأليفه وجعله برهاناً على صدق رسوله ، وانه لو شاء أن يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقص منه نقص الخ . . ومع ذلك فهم يقولون انه غير مخلوق لقد اعطوا - برأي الجاحظ - جميع صفات الخلق ثم منعوا الخلق<sup>(١)</sup> .

### ٣- الخوارج :

لم يتوقف الجاحظ طويلاً عند الخوارج ، فلم ينخصهم ببحث من أبحاثه أو كتاب من كتبه على عكس ما فعل بالنسبة للشيعة أو أهل الجماعة ، مع ذلك نراه يذكرهم في كتبه كثيراً ولكن بشكل عابر .

لقد نشأ الخوارج على الضلال اثناء معركة صفين على أثر رفع المصاحف من قبل جيش معاوية على رؤوس الرماح داعين الى تحكيم كتاب الله في النزاع وإيقاف القتال حقناً للدماء . فانخدع قسم من جيش علي بهذه الحيلة وطالبوه بالكف عن القتال والقبول بالتحكيم ، فحذرهم الإمام من هذه الخدعة وقال ، ثم أعاد القول ، ثم احتج وعرف وزجر وتوعد وقال : ويحكم انها خدعة ومكيده ، وانها بعد دليل على الفشل وعلى انقطاع القوة ، فانتهزوا هذه الفرصة فقد ذلكم بها على مواضع العورة ، وليس بينكم وبين الظفر الا صبر ساعة ، فكان أشد القوم عليه وأفحشهم عنوداً الذين صاروا بعد إلى اكفاره وإلى البراءة منه بعد إقرارهم بأنه كان كالمستبصر والمجدود والواعظ والمتوعد وانهم كانوا هم المخدوعين والمغرورين والمخدولين فهذا هذا<sup>(٢)</sup> .

ان هؤلاء الجماعة الذين كفروهم وخرجوا على طاعته وانتشقوا من جيشه ثم حاربوه

١ - النابتة ، (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٨ - ١٩) .

٢ - رسالة الحكمين ، ص ٤٣٠ .

هم الخوارج . كفروه لانه قبل بالتحكيم فاعتبروا قبوله هذا شكاً منه في صحة خلافته .  
لقد خطأهم الجاحظ في موقفهم هذا واتهمهم بجهل تدبير علي الصائب في التحكيم  
قائلاً : « والناس حفظك الله وارشدك ، عن تدبير هذا الإمام غافلون : لا الشيعة  
يعرفونه فيضيفونه إليه ويحتجون به على الخصوم ويوسعون الناس عذراً عند تطابق  
الأمر عليهم فيه ، ولا الخوارج الذين هم عليه ينقمون والمكفرون له من هذه المارقة  
يعرفون هذا التدبير . . . » (١) .

لم يحسن الخوارج المصانعة مع خصومهم ، وكانوا أبعد الناس عن الحنكة في  
السياسة والتدبير ، ولهذا اتهمهم المعتزلة بالغباء . فقال بشر بن المعتمر الشاعر  
المعتزلي فيهم :

لست أباضياً غيباً ولا كرافضي غره الجفر (٢)

لقد لجأ الخوارج إلى العنف مع أعدائهم فسفكوا الدماء الغزيرة وأشعلوا  
الثورات العديدة طوال العصرين الأموي والعباسي حتى دوخوا الحكام وأنفوا أنفسهم  
ولهذا سباهم المسلمون كلاب النار (٣) .

واتصفوا بصدق الشدة عند الهجوم والصبر على الخيب وطول السرى وإدراك  
المطلب وخفة الحركة . وأظهروا من ضروب البطولة في المعارك التي خاضوها ما جعلهم  
مضرب المثل في الشجاعة (٤) .

ويفسر الجاحظ ما امتازوا به من اقدام وشجاعة ونجدة « باستواء حالاتهم في  
الديانة واعتقادهم أن القتال دين ، لاننا حين وجدنا السجستاني والخراساني والجزري  
واليامي والمغربي والعماني والأزرق منيهم والنجدي والصفري والمولى والعربي

١- رسالة الحكمين ، ص ٤٥٧ .

٢- الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٨٩ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

٤- مناقب الترك (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٤١-٤٢) .

والعجمي والأعرابي والعبيد والنساء والحائك والفلاح ، كلهم يقاتل مع اختلاف الإنسان وتباين البلدان علمنا أن الديانة هي التي سوت بينهم ووفقت بينهم في ذلك<sup>(١)</sup> .

لقد جعل الخوارج الجهاد أهم مبادئهم « القتال دين » ، ولهذا دعوا إلى الثورة على الإمام الباغي والفئة الضالة عن تعاليم الإسلام وعقائد الخوارج ، واعتبروا هؤلاء كفاراً يحل لهم قتلهم وسبيهم والإجهاز على الجريح منهم وسلب أموالهم<sup>(٢)</sup> .

وقالوا أن الاستطاعة تكون مع الفعل على خلاف ما يذهب إليه المعتزلة من أنها تسبق الفعل . نستدل على هذا المبدأ بما حكاه الجاحظ عن شيخ من شيوخهم سمعه يقول : العجب ممن يأخذ النوم وهو لا يزعم أن الاستطاعة مع الفعل<sup>(٣)</sup> .

وخالفوا المعتزلة في مبدأ آخر هو قولهم أن القاذف أو مرتكب الكبيرة كافر ولا يمكن أن نعهده مؤمناً أو فاسقاً<sup>(٤)</sup> .

#### ٤- الدهرية :

إذا كان موقف الجاحظ من ذوي الفرق الإسلامية كالشيعة وأهل الجماعة والخوارج - الذين يشتركون معه في الإسلام - عنيفاً ، فإن موقفه من غير المسلمين كالدهرية والمجوس والنصارى أعنف .

أما الدهرية ، نسبة إلى الدهر ، فهم أصحاب مذهب ينسبون للدهر ما ينسب أهل الديانات الموحدة و من خلق العالم وتدير أموره والتصرف بشؤونه . انهم أولئك الذين يعبدون الدهر ويجعلونه إلهاً خالقاً<sup>(٥)</sup> .

---

١- المصدر عنه (رسائل الجاحظ ج ١ ، ص ٥١) .

٢- رسالة الحكمين ، ص ٤٦٠ .

٣- الحيوان ، ج ٣ ، ص ٩ .

٤- رسالة الحكمين ، ص ٤٦٠ .

٥- الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .

وبما أن الدهر أو الزمن ينتج في رأيهم عن حركة الكواكب أو هو مقياس حركة الكواكب فقد عبدوا الكواكب والنجوم وجعلوا لها تأثيراً في العالم السفلي وكائناته . ان الكواكب وما يعمرها من عقول ونفوس هي التي تسبب الحياة على وجه الأرض وتحكم بمصيرها . وهذا ما عناه الجاحظ بقوله : « ويجعل ( الدهري ) الفلك - الذي لا يعرف نفسه من غيره ، ولا يفصل بين الحديث والقديم ، وبين المحسن والمسيء ، ولا يستطيع الزيادة في حركته ، ولا التقصان من دورانه ، ولا معاقبة للسكون بالحركة ، ولا السقوط طرفه عين ، ولا الانحراف من الجهة - هو الذي يكون به جميع الإبرام والتقص ، ودقيق الأمور وجليلها ، وهذه الحكم العجيبة ، والتدابير المتقنة ، والتأليف البديع والتركيب الحكيم ، على حساب معلوم ، ونسق معروف ، على غاية من دقات الحكمة وإحكام الصنعة » (١) .

وهكذا نجد الدهري لا يعرف إلا الفلك وعمله (٢) أما الديانات فلا يعترف بها ولا « يرى أن في الأرض ديناً أو نحلة أو شريعة أو ملة » (٣) .

ونتيجة لذلك لا يؤمن الدهري بالله بل ينفي الربوبية ولا يقر بوجود اله واحد ومستقل عن الفلك والكواكب خلق ما سواها من العوالم والكائنات ، ولا يقبل برهاناً على وجود الله أو على صانع أو مصنوع وتخالق وتخلق (٤) .

ثم أن الدهري ينكر النبوة « ويرى أن ارسال الرسل يستحيل » فلا أنبياء ولا رسل في اعتقاده ، وكل ما جاء به من يسمون أنبياء ورسل من كتب منزلة وتعاليم مقدسة هراء لا صحة له (٥) .

١ - الحيوان ج ٧ ، ص ١٢ - ١٣ .

٢ - المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٢٦٩ .

٣ - المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ١٣ .

٤ - المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ١٢ ، ج ٦ ، ص ٢٦٩ .

٥ - المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٢٦٩ .

ويجحد الدهري الثواب والعقاب والجنة والنار ، ولا يفهم معنى للأمر والنهي ، ولا يقول بحياة اخرى بعد الحياة الدنيا <sup>(١)</sup> .

ويقول الدهري بأزلية العالم « فيجعل الطينة قديمة » <sup>(٢)</sup> . وكل هذه الأقوال مخالفة لتعاليم الإسلام ومن ثم كانت نقمة الجاحظ على الدهرية .

ومن ناحية الأخلاق لا يعرف الدهري الحلال من الحرام ، ولا يتوقع العقاب على الإساءة ، ولا يرجو الثواب على الإحسان . وإنما الصواب عنده والحق في حكمه انه والبهيمة سيان ، وليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه ، وليس الحسن إلا ما وافقه . ومدار الأمر على الإخفاق والدرك واللذة والألم . والصواب عنده هو ما نال من المنفعة وإن قتل ألف إنسان صالح مثالة درهم رديء <sup>(٣)</sup> .

وفي الطبيعيات يقول الدهري ان عالمنا الأرضي مؤلف من أربعة عناصر هي الماء والتراب والنار والهواء ، اعتبرها جواهر أو اجساماً وعنهما تصدر الأعراض المختلفة من برد وحر ويس وبلة الخ . . . بينما ذهب فريق من الدهرية الى اعتبار هذه الأعراض أجساماً تشكل اركان العالم الأرضي وعنهما يتبع ويتولد كل الأشياء والكائنات <sup>(٤)</sup> .

#### ٥- المجوس :

ورد ذكر المجوس كثيراً في تضاعيف كتب الجاحظ وان لم يخصصهم ببحث مستقل ، وعندما نسמעه يقول اتباع زرادشت والمنانية والديسانية والزنادقة وأصحاب الاثنتين فإنها يعني بهم المجوس .

أول من بشر بهذه الديانة زرادشت . وقد زعم المتكلمون انه جاء من بلخ وادعى الوحي الذي نزل عليه في جبال سيناء <sup>(٥)</sup> .

١- المصدر عنه ، ج ٦ ، ص : ١٠٠ ، ج ٧ ، ص ١٢ .

٢- المصدر عنه ، ج ٧ ، ص ١٢ .

٣- الحيران ، ج ٧ ، ص ١٣ .

٤- المصدر عنه ، ج ٧ ، ص ٤٠ .

٥- المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٦٧ .

دعا زرادشت إلى تعظيم النار وعبادتها وتقديسها وأحيائها ، ونهى عن إطفائها كما نهى الخيض عن مسها والدنو منها . وزعم أن العقاب في الآخرة إنما هو بالبرد والمزهرير والدمق<sup>(١)</sup> .

ويفسر الجاحظ عقيدة المجوس هذه تفسيراً طبيعياً . يقول ان زرادشت دعا سكان بلاد سيلان الباردة ، حيث يحبون النار ويكرهون البرد لشدة إيدائه لهم « فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع جعل الوعيد بتضاعيفه ، وظن أن ذلك أزجرهم عما يكره ، وزرادشت في توعده تلك الأمة بالثلج دون النار فكر بانه لم يبعث إلا إلى أهل تلك الجبال ، وكأنه إذا قيل له : أنت رسول إلى من ؟ قال : لأهل البلاد الباردة الذين لا يد لهم من وعيد ولا وعيد لهم إلا بالثلج . وهذا جهل منه ، ومن استجاب له أجهل منه »<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن المجوس ردوا على هذا الانتقاد الموجه إليهم فقالوا : ان النبي محمد تواعد أصحابه بالنار لان بلادهم ليست بلاد ثلج وبرد وإنما هي بلاد حر ووهج وسموم لان ذلك المكروه أزجرهم .

أجاب الجاحظ : أن هذا الزعم خاطيء لان بلاد العرب حارة في الصيف باردة في الشتاء . ثم ان النبي محمد أعلن انه لم يبعث إلى أهل مكة وسائر الجزيرة العربية فقط وإنما بعث إلى الناس كافة في جميع انحاء الأرض والمناطق الباردة والمعتدلة على السواء<sup>(٣)</sup> .

ويورد الجاحظ رأي مفكر كبير من أتباع زرادشت هو ديسان صاحب فرقة الديصانية . ويذهب هذا الأخير إلى أن « أصل هذا العالم إنما هو من ضياء وظلام ،

١- المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٦٦ .

٢- الحيران ، ج ٥ ، ص ٦٧ .

٣- المصدر عينه ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

وان الحر والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة إنها هي نتائج على قدر امتزاجهما<sup>(١)</sup>. يسهه أبو عثمان هذا الرأي ويقول ان امتزاج ذوات المناظر أي النور والظلمة لا يمكن ان يفسر ذوات الملامس أو المذاقة أو المسمعة<sup>(٢)</sup>.

ويبرز الجاحظ من اعتقادات المجوس فيما يتعلق بكيفية خلق البشر وزعمهم انهم من ولد مهنة ومهينة اللذين تولدا فيما بين أرحام الأرضين ونظفتين ابتدوتا من عيني ابن هرمز حين قتله هرمز . ويقول ان « حاقات أصحاب الاثنين كثيرة في هذا الباب ، ولولا أني احببت أن تسمع نوعاً من الكلام ومبلغ الرأي لتحديث الله شكراً على السلامة لما ذكرت لك كثيراً من هذا الجنس »<sup>(٣)</sup>.

ويسخر من كتب المجوس لانها محشوة بالخرافات والأكاذيب وذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين والخبر عن الصنديد وعمود النسخ والهامة . وعبثاً نفتش فيها عن خبر طريف أو صنعة أدب أو حكمة أو فلسفة أو مسألة كلامية أو تعريف صناعة أو استخراج آلة أو تعليم فلاحه أو تدبير حرب أو منازعة عن دين أو مناظرة عن نحلة . ومع ذلك يعتني المجوس اشد العناية بورق كتبهم وخطها وتزيينها وحفظها<sup>(٤)</sup>.

أما المنانية ، وهي إحدى فرق المجوس ، فنسبة إلى ماني أحد مفكرها . يزعمون أن العالم مركب من عشرة أجناس : خمسة منها خير ونور وخمسة منها شر وظلمة . والإنسان يجمع هذه الأجناس جميعاً فهو مركب من خير وشر على التفاوت في رجحان الواحد على الآخر . وفي الإنسان خمس حواس وكل حاسة منها تنطوي على متون من ضدها من الأجناس الخمسة . فمتى نظر الإنسان نظرة رحمة فتلك النظرة من النور ومن الخير ، ومتى نظر نظرة وعيد ، فتلك النظرة من الظلمة ، وكذلك جميع الحواس . وان حاسة السمع على حدة ، وان الذي في حاسة البصر من

١- المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٤٦ .

٢- المصدر عنه ، ص ٤٦ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

٤- الحيوان ، ج ١ ، ص ٥٦-٥٧ .

الخير والنور لا يعين الذي في حاسة السمع من الخير ولكنه لا يضاده ولا يفسده ولا يمنعه ، فهو لا يعينه لمكان الخلاف والجنس ، ولا يعين عليه لانه ليس ضداً ، وإن أجناس الشر خلاف لأجناس الشر ، و ضد لأجناس الخير ، وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ولا يضاده ، وإن التعاون والتآوي لا يقع بين مختلفها ولا بين متضادها وإنما يقع بين متفقها (١) .

وللمجوس رجال دين أو رهبان يتفلقون من بلدة إلى أخرى ، ولا يبيت أحدهم في منزل واحد ليلتين ، وهم يسبحون على أربع خصال : القدس والطهر والصدق والمسكنة . أما القدس فهو كتم الذنب ، وأما الطهر فهو ترك الجماع ، وأما الصدق فهو الامتناع عن الكذب ، وأما المسكنة فهي المسألة بحيث يكسب ما يأكل من الاستعطاء (٢) .

يبدو أن الزنادقة كانوا كثيراً في عصر الجاحظ ، ونجربنا أن المأمون كان يناظرهم محاولاً ردهم عن غوايتهم (٣) . كما يذكر أسماء عدد من الشعراء والرواة الذين ذهبوا مذهبه أمثال حماد عجرد وحماد الراوية ووالبة بن الحباب وأبان بن عبد الحميد ويونس بن هارون (٤) .

إن موقف الجاحظ من جميع الفرق - عدا الاعتزال - موقف عدائي فهو يعتبرهم جميعاً على ضلال بينما يعتبر المعتزلة وحدهم على حق . ويقوم ذلك الموقف على استقصاء ما عندهم من سلبيات أو أخطاء أو مساوئ للتشديد بها ، بينما يغفل النواحي الإيجابية أو الصحيحة لديهم .

وهكذا فإننا نجد الجاحظ ، في أبعائه حول الأديان والمذاهب يقترب من أن يكون مؤسس فرع أو « علم » الأديان المقارن في الفكر العربي . إنه بذلك سبق الشهرستاني ، وابن حزم ، بل وكتب قبل البغدادي في ذلك الموضوع .

١- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

٢- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٤٥٩ .

٣- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ .

٤- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

## الباب الرابع

### المنحى الجمالي



احتلت الجمالية - أو فلسفة الفن - مكاناً لاثقاً في حقل الفلسفة . لقد بحث افلاطون وأرسطو وأفلوطين ، قديماً ، في الجمال والفن . وتناول هذا الموضوع معظم فلاسفة العصور الحديثة أمثال كانط وهيغل وسارتر .

وإذا كان الفلاسفة العرب قد أهملوا هذا الموضوع ، فقد سد الجاحظ إلى حد كبير ، الثغرة ، وتلافى الإهمال ، وصاغ نظرية جمالية طبقها على الخطابة والشعر وربما ساعده على ذلك موهبته الفنية ، إذ هو أديب وفيلسوف .

عالجنا في هذا الباب المسائل التالية :

الفصل الأول : في مفهوم الجمال عند الجاحظ .

- الفصل الثاني : في البلاغة .

- الفصل الثالث : في الخطابة .

- الفصل الرابع : في الشعر .



## الفصل الأول

### الجمال

الجاحظ صاحب مذهب فني أصيل . وقد استطاع أن يجمع بين الشقين : النظري والعملي ، فصاغ في بعض مؤلفاته نظرية للجمال والفن نجدها في « البيان والتبيين » و « الحيوان » وبعض الرسائل . كما طبق هذه النظرية في كتاباته على اختلاف موضوعاتها .

إن الجمال والفن توأمان لا ينفصلان ، فحيث يتجلى الجمال يكمن الفن ، وما الفن سوى أداة الجمال ، وما الجمال سوى حصيلة الفن ومظهره . فلا جمال بلا فن ولا فن حيث لا يتراءى الجمال .

لم يميز الجاحظ بين لفظتي الجمال والحسن ، وقد وردتا في كتاباته مترادفتين يقول مثلاً « والحررة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرون في جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهم قليلاً ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنها تعرف المرأة من المرأة ظاهراً الصفة . . »<sup>(١)</sup> . ثم يقول في فقرة تالية « وقد عرف الشاعر وعرف

---

١ - النساء (آثار الجاحظ ، ص ١١٠) .

الواصف أن الجارية الفاتكة الحسن أحسن من الظبية وأحسن من البقرة وكل شيء تشبه به ، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون . . . .<sup>(١)</sup> .

يبدو أن الجاحظ عندما فكر في تحديد الجمال وجد صعوبة اعترف بها حيث يقول : « فإن أمر الحسن ادق وأرق من أن يدركه كل من أبصره »<sup>(٢)</sup> . فليس في استطاعة جميع الناس الوقوف على الجمال والقبح ، وإن معرفة وجوه الجمال والقبح لا تنأى الا للثاقب النظر الماهر البصر الطب<sup>(٣)</sup> في الصناعة<sup>(٤)</sup> . وهذا يعني أن إدراك الجمال يحتاج إلى تأمل وذكاء وحذق أو دراية وقد أطلق عليه الجاهليون اليوم اسم الذوق الفني . إن حاسة النظر لا تكفي وحدها لإدراك الجمال ، ولا بد من تدخل العقل الذي يتلقى ما تمده به العين من مظاهر الجمال وآياته ثم يصدر حكمه عليها<sup>(٥)</sup> .

لاحظ أبو عثمان اختلاف الناس في أمر الجمال . فلكل منهم تقريرا مفهوما خاص له : « قيل لأعرابي : ما الجمال ؟ قال : طول القامة وضخم الهامة ورحب الشدق وبعد الصوت »<sup>(٦)</sup> . بينما يراه أعرابي آخر في غزور العينين وإشراق الحاجبين ورحب الشدقين<sup>(٧)</sup> . أما خالد بن صفوان فقد جعل الجمال صفة الإنسان الطويل القامة ، الأبيض اللون ، الأسود الشعر . وعندما سئل عن عمود الجمال<sup>(٨)</sup> أجاب : « الطول ولست بطويل ، ورداؤه البياض ولست بأبيض ، وبرنسه سواد الشعر وأنا أشمط »<sup>(٩)</sup> .

---

١ - المصدر عنه ، ص ١١٢ .

٢ - القيان ، (آثار الجاحظ ، ص ٨١) .

٣ - المصدر عنه ، ص ٨٠ .

٤ - الطب والطبيب : الحاذق من الرجال ، الماهر بعمله (ابن منظور ، لسان العرب) .

٥ - القيان (آثار الجاحظ ، ص ٨١) .

٦ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٥ .

٧ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٨٥ .

٨ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

٩ - عمود الجمال : قوامه الذي لا يستقيم إلا به (ابن منظور ، لسان العرب) .

أما الجاحظ فقد حدد الجمال بأنه التمام والاعتدال . وهو يعني بالتمام كمال الأقسام في الشيء دون زيادة أو نقصان « أما تجاوز المقدار كالزيادة في طول القامة ، أو كدقة الجسم ، أو عظم الجارحة ، أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق ، فإن هذه الزيادة متى كانت ، فهي نقصان في الحسن وإن عدت زيادة في الجسم . والحدود حاصرة لأمر العالم ومحيطة بمقاديرها الموقوفة لها . فكل شيء خرج عن الحد في خلق أو خلق حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور، فهو قبيح ومذموم » (١) .

يفهم من كلام الجاحظ أن هناك معياراً للجمال هو الشيء المتوسط المعتدل التكوين ، فهو النموذج الذي تقارن به سائر الأشياء فما اقترب منه عد جميلاً وما ابتعد عنه اعتبر قبيحاً .

أما الاعتدال فيريد به الجاحظ التوازن والتناسب بين أجزاء الجسم بحيث « لا يفوت منها شيء شيئاً كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير الأنف ، والأنف العظيم لصاحب العينين الضيقتين ، والذقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفخم لصاحب البدن المجدع النضو ، والظهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرين ، والظهر القصير لصاحب الفخذين الطويلين ، وكسعة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه » (٢) .

ثم إن الجاحظ يطبق هذا المعيار على جسم الإنسان وعلى سائر الأجسام الموجودة في الطبيعة كالأبنية والفرس واللباس وقنوت جر المياه والبنفسج والزرع (٣) . ويتوقف صاحبنا أمام جمال المرأة ليتحدث عن خصائص المرأة الجميلة فيقول انه رأى « أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون

١ - القيان (آثار الجاحظ ، ص ٨١ - ٨٢) .

٢ - القيان (آثار الجاحظ ، ص ٨٢) .

٣ - المصدر عنه ، ص ٨٢ .

المرأة المجدولة . والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينه والمشوقه ، ولا بد فيها من جودة القد وحسن الخطر واعتدال المنكبين واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيصة . وإنما يريدون بقولهم مجدولة : جودة العصب وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول . ولذلك قالوا خصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران ، والثني في مشيها أحسن ما منها ، ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا المعنى أعرف ، وهي هذا المعنى تحجب على السمان والضخام ، وعلى المشوقات والقضاف ، كما تحجب هذه الأصناف على المجدولات . وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنشور فقالوا : أعلاها قضيب وأسفلها كتيب <sup>(١)</sup> .

ان المرأة الجميلة بنظر الجاحظ هي التامة المعتدلة الأعضاء التي لم تزد أعضاؤها عن الحد في الضخامة ، وتتناسب فيما بينها بحيث يخلو جسمها من الفضول والزوائد وتكون بين الجسيمة والمشوقه ، ويعتدل فيها المنكبان ، ويستوي الظهر ويحسن القد ، وهذا التركيب يسمح لها بأن تتثنى في مشيتها فتستولي على القلوب وتغلب الأبصار . إنها باختصار المرأة التي تتوافر فيها مقومات الجمال كما حدده أبو عثمان .

ونستطيع أن نخلص إلى الحقائق التالية بصدد الجمال :

١- ان الجاحظ ينظر إلى الجمال نظرة موضوعية فيعتبره قائماً في الأشياء وليس أمراً ذاتياً نسبته عليها كما يزعم العنديون .

٢- ان الجمال يدرك بالنظر والعقل معاً .

٣- ان للجمال مقاييس دقيقة نلجأ إليها عندما نحكم على جمال الأشياء . هذه المقاييس ليست في عالم المثل كما يقول افلاطون وإنما هي مأخوذة من عالم الواقع .

١- النساء (آثار الجاحظ ، ص ١١١ - ١١٢) .

٤ - لم يهتم الجاحظ بالناحية الروحية في الجمال واقتصر على الناحية الجسمية فقط . فهو مثلاً لم يلتفت في سياق كلامه عن جمال المرأة الى اخلاقها ونفسياتها وإنما أهتم فقط بجسدها وما يتوافر فيه من تناسق وكمال .

٥ - ان مفهوم الجاحظ للجمال يشبه مفهوم أرسطو من جهة الموضوعية والتركيز على فكرة الاعتدال والتوسط .

وأخيراً يورد الجاحظ فكرة طريفة تتعلق بموقف الإنسان من الجمال يتساءل : هل الجمال مباح ؟ وهل يحل للمرء الاستمتاع به والإفادة منه ؟ جوابه كان كما يلي : ان الجمال مباح يحل للمرء الاستمتاع به وذلك بالنظر اليه فقط سواء تمثل في زهرة أو شجرة أو بناية أو امرأة . أما ما هو أبعد من النظر فليس محلاً كمد اليد أو التملك<sup>(١)</sup> .

هذا هو الجمال الطبيعي أي الجمال الذي نراه في الطبيعة والذي يتجلي في امرأة أو بنفسجة أو جبل . . . وهو الجمال الذي أبدعه الله . وهناك جمال آخر من إبداع الإنسان يتمثل فيما نسميه الفنون الجميلة كالآدب والموسيقى والتصوير والنحت والرقص .

لم يبحث الجاحظ من هذه الفنون إلا في فن الأدب لانه كان أديباً إلى جانب كونه فيلسوفاً . وقد وضع فلسفة هذا الفن تحت عناوين الفصاحة والبلاغة والشعر والخطابة . وهذا ما سنعرض له في الفصول التالية تباعاً .

---

١ - الفيان (آثار الجاحظ ، ص ٨٢) .



## الفصل الثاني

### البلاغة

ليكون الكلام بليغاً يجب أن يكون فصيحاً . والكلام الفصيح هو الكلام الواضح الحسن . فما هو معيار اللفظ الفصيح ؟ يجيب الجاحظ : إن اللفظ الفصيح هو الذي يقع وسطاً بين السوقي والغريب « فالقصد من ذلك أن تتجنب السوقي والوحشي ولا تجعل همك تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني . وفي الاقتصاد بلاغ ، وفي التوسط مجانية للوعورة وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه<sup>(١)</sup> .

ولم يذهب الجاحظ هذا المذهب لو لم يلاحظ طبقات في كلام الناس فهناك كلام جذل وآخر سخي ، وهناك كلام مليح وآخر قبيح ، وثمة كلام خفيف وآخر ثقیل . وعلى المرء أن يختار الكلام الفصيح الذي يسهل فهمه ويحسن وقعه . « وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس انفسهم في طبقات ، فمن الكلام الجذل والسخي ، والمليح

---

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

والحسن والقيح السمج ، والخفيف والتقييل ، وكله عربي ، وبكل قد تكلموا ،  
وبكل قد تهادحوا وتعايوا « (١) » .

ليس العامة حجة في الفصاحة لانهم لا يتفقدون في الألفاظ ما هو أحق بالذكر  
وأولى بالاستعمال . وربما استخفوا أقل اللغتين وأضعفها ، واستعملوا ما هو أقل في  
أصل اللغة استعمالاً ، وتركوا ما هو أظهر وأكثر « (٢) » .

وكذلك أهل الأمصار « (٣) » ليسوا حجة في الفصاحة لانهم خالطوا الأعاجم  
وأخذوا الفاظاً من الفاظهم « (٣) » .

إذن ، ما هو مقياس الفصاحة ؟ يرى الجاحظ أن القرآن من جهة وكلام  
الأعراب من جهة ثانية هما مثالا الفصاحة الاعلوان . فكل كلام أشبههما فصيح ،  
وكل كلام خالفهما غير فصيح . نستدل على أن القرآن هو المرجع في الفصاحة - بنظر  
الجاحظ - من الخبر التالي الذي يرويه عن لغة أهل مكة والبصرة : « قال أهل مكة  
لمحمد بن المناذر الشاعر : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما  
الفصاحة لنا أهل مكة . قال ابن المناذر : أما الفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها  
له موافقة فضموا القرآن بعد هذا حيث شئتم » « (٤) » ثم إن لغة أعراب البادية مثال آخر  
للفصاحة إلى جانب القرآن . وقد أشار أبو عثمان إلى ذلك بقوله : « وشأن عبد  
القيس عجب ، وذلك أنهم بعد محاربة أياد تفرقوا فرقتين ففرقة وقعت في عمان وشق  
عمان وهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين وهم أشعر قبيل  
العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة . وهذا  
عجب » « (٥) » .

---

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٠٠-١٠١ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٨ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٧-١٨ .

٤- أهل الأمصار : أهل المدن (ابن منظور ، لسان العرب) .

٥- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ١٧ .

٥- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٧٠ .

ومن شروط الفصاحة ، عدا الوضوح ، عدم تناثر الحروف ضمن الكلمة . وقد لاحظ الجاحظ في العربية حروفاً لا يمكن أن تجتمع « فأما اقتران الحروف ، فإن الجسيم لا تقارن الطاء ولا القاف ولا الغين بتقديم أو بتأخير ، والزاي لا تقارن الطاء ولا السين الضاد ولا الدال بتقديم أو تأخير . . »<sup>(١)</sup> . وقد نجد هذا التناثر في حروف الألفاظ المجتمعة في جملة أو بيت شعري ، فإذا أراد المرء أن يقرأها أو ينشدها عسر عليه ذلك . فمن هذا القليل قول الشاعر :

وقبرٌ حربٌ بمكانٍ قفرٍ      وليس قُربٌ قبرٍ حربٍ قبرٍ  
وقد ظن بعضهم أن هذا البيت من نظم الجن لانه لا يستطيع أحد انشاده  
ثلاث مرات متتالية دون أن يتتبع أو يتلجلج »<sup>(٢)</sup> .

درس الجاحظ في كلامه عن الفصاحة اللفظ المفرد ، أما في كلامه عن البلاغة فهو يدرس المركب منه الذي يؤلف جملاً أو فقرات وموضوعات . ما هي البلاغة ؟ ما هي مقوماتها ؟ هذا ما يحاول الجاحظ الإجابة عنه .

يورد عدة تعريفات للبلاغة مما يدل على تباين مفاهيمه . ومع انه لم يكن يعرف اليونانية ولا الهندية إلا انه عرض لمعاني البلاغة عند كل من الفرس واليونان والهند والعرب .

أما الفرس فعرفوا البلاغة بقولهم : « البلاغة هي معرفة الفصل من الوصل »<sup>(٣)</sup> وهو تعريف موجز ومبهم لا يقدم لنا فكرة كافية عن مفهوم البلاغة عند الفرس . وإذا كان للفصل والوصل المفهوم ذاته في العربية والفارسية ، فإن باب الوصل والفصل لا يشكل سوى جزء ضئيل من علم البلاغة . أما إذا عني بالوصل والفصل نظم الكلام

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥١ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٤٨-٤٩ .

٣- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٤ .

في تعابير فعندئذ يكون هذا التعريف قد أصاب كبد الحقيقة . ذلك لأن ربط الألفاظ لصياغة جمل مفيدة هو سر الفن ولبابه .

كنا ننتظر من كاتب فارسي روى عنه الجاحظ وعرفه وأعجب به أن يميظ اللثام عن اسرار البلاغة عند الفرس في قطعة نسبها إليه <sup>(١)</sup> . ولكننا لم نعثر في كلام سهل بن هارون على ضالتنا . فقد اكتفى بإيضاح حكم عامة الناس على الكلام الذي يسمعونه وعلافته بشخصية المتكلم خطيباً كان أو متحدثاً أو محتجاً أو واصفاً . وهو يذهب إلى أن العامة يتأثرون في أحكامهم على بلاغة الخطيب بما وقر في نفوسهم عنه : « وكان يقول : إذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين : إما رجلاً يعطي كلامهما من التعظيم والتفضيل والإكبار والتبجيل على قدر حالهما في نفسه وموقعهما من قلبه ، وإما رجلاً تعرض له التهمة لنفسه فيهما والخوف من أن يكون تعظيمه لهما يومه من صواب قولهما وبلاغة كلامهما ما ليس عندهم حتى يفرط في الإشفاق ويسرف في التهمة . فالأول يزيد في حقه للذي له في نفسه ، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه ولإشفاقه من أن يكون مخدوعاً في أمره » <sup>(٢)</sup> . ويخلص سهل بن هارون إلى النتيجة التالية : ليس يعرف حقيقة مقادير المعاني ومحصل حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأنحلاط عليم ، وإلا القوي المنة الوثيق العقدة ، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكبر <sup>(٣)</sup>

غير أن سهلاً يتناقض نفسه عندما يقول بعدئذ أنه إذا استوى خطيبان أو متكلمان في البلاغة واختلفا في خطبهما من مجال الهيئة والحسب والجلال والبهاء فإن العامة تقضي للقليل الدميم على النزيل الجسيم . والسبب في ذلك هو أنه لما كانت

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٥ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٥-٦٦ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٦ .

النفوس له احقر ومن بيانه اياس ومن حسده أبعد ، وإذا هجموا منه على ما لم يكونوا  
يحتسبون . وظهر منه خلاف ما قدره تضاعف حسن كلامه في صدورهم وكبر في  
عيونهم لان الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كانوا أبعد في الوهم ، وكلما كان البعد  
في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبعد .  
وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين ، فإن ضحك السامعين في ذلك أشد  
وتعجبهم أكثر <sup>(١)</sup> .

ولعل في كلام ابن المقفع - وهو أديب فارسي الأصل أيضاً - ما يسلط بعض  
الأضواء على مفهوم البلاغة الفارسية . انه يرى أن لكل فن من الفنون اسلوباً خاصاً .  
ففي الرسائل والابتداء والاحتجاج يشار إلى المعاني اشارة ، ويحمد الإيجاز . أما الخطب  
بين السماطين ، وفي اصلاح ذات البين فالبلاغة هي الإكثار في غير خطل والإطالة في  
غير إملال . وفي الشعر تكون البلاغة في ترابط معنى البيت الواحد بحيث أنك إذا  
سمعت صدره عرفت قافيته . وبصورة عامة ، لا خير في كلام لا يدل على معنك ولا  
يشير إلى مغزاك وإلى العمود الذي اليه قصدت والغرض الذي إليه نزع <sup>(٢)</sup> .

يتضح من كلام ابن المقفع أن البلاغة تكون بمراعاة الفنون الأدبية المختلفة  
وبالوضوح في التعبير عن الأفكار ، وفي التقيد بالموضوع الذي يعالج .

أما مفهوم البلاغة عند الهند فهو " وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن  
الإشارة " <sup>(٣)</sup> . وفي صحيفة مكتوبة بالهندية ترجمت إلى العربية زمن الجاحظ ، حملها  
معه إلى بغداد الطبيب الهندي بهلة ، جاء ما يلي حول مفهوم البلاغة : « أول البلاغة  
اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل  
اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا المملوك بكلام السوق ،

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٥ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٨٢ .

٣ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٦٤ .

ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا يتفح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفىها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عليماً ، ومن قد تعود حذف فضول الكلام ، واسقاط مشتركات الألفاظ ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصفيح ، وعلى وجه الاستطراف والتظرف . قال : ومن علم المعنى أن يكون الاسم له طبقاً وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ، ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكرةً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره ، في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً ، وهول تلك المقامات معاً . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم ، وإن تواتبهم آلاته ، ويتصرف معه أدواته ، ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً ، وفي حسن الظن بها مقتصداً ، فإن جاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها فأودعها ذلة المظلومين ، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها آمنها فأدوعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل «<sup>(١)</sup>» .

تتضمن هذه الصحيفة<sup>(\*)</sup> أصول البلاغة الهندية وهي موافقة الكلام للمقام ، أي مراعاة أحوال الناس الذين يوجه اليهم الكلام . وهذا ما أراده بقوله « لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوق » . ثم عدم الصناعة القائمة على تدقيق المعاني وتنقيح الألفاظ وتنقيتها وتهذيبها ، اللهم إلا إذا كان الكلام موجهاً إلى فيلسوف عليم أو ناظر في صناعة المنطق . ثم تفصيل الألفاظ على إقدار المعاني بحيث لا تقصر عنها ولا تفضل ، وهذا ما ندعوه المساواة . وأخيراً التقيد بالموضوع أو عدم الخروج عنه وهذا ما عناه بقوله : ويكون مع ذلك ذاكرةً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه

١ - البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

• الصحيفة : جمع صحائف وصحف ، التي يكتب فيها (ابن منظور ، لسان العرب) .

لمصادره في وزن تصفحه لموارده . هذا بالإضافة إلى الاقتصاد في الرأي الذاتي وفي الظن بالنفس .

أما العرب فقد أقاموا بلاغتهم على ركيزتين : الإيجاز والطبع . وهذا ما يفهم من جواب صحار بن عياش العبدلي معاوية حين سأله عن سر البلاغة التي في كلام الأعراب قائلاً : « شيء تحبش به صدورنا فتقذفه على الستنا »<sup>(١)</sup> . فقال له معاوية : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز . قال معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تحبب فلا تبطىء وتقول فلا تخطيء . قال معاوية : أو كذلك تقول يا صحار ؟ قال صحار : أقلني يا أمير المؤمنين : ألا تبطىء ولا تخطيء<sup>(٢)</sup> .

إن الإيجاز حسب قول صحار هذا هو حذف ما فضل من الكلام . ولهذا نراه يحذف من جوابه الأخير : « أن تحبب . . . وتقول . . . » ولم يبق إلا على ثلاث كلمات هي ألا تبطىء ولا تخطيء . وهذا ما أكداه المفضل الضبي عندما سئل عن الإيجاز فأعتبره عمود البلاغة فقال : إن الإيجاز هو حذف الفضول وتقريب البعيد<sup>(٣)</sup> .

يعمل الجاحظ بإشار العرب الإيجاز على الإطالة بكرهمهم للسلطنة والمذر والتكلف والإسهاب والإكثار ، لما في ذلك من التزيد والمباهة واتباع الهوى والمنافسة في الغلو . وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة لأن ذلك يدعو إلى السلطنة ، والسلطنة تدعو إلى البذاء ، وكل مرء في الأرض فإنها هو نتاج الفضول<sup>(٤)</sup> .

ولم يخرج العتابي عن هذا المفهوم للبلاغة حين قال : « وكل من أفهمك حاجته من غير إصادة ولا حيسة ولا استعانة فهو بليغ »<sup>(٥)</sup> . لأن الكلام الذي يخلو من

١- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٦٩ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٧٠ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٧٠ .

٤- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

٥- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٨٠ .

الإعادة والاستعانة موجز ، والاستعانة هي أن يتخلل كلام المرء تعابير زائدة مثل يا هذا ، واسمع مني ، وأفهم عني ، أو لست تفعل . . .

أما عمرو بن عبيد المعتزلي فقد حدد البلاغة بأنها « تخير اللفظ في حسن الإفهام »<sup>(١)</sup> وهو مفهوم يختلف عن المفهوم السابق الذي يؤثر الطبع والإيجاز .

بعد استخراج المفاهيم المختلفة للبلاغة عند مختلف الأمم أبدى الجاحظ رأيه الذاتي : البلاغة هي إبلاغ المعنى إلى الغير باللفظ الواضح . وهذا ما نفهمه من قوله : « وقال بعضهم — وهو من أحسن ما أجتيناها — لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ومعناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك »<sup>(٢)</sup> .

إن اللفظ الواضح ينظر الجاحظ هو الذي ليس متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً ، وهو اللفظ الذي يستعمله الكتاب والبلغاء<sup>(٣)</sup> .

ومن أصول البلاغة مشاكل اللفظ للمعنى ، وذلك لأن سخيף الألفاظ مشاكل لسخييف المعاني ، وإنه قد يحتاج إلى السخييف في بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني<sup>(٤)</sup> .

ومن شروط البلاغة الواقعية أي محاكاة الواقع بصدق دون تحوير أو تزوير ومن مقتضيات الواقعية أن تورد الألفاظ كما وردت على السنة أصحابها دون لحن فيها إذا كانوا من الفصحاء ، ودون فصاحة إذا كانوا من عامة البلديين « ومتى سمعت حفظك الله نادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج الفاظها ، فإنك إذا غيرتها تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٨١ .

٢- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٨١ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٩٥ - ٩٦ .

٤- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٠١ .

من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فإياك وان تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها في فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاهم لها <sup>(١)</sup> .

هل يفهم من هذا أن البلاغة لا علاقة لها بالفصاحة ، وان الكلام الذي يفشو فيه الخطأ واللكنة والللحن والركاكة يعد بليغاً إذا كان مفهوماً من السامع والقارىء ؟ يجب الجاحظ : لا يكفي أن يكون الكلام مفهوماً ليعتبر بليغاً ، وإنما ينبغي أن يكون صحيحاً فصيحاً خلواً من الأخطاء اللغوية والللحن . واذا اتفق واستطعنا أن نفهم مثل هذا الكلام فليس لانه بليغ ، وإنما بسبب مخالطتنا للعجم وسماع الفاسد من الكلام . ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا <sup>(٢)</sup> . ويضرب على ذلك مثل حوار زياد ابن أبيه مع مولاة بضدد إهدائه حمار الوحش ، ومثل الجارية اللكناء التي قال فيها الشاعر :

أكثرَ ما اسمعُ منها بالسمُر      تذكيرها الأنثى وتأنيتُ الذكر  
والسؤة السؤاة في ذكرِ القمر

فزياد قد فهم مولاة ، والشاعر قد فهم جاريته ، ولكنهما لم يفهما عنهما من جهة افهامهما لهما ، ولكنهما لما طال مقامهما في الموضع الذي يكثر فيه سماعهما لهذا الضرب صارا يفهمان هذا الضرب من الكلام <sup>(٣)</sup> .

وللجاحظ رأي مخالف في الإيجاز خرج به عن عمود البلاغة العربية . فهو لا يحبذ الإيجاز ولا يدعو الى الخطل وإنما يقول بالمساواة أو تفصيل الألفاظ على أقدار

١ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

٣ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١١٤ .

المعاني : « وإنما الألفاظ على قدر المعاني فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها »<sup>(١)</sup> . وهذا الرأي ينبع من فلسفته الوسطية التي نادى بها . وقد شرح مبداء هذا قائلاً : « وإنما وقع الهذلي على كل شيء جاوز المقدار ، ووقع اسم المعنى على كل شيء قصر عن المقدار . فالعنى مذموم والخطل مذموم ، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالي »<sup>(٢)</sup> .

يريد الجاحظ أن يصحح مفهوم الإيجاز إذا أريد له أن يعتمد شرطاً من شروط البلاغة . ولذا لا ينبغي أن يكون الإيجاز مرادفاً للاختصار - كما كان يفهم في عصره - وإنما يجب أن يعني حذف ما فضل عن المقدار ، والمقدار هو كمية اللفظ اللازمة للتعبير عن المعاني بوضوح . ولهذا ليس الإيجاز برأيه قلة عدد الأحرف أو اللفظ ، فقد نجد باباً من الكلام يستغرق بطن صحيفة ويكون موجزاً . « وإنما ينبغي أن يحذف من الكلام بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره ، فما فضل عن المقدار فهو الخطل »<sup>(٣)</sup> وبناء على هذا لا تعد الإطالة خطلاً إذا جاءت في موضعها أي إذا كانت ضرورية لإيضاح المعنى ، ولذلك لا يعد الإيجاز عجزاً إذا كان في موضعه ، أي إذا كان كافياً لإيضاح المعنى<sup>(٤)</sup> .

غير أن الجاحظ يعتمد الدعامة الثانية للبلاغة العربية أي الطبع . وهذا يتفق مع فلسفته الطبيعية . انه يعتبر الأدب وليد الطبع أو الموهبة وليس صناعة متكلفة . ويقول ان النشر أو الشعر الذي تجوده الطبيعة وتعطيه النفس سهواً رهواً ، مع قلة لفظه وعدد هجائه أحمد أمراً وأحسن موقعاً في القلوب وانفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج ، ولان التقدم فيه وجمع النفس له وحصر الفكر عليه لا يكون الا ممن يحب السمعة ويهوى النجى والاستطالة<sup>(٥)</sup> .

١ - الحيوان ، ج ٦ ، ص ٨ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

٣ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٩١ .

٤ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٩٣ .

٥ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٩٥ .

والطبيعة التي ينادي بها الجاحظ تقتضي عدم التنقيح والتصفية في الكتابة لأن الإصراف في التحكيك والتنقيح وحذف الفضول يؤدي إلى عسر الفهم . ويضرب مثلاً على ذلك - عسر الفهم - كتاب المنطق لأرسطو وكتاب أفليدوس اللذين لم يفهم أكثرهما . وهو يشرح رأيه ويحتج له قائلاً : « وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، وحتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو ، ويحطه من غريب الأعراب ووحشي الكلام وليس له أن يهذه جداً وينقحه ويصفيه ويروقه ، حتى لا ينطق إلا بلب اللب ، وبالفظة الذي قد حذف فضوله ، واسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يحدد لهم إفهاماً مراراً وتكراراً ، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن تعكس ويؤخذ منها . الا ترى أن كتاب المنطق الذي وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره ، وفي كلام أفليدوس كلام يدور ، وهو عربي وقد صفي ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام » (١) .

يؤكد الجاحظ على الموضوع في المعاني والألفاظ ، ويكره الإيهام والرمز لئلا يعسر فهمها على القارئ أو السامع . فهو رفيق بالقارئ لا يحب أن يزعجه أو يتعبه .

وهو يكره التنقيح والتصفية في الكتابة لأن حذف الزوائد واسقاط الفضول يؤديان إلى غموض النص وعسر فهمه .

١ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠ .



## الفصل الثالث

### الخطابة

أ- تحديدها :

الخطابة هي فن القول بنية الإقناع والتأثير . وهي تفترض وجود انسان يتكلم في جمع من الناس يستمعون إليه يدعى خطيباً . ويفترض أن يكون كلامه شفويّاً لم يعد مسبقاً . ومن هنا كان الخطيب شخصاً مميزاً بصفات رفيعة تمكنه من الاضطلاع بهذا الدور الخطير أي اقناع الجماهير والتأثير فيهم .

ان كون الخطابة فناً من فنون القول يجعل لها قيمة جمالية ، وكونها تهدف إلى الإقناع واستمالة المستمعين يدخلها في باب المنطق ، واعتمادها على مزايا التكلم يدفع للاهتمام بشخصية الخطيب ومؤهلاته الجسمية والعقلية والخلقية .

لم يدرس الجاحظ الخطابة دراسة منسقة مبنوية ، وإنما تكلم عليها في سياق حديثه عن البيان والتبيين . وقد خلط هذين الموضوعين خلطاً غداً معه من الصعب الفصل بينهما أو تمييزهما ، وكأنه نظر إلى الخطابة والبيان كتأمين لا يتفصلان ، فحيثما

وجدنا بياناً وبلاغة كان مصدرهما خطيب مفوه ، وحيثما عثرنا على خطيب سمعنا منه كلاماً عنباً وبياناً ساحراً .

إن البيان هو أبرز آيات الخطابة ، ويستحيل بنظر الجاحظ أن تجد خطيباً يعوزه البيان ، وحتى ليفضل سلاطة اللسان والخطل مع البيان على العمي والحصر « وليس حفظك الله ، مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسقطات الخطل يوم اطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العمي من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة . والناس لا يعرفون الخرس ، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز ، وهم يذمون الحصر ويؤنبون العمي ، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء ، وتعاطيا مناظرة البلغاء تضاعف عليهما الذم وترادف عليهما التأنيب ، ومماتة الحصر للبلوغ المصقع في سبيل مماتة المنقطع المفحم للشاعر المفلت ، واحدهما الروم من صاحبه والألسنة إليه أسرع »<sup>(١)</sup> .

### ب - أهميتها :

للخطابة أهمية خطيرة في حياة الأمم ، فلل جانب قيمتها الفنية الرائعة تعتبر وسيلة للتأثير في الشعوب وتوجيهها سياسياً ودينياً واجتماعياً . ويوم كانت وسائل الإعلام ضعيفة وبدائية إذ لم يكن هناك إذاعة ولا صحيفة ولا تلفزيون ولا كتب كانت الخطابة تنهض بأعباء التنوير والتنبية والإرشاد جميعاً .

وكان الأنبياء في طليعة الخطباء والبلغاء وكانوا يعتمدون على بيانهم وقدرتهم الخطابية لإقناع الناس وهديهم واستمالتهم . وقد سأل موسى بن عمران الله أن يفك العقدة التي كانت في لسانه ليفصح عن ادلته ويبلغ رسالته ، وقد علم انه كلما كان لسانه أنطق كانت دلالة أوضح والأعناق اليه أميل والعقول عنه أفهم والنفوس إليه أسرع . فاستجاب إليه الله<sup>(٢)</sup> .

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٢ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨ .

وكذلك اعتبر النبي محمداً أخطب الناس إذ « لم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ، بل بذ الخطب الطوال بالكلمات القصار ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلح إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستهمل المواربة ، ولا يهمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه كثيراً»<sup>(١)</sup> .

وعلى هدى الأنبياء سار أصحاب النحل وزعماء الملل في العصر الأموي والعصر العباسي ، ويذكر منهم أبو عثمان مؤسس الفرقة التي ينتمي إليها الجاحظ أي واصل ابن عطاء الذي عده خطيباً مصقفاً ومجادلاً مفحماً ، وقد أدرك أن عليه كرئيس فرقة أن يقارع الأبطال بالخطب الطوال ، وأن ذلك يحتاج منه إلى ترتيب ورياسة وتمام آلة واحكام صنعة وسهولة مخرج وجهارة منطق وتكميل حروف وإقامة وزن<sup>(٢)</sup> .

وبلغ من أهمية الخطابة عند العرب أن الناس كانوا يقدمون الخطباء ، وأن الخلفاء كانوا يولونهم على الأمصار كالحنظلة بن يوسف الثقفي الذي ولاه عبد الملك بن مروان على العراق ، وزياد بن أبيه الذي جعله معاوية والياً على بلاد فارس والبصرة . ويجزينا الجاحظ أن الأحنف بن قيس سيد تميم وخطيبها نظر إليه عمر بن الخطاب وعنده الوفد ، وقد ارتدى الأحنف كساء غليظاً ، فترك جميع الناس واستنطقه ، والقى الأحنف خطبة بليغة بين يدي الخليفة فأعجب بها وعقد له الرياسة وظلت معقودة له حتى وفاته . ويجزينا أيضاً أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة نظر إلى ضمرة ، فلما رأى دماثه وقتله قال « تسمع بالمعيدي ولا تراه » هكذا تقول العرب . فقال ضمرة : آيت اللعن ، إن الرجال لا تكال بالغفران ، ولا توزن بالميزان وإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه . وضمرة هذا كان خطيباً وفارساً وسيداً<sup>(٣)</sup> .

١- المصدر منه ، ج ١ ، ص ٤٤ .

٢- المصدر منه ، ج ١ ، ص ١٤ .

٣- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

ويروي الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء أن الشاعر في الجاهلية كان يقدم على الخطيب لأن الشعر كان يفيد مآثرهم ويفخم شأنهم ويحول على عدوهم ، ولكن عندما أخذ الشعراء يتكسبون بشعرهم ويتسرعون إلى نهش أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (١) .

والواقع أن السبب في ارتفاع شأن الخطابة بعد العصر الجاهلي وانحدار الشعر ليس فقط اتخاذ الشعر وسيلة للتكسب ونهش الأعراض ، وإنما لأن الخطابة أصبحت في العصر الأموي والعصر العباسي أكثر ملائمة للحياة المتحضرة التي انتقل إليها المجتمع العربي . إن الشعر يلائم حياة الشعوب البدائية لأنه وليد العاطفة والخيال ، أما الخطابة فتلائم حياة الشعوب المتحضرة لأنها تعتمد على المنطق والفكر .

### ج - عدة الخطابة وسننها :

الخطابة في نظر الجاحظ طبع أو موهبة كما نقول نحن اليوم ، فهي كسائر الفنون يلزمها استعداد فطري يولد مع المرء ولا يكتسب بالرياضة والتلقين . وفي هذا القول لا يبتعد الجاحظ عن فلسفة الطبيعة التي التزم بها ، وقد أكد لنا هذه الفلسفة قائلاً : وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ، وتكون له طبيعة في التجارة وليست له طبيعة في الفلاحة . وتكون له طبيعة في الحذاء أو في التعبير أو في القراءة بالألحان وليست له طبيعة في الغناء ، وإن كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحن ، وتكون له طبيعة في الناي وليست له طبيعة في الرباي (البوق) وتكون له طبيعة في قصبة الراعي ولا تكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين ، ويكون له طبع في صناعة اللحون ولا يكون له طبع في غيرها ، ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع ولا يكون له طبع في فرض بيت شعر . ومثل هذا كثير جداً (٢) .

١ - المصدر منه ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

غير أن الطبع وحده لا يكفي ، فلا بد من الدربة لتنمية الموهبة وصقلها وشحذها . وإلى جانب الطبع والرياضة تقتضي الخطابة رواية الأشعار والآثار وذلك لمد الخطيب بالشواهد التي تسند رأيه وتدعم مذهبه .

ومن آلة الخطابة التمكن من اللغة ومعرفة الإعراب لأن اللحن عيب لا يغطي وذنبا لا يغتفر <sup>(١)</sup> . واعتبروا جهارة الصوت من آلات الخطابة لأن الخطيب الذي يتكلم في جمهور غفير من الناس يحتاج إلى قوة الصوت وحدة النبرات ليصل إلى مسمع القوم ويؤدي إليهم أفكاره ويؤثر بهم . أما إذا كان صوته خافتاً فإن معظم الناس لا يسمعون ما يقول وبالتالي لا يفهمون عنه شيئاً ولا يتأثرون به <sup>(٢)</sup> .

وكانوا يؤثرون في الخطيب قلة الإشارات والحركات عند الإلقاء ، ولكنهم أسرفوا في ذلك حتى ليحكى عن أبي شمر أنه كان لا يحرك يديه ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة . وكان يقضى على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك وبالعجز عن بلوغ إرادته . وكان يقول : ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره <sup>(٣)</sup> .

وكرهوا من الخطيب التشديق إلا إذا كان من أهل البادية فهو مسموع به غير معجوج ، ورووا عن النبي أحاديث في كره التشديق <sup>(٤)</sup> .

وانتقدوا في الخطيب النظر في عيون الناس واعتبروه ضرباً من العي . أما مس اللحية فهو أشد خطراً من النظر في عيون الناس ، أنه الهلاك بعينه <sup>(٥)</sup> .

ولم يغفلوا أثر هيئة الخطيب وتركيبه الجسمي فاعتبروا جمال الهيئة ذا تأثير في

---

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٥ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٨٥ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٦ .

٤- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٤٤ .

٥- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٣٥ .

الناس ، أضف إلى ذلك الصفات المعنوية والخلقية فهي مبعث للثقة ودافع إلى الاحترام والتقدير والتصديق : « ثم قال (مرة) : وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشبائل موزونة والألفاظ معدلة واللهجة نقية . فإن جمع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام وكمل كل الكمال » (١) .

أما الخطبة ذاتها كصنيع فني ، فقد طبق عليها الجاحظ أصول البلاغة التي ذكرناها وأولها موافقة الكلام للمقام بحيث يكلم كل طبقة من الناس بالكلام الذي يوافقها أو يتفق مع منزلتها الاجتماعية ومستواها الثقافي وأحوالها النفسية . وثانيها التقيد بالموضوع وعدم الخروج عنه لأن من شأن ذلك تشويش أفكار المستمعين . وقد اعتبروا الخروج عن الموضوع إسهاباً (٢) . وثالثها الإبتعاد عن الغريب لأن الإكثار من الألفاظ الغريبة في الخطبة يجعلها غير مفهومة من السامعين ويحول دون بلوغ الغاية من الخطبة وهي إقناعهم بالأفكار التي تعبر عنها الألفاظ ، ومن يتكلف الغريب يدل على عجزه . وليس معنى ذلك أن باستطاعة الخطيب أن يستعمل ما شاء من الألفاظ كيفما اتفق . فالخطيب يحتاج إلى تخير الفاظه لتكون فصيحة جميلة جزلة فخمة تسترق الأسماع وتهفو إليها النفوس (٣) .

وإذا فتشنا عن مثل أعلى للخطابة أو مقياساً وقعنا عليه في خطب النبي الذي حاز في نظر الجاحظ جميع الصفات الجسمية والعقلية ، والذي تعتبر خطبه آية في الفن الخطابي إذ توافرت فيها أصول الخطابة التي لخصها في قوله : « وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ ، وهو الكلام الذي قل عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكليف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قل يا محمد : وما أنا من المتكلمين ﴾ . فكيف وقد عاب التشديد وجانب اصحاب التعقيب ، واستعمل

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٤ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٥ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٥ ، ص ٦٧ .

المبسوط في موضوع البسط ، والمقصود في موضوع القصر ، وهجر الغريب والوحي ،  
ورغب عن المهجين السوقي ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد  
حف بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق . . . (١) .

ومن سنتهم أن يوشحوا الخطب التي يلقونها في المحافل وأيام الجمع بأي من  
القرآن ، ويستحسنون ذلك لانه يورث الكلام البهاء والوقار والرفقة وسلس الموقع (٢) .  
ونخبرنا الجاحظ تأييداً لكلامه هذا أن عمران بن حطان الخطيب الشهير القى خطبة  
بين يدي زياد ابن ابيه فأعجب الناس بها ولكن بعضهم قال : هذا الفتى اخطب  
العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن (٣) .

وكان بعض الخطباء يضمنون خطبهم ابياتاً من الشعر ، ولكن أكثرهم لم يتمثلوا  
في خطبهم الطوال بشيء من الشعر (٤) .

ومن سنتهم أيضاً أن يبدأوا الخطبة بالبسملة والحمدلة والتصلية . والخطبة  
التي لا تبدأ بذلك تسمى بترأ كخطبة زياد ابن أبيه في البصرة التي القاها بمناسبة  
توليته عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان . أما الخطبة التي تخلو من أي القرآن  
فدعوا شوها . ويقول في ذلك : « وعلى ان خطباء السلف الطيب وأهل البيان من  
التابعين بإحسان ، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد  
البتراء . ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي ﷺ الشوها » (٥) .

ويميز الجاحظ بين نوعين من الخطب : الطوال والقصار . أما الخطب الطوال  
فيكون بعضها مستوياً في الجودة ، ويكون بعضها متفاوت الجودة « لا تجد في الخطبة

---

١ - البيان والبيان ، ج ٢ ، ص ٤٤ ، ج ١ ، ص ٩٧ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٨٣ .

٣ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٨٣ - ٨٤ .

٤ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

٥ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

سوى فقر حسان وننف جياد والباقي لا يستحق الحفظ ، وإنما حظّه التخليد في بطون الكتب . أما القصار فعددها أكثر والناس إلى روايتها أسرع <sup>(١)</sup> .

وهناك تقسيم آخر للخطب نسبة الجاحظ إلى ابن المقفع الذي يميز عدة أنواع من الخطب حسب الموضوعات التي تتناولها منها الخطبة بين السماطين في اصلاح ذات البين ، ومنها خطبة النكاح ، ومنها خطبة العيد ، ومنها خطبة التواهب <sup>(٢)</sup> .

ويلاحظ الجاحظ أيضاً فرقا بين خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح من جهة وبين المولدين والبلديين من جهة ثانية . فخطب الأوائل والإعراب وليدة الطبع أصيلة المعاني فصيحة اللفظ أما خطب المتأخرين فعلى العكس مدخولة المعاني متكلفة مسخوطة اللفظ <sup>(٣)</sup> .

#### د - الخطابة عند الأمم :

إن نظرة الجاحظ الشمولية وثقافته الموسوعية جعلته يتخطى النطاق القومي المحصور إلى النطاق الأممي المتراخي الأبعاد . ولهذا نراه لا يقصر بحثه على الخطابة عند العرب ، وإنما يتجاوز ذلك للكلام عن الخطابة عند الفرس واليونان والهند وغيرهم من الأمم .

ولكن هذا لا يعني أنه قدم لنا دراسة وافية للخطابة عند مختلف الأمم المذكورة . جل ما فعله هو أنه عقد مقارنة بين الموهبة الخطابية عند هذه الأمم ، ويتضح من كلامه أنه لم يكن ملماً المأمأ كافياً بالخطابة عند اليونان والفرس والهنود . فهو لم يشر أية إشارة إلى كتاب أرسطو في الخطابة ، في حين ذكر مراراً كتبه في الحيوان والطبيعة وما بعد الطبيعة . وهو لم يذكر أحداً من مشاهير خطباء اليونان ، واعتقد خطأ أن أرسطو وجالينوس كانا انطق الناس ومع ذلك لاحظ لهما من الخطابة <sup>(٤)</sup> .

١ - البيان والبيان ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

٢ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٨٢ .

٣ - المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

٤ - المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

ويعترف الجاحظ للهند بتراتها الضخم المدون في بطون الكتب ، ولكن هذا التراث الخالد لا يضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف . وإنما لهم آداب سائرة مذكورة عريقة في القدم <sup>(١)</sup> .

ويقر الليونان بالفلسفة وصناعة المنطق ، ولكن هؤلاء القوم ليس عندهم في نظر الجاحظ خطباء عظام مشهورون <sup>(٢)</sup> .

أما الفرس ففيهم خطباء إلا أن كلامهم ومعانيهم ليست وليدة الطبع ، وإنما هي ثمرة التفقيص وطول الاجتهاد والتعلم ودراسة الكتب واخذ الخلف من السلف <sup>(٣)</sup> . وهناك أمر خطير يشير إليه الجاحظ لأول مرة وهو الشك في التراث المنسوب للفرس « ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون ، وأبي عبيد الله ، وعبد الحميد ، وغيلان ، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السير » <sup>(٤)</sup> .

فالجاحظ يتهم هؤلاء الفرس أمثال ابن المقفع وسهل ابن هارون وغيرهما الذين عرفوا بنزعتهم الشعبية بنحل الرسائل والكتب ونسبتها إلى الفرس بدافع عصبيتهم القومية ليظهروا أن امتهم عريقة بالآداب والعلوم والحضارة .

فإذا انتهى إلى العرب الفاهم أخطب الأمم دون منازع . إنهم أصحاب طبع قوي لا يحتاجون معه إلى إطالة الفكرة والمعانة ولا إلى الدرس والتلقين . فما هو إلا أن يصرف العربي وهمه في الكلام وإلى الموضوع الذي يريده حتى تأتيه المعاني إرسالاً ،

---

١ - البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

٢ - المصدر عينه ج ٣ ، ص ٤٩ .

٣ - المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

٤ - المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

وتتثال عليه الألفاظ انشياً ، ثم لا يقيد على نفسه ولا يدرسه أحداً من ولده . . (١) .

وهم يتفوقون على الفرس الذين ينافونهم في هذا المضمار بأنهم أصحاب بديهة وارتجال ، وكأنهم ملهمون ، في حين لا يتوصل الفرس إلى شيء إلا بطول البحث والتفكير والتعلم . « ان العرب على الكلام أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه انطق ومكانه في البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أيسر من أن يفترضوا إلى تحفظ ويحتاجوا إلى تدارس ، وليسوا كمن حفظ علم غيره واهتدى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق في قلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بمعقولهم من غير تكليف ولا تحفظ ولا طلب » (٢) .

### هـ - تراجم الخطباء :

لم ينس الجاحظ وهو يتكلم على الخطابة أن يترجم لعدد كبير من الخطباء العرب في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي . بيد أنه لم يتبع منهجية موفقة في تراجمه . فهو لم يدرسهم على أساس العصور ولا على أساس الأنواع ، ولا على أساس الموضوعات . وقد اعتذر عن هذا التقصير بالعجز عن التويب والتنضيد ، وفي هذا منتهى الصراحة التي تصدر عن مفكر ، فنسمعه يقول : « كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم ، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم ، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ، ونقسم أمورهم باباً باباً على حدة ، ونقدم من قدمه الله ورسوله عليه السلام في النسب ، وفضله في الحساب . ولكني لما عجزت عن نظمه وتنضيده ، تكلفت ذكرهم في الجملة . والله المستعان وبه التوفيق ولا حول ولا قوة إلا به » (٣) .

١ - المصدر عين ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

٣ - المصدر عين ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

وإذا كان الجاحظ لم يذكر سبب عجزه عن التبويب والتنضيد ، فإننا نعرف ذلك السبب بالقياس على ما قاله في أماكن أخرى من كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان . نجده في كتاب الحيوان يعتذر عن الاستطراد وعدم التدقيق والتبويب بالمرض الذي كان يعاني منه أثناء تأليف الكتاب وهو مرض الفالج ومرض النقرس . وإذا كان تأليف كتاب البيان والتبيين قد تم بعد الفراغ من كتاب الحيوان فمعنى ذلك أن المرض نفسه الذي أساء إلى التبويب والتنسيق في الحيوان قد أساء إلى التبويب والتنسيق في كتاب البيان والتبيين .

ان تراجم الخطباء التي أوردها الجاحظ مقتضبة لا تفصيل فيها ولا تدقيق تتناول في الغالب اسم الخطيب وكنيته والقبيلة التي ينتسب اليها ، والمذهب الذي يعتنقه ، وأشهر ما قيل فيه من أحكام ، وربما أورد له شذرات من خطبه أو بعضها . فهو مثلاً عندما ذكر الفضل بن عيسى الرقاشي قال عنه انه كان خطيباً ومتكلماً وقاصاً ، وانه كان يجلس اليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسان ، وابان بن أبي عياش ، وكثير من الفقهاء ، وانه رئيس الفضلية ، وكان يركب حماراً ويتأله ويتشبه بالمسيح<sup>(١)</sup> . وعندما ترجم لقس بن ساعدة الأيادي قال ان النبي قد رآه في سوق عكاظ على جبل احمر يلقي خطبته الشهيرة : « أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت الخ . . . »<sup>(٢)</sup> .

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .



## الفصل الرابع

### الشعر

#### أ- ماهيته :

ليس الشعر - بنظر الجاحظ - كلاماً موزوناً كما زعم بعض النقاد ودارسي الأدب في عصره وبعده . ويبدو أنه كان على علم بأوزان الشعر التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى بعد ولادة الجاحظ بزمان قصير . ونراه يشير إلى أساء البحور الشعرية والتفعيلات التي اعتمدها الخليل . ويستغاد من كلامه عن الخليل انه لم يكن راضياً عنه ولا عن دوائره وأوزانه<sup>(١)</sup> . ونسمعه يقول بهذا الصدد : « ويدخل على من طعن في قوله : تبت يدا أبي لهب . وزعم انه شعر لانه في تقدير مستغلن مفاعلن ، وطعن في قوله في الحديث عنه : هل أنت إلا أصبع دमित ؟ وفي سبيل الله ما لقيت . فيقال له : أعلم انك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستغلن مستغلن كثيراً ، ومستغلن مفاعلن . وليس احد في

---

١ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً . ولو أن رجلاً من الباعة صاح : من يشتري باذنجان ؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستعملن مفعولات . فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيا في جميع الكلام . وإذا جاء المقدار الذي يعلم انه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها ، كان ذلك شعراً . (١)

فالكلام الموزون لا يعد شعراً الا إذا قصد صاحبه إلى نظمه وصناعته على انه شعر ، وإلا إذا كان مقدار هذا الكلام الموزون كافياً لاعتباره شعراً ، أما إذا تخلل الحديث أو الكلام بعض جمل موزونة بصورة عابرة ودون عمد فلا ندعوها شعراً . ويؤكد رأيه بقصة حدثت على مرأى منه : لقد سمع غلاماً يقول لصديق له ، وكان قد سقى بطنه ، يقول لرفاقه : اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد أكتوى . ان وزن هذا الكلام هو : فاعلاتن مفاعلن فاعلاتن مفاعلن ، مرتين . هذا الغلام لم يخطر على باله قط أن يقول الشعر ، ولذلك لن نعد كلامه شعراً (٢) .

« ان الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير » (٣) . هذه هي حقيقة الشعر عند الجاحظ . وهو لا يعني بالصناعة كون الشعر نتيجة العمل والاجتهاد والإرادة ووليد التلقين والرياضة . انه يؤكد على أن الشعر طبع أو موهبة ، وان من حرم منها لا يستطيع أن ينظم الشعر ابداً . انه يعني بالصناعة الصياغة أو فن تركيب الكلام وسبكه في تعابير وأوزان ، ومن هنا جاء تشبيهه للشعر بالنسيج . فكما أن الثوب يتألف من خيوط تصف طولاً وعرضاً لتشكل لحمة وسداه ، هكذا القصيدة هي مجموعة أبيات مؤلفة من رصف الفاظ تشكل الصنيع الفني الرائع .

ثم ان الشعر جنس من التصوير لانه يعتمد اعتماداً كبيراً على الخيال الذي يبدع

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

٣- الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

الصور الخلابة . وإن شعراً يخلو من التصوير والتشبيه والاستعارة وما إليها هو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر .

وهكذا يغدو الشعر - بنظر الجاحظ - قائماً على أركان أربعة : الطبع والصياغة اللفظية والوزن والتصوير . وقد لخص هذه الأركان التي تشترك في تكوين الشعر بقوله : « وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، البدوي والقروي والمدني . وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخبر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ومتانة السبك . فإن الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير » (١) .

ولم يقم الجاحظ أهمية للمعنى ، لأن المعاني كما يقول مطروحة في الطريق يعرفها جميع الناس . وهذه النظرية سيأخذ بها معظم النقاد الذين اتوا بعده كأبن رشيح القيرواني والقاضي الجرجاني .

كما أنه أهمل عنصراً هاماً في الشعر هو العاطفة التي تعتبر أهم عناصره لأنها مصدر التأثير وسر الخلود .

وهل يعتبر السجع شعراً ؟ يبدو أن الجاحظ لا يقيم حواجز بين الشعر والسجع ، وربما كان يعتبر السجع ضرباً من الشعر ، وإن السجع والشعر يجتمعان الوزن والقافية في مقابل المنشو الذي لا يتقيد بوزن أو قافية (٢) .

كما يعتبر الجاحظ القصيد والرجز والمزدوج أنواعاً من الشعر . ولم يكن موقف النسي واحداً من هذه الأنواع الشعرية . لقد سمع القصيد والرجز فأستحسنهما وأمر بهما شعراءه . أما السجع والمزدوج فقد نهى عنهما ، ويعزى ذلك إلى أن كهان الجاهلية كانوا يكثرون من الاسجاع ويدعون أن مع كل منهم ريتاً من الجن مثل حازي جهينة ،

---

١ - المصدر حنه ، ج ٣ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

٢ - البيان والبيان ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

ومثل شق وسطيح وعزى وسلمة واشباههم ، فكره أن يقلدهم الناس<sup>(١)</sup>.

ويشير إلى سبك الفاظ الشعر أو تلاحمها على نسق معين حيث يقول « واجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك انه قد افرخ افراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان »<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من أن الشعر طبع وقريحة تولد مع المرء ولا يكتسبها بالتلقين أو الرياضة فإن بعض الشعراء كانوا يعتنون بتنقيح شعرهم وتهذيبه وإعادة النظر فيه ضناً به واشفاقاً عليه ورغبة في أن يأتي مستوي الجودة . وكان بعضهم يكثر في نظم القصيدة الواحدة وتنخيلها حولاً كاملاً ، ومن هنا سميت قصائدهم بالحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات إلى آخر ما هنالك من الصفات . ومن هؤلاء زهير ابن أبي سلمى والحطيئة ولذا قال عنهما الأصمعي انها واشباهها من عبيد الشعر . وكذلك كل من جود في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله واعاد فيه النظر حتى يخرج ابيات القصيدة كلها مستوية الجودة<sup>(٣)</sup>.

أما الشعراء الذين لا يهتمون بتحكيك شعرهم ولا يتكلفون فيه صنعة ولا يلتمسون قهر الكلام ولا اغتصاب الألفاظ فقد أطلق عليهم اسم الشعراء المطبوعين وليس معنى ذلك أن هؤلاء الشعراء الأخيرين هم وحدهم دون غيرهم أصحاب الطبع والقريحة في الشعر ، وإنما يعني انهم نعتوا بذلك لانهم ينظمون الشعر دون اهتمام بصنعة بيانية أو تصفية أو تنقيح وهم تأتبعهم المعاني سهواً ورهواً ، وتنشال عليهم الألفاظ انشياً<sup>(٤)</sup>.

ويعتبر الجاحظ بشار بن برد اطبع الشعراء المولدين على الرغم من عدائه له فكربا لانه كان مجوسيا ، ويأتي بعده في المرتبة السيد الحميري وابن ابي عينة<sup>(٥)</sup>.

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٩٤-١٩٥ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٠ .

٣- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

٤- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

٥- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٩-٤٠ .

وليس الشعراء في مرتبة واحدة من الجودة ، انهم يتفاوتون تفاوتاً كبيراً ، وينقسمون أربع طبقات « فأولهم الفحل الخنذيذ ، والخنذيذ هو التام ، ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعور . . » (١) .

وثمة تقسيم آخر سمعه الجاحظ من بعض العلماء يذهب إلى أن طبقات الشعراء ثلاث هي : الشاعر والشويعر والشعور (٢) .

ان اهم ميزة يختص بها الشعر هي روعة الصناعة البيانية التي تتمثل بالتشبيه والاستعارات والكنائيات ، وقد سماها الجاحظ بديعاً وتمثل بقول الراعي :

هُم كاهل الدهر الذي يُتَقَى به ومنكبه إن كانَ للدهر منكبُ

أن قوله ساعد الدهر هو الذي تسميه الرواة البديع برأي الجاحظ . هذا البديع الذي وجده مقصوراً على العرب ، هو سبب تفوق لغتهم على جميع لغات العالم . ويذكر من شعراء البديع الراعي وبشاراً والعتابي الذي تأثر بشاراً وذهب مذهبه في البديع (٣) .

## ب - نشأة الشعر وتطوره :

نسب بعضهم الشعر إلى آدم ، أبي البشر ، ورجع به البعض الآخر إلى الجاهلية الأولى . أما الجاحظ فيذهب خلاف ذلك ويزعم أن الشعر حديث الميلاد ، نشأ قبل الإسلام بنحو قرنين من الزمن على أبعد تقدير ، وإن أول من نهج سبيل الشعر ونظمه أمرؤ القيس بن حجر ومهلل بن ربيعة (٤) .

وهو يعتقد أن الشعر العربي ظهر في أزمنة متأخرة عن الفلسفة اليونانية التي تمثلت بكتب ارسطاطاليس ومعلمه افلاطون ثم بطليموس وديموقريطس وغيرهم من نوابغ الفكر الفلسفي (٥) .

١ - البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

٢ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

٣ - المصدر منيه ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

٤ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٤ .

٥ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٧٤ .

غير أن الجاحظ يقدم رأياً آخر في تاريخ ولادة الشعر يفترق قليلاً عن الرأي السابق ، فهو يزعم « أن الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطول مما بيننا اليوم وبين أول الإسلام » (١) .

وعلى الرغم من حداثة الشعر ، فإن الشعراء قلدوا بعضهم بعضاً حتى انه لا نجد معنى غريباً أو شريفاً أو بديعاً أتى به احد الشعراء الا وتعاوره الشعراء الذين عاشوا بعده أو معه . فإما أن يسرقوا المعنى واللفظ معاً ويدعوه ، وإما أن يسرقوا المعنى وبعض اللفظ ، وإما أن يكتفوا بالمعنى فقط ويعتبرون أنفسهم شركاء فيه مع صاحبه الأول . وإذا سئلوا عن ذلك أجابوا أن المعاني مشاع لا يملكها احد ، ولا ينبغي أن يدعي ملكيتها احد ، أو احتجوا بأنهم لم يسمعوا ذلك المعنى قط ، وإنها خطر على بالهم من غير سماع كما خطر على بال من سبقهم (٢) .

ان الجاحظ في حكمه طرق باباً من أبواب النقد ولجه النقد من بعده وكتبوا فيه الأبحاث الكثيرة الطويلة ، وهو باب السرقات الأدبية أو الشعرية أمثال القاضي الجرجاني والأمدي وابن الأثير . وذهبوا في تأويله مذاهب شتى بين محذ أو متسامح أو مستنكر . ويبدو أن الجاحظ لم يكن راضياً عن هذه السرقات ، وموقفه هذا يلوح من خلال قوله « ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء بعده من الشعراء أو معه ، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه كالمعنى من صاحبه ، أو لعله أن يجحد انه سمع بذلك المعنى قط ، وقال إنه خطر على باله من غير سماع كما خطر على بال الأول ، هذا إذا قرعوه به . . . » (٣) .

١- المصدر عينه ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

٢- الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣١١ .

٣- المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٣١١ .

ويثير الجاحظ موضوعاً خطيراً آخر وهو موضوع نحل الشعر ، هذا الموضوع الذي احدث ضجة في النقد الحديث . فهو يقول ان بعض المولدين « ولدوا على لسان خلف الأحمر والأصمعي أجزاً كثيرة فما ظنك بتوليدهم على السنة القدماء . ولقد ولدوا على لسان جحشوية في الخلاق أشعاراً ما قالها جحشويه قط . فلو تقدروا من شيء تقدروا من هذا الباب » (١) .

ويدعو الجاحظ الى عدم تصديق كل ما يروى أو يقال لان الكذب كثير والزور غالب . والذي دفع الى هذه الحالة المزرية هو كلف الناس بالغريب وعدم تحكيم العقل في الأمور والانسحاق وراء الأهواء . ويقول اننا « قد ابتلينا بضربين من الناس ، ودعواهم كبيرة ، أحدهما يبلغ من حبه للغرائب أن يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين ، وقلبه قراراً لغرائب الزور ، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطرف لا يقف على التصحيح والتمييز ، فهو يدخل الغث في السمين ، والممكن في الممتنع ، ويتعلق بأدنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع . والصف الآخر هو ان بعضهم يرى ذلك لا يكون منه عند من يسمعه الا من خاف التقزز من الكذب . . . » (٢) .

ويعرض الجاحظ لقضية هامة أخرى هي قيمة الشعر المولد في العصر العباسي بالنسبة الى الشعر القديم . وهو يعني بالشعر المولد ذلك الذي نظمته الشعراء المولدون الذين نشأوا في العصر العباسي من امتزاج العرب بغيرهم من ابناء الأمم العجمية والتزاوج الحاصل بينهم . وهو يذهب الى أن عامة العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة النابتة الذين ليسوا عرباً أفحاحاً . ولكن ليس كل شعر تفوه به العرب الخالص أجود من كل شعر نظمته المولدون . فهناك اشعار مولدة خير من أشعار قديمة والعكس بالعكس (٣) .

١- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ١٨١ .

٢- الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

٣- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١٣٠ .

ويشير إلى النقاد الذين تعصبوا للقديم ويهرجوا كل مولد ولم يستسيغوه ، فينحو باللائمة عليهم ويتهمهم بعدم التبصر « ولقد رأيت ناساً منهم يهرجون أشعار المولدين ويستسقون من رواها . ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد عن كان وفي أي زمان كان » (١) .

ويضرب مثلاً على هؤلاء أبا عمرو الشيباني الذي استجاد بيتين من الشعر لا لشيء إلا لأنها قديان وهما في الحقيقة لاحظ لهما من الجودة في نظر الجاحظ حتى لم يمكنه الزعم أن صاحبهما لا يقول شعراً ابداً ، ولولا تجنيبه قول المجون لحكم على ابنه أيضاً بعدم نظم الشعر والبيتان هما :

لا تحسبن الموت مسوت البلى      فإنها الموت سؤل الرجال  
كلاهما موت ولكن ذا      أقطع من ذاك لسؤال (٢)

ما الفرق بين الشعر القديم والشعر المولد ؟ يرى الجاحظ أنه يرجع إلى أن الشعراء القدامى نظموا الشعر عفواً وعلى الطبع دون تفكير وكد ذهن ، بينما ينظم المولدون الشعر « بنشاطهم وجمع بالهم » (٣) . وهو يشير بذلك إلى أثر الثقافة الجديدة التي تزود بها الشعراء في العصر العباسي عندما انتشر العلم والكتب وترجمت الآثار الأجنبية إلى اللغة العربية من علم وفلسفة وطبيعة ، فأصبح الشاعر مثقفاً ولم يعد أمياً ، وأصبح يفكر فيما يقول أو ينظم ولم يعد يعتمد على السليقة كل الاعتماد . ثم أن الشاعر المولد غداً مضطراً إلى استعمال الفاظ وتعابير جديدة للتعبير عن المعاني العلمية والفلسفية المستجدة . ومن هنا شاعت الفاظ المتكلمين والفلاسفة في الشعر ، وغداً مستحسنًا في شعر أبي نواس مثلاً ورؤود مثل هذه الألفاظ : تناهى وتولد وتجزأ الخ . .

١- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١٣٠ .

٢- المصدر عنه ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

٣- الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣٢ .

وذا ت خـ مـ رـ ذ  
 تأمل العين منها  
 قـ و هـ يـة المتجرـ ذ  
 محاسناً ليس تنفذ  
 وبعضها قد تنامى  
 وبعضها يتولد  
 والحسن في كل عضو  
 منها معاداً مردد<sup>(١)</sup>

ان تحليل ذلك مرده إلى القاعدة الذهبية التي نادى بها الجاحظ وعنه تلقفها جميع من جاء بعده من البلاغيين والنقاد والقائلة « أن لكل مقام مقالاً ولكل صناعة شكلاً وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب الفاظ الأصراب والفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل »<sup>(٢)</sup>.

ولذلك يرى أبو عثمان أنه من الخير أن يلفظ بالفاظ المتكلمين ما دام خائضاً في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فإن ذلك أفهم لهم واخف لمؤنتهم عليه . ويرى أيضاً أن لكل صناعة الفاظاً وتعايير تكونت بعد امتحان سواها وثبوت صلاحها لتلك الصناعة وعدم صلاح ماعداها من الألفاظ للمشكلة بين تلك الألفاظ والمعاني التي تعبر عنها<sup>(٣)</sup> . وبما أن الشعراء بنوا بعض معاني المتكلمين الفلسفية فقد اضطروا إلى استعارة الفاظ هؤلاء المتكلمين للتعبير عن معانيهم حين عجزت الفاظهم الشعرية الخاصة عن استيعاب تلك المعاني الدخيلة<sup>(٤)</sup> .

وما دمتنا نتكلم على نشأة الشعر وتطوره فما هي العوامل المؤثرة في ذلك ؟ وما هو دور البيئة والوراثة ؟ يرى الجاحظ انه ليس للبيئة الطبيعية أثر في الشاعرية . فهو حنيفة رغم كثرة عددهم وشدة بأسهم وتخومهم وسط اعدائهم وخصب أرضهم ، أقل

١- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٩٨-٩٩ .

٢- الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٦٩ .

٣- المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

٤- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٩٨ .

القبائل شعراً ، بينما تلقى في أخوتهم حجل قصيداً ورجزاً وشعراء ورجازين . وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً وهم أهل طبع في الشعر عجيب <sup>(١)</sup> .

ولذلك يقول انه ليس للوراثة أثر في الشاعرية ، ويضرب مثلاً بني الحارث بن كعب الذين لم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ، فلما جاء الإسلام ظهر فيهم شعراء مفلقون <sup>(٢)</sup> . ويعطي مثلاً آخر أولاد زرارة بن عدس ، نبع فيهم شعراء منهم لقيط وحاجب وغيرهما ، بينما لم يكن لحذيف ولا حصن ولا عينة بن حصن ولا الحمل بن بدر شعر مذكور <sup>(٣)</sup> .

ويتهيء الجاحظ الى النتيجة التالية وهي : أن الشعر هبة من الله يقسمها كما يشاء على البلاد والأعراق والأشخاص . ولا علاقة للبيئة وطرق العيش والغذاء والخصب والثرى بالشاعرية والشعر <sup>(٤)</sup> .

### ج - قيمة الشعر وأثره :

ما هي قيمة الشعر ؟ هل له وظيفة اجتماعية أو خلقية أو تثقيفية الى جانب قيمته الفنية ؟ وهل يطلب منه الاضطلاع بهذه الوظائف جميعاً ؟ هذا ما سنحاول استجلاء رأي الجاحظ فيه .

يقول أبو عثمان ان للشعر فائدتين : فائدة للشاعر والمادح وفائدة للممدوح أما فائدة الشاعر فتكمن في إبراز عبقريته أو موهبته ، وفي كسب الجوائز والمهبات . وأما فائدة الممدوح فترجع الى تخليد مآثره وذكره على مر الأيام . ووظيفة التخليد هذه هي التي اهتم لها العرب في العصر الجاهلي بحيث انهم اعتمدوا على الشعر لتوفير هذه الناحية بينما أثر المعجم البناء لتخليد ذكركم <sup>(٥)</sup> .

١- الحيوان ، ج ٤ ، ص ٣٨٠ .

٢- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٣٨١ .

٣- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ .

٤- المصدر عنه ، ج ٤ ، ص ٣٨١ .

٥- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٧٢ .

وثمة وظيفة ثانية للشعر هي التثقيف ، وذلك بفضل ما ينطوي عليه من معان عميقة وصحيحة . ولكن الكتب المنشورة أفضل من الشعر للقيام بهذه المهنة لأنها أقدر على استيعاب المعارف من الشعر على الرغم مما تتعرض له من تحريف وتصحيف أثناء النقل والترجمة والاستنساخ . ان الكتاب : « حري بالتعظيم وحقيق بالتفضيل على البيان ، والتقديم على الشعر إن هو حول تهافت ، ونفعه مقصور على أهله ، وهو يعد من الأدب المقصور وليس بالمبسوط ، ومن المنافع الاصطلاحية وليست بحقيقة بيّنة ، وكل شيء في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات فهي موجودات في هذه الكتب دون الأشعار ، ويتابع الكلام قائلاً :

« وما هي كتب هي بيننا وبينكم مثل كتاب اقليدس ومثل كتاب جالينوس ، ومثل المجسطي ، مما تولاه الحجاج ، وكتب كثيرة لا تحصى فيها بلاغ للناس وان كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومفسدة فالباقي كاف شاف ، والغائب منها كان تكميلاً لتسلط الطبائع الكاملة . فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا ، ومنتهى نفعه إلى حيث انتهى بنا القول » <sup>(١)</sup> .

وواضح من هذا الكلام ان الجاحظ يفضل النثر على الشعر ، وان كان الشعر أسهل حفظاً فالنثر أقدر على التعبير عن العلوم والحكمة التي ينتفع بها الناس . ثم أن الشعر يقتصر نفعه على فئة من الناس بينما يعم نفع الكتب الناس جميعاً .

وثمة وظيفة ثالثة للشعر اجتماعية الأثر . لقد لعب الشعر دوراً هاماً في حياة العرب . فهو الذي اشاد بمثلهم العليا كالمروءة والكرم والشجاعة واتخذ اداة للصراع السياسي والفكري . وقد أورد الجاحظ اخباراً عديدة تدل على أهمية الشعر الاجتماعية ومدى تأثيره في لناس . فهو يحدثنا ان بني نمير كانوا يفتخرون بنسبهم ، فإذا سئل

أحدهم : ممن الرجل ؟ قال : نميري . وظلوا على هذه الحال حتى هجأهم جرير قائلاً :

فغض الطرف أنك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فصار الرجل منهم إذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر <sup>(١)</sup> .

ويخبرنا أن بني أنف الناقة كانوا محقرين من الناس حتى كان أحدهم ينجل أن يعترف بنسبه ، فإذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني قريع . وظلوا على هذه الحال حتى مدحهم الحطيئة بقوله :

قومٌ هم الأنف والأذنبُ غيرهمُ ومن يساوي بأنف الناقة الذنباً

وصار الرجل منهم إذا قيل له : ممن أنت ؟ قال : من بني أنف الناقة <sup>(٢)</sup> .

ويروي خبراً طريفاً خلاصته أن شاعراً جاء سيد بني مازن يسأله أن يسعى في رد إبله التي أغار عليها بنو يربوع ، فأجهش السيد بالبكاء لانه لا يستطيع تلبية طلب الشاعر وقال : وكيف لا أبكي وقد استغاثني شاعر من شعراء العرب فلم اغته . والله لئن هجاني ليفضحني قوله ، ولئن كف عني ليقتلني شكره ثم نهض فصاح ببني مازن فردت عليه إبله <sup>(٣)</sup> .

وبلغ من خوف العرب من الهجاء أنهم كانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه الموائيق ، وربما شدوا لسانه بنسعة لكي لا يهجوهم « وينصح باتقاء لسان الشعراء بالمال لأنهم سخروا شعرهم للتكسب لأن الأعراض أغلى بكثير من المال » <sup>(٤)</sup> .

أما وظيفة الشعر الفنية فلم يغفلها الجاحظ ، ونحن نكتشفها من خلال كلامه ، فهو يقص علينا خبر النبي محمد مع الشاعرة ليل بنت النضر بن الحارث بن

١ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

٣ - المصدر فيه ، ج ٤ ، ص ١٠٦ .

٤ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ .

كلده . رآته يطوف بالبيت فأستوقفته وجذبت راده حتى انكشف منكبه وانشدته شعرها الذي قالته في مقتل أبيها . فلما سمع كلامها تأثر به غاية التأثر وقال : « لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته » (١) .

ان للشعر وظيفة نفسية هامة . انه يثير بعض العواطف ويلطف بعضها الآخر . وتوضيحاً لهذه الحقيقة نجربنا الجاحظ أن شيخاً من الأعراب تزوج جارية من رهطه وطمع في أن تلد له غلاماً فولدت له جارية فهجرها وهجر منزلها وصار يأوي الى غير بيتها ، فمر بخبانها بعد حول واذا هي ترقص بنتها منه وتشد :  
مَا لِأَبِي حَزَّةَ لَا يَأْتِينَا      يَظُلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا  
غَضِبَانٌ لَا نَلِدُ الْبَيْنَا      فَاللهُ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا  
وإنما نأخذُ مَا أعطينَا

فلما سمع الشيخ الأبيات عرج على بيت امرأته مسرعاً ودخل الخباء وقبل بنيته وقال : ظلمتكما ورب الكعبة (٢) .

وللشعر وظيفة تنفيسية ، وهي الوظيفة التي قال بها أرسطو بصدد بحثه في المسرحية . فالشعر متنفس عن العواطف المكبوتة والضماير والمشاعر الجياشة التي تختلج في الصدور . « قيل لعبيد بن عبدالله بن عتبة بن مسعود : كيف تقول الشعر مع الفقه والنسك ؟ فقال : لا بد للمصدور من أن ينفث . وقال معاوية لصحار العبدى : ما هذا الكلام الذي يظهر منكم ؟ قال : شيء نجيش به صدورنا فتقذفه على الستنا . . . وفي المثل : من أحب شيئاً أكثر من ذكره » (٣) .

وكما أعجب الجاحظ بمقدرة العرب الخطابية أعجب بموهبتهم الشعرية ،

١- البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .

٢- البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ١١١ - ١١٢ .

٣- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ١١٠ .

فزعم انهم أشعر الأمم كما زعم انهم أخطب الأمم . وهو مقتنع بصحة ما يذهب اليه لان لديه كما يقول شاهداً صادقاً من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس وارفعمهم في البيان أن يقول مثله على بلاغة العرب في القصيد والأرجاز ، وفي المنثور والأسجاع ، وفي المزدوج وما لا يزدوج .

ويبدو الجاحظ محيطاً بآثار العرب الشعري منذ العصر الجاهلي حتى عصره ولهذا نراه يروي لمئات الشعراء منهم ، ويستشهد بأشعارهم لدعم آرائه في الطبيعيات والجماليات وعلم الكلام والاخلاقيات . وهو لا يقتصر على الفحول منهم بل يجاوزهم الى الشعراء المغمورين الذين قلما سمعنا بهم .

والخلاصة أن الجاحظ يملك احساساً مرهفاً بالجمال ، شأنه في ذلك شأن جميع الفنانين . ولكنه عندما تصدى لدراسته وجه جل اهتمامه الى رصد ملامحه في المرأة والخطابة والشعر ، وأهمل الموضوعات الجمالية الأخرى كالغناء والطبيعة والخط والتصوير والنحت فلم يعرهما سوى لغات عابرة .

فهو يعرف الغناء بأنه شعر مكسو نغماً ، ويرى وزن الشعر من جنس وزن الغناء ، والعروض من نوع الموسيقى<sup>(١)</sup>.

ويشير الى قيمة الغناء ومدى تأثيره في النفس ، واهتمام الناس به منذ قديم الزمان وإقبالهم على اقتناء القيان وسماعهن . وبلغ من منزلة الغناء عند الروم انهم عدوه فلسفة ، وعند الفرس انهم عدوه ادباً<sup>(٢)</sup> واكثر الخلفاء الأمويون والعباسيون من الجوارى المغنيات ورويت عنهم الأخبار الطريفة في ذلك ، فكان لعبد الملك بن مروان مثلاً حباية وسلامة ، وكان إذا طرب من غنائهن شق برده ثم يقول أطير فتقول له حباية ، لا تطر فإن لنا بك حاجة<sup>(٣)</sup> .

١ - القيان (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٦٠) .

٢ - القيان ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

٣ - المصدر منه ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

ويرفض الجاحظ دعوى من يقول ان الغناء محرم لانه يلهمي عن ذكر الله ، ويسند موقفه بحجج لخصها بالمقطع التالي : « اذا وجب أن الكلام غير محرم فإن وزنه وتقفته لا يوحيان تحريماً لعله من العلل ، وان الترجيع له لا يخرج الى حرام . . . ولا أصل لتحريمه في كتاب الله ولا سنة نبيه عليه السلام ، فإن كان إنما يحرمه لانه يلهمي عن ذكر الله فقد نجد كثيراً من الأحاديث والمطاعم والمشارب والنظر الى الجنان والرياحين واقتناص الصيد والتشاغل بالجماع وسائر اللذات ، تصد وتلهي عن ذكر الله ، ونعلم أن قطع الدهر لمن أمكنه أفضل إلا انه إذا ادى الرجل الفرض فهذه الأمور كلها له مباحة ، واذا قصر عنه لزمه الإثم »<sup>(١)</sup>.

واذا كانت وقفة الجاحظ أمام الغناء قصيرة ، فإن وقفته ازاء جمال الطبيعة اقصر- أنه يقر بوجود الجمال في الكائنات الطبيعية ويحاول أن يطبق عليها أصوله التي أرجعها الى التهام والاعتدال كما ذكرنا ، ويقول ان الاعتدال أو الرزن أو التناسب بين أعضاء الجسم أو أجزاء الشيء هو سر الجمال الذي نراه في الأبنية وأنواع الفرش واللباس والقنوات التي تجري فيها المياه ، والزرع والبنفسج<sup>(٢)</sup>.

أما الخط فيعتبره احد أنواع الدلالات الخمس ، ووسيلة حفظ العلوم والمآثر وتوارثها عبر الأجيال<sup>(٣)</sup> ، ولذا اهتم الناس به وتأنقوا في تزيينه وتنويعه فكان منه الجزم والمسند المنمنم<sup>(٤)</sup> كما كان منه « الحازي والعراف والزاجر وخطوط أخرى تكون مستراحاً للاسیر والمهموم والمفكر . . . »<sup>(٥)</sup> وقبل أن اصبح كتابة على الورق كان نقشاً في الحجارة<sup>(٦)</sup>.

١- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

٢- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

٣- الحيوان ج ١ ، ص ٤٧ .

٤- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٧١ .

٥- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٣ .

٦- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٨ - ٦٩ ، أنظر ما ورد حول الخط في الباب الخامس ، الفصل الثاني من هذا البحث .



## **الباب الخامس**

---

### **المنحى اللغوي**



لهذا الباب علاقة وثيقة بالجماليات لأن اللغة مادة عدة فنون جميلة كالشعر  
والخطابة والنثر الفني . غير أن اللغة غدت موضوعاً مستقلاً من موضوعات الفلسفة ،  
ولذا أفردناها عن الجماليات ، وسنعالجها في فصلين :  
الفصل الأول : في أصل اللغة وخصائصها .  
الفصل الثاني : في البيان : عناصره وعيوبه .



## الفصل الأول

### أصل اللغة وخصائصها

اهتم المتكلمون باللغة لأنها آلة التعبير عن أفكارهم ووسيلة لنشر عقائدهم وكان أصحاب النحل مثلاً في البيان وذراية اللسان والخطابة ، ووجدوا أن المنطق هو الطريقة التي تستمال بها القلوب وتنشئ الأعناق وتزين المعاني<sup>(١)</sup>.

وثمة سبب آخر حدا المتكلمين على الاهتمام باللغة ، هو حاجتهم الى فهم الكتاب والسنة . ونحن نعلم أن الكتاب والسنة من أهم موضوعات علم الكلام ، وأن المباحكات الجدلية الطويلة التي دارت بين المتكلمين إنها كانت سببها الخلاف حول تأويل الآيات القرآنية أو تفسيرها . لقد فهم الجاحظ هذه الحقيقة الخطيرة فأشار إليها في أماكن عدة من كتبه ولخص المسألة بقوله : « فللعرب امثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وأرادتهم ، ولتلك الألفاظ مواضع آخر ، ولها حيثذ دلالات آخر ، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة ، والشاهد والمثل ،

---

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤ .

فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم ، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك ،<sup>(١)</sup> .

## أ- أصل اللغة :

ان اللغة التي تتكلمها أمة من الأمم تتألف من الفاظ تتجمع بشكل تعابير أو جل لها قواعد معينة تنتظم فيها . والسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي : من أين جاءت هذا الألفاظ ، أو من أوجدها أولاً ؟

ليس للجاحظ رأي واحد في الأمر ، ولكننا نسمعه يقول ان «اللغة عارية في أيدي الناس ممن خلقهم ومكنهم وهمهم وعلمهم»<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أن اللغة من خلق الله لهم الناس إياها أو أعارهم إياها إعارة . ولكن الجاحظ لم يوضح لنا كيفية حصول ذلك الإلهام وزمانه ، وهل أن جميع الناس في مكان وزمان ما أنزل عليهم جميعاً الوحي مرة واحدة أم أنزل على بعضهم ثم تولى هذا البعض تعليم اللغة للآخرين .

ويؤكد أبو عثمان رأيه هذا فيقول ان ألفاظاً أتى بها القرآن لم تكن موجودة في الجاهلية ، ويضرب مثلاً عليها « القرآن » التي سمي بها كتابه المنزل ، فان هذه الكلمة لم تكن حتى كان القرآن<sup>(٣)</sup> .

هناك حجة أخرى يوردها الجاحظ هي كلام بعض الأنبياء ، فإسماعيل لهم اللغة العربية الهاماً على غير تلقين أو دربة<sup>(٤)</sup> . « وكلام عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم في المهد ، وإنطاق يحيى عليه السلام بالحكمة صبيّاً وكذلك القول في آدم وحواء عليهما السلام ، وقد قلنا في ذنب أهبان بن أوس ، وغراب نوح ، وهدهد سليمان ،

---

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ١٥٣-١٥٤ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

٣- الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

٤- البيان والنبين ، ج ٤ ، ص ٦-٥ .

وكلام النملة ، وحمار عزيز وكذلك كل شيء أنطقه الله بقدرته وسخره لمعرفته (١).

بيد أن الجاحظ يلاحظ أن في اللغة ألفاظاً تكونت من تقليد الأصوات الموجودة مثل القطا الذى هو صوت الطائر ، ومثل المواء وهو صوت الشاة (٢).

ومهما كان من أمر نشأة اللغة فهي لا تبقى على ما هي عليه بل تتطور مع الزمن فتدخل عليها ألفاظ من اللغات الأخرى ، ويولد أبنائها كلمات جديدة . فاللغة العربية في عصر الجاحظ شاع فيها كثير من الكلمات العجمية ، حتى الشعراء ضمنوا أشعارهم كلمات فارسية أمثال العماني ويزيد بن ربيعة بن مفرغ . يقول العماني في قصيدة يمدح بها هارون الرشيد :

من يلقه من بطل مسرند      في زغفة محكمة بالسرد

تجول بين عنقه والكرد (٣)

لما هوى بين غياض الأسد      وصار في كف الهزبر الورد

آلى يذوق الدهر آب سرد (٤)

ويقول يزيد بن مفرغ :

آب أست نبيذ أست      عصارات زبيب أست

سميه روسيد أست (٥) (٦)

---

١- المصدر منه ، ج ٤ ، ص ٧.

٢- الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٧.

٣- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٩-١٠٠.

٤- المسرند : الغالب ، الزغفة : الدرع ، السرد : الزرد ، الكرد : العتق.

٥- آب سرد : الماء البارد.

٦- آب : ماء ، روسيد : مشهور ، ليس النبيذ سوى ماء أو عصارات النبيذ المشهورة.

لل جانب هذه الألفاظ الدخيلة لاحظ أبو عثمان كثيراً من الألفاظ المولدة التي ابتكرها المتكلمون اشتقاقاً واصطلاحاً للدلالة على المعاني الجديدة التي لم يكن للعرب عهد بها في السابق أمثال العرض والجوهر وأيس وليس والبطلان والتلامي ، والهدية والهوية والماهية ، وأشبه ذلك .

وكذلك وضع اللغويون ألفاظاً جديدة لم تكن العرب تتعارف بها ، فترى الخليل بن أحمد الفراهيدي يضع لبحور الشعر ألقاباً جديدة كالطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشبه ذلك ، ويقسم البيت إلى أوتاد وأسباب وفواصل ، ويسمي العلل بالزحاف والحزم الخ . . .

وحذا النحويون حذو الخليل والمتكلمين « فذكروا الحال والظروف وما أشبه ذلك ، لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلدين علم العروض والنحو . . . وكذلك فعل أصحاب الحساب إذ اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم » (١) .

ثم ان هذه الألفاظ المولدة ، بعدما أدخلت على العربية ، لم تعد حكراً على المتكلمين والعلماء ، بل أصبحت مشاعاً يتناولها من يشاء ويدخلها في كلامه كالخطباء والشعراء ، وأصبحنا نسمع في العصر العباسي أحد الخطباء يقول في خطبته وسط دار الخلافة : « وأخرجه الله من باب اللبسية فأدخله في باب الأيسية » (٢) ، وغدونا نجد شعر أبي نواس وغيره يتضمن ألفاظاً فلسفية كال تولد والجزء الذي لا يتجزأ وغيرها من الألفاظ والتعابير (٣) .

وهناك كلمات من نوع آخر ، تلك التي غير معناها لتستعمل للدلالة على شيء

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٧-٩٨ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٩٨ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٩٨-٩٩ .

جديد مثل « مخضرم » التي أطلقوها بعد الإسلام على من أدرك الجاهلية والإسلام .  
« ويدل على أن هذا الاسم أحدث في الإسلام ، إنهم في الجاهلية لم يكونوا يعلمون أن  
ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهلية ، ولا كانوا يعلمون أن الإسلام يكون » (١) .

ومثل كلمة « ضرورة » التي أطلقوها في الإسلام على من لم يحج بينها كانت تعني  
في الجاهلية أرفع الناس في مراتب العبادة (٢) .

وقد يكون توليد الألفاظ الجديدة عن طريق الاشتقاق من المكان الذي تدل  
عليه كلفظة المنافق اشتقت من النافقاء وهو المكان الذي يستتر فيه اليربوع . وكلمة  
العذرة فإنها هي الفناء ، والأفنية تعني العذرات ، ولكن لما طال لقاء الناس النجو  
والزبل في أفنيتهما سموا تلك الأشياء التي رموا بها باسم المكان الذي رميت فيه . ومثل  
كلمة النجو ، وذلك أن الرجل إذا أراد قضاء الحاجة تستر بنجوة والنجو الارتفاع من  
الأرض ، قالوا من ذلك : ذهب ينجو كما قالوا ذهب يغطو إذا ذهب إلى الغائط لذلك  
الأمر ، ثم اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو : قد استنجى . ومن هذا الباب  
الملة ، والملة الخبزة ، فسموا الخبزة باسم موضعها . ومن هذا الشكل الراوية ، والراوية  
هو الجمل نفسه ، وهو حامل المزادة ، فسميت المزادة باسم حامل المزادة ، ولذا سموا  
حامل الشعر والحديث راوية (٣) .

وتكون الألفاظ الجديدة مولدة من الصفة في الشيء . ومن ذلك قولهم للحرب  
غشوم ، سميت بهذا الاسم لأنها تنال غير الجاني . ومن ذلك قولهم في البغي المتكسبة  
بالفجور قحبة ، وإنما القحاح السعال ، وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنت  
وتكسبت بالزنا ، قالوا قحبت أي سعلت كناية (٤) .

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

٢- الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٣٢-٣٣٣ .

٤- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٣٢-٣٣٤ .

والغريب هو أن هذه الألفاظ الجديدة المولدة قلماً عرف من ولدها لأول مرة ، والألفاظ والمعروفة المولدة تادرة منها « مظلومة » بمعنى الأرض التي لم تحضر قط ولم تحرث إذا فعل ذلك بها ، ويقال ان النابغة الذبياني هو أول من سهاها بهذا الاسم حيث يقول في قصيدة له :

ألا الأراوي لأياً ما أبينها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد (١)

وكما تولد ألفاظ جديدة في اللغة تموت ألفاظ أخرى أو تهمل . ويلاحظ أبو عثمان أن الناس في عصره تركوا عما كان مستعملاً في الجاهلية ألفاظاً كثيرة . فمن ذلك تسميتهم للخراج أتاوة ، وكقوله للرشوة ولما يأخذه السلطان الحملان والمكس (٢) .

وتركو التعبير « أنعم صباحاً » ، وأنعم ظلاماً « وصاروا يقولون « كيف أصبحتم ، وكيف أمسيتم » وقد ترك العبد قوله لسيده : ربي ، كما يقال رب البيت ، ورب الدار ، وكذلك حاشية الملك والسيد تركوا أن يقولوا ربنا . والسبب في ترك هذه الألفاظ زوال معانيها كالمرباع والنشيطه فالرباع ربع الغنيمة الذي كان خالصاً للرئيس وصار في الإسلام الخمس على ماورد في القرآن . وأما النشيطه فإنه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العلق النفيس يراه إذا استحلاه . وبقي الصفي وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كل مغنم ، وهو كالسيف اللهزم والفرس العتيق ، والدرع الحصينة ، والشيء النادر (٣) .

وثمة ألفاظ وتعايير لم تترك وإنما كرهت ، يروي الجاحظ شواهد عليها . فقد جاء من عمر ومجاهد وغيرهما النهي عن قول القاتل : استأثر فلان بفلان ، بل يقال : مات فلان ويقال استأثر الله بعلم الغيب واستأثر الله بكذا وكذا . وقال النخعي : كانوا يكرهون ان يقال : قراءة عبد الله ، وقراءة سالم ، وقراءة أبي ، وقراءة

١- المصدر عنه ، ص ٣٣١ .

٢- المصدر عنه ، ص ٣٢٧ .

٣- الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٢٨ - ٣٣٠ .

زيد، وكانوا يكرهون ان يقولوا ، سنة أبي بكر وعمر ، بل يقال : سنة الله وسنة رسوله .  
ويقال فلان يقرأ بوجه كذا وفلان بوجه كذا (١) .

وقال علي بن ابي طالب ، وقفت على النبي في الباب فقال : من هذا ؟ فقلت  
انا ، فقال ، أنا ! كأنه كره قولي أنا . وكره أبو العتاهية قول القائل : كنت في الجنائز ،  
وقال : قل اتبعت جنازة . كأنه ذهب الى انه عنى انه كان في جوفها ، وقال : قل  
تبعت جنازة (٢) .

ويبدو أن الجاحظ لم يكن مقتنعاً بأن تجري عملية إهمال بعض ألفاظ اللغة أو  
كرهها بهذا الشكل اعتماداً على الذوق فقط ، ولذلك نراه يطالب بتقديم الحجة على  
سبب كره هذه الكلمة أو استساغتها قائلاً « وقد كرهوا أشياء ما جاءت في الروايات لا  
تعرف وجوهها ، فرأى أصحابنا لا يكرهونها ، ولا نستطيع الرد عليهم ، ولم نسمع لهم  
في ذلك أكثر من الكراهة ، ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خضت المؤونة ،  
ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصرنا على ظواهر اللفظ دون حكاية العلة ، ودون  
الإخبار عن البرهان ، وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة » (٣) .

## ب- خصائص اللغة :

لقد أدرك الجاحظ بثاقب بصره معظم خصائص اللغة العربية التي تبنّاها علماء  
اللغة وفقهاؤها فيما بعد أمثال ابن فارس والثعالبي والزغشري . مما يحملنا على القول  
إنه واضح بذور فقه اللغة . وترجع خصائص اللغة الى ما يلي :

١- اختلاف اللغات : هناك لغات عديدة ، لكل منها خصائص مميزة ، منها  
اللغة العربية واللغة اليونانية ، واللغة الفارسية ، واللغة الهندية الخ . . . وكان

١ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٢٨ - ٣٣٠ .

٢ - المصدر عنه ، ص ٣٣٥ .

٣ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .

الجاحظ مدركاً حقيقة تعدد اللغات ، وكان يعيش في بيئة امتزجت فيها شعوب الأرض ولغاتهم فكان بوسعه أن يرى الفارسي ويسمع لغته ، ويرى الهندي ويسمع لغته ، ويرى اليوناني ويسمع لغته ، وكثيراً ما تحدث عن هذه الأمم ومزاياها واختلاف لغاتها وتنوع كتبها وثقافتها وعقلياتها .

وبما أن الجاحظ يقول ان اللغة توقيف وليست اصطلاحاً ، وإنها من خلق الله الهما العباد إلهاماً ابتداء من آدم وحواء فكان من الواجب أن يقول بوجود لغة واحدة ، ولكن الواقع يخالف ذلك إذ نجد عدداً لا يحصى من اللغات ، فكيف نعلل هذه الظاهرة ؟

يجيب الجاحظ أن اختلاف اللغات وتعددتها نتج عن اختلاف البيئات التي قطنتها الشعوب . وكما أن البيئة تؤثر في الحيوان والأخلاق ، هكذا تؤثر في اللغة . وهذا ما أقره علم اللغات الحديث ، ولكنه لا ينسجم تماماً مع نظرية الجاحظ التوقيفية . وقد عبر عن رأيه قائلاً : « وقالوا : الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم ، وقد رأينا اختلاف صور الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأماكن ، وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات »<sup>(١)</sup>.

ثم إنه - انسياقاً مع نظريته هذه - يقرر أن العرب في الجزيرة العربية كانت لهم لغة واحدة وأخلاق واحدة بسبب وحدة التربة والهواء والماء . وهو في هذا يخالف علماء فقه اللغة الذين أتوا بعده وذهبوا إلى أن لغة أهل الشمال العدنانيين كانت تختلف قبل الإسلام عن لغة أهل الجنوب القحطانيين . أما هو فيحتج لرأيه قائلاً : « وإذا كان الله عز وجل قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العجم فضلاً عن العرب ، فقحطان وإن لم يكونوا من قومه أحق بلزوم الفرس من سائر العجم ، وهذا الجواب جواب عوام النزارية ، فأما الخواص المخلص فإنهم قالوا : العرب كلهم شيء واحد

١ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٨ .

لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، واللغة واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق ، ومن جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء فهم في ذلك بذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشائيل والمرعى والراية والصناعة والشهرة»<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك انقسمت اللغة العربية الى لهجات دعيت تجوزاً لغات بمعنى لهجات ، منذ العصر الجاهلي . وظلت آثارها ظاهرة بعد ظهور الإسلام على الرغم من غلبة لهجة قريش أو لغة قريش التي بها نزل القرآن . ويفسر الجاحظ سبب هذا الاختلاف في اللهجات في العصر العباسي بأمرين :

الأول : اختلاف اللهجات بين القبائل العربية ، هذا الاختلاف الذي يعود الى العصر الجاهلي . عندما نزحت القبائل العربية الى الأمصار الجديدة خارج تخوم الجزيرة العربية حافظت على لهجاتها : « وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب . ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر »<sup>(٢)</sup>.

الثاني : احتكاك العرب بأبناء الشعوب الأعجمية الذين أدخلوا على العربية ألفاظاً جديدة وصيغاً حديثة وأشاعوا فيها اللهج واللكنة . « ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ولذلك يسمون البطيخ خريز ، ويسمون السميط الرزق (الآجر) ، ويسمون المصوص المزوز (لحم) ، ويسمون الشطرنج الأشرنج ، في غير ذلك من الأسماء . وكذلك أهل الكوفة فإنهم يسمون المسحاة بال ، وبال بالفارسية . ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه ، إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى

١- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ١٧ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٧ .

بلاد النبط وأقصى بلاد العرب . ويسمي أهل الكوفة الحوك البازروج والبازروج بالفارسية ، والحوك كلمة عربية .

وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها مربعة ويسمونها أهل الكوفة الجهارسوك والجهارسوك بالفارسية . ويسمون السوق والسويقة وأزار ، والوازار بالفارسية . ويسمون القثاء خياراً والخيار بالفارسية ، ويسمون المجدوم ويذي ، ويذي بالفارسية <sup>(١)</sup> .

٢ — تعلم اللغة وترجمتها : ان اختلاف اللغات يطرح على الباحث مشكلة تعلمها .

يلاحظ الجاحظ أن اللغات تختلف في صعوبتها ، وأن هذه الصعوبة ترد الى أمور أهمها جهل المتعلم لمدلولات هذه اللغة ، وكثرة كلماتها ، وثقل مخارج حروفها . كما يلاحظ أن من أعون الأعوان على تعلم اللغة فرط الحاجة اليها . فعلى شدة الحاجة الى استعمال اللغة يقبل المرء على تعلمها ويسهل عليه أدراكها <sup>(٢)</sup> .

وبما أن جميع أبناء الأمة الواحدة لا يستطيعون أن يتعلموا لغات الأمم الأخرى ليطلعوا على آثارها وعلومها وآدابها ، وبما أنهم بحاجة الى تلك العلوم والآداب والآثار فقد لجأوا الى الترجمة . وللجاحظ رأي خاص في الترجمة ينبغي الإشارة اليه . يقول أن الكتب الهندية واليونانية والفارسية ترجمت الى العربية . وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ، ومن قرن الى قرن ، ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت إلينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . غير أن الترجمة لم يؤدوا أبداً أفكار الحكماء وحقائق مذاهبهم ودقائق اختصاصاتهم وخفيات حدودهم . ولا يقدر أن يوفيههم حقوقهم إلا المترجمون الذين يشبهون المؤلفين وواضعي الكتب . ولكن متى كان ابن البطريق وابن ناعمة وابن قرة

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧ - ١٨ .

٢ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

وابن فهر وابن هبلي وابن المقفع مثل أرسطو ، ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟

وهناك شرط آخر للترجمة الصحيحة يضعه الجاحظ وهو أن يكون الترجمان أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، الى جانب معرفته بالموضوعات المترجمة وتبحره بها . ونحن نعلم من يتكلم بلسانين يدخل الضيم عليها لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها . وكيف يكون تمكن اللسان منها مجتمعين فيه ، كتمكنه إذا انفرد بالسواحدة . وإنما له قوة واحدة ، فإن تكلم بلغة واحدة استغرقت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات . . . .<sup>(١)</sup>

وهو يرى بحق أن ترجمة الكتب الدينية أعسر من ترجمة كتب الحكمة نظراً لكثرة مجازاتها وتعقيد موضوعاتها وتنوع تأويلاتها<sup>(٢)</sup> . أما الشعر فلا يمكن أن يترجم لأنه متى ينقل الى لغة ثانية يطلو وزنه ويتقطع نظمه ويذهب حسنه ويسقط موضع التعجب فيه<sup>(٣)</sup> .

٣- الترادف في اللغة : ان ظاهرة الترادف في اللغة العربية تلفت النظر ، لا لأن سائر اللغات العالمية خالية من الترادف ، وإنما لأن الترادف بلغ من الكثرة في اللغة العربية ما لا نعهده في لغة أخرى حتى لنجد للجمل والسيف والصحراء والمطر مئات الترادفات . وكان الجاحظ أول من تنبه الى ظاهرة الترادف وحاول أن يعللها وقد عزا سببها الى ثلاثة عوامل هي :

- اختلاف اللهجات أو اللغات باختلاف القبائل في الجاهلية : فقبيلة تسمى الوعاء الذي يطبخ فيه قدراً وأخرى تسميه برمة وثالثة تسميه جفنا . وقبيلة تسمى

١- المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٧٥-٧٦ .

٢- الحيران ، ص ٧٧ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٧٥ .

الطبقة الثانية من البيت غرفة ، وأخرى تدعوها عليه ، وقبيلة تسمى الرانحة طلقاً وأخرى كافوراً وثالثة أغريضاً الخ . . . وعندما وحدت اللغة وسيطرت لهجة فريش لم تندثر الألفاظ التي كانت مستعملة في القبائل وإنما دخلت في اللغة الفصحى كمتراذفات<sup>(١)</sup>.

- دخول الفاظ أعجمية على اللغة العربية على أثر احتكاك العرب بالشعوب الأعجمية في العصر العباسي وبعده وكثير منها له مقابل في العربية ، فمثلاً شاعت ألفاظ مثل الخريز والرزدق والمزود والأشترنج للدلالة على البطيخ والسميط والمصوص والشترنج الموجودة في العربية<sup>(٢)</sup>.

- سوء فهم الألفاظ : ان كثيراً من المترادفات تختلف في معانيها ، ولكن الناس لا يدققون فيها ولا ينتبهون إلى التمايز بينهما . مثلاً : السغب والجرج ، فالجرج لا يكون إلا في حال الفقر المدفع ، والسغب لا يكون إلا في حال القدرة والسلامة . وكذلك الأمر بالنسبة إلى المطر والغيث والأبصار والأسماع . والجاري على أفواه الناس يدل على أنهم لا يفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال<sup>(٣)</sup>.

٤ - مخارج الحروف : من المعلوم أن اللغة تتألف من حروف . ولكن اللغات تختلف في عدد حروفها ، وقد لاحظ الجاحظ نقلاً عن الأصمعي أنه ليس للروم ضاد ولا للفرس تاء ولا للسريان ذال . كما لاحظ أن لكل لغة حروفاً تدور في أكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين واستعمال الجرارقة للعين<sup>(٤)</sup>.

درس الجاحظ مخارج الحروف عند الحيوان والإنسان . وقال ان الحيوانات لو كان لها مخارج كالإنسان لاستطاعت أن تتكلم . لقد نبهنا للقطة ثلاثة أحرف هي القاف

١- البيان والتبيين ج ١ ، ص ١٧ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٧-١٨ .

٣- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٨ .

٤- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٤٨ .

والطاء والألف وكان ذلك هو صوتها فسموها بصوتها . والذي تهباً للشاة قولها : ما . وتهباً للكلب عى عى ، وووو وأشبه ذلك وتهباً للغراب القاف ، وتهباً للهازر أو العندليب الوان آخر ، وتهباً للبيغاء من الحروف أكثر ، فإذا انتهينا الى السنانير وجدنا انه قد تهباً لها من الحروف العديد الكثير ، يدل على ذلك تجاوب السنانير وتوعد بعضها بعضاً في الليل ، فإذا أحصينا ما نسمعه منها نرى في « عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجات والعقول والاستطاعات ثم الفتها لكنت لغة صالحة الموضوع متوسطة الحال » (١).

أما عند الإنسان فالمخارج أكثر نوعاً وعدداً ، ولكن الطفل يشبه الحيوان في افتقاره الى مخارج الحروف . فهو يسمي الكلب وو أو عو ، ويسمي الشاة ماه ، ويخرج الكلمات من شفتيه ، ولذلك كان أول ما يتلفظ به ماما وبابا (٢) . ومخارج الحروف عند البالغ تتأثر بوضعية اللسان والاسنان والشفاه والأنف . فالميم والباء خارجان عن عمل اللسان وداخلان في عمل الشفاه ، والضاد لا تخرج إلا من الشدق الأيمن إلا أن يكون المتكلم أعسر يسراً (٣).

ثم أن حروف اللغة الواحدة في اجتماعها بالكلمات والجمل يتنافر بعضها ويأتلف بعضها الآخر ، فالحروف التي تقترب مخارجها تتنافر ، والحروف التي تتباعد مخارجها تأتلف . وقد لاحظ الجاحظ أن الجيم لا تقارن الطاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم أو تأخير ، وأن الزاي لا تقارن الطاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير (٤).

٥ - التصغير : تمتاز اللغة العربية بصيغة التصغير الذي يتم بزيادة باء بعد

١ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤٧ .

٣ - المطدر عنه ، ج ١ ، ص ٤٧ .

٤ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥١ .

الحرف الثاني من الاسم مع ضم الحرف الأول وفتح الحرف الثاني . ولا يفيد التحفير دائماً مثل بخيل ونذيل ، وإنما يفيد في الأغلب - حسب رأي الجاحظ طبعاً - الرقة والشفقة مثل أخي وغريب وجعيل وسعيد وعبيد . ثم ان التصغير يكون كريها كما في مصحف ومسجد ، وقد يكون التصغير بنيسة لا تتغير مثل الحميا والقطيعا والسميرا<sup>(١)</sup>.

٦ - الأسماء : ان الأسماء التي تطلق على الأشياء والناس والحيوانات ظاهرة لغوية واجتماعية في آن واحد . وكان العرب يسمون بكلب وحمار وحجر وجمل وحنظلة وقرن الخ . . . وكل هذه حيوانات . فكيف نعلل ذلك ؟ يقول الجاحظ ان العرب سما أولادهم بأسماء الحيوانات على التفاضل بذلك : « فكان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنساناً يقول حجراً ، أو رأى حجراً سمي ابنه به وتفاضل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر ، وانه يحطم ما لقي . وكذلك ان سمع إنساناً يقول ذنباً أو رأى ذنباً تأول فيه الفطنة والحب والمكر والكسب . وان كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد . وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب وغير ذلك »<sup>(٢)</sup>.

كذلك نجد العرب يسمون بأسماء الأشياء كالجليل والسند والطود والشمس والقمر والكوكب وسلمى وأبان وجعفر الخ . . . فما هو تفسير ذلك ؟ يجيب الجاحظ أن هذه التسميات إنما عمدوا إليها على جهة اللقب أو على جهة المديح ، وهناك رأي يقول ان الأشياء كالجبال مثلاً كان لها أسماء تركت لثقلها وأطلق عليها أسماء الناس كجبل سلمى وجبل رضوى<sup>(٣)</sup>.

ويشير الجاحظ الى العدوى والتقليد في الأسماء ، ويرى أن الناس إذا رأوا

١ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٣٢٤ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٣٢٥ .

عظاءهم وملوكهم وعلماءهم قد تسموا باسم تنابعت العرب عليه فأطلقوه على أولادهم تيمناً<sup>(١)</sup>.

ويخلص الجاحظ الى نتيجة من بحثه في أصل الأسماء ملخصها أن الأسماء ضروب : « منها شيء أصلي كالسما والأرض والهواء والماء والنار ، وأسماء أخرى مشتقات منها فيسمي ابنه عميراً ، ويسمي عمير ابنه عمران ، ويسمي عمران ابنه معمرأ . وربما كانت الأسماء بأسماء الله عز وجل مثل ما سمي الله عز وجل أبا إبراهيم آزر وسمى إبليس بفاسق . وربما كانت الأسماء مأخوذة من أمور تحدث في الأسماء مثل يوم العروبة سميت في الإسلام يوم الجمعة واشتق له ذلك من صلاة يوم الجمعة »<sup>(٢)</sup>.

٧ - المجاز في اللغة : المجاز هو استعمال الكلمة في غير المكان الذي وضعت له أصلاً ، أو هو اعطاء الكلمة معنى آخر غير معناها الأصلي . والمجاز كثير في اللغة العربية ، وإذا كان البلاغيون قد اعتبروه وجهاً من وجوه الجمال ، فإن المتكلمين شكوا فيه كثيراً لأنه أوقعهم في مآزق حرجة وسبب لهم متاعب جمة .

درس الجاحظ هذه الناحية اللغوية وأعطى أمثلة توضح مفهوم المجاز عنده ، منها كلمة أكل : معناها الأساسي تناول الطعام . ولكنها اتخذت معنى أحرق كما في الآية ﴿ الذين قالوا ان الله عهد إلينا أن لا نؤمن برسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾<sup>(٣)</sup>.

واتخذت معنى النحت والنقص كما في قول أوس بن حجر :

فأشرط فيها نفسه وهو معصم	والقى بأسباب له وتركلاً
وقد أكلت أظفاره الصخر كلما	تعابا عليه طول مرعى توصلاً <sup>(٤)</sup>

١ - المصدر عنه ، ص ٣٢٦ .

٢ - الحيوان ، ص ٣٢٧ .

٣ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

٤ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

وصار لها معنى التحول الى جوهر الأرض كما في قول مرداس بن أدية :

وأدت الأرض في مثل ما أكلت      وقربوا لحساب القسط أعمالى<sup>(١)</sup>

وصار لها معنى الأخذ من أجزاء الخمر كما في قول الشاعر :

أكل الدهر ما تجسم منها      وتبقى مصاصها المكنوناً<sup>(٢)</sup>

واتخذت معنى الاغتيال كما في قوله تعالى : ﴿ أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾<sup>(٣)</sup>.

ويضرب الجاحظ مثلاً آخر هو معنى كلمة ذوق . أن معناها الأصلي أخذ قليل من الطعام ، ولكنها استعملت مجازاً بمعنى المبالغة في العقوبة كقول الرجل لعبده الذى أوجعه ضرباً : ذق ، وكيف ذقته ، وكيف وجدت طعمه<sup>(٤)</sup> . واتخذت معنى الاختبار والمعرفة في شعر يزيد بن الصعق حيث يقول :

وإن الله ذاق حلوم قيس      فلما ذاق خفتها قلاها

رأها لا تطيع لها أميراً      فخلاها تردد في خلاها

ويرى الجاحظ أن العرب يسرفون في المجازات لأنهم يثقون بفهم أصحابهم عنهم حتى يتعمدوها تعمداً في كلامهم ، ويعتبرون ذلك فضيلة فيهم . وقد عبر عن فكرته هذه بقوله : « وللعرب اقدام على الكلام ، ثقة لفهم أصحابهم عنهم ، وهذه أيضاً فضيلة أخرى . ولما جوزوا كقولهم أكل وإنما عصى ، وأكل وإنما أفنى ، وأكل وإنما أحال ، وأكل وإنما أبطل عينه ، جوزوا أيضاً أن يقولوا : ذقت ما ليس بطعم ، ثم قالوا : طعمت لغير الطعام . وقال العرجي :

وإن شئت حرمت النساء سواكم      وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً<sup>(٥)</sup>

١ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٢٥ .

٢ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٢٥ .

٣ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٢٧ .

٤ - الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨ .

٥ - المصدر عنه ، ج ٥ ، ص ٣٢ .

٨ - الاشتقاق : أولع الجاحظ بالاستطرادات اللغوية فكان لا تمر به كلمة غريبة أو ذات اشتقاقات لغوية إلا وتوقف عندها وراح يقلبها ظهراً لبطن وإلى كل جهة مستقصياً معانيها . وكثيراً ما ينسب ما يقول إلى أحد اللغويين والرواة كابن زيد الأنصاري والأصمعي . ولنذكر مثلاً يبين طريقته في دراسة الاشتقاق اللغوي هو كلمة كلب التي أورد حولها ما يلي : ضرو : يقال للكلب الضاري على الصيد ضرو ، وللكلبة ضروة ، وكتب ضار ، وكتاب ضراء ، وقد ضربت أشد الضراوة . ومنه قيل : أناء ضار . وقال عمر رضي الله عنه : إياكم وهذه المجازر فإن بها ضراوة كضراوة الخمر<sup>(١)</sup> .

والناس سموا الكلب وكلاب وكليب وأكلب ومكاليب ومكالبه . وقد قالوا : كلب الماء ، وكتب الرحي ، والضبة التي في الرحل يقال لها الكلب . والكلب الخشبة التي تمنع الحائط من السقوط وتشخص في القناطر والمسنيات . والكلب الذي في السماء ذو الصور . ويقال : داء الكلب ، وقد اعتراه في الطعام كلب . وقد كلب عليهم في الحرب . « ودماء القوم للكلبي شفاء » . ومنه الكلبة والكلبتان والكلاب ، والكلوب ، ثم المكلب . وهذا مختلف ومشتق من ذلك الأصل . ومنه علويه كلب المطبخ ، وحموية كلب الجن<sup>(٢)</sup> .

ويقال : قزح الكلب ببوله يقزح قزحاً إذا بال . ويقزح ببوله : حين يبول . ويقال شجر الكلب يشغر إذا رفع رجله بال أو لم يبيل . ويقال شغرت بالمرأة أشغرها شغراً إذا رفعت رجلها للنكاح . ويقال عاظل الكلب معاظلة ، يعني السفاد<sup>(٣)</sup> .

ويقال بصبص الجرو وفقح وجصص إذا فتح عينيه شيئاً . وصاصاً إذا لم يفتح عينيه . ولذلك قال عبد الله بن جحش والسكران بن عمرو للمسلمين بيلاد الحبشة :

١ - المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

٢ - المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

٣ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

إنا فتحنا وصبأصاتم . . ويقال لوليد الأسد جرو وإجراء وجراء وهي لجميع السباع .  
ويقال له خاصة شبل والجمع أشبال وشبول<sup>(١)</sup> .

ولو أحصينا ما ورد في كتاب الحيوان فقط من اشتقاقات لغوية لاجتمع لدينا كتاب في فقه اللغة يشبه كتاب الخصائص لابن جني .

٩ - تصويب اللغة : إن ظاهرة الأخطاء اللغوية التي يرتكبها من يتكلمونها أو يكتبونها استأثرت باهتمام الجاحظ كما استأثرت باهتمام علماء اللغة بعده ، فراح يراقب الناس وأخطاءهم أثناء الكلام كما مد بصره لى ما قبل عصره فوجد هذه المشكلة قد نر قرننا منذ العصر الأموي . وقد درس هذا الموضوع بتفصيل في البيان والتبيين<sup>١</sup> .

ما هو السبب في هذا التشويه في اللغة ؟ يقول الجاحظ ان هذا التشويه بأشكاله المختلفة من لحن ولكنة : وغيرهما يعزى الى اختلاط العرب بالعجم وسإعهم لغات مباينة للعربية الفصحى مما أفسد لغتهم الأم<sup>٢</sup> فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والملاحون والمغرب ، كله سواء ، وكله بياناً . وكيف يكون ذلك بياناً ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسإعاه للفساد من الكلام ، لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذى فينا<sup>(٢)</sup> .

أن العرب الذين لم يخالطوا الأعاجم في الأمصار ، وظلوا مقيمين في البوادر ، وفي قلب الجزيرة العربية ، حافظت لغتهم على سلامتها ، ولم يعترها أى تشويه . ولذلك كان اللغويون يجتربون لغة الأعراي ومدى صحتها إذا أسمعوه كلاماً ملحوناً مثل : ذهب الى أبو زيد ورأيت أبي عمرو . فمتى رآوه يفهم هذا وأشباهه برجوه ولم يسمعو فيه<sup>٣</sup> لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان ،

١ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١٢ .

لأن تلك اللغة انها إنقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجزيرة ، ولقد الخلطاء من جميع الأمم . . .»<sup>(١)</sup>.

أما القرويون وأهل الأمصار فقد فشا فيهم اللحن حتى لم ير أبو العاص قروياً قط لا يلحن في حديثه وفيما يجري بينه وبين الناس إلا ما تفقده من أبي زيد النحوي ومن أبي سعيد المعلم<sup>(٢)</sup>.

أما الأعراب فظلوا يتكلمون العربية على السليقة محافظين على صحتها وفصاحتها دون معرفة بالضوابط أو القواعد النحوية والصرفية . وما يدلنا على ذلك ما حكاه الجاحظ عن الأعرابي الذي سئل : إتهمز إسرائيل ؟ قال : إني أذن لرجل سوء . فقيل له أتبحر فلسطين ؟ قال : إني إذن لغوي<sup>(٣)</sup>.

وكذلك أشار أبو عثمان الى جهل الأعراب بالنحو مراراً . فهو يروي خبر ابن بشير مع أعرابي يدعى المفضل العنبري . قال أبو المفضل : إني عثرت البارحة بكتاب وقد التقطته ، وهو عندي ، وقد ذكروا أن فيه شعراً ، فإن أردته و هبته لك . قال ابن بشير : أريده ان كان مقيداً . قال : والله ما أدري أمقيد هو أم مغلول<sup>(٤)</sup>.

وفي باب اللحن يسرد الجاحظ أخبار الذين يلحنون ويلكنون في كلامهم منذ العصر الأموي حتى عصره . منهم عرب ومنهم أعاجم . منهم سادة ومنهم عامة ، منهم علماء ومنهم فقهاء . يحدثنا مثلاً عن زياد ابن أبيه الذي أرسل ابنة عبيد الله الى معاوية فكتب اليه معاوية بعد سماع كلامه : « ان ابنك كما وصفت ، ولكن قوم من لسانه » . وكان عبيد الله هذا يشكو من اللكنة لأنه نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة ،

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١٣ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

٣ - الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٨ .

٤ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١٣ .

وكان زياد قد تزوجها من شيوخه الأسواري ، وكان قال مرة : « افتحوا سيوفكم »  
يريد سلوا سيوفكم .

فقال يزيد بن مفرغ :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضمت وكل أمرك للضياع

ولما كلمه سويد بن قحافة في الهذات بن ثور ، وقال له : يا ابن البظراء ! قال  
سويد : كذبت على نساء بني سدوس . قال : أجلس على أمت الأرض . قال سويد  
ما كنت أعلم أن للأرض استأ<sup>(١)</sup> .

ويحدثنا أيضاً عن الحن بشر بن مروان وغلّامه في حضرة عمر بن عبد العزيز .  
قال بشر لغلّامه : أدع لي صالحاً . فقال الغلام : يا صالحاً . فقال له بشر : الق منها  
ألف ، قال له عمر : وأنت فزد في ألفك ألفاً<sup>(٢)</sup> .

---

١ - البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

٢ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

## الفصل الثاني

### عناصر البيان وعيوبه

عرض الجاحظ نظريته البيانية في كتاب « البيان والتبيين » وفي مقدمة كتاب الحيوان ، ونشر بعض آرائه حول البيان في تضاعيف سائر كتبه ورسائله . وقد اتخذ البيان عنده مفهوماً واسعاً ، فشمّل عناصره ، وعيوبه .

#### المسألة الأولى : عناصر البيان :

حدد الجاحظ البيان قائلاً إنه « الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي » <sup>(١)</sup> . يتضح من هذا التحديد الجامع وجود عنصرين أساسيين في البيان هما الدلالة والمعنى .

أ- المعنى :

لا يقتصر المعنى على الأفكار التي تخطر في ذهن وإنها ينطوى أيضاً على الصور التي تولد في المخيلة ، والمشاعر التي تختلج في الصدر ، والحاجات والميول التي تجيش

---

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٥ .

في النفس . وقد عبر الجاحظ عن هذا المحتوى الواسع للمعنى قائلاً : « قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني : المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمخلتجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى ما يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره » (١) .

ان أهم خاصة للمعاني ، كما يستفاد من كلام الجاحظ ، الخفاء . إنها تبدو معدومة لشدة استتارها على الرغم من وجودها داخل الإنسان .

والخاصة الثانية هي كونها مجهولة من جميع الناس عدا صاحبها . هذه الخاصة تنتج عن الخاصة السابقة لأن كل خفي مجهول .

والخاصة الثالثة للمعاني هي كونها مبسطة الى غير نهاية وممتدة الى غير غاية ، بينما نجد الألفاظ المعبرة عنها على عكس ذلك معدودة محدودة محصلة (٢) . ان الجاحظ يكشف النقاب عن الحقيقة التالية وهي كون المعاني يولدها العقل البشري بدون حدود ، وهذا هو السر في تقدم الإنسان وترقي العلوم ، بينما الألفاظ التي تعبر عن المعاني محدودة معدودة محصورة في المعجم . غير أن الإنسان استطاع أن يجد وسيلة للتغلب على هذا الخلل الحاصل بين معادلة اللغة والمعاني وهي اختراع ألفاظ جديدة تعبر عن المعاني المتكررة . ومع ذلك لا بد من الاعتراف بأن الألفاظ تبقى عاجزة الى حد كبير عن استيعاب المعاني وحصرها .

وهناك حقيقة أخرى الملح إليها أبو عثمان وهي كون المعاني غير محصلة ومكتسبة وكون الألفاظ مكتسبة يأخذها المرء بالسمع والتعلم . وهو يشير بذلك الى المعاني

---

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٥ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٥-٥٦ .

الجديدة التي يتكرها الإنسان بالإضافة الى المعاني التي يتلقاها عن الآخرين .

ب- الدلالة :

الدلالة هي الأداة التي يستعملها المرء للتعبير عن معانية مهما كان جنسها ونوعها . وقد جعلها الجاحظ خمسة أصناف هي اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال أو النصب ، وهي لا تزيد ولا تنقص بنظره وتختلف عن بعضها البعض إذ لكل منها ميزة خاصة بها ، ولكنها جميعاً ذات غاية واحدة هي الكشف عن المعاني بالجملة ، ثم عن حقائقها في التفسير وعن عناصرها وطبقاتها<sup>(١)</sup> .

١- الإشارة : هي الحركة الصادرة عن الجوارح أو عن شيء آخر والتي تعبر عن مقاصد الإنسان . وتكون الإشارة بواسطة اليد أو الرأس أو العين أو الحجاب أو المنكب أو الثوب أو السيف<sup>(٢)</sup> . ان الإشارة بالطرف والحجاب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعوونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس عن بعض ويخفونها عن المجلس وغير المجلس . . وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجراً أو مانعاً رادعاً ، وقد يكون وعيداً وتحذيراً<sup>(٣)</sup> . ويستشهد أبو عثمان بالأشعار التي تؤيد ما يذهب اليه بصدد الإشارة ، منها البيتان التاليان اللذان لم يسم صاحبهما .

العين تبدي الذي في نفس صاحبها	من المحبة أو بغض إذا كانا
والعين تنطق والأفواه صامئة	حتى ترى من ضمير القلب تبياناً <sup>(٤)</sup>

والإشارة تشارك اللفظ وتعبئه وترجم عنه ، وكثيراً ما يستعاض بها عن اللفظ ،

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٦ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٦-٥٧ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٧ .

٤- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٨ .

ويلجأ إليها في الأمور الدقيقة ، ولولاها لم يفهم الناس معنى خاص الخاص <sup>(١)</sup> .  
ولكنها لا تخرج عن كونها حركة مصطلحاً عليها أو صورة معروفة أو حلية موصوفة <sup>(٢)</sup> .

٢ - الخط : الخط هو وسيلة الكتابة وتدوين المعارف وحفظها على الأجيال .  
ولهذا السبب كان أفضل من اللفظ لانه أبقي أثراً بيننا اللسان أكثر هذراً . ثم أن  
استعمال القلم يحض ذهن على تصحيح الكتابة بينما يصعب ذلك على اللسان .  
والقلم مطلق في الشاهد والغائب والغابر والحاضر والمستقبل . والكتاب يقرأ في كل  
زمان ومكان ، بينما اللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه الى غيره <sup>(٣)</sup> .

ويمضي الجاحظ في التنويه بأهمية الكتاب أو الكتب فيجعل الكتاب « نعم  
الذخر والمعقدة ونعم الجليس والعدة ، ونعم النثرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ،  
ونعم الجليس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة . . . » <sup>(٤)</sup> .

ان الكتب هي التي تحفظ العلم من النسيان وتنقله من جيل الى جيل ، وهي  
التي تمكن الإنسان من تسجيل أفكاره <sup>(٥)</sup> . ثم ان العهود والسجلات والصكوك  
والدواوين والعقود التي يحرص عليها الناس وتتم بها معاملاتهم وتستقيم شؤونهم إنما  
تعتمد في بقائها على الخط <sup>(٦)</sup> .

وقديماً كان الناس يعملون الكتابة حفرأ في الصخور ونقشأ في الحجارة وخلقة  
مركبة في البنيان ، والآثار القديمة خير مثال على هذا الضرب من الكتاب <sup>(٧)</sup> .

ويمكن تحديد الخط بأنه مجموعة حروف مصورة بالمداد على القرطاس يعرفها

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٧ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٥٧ .

٣ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٥٨ .

٤ - الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٨ .

٥ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٤٧ .

٦ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٦٩ .

٧ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٦٨ .

الإنسان بالتكرار كما يعرف الألفاظ لكثرة ترديدها على الاسماع . ويذكر أبو عثمان  
أخيراً عدة أنواع للخط أهمها الجزم والمسد المنمنم <sup>(١)</sup>.

٣- العقد : العقد هو الحساب نفسه . وله أهمية عظيمة في حياة الناس ، وعليه  
ترتكز علوم جليلة الشأن مثل علم الرياضة وعلم الفلك . وله علاقة بأمور الدين إذ  
«لولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب  
في الآخرة» <sup>(٢)</sup> . وبالحساب تعرف منازل القمر وحالات المد والجزر ، وكيف تكون  
الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف  
تكون تلك المراتب والأقدار <sup>(٣)</sup>.

٤ - النصفة : هي الحال التي تبين وضعية الإنسان أو الشيء دون استعانة  
باللفظ أو الإشارة . فالمخلوقات تدل على الخالق وتقدم لنا أروع برهان على وجود  
الله : « وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وجامد  
ونام ، ومقيم وظاعن ، وزائد وناقص . فالدلالة التي هي في الموات الجامد كالدلالة  
التي هي في الحيوان الناطق . فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء معربة من  
جهة البرهان . ولذلك قال الأول : سل الأرض فقل من شق أنهارك وغرس أشجارك  
وجنى ثمارك ، فإن لم نجيبك حواراً أجابتك اعتباراً » <sup>(٤)</sup>.

وترتكز النصفة على المبدأ القائل أن الشيء متى دل على معنى فقد أخبر عنه وإن  
كان صامتاً ، وأشار إليه وإن كان ساكناً <sup>(٥)</sup>.

إن النصفة أو الحال دليل لا يستدل ، ولكن يمكن المستدل وهو الإنسان من

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٧٠-٧١.

٢- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٥٩.

٣- الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٧.

٤- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٥٩.

٥- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٠.

نفسه ويقوده عندما يفكر فيه إلى « معرفة ما استخزن من البرهان وخشي من الدلالة وأودع من عجب الحكمة . أن الأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة ومعربة من جهة الشهادة . على أن الذي فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره وناطق لمن استنطقه ، كما خبر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال ، وكما ينطق السمن وحسن النضرة عن حسن الحال » (١) .

٥- اللفظ : إنه أهم أدوات البيان ، وهو مادة الأدب ، وعنده توقف الجاحظ ملياً يتفحصه ويدرسه .

واللفظ مجموعة أصوات تخرج من الفم بفضل حركات اللسان والفكين والشفيتين تأتلف مقاطع ثم كلمات ثم جملاً منشورة أو موزونة . وقد حدده الجاحظ على الشكل التالي : « والصوت هو آلة اللفظ ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف . ولن تكون حركات اللسان لفظاً ، ولا كلاماً منشوراً ولا موزوناً إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف » (٢) .

غير أن هذا التعريف ناقص لأنه لم يشر إلى دلالة اللفظ على المعنى . إن مهمة اللفظ الأولى احتواء المعاني وحصرها في قوالب وتجسيدها ، وبذلك يتقي المرء شرودها وإضمحلها ، كما يستطيع أن ينقلها إلى الغير عبر المكان والزمان . لم يكن الجاحظ غافلاً عن هذه المهمة وقد أشار إليها قائلاً : « وإنما يحكي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها . وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم وتجلبها للعقل ، وتجعل الخفي منها ظاهراً والغائب شاهداً والبعيد قريباً . وهي التي تلخص الملتبس وتحل المتعقد وتجعل المهمل مفيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحيثي مألوفاً ، والغفل موسوماً ، والموسوم معلوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى » (٣) .

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤ .

٢- البيان والبيان ، ج ١ ، ص ٥٨ .

٣- الحيوان ، ج ٦ ، ص ٨ .

ان علاقة اللفظ بالمعنى وثيقة من حيث الكم والكيف والنوع : تكثر الألفاظ عندما تكثر المعاني ، وتقل الألفاظ عندما تقل المعاني ، وتشرف الألفاظ عندما تشرف المعاني ، وتسخف الألفاظ عندما تسخف المعاني . وكلما كانت المعاني مشتركة وملتبسة احتاجت للتعبير عنها لى ألفاظ أكثر ، بينما لا تحتاج المعاني المفردة إلا الى ألفاظ قليلة <sup>(١)</sup>.

يشبه الجاحظ الالفاظ بالشوب ، ويشبه المعنى بالشخص الذى يرتدي ذلك الشوب . وكما ينبغي أن يكون الشوب مفصلاً حسب جسم صاحبه هكذا ينبغي أن يفصل اللفظ على قدر المعنى الذى يعبر عنه « . . . والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألست الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها وأريت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وحسب ما زخرفت ، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض وصارت المعاني في معنى الجوارى » <sup>(٢)</sup>.

وبما أن اللفظ يدل على المعنى وجب أن يكون واضحاً مفهوماً من القارئ والسامع لأن غاية المتكلم الافهام وغاية السامع الفهم ، وقد ركز الجاحظ على هذه الخاصة في الفن أي خاصة الوضوح فذكرها مراراً في كتبه . فسمعه يقول « والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير . . . » <sup>(٣)</sup> ويردد هذه الفكرة في مكان آخر قائلاً « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه » <sup>(٤)</sup>.

## المسألة الثانية : عيوب البيان :

تعري البيان عيوب يهتم الجاحظ بدراستها أهمها الحبسة واللغثة واللكنة واللمحن .

١- المصدر عنه ، ج ٦ ، ص ٨ .

٢- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٥ .

٤- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٠ .

والحبسة عقدة تصيب اللسان ونحده من قدرته على التعبير جيداً وعن إفهام الآخرين . وهي تبدو بشكل وقفات قاهرة أثناء الكلام وكأن ملقظاً أمسك باللسان ومنعه عن الحركة بضع ثوان ثم أطلقه من جديد ليستأنف عمله . ويذكر مثلاً على الحبسة النبي موسى الذي كان يشكو من عقدة في لسانه . وقد طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون رداً يصدقه ، ويصف الجاحظ تلك الحبسة التي كان يعاني منها قائلاً : « ويضيق صدري ولا ينطق لساني ، وإننا سأل ربه ذلك لأن أخاه هارون كان أفصح منه لساناً ، ولأنه يرغب في إفهام الناس واستمالتهم إليه » (١) .

أما اللثغة فأكثر انتشاراً بين الناس ، وهي تقوم بإبدال حرف بآخر لأن لسان صاحبها لا يحسن لفظ الحرف الذي تجنبه . وقد أحصى الجاحظ الحروف التي يلثغ بها فإذا أشهرها أربعة هي : القاف والسين واللام والراء .

- اللثغة بالسين تقوم بإبدال السين بالثاء كقولهم لأبي يكسوم أبي يكثوم ، وكما يقولون بثرة إذا أرادوا بسرة ، وبثم الله إذا أرادوا بسم الله .

- اللثغة بالقاف : يجعل صاحبها القاف طاء ، فإذا أراد أن يقول : قلت له ، قال : طلت له . وإذا أراد أن يقول : قال لي ، قال : طال لي .

- اللثغة باللام : وتكون إما بإبدال اللام ياء فيقول صاحبها اعتيت بدل قوله إعتلت ، ويقول حمي بدل قوله حمل . وإما بإبدال اللام كافاً كالذي عرض لعمر أخيه هلال ، فإنه إذا أراد أن يقول : ما العلة في هذا قال : مكمكة في هذا .

- اللثغة بالراء : ان عدد هذه اللثغة كبير ، ويعرض لها أربعة أحرف فمنهم من إذا أراد أن يقول عمر قال عمي فيجعل الراء ياء . ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو قال عمغ فيجعل الراء غيناً . ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو قال عمد فيجعل الراء ذالاً . . . ومنهم من يجعل الراء غيناً معجمة (٢) .

١ - المصدر منه ، ج ١ ، ص ٨ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

أما اللكنة فقد عرفها أبو عثمان بأنها إدخال حروف العجم في حروف العرب بحيث تجذب لسان المتكلم العادة الأولى إلى المخرج الأول . وتشيع اللكنة بين العجم الذين يتعلمون العربية ويتكلمونها كباراً . ومن الأمثلة التي يقدمها الجاحظ على اللكنة ذلك السندي الذي جلب كبيراً لا يستطيع ألا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام في عليا تميم وفي سقلى قيس وبين عجز هوازن حسين عاماً . وكذلك النبطي القح خلاف المغلاق السذي نشأ في بلاد النبط لأن النبطي القح يجعل الزاي سيناً فإذا أراد أن يقول زورق قال سوزق . ويجعل العين همزة ، فإذا أراد أن يقول مشتعل قال مشتئل (١) .

أن هذه اللكنة التي تعترى الأعاجم والعرب الذين ينشأون مع الأعاجم تختلف عن اللكنة التي تعترى الصبيان إلى أن ينشأوا ، وتختلف أيضاً عما يعترى الشيخ الهرم الحاج المسترخي الحنك والمرفق اللثة (٢) .

ويسوق الجاحظ شواهد على اللكنة أصابت خطباء كباراً وقواداً وولاة وناساً من عامة الشعب . منهم زياد الأعجم الذي يجعل السين شيئاً والطاء تاء فيقول : فتى زاده الشلتان بدل قوله : فتى زاده السلطان . ومنهم عبيد الله بن زياد والي العراق في العصر الأموي الذي قال لهاني بن قبيصة : أهروري سائر اليوم ، بدل أحروري سائر اليوم . ومنهم أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية ، كان إذا أراد أن يقول : قلت لك قال : كلت لك . ومنهم مولى زياد المدعو فيل ، فانه قال مرة لزياد ابن أبيه : إهدوا لنا همار وهش ، يريد : حمار وحش . فقال زياد : ما تقول ويلك ؟ قال : إهدوا لنا أيرا ، يعني عيراً . فقال زياد : الأول أهون ! وفهم ما أراد (٣) .

أما اللحن فهو الخطأ في تحريك حروف الكلمات بين ضم وفتح وكسر وجزم ،

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٢ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٥٢-٥٣ .

٣- البيان والتهيين ، ج ١ ، ص ٥٣-٥٤ .

وفي القواعد اللغوية . فهو ليس عيباً في اللفظ بل في اللغة . وقد بدأ اللحن يفشو منذ العصر الأموي على أثر احتكاك العرب بالأعاجم ، وأدى إلى نشوء لهجات مشوهة لا تزال حتى اليوم شائعة في الأقطار العربية . وقد أورد الجاحظ أمثلة كثيرة على اللحن منها : قيل لأبي حنيفة : ما تقول في رجل أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله ، انقيده به ؟ قال : لا ولو ضرب بابا قيس . وقال يوسف بن خالد السمطي لعمرو بن عبيد : ما تقول في دجاجة ذبحت من قفاها ؟ قال له عمرو : أحسن . قال : من قفاؤها . قال عمرو : ما عناك بهذا ، قل من قفاها واسترح . وكان يوسف يقول : هذا أحر من هذا . يريد : هذا أشد حرمة من هذا <sup>(١)</sup> .

ثم يلاحظ الجاحظ ضرورياً من العي كالتمتمة والفاأفة واللفف والحكلة والعقلة والنحنحة والسعلة .

فالتتمام هو الذي يتتبع لسانه في لفظ الفاء . واللاف هو الذي يدخل بعض كلامه في بعض .

أما الحكلة فهي نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معاني صاحبها إلا بالاستدلال . بينما تكون العقلة أخف وطأة ، وهي قرينة من الحبسة ويقال للمرء : في لسانه عقلة إذا تعقل عليه الكلام <sup>(٢)</sup> .

وأما النحنحة والسعلة فليستا خطأ في اللفظ ذاته وإنما هما اضطراب في حركة التنفس تسيء إلى عملية الكلام ومواصلته . والخطيب الذي تعرض له النحنحة والسعلة لينتفع سحره ويكبر زنده وينبوه حده <sup>(٣)</sup> .

ان ملاحظة الجاحظ الدقيقة للعلل التي تشوب اليسان والتي نكلمنا عليها دفعتة إلى أبعد من ذلك : إلى دراسة العلاقة بين هذه العلل من جهة والأعضاء المشتركة في اللفظ كالشفاء والاسنان واللسان .

١- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٣١ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٣٣ .

فوجد أن الشفة الفلحاء أو العلماء تؤثر في اللفظ الى جانب الاسنان . وذكر ما قاله عمر بن الخطاب للنبي بشأن سهيل بن عمرو الخطيب : يا رسول الله : انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . ويعلق الجاحظ على الخبر قائلاً : وإنما قال ذلك لأن سهيلاً كان أعلم من شفته السفلى <sup>(١)</sup>.

ثم ان سقوط بعض الاسنان يسيء الى اللفظ ، وفي مثل هذه الحالة من الخير إستئصالها جميعاً ، « فقد صحت التجربة وقامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها وخالف أحد شطريها الشطر الآخر . وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدتهم الناس بعد أن سقطت أسنانهم جميعاً وبعد أن بقي منها الثلث أو الربع » <sup>(٢)</sup>.

ويعتبر اللسان أداة البيان الرئيسية . وتتوقف على سلامته سلامة البيان . ويرى الجاحظ أن حجم اللسان يؤثر في جودة التلفظ فكلما ازداد حجم اللسان بحيث يملأ الفم ولا يترك خلاء لمرور الهواء كان أوفى بالغاية . وقد شرح فكرته هذه في علاقة اللسان بالبيان بقوله : « وقال أهل التجربة : إذا كانت في اللحم الذى فيه مفارز الأسنان تسمير وقصر سمك ذهبت الحروف وفسد البيان . وإذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئاً يقرعه ويصكه ولم يمر هواء واسع المجال ، وكان لسانه يملأ جوبة فمه ، لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفر وجر المحتمل . ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق ، فإنه زعم في كتاب الحيوان أن الطائر والسبع والبهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين وأحكى لما يلقي ولما يسمع كنعحو الببغاء والغداف وغراب البين وما أشبه ذلك » <sup>(٣)</sup>.

ويستشهد على صحة ما يذهب اليه من أمر اللسان وكبره وتأثير ذلك في اللفظ

١ - البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤٤ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٤٦ .

٣ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٤٦ - ٤٧ .

بأخبار وأحاديث نبوية . منها قول كعب بن جعيل ليزيد بن معاوية حين أمره بهجاء الأنصار : « أرادي أنت إلى الكفر بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووه . ولكني سأدلك على غلام في الحمي كافر كأن لسانه لسان ثور، يعني الأخطل . ويدل على ذلك قول حسان بن ثابت حين قال النبي عليه السلام : ما بقي من لسانك ؟ فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أرنبته ثم قال : والله لو وضعته على شعر لحلقه ، أو على صخر لفلقه ، ما يسرنى به مقول في معد » (١) .

أما الأنف فلا يخفى عمله في اللفظ لأن الأنفاس مقسومة برأي الجاحظ على المنخرين ، فحيناً يكون إخراج الهواء والاسترواح في الشق الأيمن وحيناً يكون في الشق الأيسر ، وإذا اجتمعا في وقت واحد يحدث الخلل في اللفظ (٢) .

والخلاصة أن الجاحظ عالم متضلع في اللغة العربية ، ممسك بناصيتها . وهذا ما يمكنه من ملاحظة خصائصها المختلفة . ومع أنه لم يكتب أبحاثاً مستقلة عنها إلا إنه يمكن جمع ما نشره في تضاعيف كتبه لتكوين فكرة عن فلسفته اللغوية .

أما البيان فقد أعطاه معنى واسعاً ، فجعل اللغة أداة من أدوات الخمس أي الخط والنسبة والحال والعقد . وتكلم على مسألة حظيت باهتمام الفلاسفة هي العلاقة بين الفكر واللغة أو بين اللفظ والمعنى . كما بحث مسألة ثانية لا تقل أهمية عن سابقتها هي العلاقة بين أجهزة النطق الفزيولوجية واللغة .

## **الباب السادس**

---

### **المنحى الخلقى والاجتماعي**







## الفصل الأول الأخلاق

### أ- أساس الأخلاق :

ان مذهب الجاحظ الخلقي طبيعي يقول ان للإنسان تركيباً جسدياً ونفسياً فطرياً معيناً ينبغي اعتباره أساس الأخلاق . وإذا لم نأخذه بعين الاعتبار وقعنا في أخطاء جسيمة عند معالجتنا هذا الموضوع .

وهو يعتقد أن في الإنسان عقلاً وغرائز ، وأن هذه الأخيرة تظهر بشكل حاجات تلح على صاحبها في الاستجابة لها لترتوي ، أهمها الغضب والحسد والبخل والجبن والغيرة وحب الشهوات والنساء والعجب والخيلاء . وهي طباع فيه فطر عليها ولا يستطيع إنكارها أو تجاهلها<sup>(١)</sup> .

هذه الغرائز شريرة إذا استبدت بالإنسان قادتة الى الهلاك وإلى فساد الدين

---

١ - استحقاق الإمامة ( آثار الجاحظ ، ص ١٥٥ ) .

والدنيا معاً<sup>(١)</sup> ويستعين لمقاومتها وضبطها بالعقل . ولكن العقل لا يستطيع أن يكبح من جماحها دائماً . ولهذا نجد كثيراً من الناس يعرفون الرشده دون أن يقروا عليه<sup>(٢)</sup> . وبسبب ذلك يرى الجاحظ أن خير رادع للفرائر والطبائع العقوبة التي ينزلها المجتمع والسلطة بأصحابها وقد عبر عن ذلك بقوله : « انا لما رأينا طبائع الناس وشهواتهم من شأنها التغلب الى هلكتهم وفساد دينهم وذهاب دنياهم ، وان كانت العامة أسرع الى ذلك من الخاصة ، فلا تنفك طبائعهم من حملهم على ما يروهم ما لم يردوا بالقمع الشديد في العاجل ومن القصاص من العادل ، ثم التكيل في العقوبة على شر الخيانة ، وإسقاط القدر ، وإزالة العدالة مع الأسماء القبيحة والألقاب الهجينة ، ثم بالإخافة الشديدة والحبس الطويل ، والتغريب عن الوطن ، ثم الوعيد بنار الأبد مع فوات الجنة . وإنما وضع الله تعالى هذه الخصال لتكون لقوه العقل مادة ، ولتعديل الطبائع معونة ، لأن العبد إذا فضلت قوى طبائعه وشهواته على عقله ورأيه الغي بصيراً بالرشد غير قادر عليه ، فإذا احتوشته المخاوف كانت مواد لزواجر عقله وأوامر رأيه ، فإذا لم يكن في حوادث الطبائع ودواعي الشهوات وحب العاجل فضل على زواجر العقل وأوامر الغي ، كان العبد معنأ في الغي قادراً عليه ، لأن الغضب والحسد والبخل والجن والغيرة وحب الشهوات والنساء والمكائنة والعجب والخيلاء وأنواع هذه إذا قويت دواعيها لأهلها واشتدت جوازيها لصاحبها ، ثم لم يعلم أن فوقه ناقباً عليه ، وأن له متفقاً من نفسه ، أو مقتضياً منه لغيره ، كان ميله وذهابه مع جواذب الطبيعة ودواعي الشهوة طبعاً لا يمتنع معه وواجباً لا يستطيع غيره<sup>(٣)</sup> .

وإذا كانت الأخلاق طبعاً ، وكانت الطبائع من خلق الله ، وكان عقل الإنسان عاجزاً عن التغلب على طبائعه إلا بالنظر الطويل والتجارب العديدة ، فقد

١- المصدر عينه ، ص ١٥٤ .

٢- المصدر عينه ، ص ١٥٤ .

٣- استحقاق الإثامة (آثار الجاحظ) ، ص ١٥٤-١٥٥ .

أراد الله أن يساعد الإنسان على الخروج من محنته بأن أرسل اليه الأنبياء يحملون اليه كتبهم وتعاليمهم ليهدوه سواء السبيل ، وبذلك يضيفي الجاحظ على مذهبه مسحة ميتافيزيقية روحانية ، فالله هو الذي يوجد الطباع في الناس ، وهو الذي يحدد سبل الرشاد والخير . وقد شرح وجهة نظره قائلاً : « . . . ولذلك وضع الله في الإنسان طبيعة الغضب وطبيعة الرضا والبخل والسخاء والجزع والصبر والرياء والإخلاص والكبر والتواضع والسخط والقناعة ، فجعلها عروفاً ، ولن تفي قوة غريزة العقل لجميع قوى طبائعه وشهواته حتى يقيم ما أعوج منها ويسكن ما تحرك دون النظر الطويل الذي يشدها والبحث الشديد الذي يشحذها ، والتجارب التي تحنكها والفوائد التي تزيد منها ، ولن يكثر النظر حتى تكثر الخواطر ، ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الحوائج ، ولن تبعد إلا بعد الغاية وشدة الحاجة . ولو أن الناس تركوا وقوى غرائزهم ولم يهاجوا بالحاجة على طلب مصلحتهم ، والتفكير في معاشهم وعواقب أمورهم ، والجنوا الى قدر خواطرهم التي تولدها مباشرة حواسهم دون أن يسمعهم الله خواطر الأولين وأدب السلف المتقدمين وكتب رب العالمين ، لما أدركوا من العلم إلا اليسير ، ولما ميزوا من الأمور إلا القليل » (١) .

هل يعني ذلك أن الإنسان مسخر في سلوكه وتصرفاته ؟ هذا ما يؤدي اليه القول بالطباع والغرائز . ولكن الجاحظ يسارع الى نفي التسخير في الأخلاق ويذهب الى أن الإنسان « قد يكون مسخراً لأمر ومخيراً في آخر ، ولولا الأمر والنهي لجاز التسخير في دقيق الأمور وجليلها ، وخفيها وظاهرها ، لأن بني الإنسان إنما سخروا إرادة العائدة عليهم ، ولم يسخروا للمعصية كما لم يسخروا للمفسدة ، وقد تستوي الأسباب في مواضع وتتفاوت في مواضع ، كل ذلك ليجمع الله تعالى مصالح الدنيا ومراشد الدين » (٢) .

١ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠) .

٢ - حجج النبوة (آثار الجاحظ ، ص ٢٥٤) .

يستفاد من كلام الجاحظ أن الإنسان غير في بعض الأمور ومسير في بعضها الآخر ، والأمور التي خير فيها هي التي ورد بشأنها الأمر والنهي في القرآن والتي تعتبر معاصي أو مفاسد .

ويمضي الجاحظ الى أبعد من ذلك في التوفيق بين أصل الأخلاق ، أي الطباع ، وبين الدين فيقول ان الأخلاق مشتركة بين الدين والدنيا ، وليس من فرق بين الدين والدنيا سوى اختلاف الدارين ، أما الحكم الأخلاقي فهو واحد هنا وهناك . وهذا ما قصد اليه بقوله : « واعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا ، وإنما وصفت الآداب على أصول الطباع ، وإنما أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين . وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة » (١) .

ان مذهب الجاحظ الخلقي ، كما قال ، هو « وضع الأخلاق على أصول الطباع » وهذا ما يؤكد في كتاب البخلاء . إنه لم يؤلف هذا الكتاب للفكاهة والتندر من البخلاء كما ظن البعض ، وإنما الفه لدراسة أصل الأخلاق عند البشر . ما هو سبب البخل عند بعض الناس وما هو سبب الكرم عند بعضهم الآخر ؟ إنه الطبع الذي فطر عليه هؤلاء وأولئك . فالبخلاء ليسوا أصحاب بخل وشح بسبب قناعة عقلية وحجج منطقية يدلون بها على لسان سهل بن هارون في الرسالة المنسوبة اليه ، والأجواد ليسوا كذلك بسبب قناعة عقلية وحجج منطقية يدلون بها على لسان أبي العاصم الثقفي في الرسالة المنسوبة اليه أيضاً . وإنما البخلاء يتصفون بالبخل لأنهم طبعوا عليه ، والأجواد يتصفون بالكرم لأنهم طبعوا عليه ، وهو يورد نادرة الديكة في

---

١ - المعاش والمعاد ( رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٩٩ ) .

مرو التي تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب على عكس ما نراه عند سائر الديكة في البلاد الأخرى حيث تأخذ الديكة الحب هنا وهناك وتقدمه للدجاجات ، ليستتج « أن البخل شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء فمن ثم عم جميع حيوانهم » (١) .

إن الجاحظ يأخذ بالمذهب الطبيعي في جميع مناحيه الفلسفية . ويؤكد بصدد الأخلاق على تأثير البيئة الطبيعية في أخلاق الناس والحيوان كما لاحظ تأثيرها من قبل في أجسامهم وعاداتهم . وهذا ما تؤكد أيضاً نادرة الصبي المروزي الذي طلب منه زائر أبيه أن يطعمه من خبزهم فأجاب : لا تريد هو مر . ثم طلب منه أن ينقيه من مائهم فأجاب : لا تريد هو مالح . فضحك والد الصبي وقال للزائر : هذا من علمه ما تسمع ؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطبيعتهم (٢) .

هل يعني ذلك أن الجاحظ لم يعط أية أهمية أو دور للتربية في مجال الأخلاق ؟ يبدو أنه قلل من أهمية التربية في التنشئة الخلقية فلم يشر إلا إلى أثر العادة ، والعادة لم يفصلها عن الطبع وسماها الطبع الثاني تمييزاً لها عن الطبع الغريزي الذي تكلمنا عنه أعلاه والذي دعاه الطبع الأول (٣) .

إن المذهب الطبيعي قصاد الجاحظ إلى مبدأ المنفعة . فقد لاحظ أن الناس مطبوعون على حب اجترار المنافع ودفع المضار وبغض ما كان بخلاف ذلك (٤) . وعلى هذا الأساس انساق الناس بتيار مصالحهم ومنافعهم . وهذا هو السبب في تعلق الناس بالملكية وحرصهم على اقتناء الأشياء . وهو السر في الطمع الذي نجده في الناس وسيرهم بمقتضى مبدأ التعويض الذي يسود علاقاتهم : « لأن طبع النفس لا يسلس بعطية قليل ولا كثير مما حوته حتى تعوض أكثر مما تعطي إما عاجلاً وإما آجلاً مما تستلذه حواسها » (٥) .

١ - البخل ، ص ١٨ .

٢ - البخل ، ص ١٨ .

٣ - المعاش والمعاد (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٩٧ .

٤ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

٥ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

وكذلك أداه مذهب الطبيعي الى القول بمبدأ اللذة . فالناس يفتشون عن لذاتهم ويهربون من الألم والمكاره : « وإن النفس البشرية مطبوعة على حب الراحة والدعة والازدياد والعلوم والعز والغلبة والاستطراف والتشوق وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة والروائح العابقة والطعوم الطيبة والأصوات المونقة والملامس اللذيذة ، وما كراهيته في طباعهم أصداد ما وصفت لك وخلافه »<sup>(١)</sup>.

وعلى الصعيد العلمي طبق الجاحظ مذهب الطبيعي في حياته الخاصة ، وفي نظره الى الأمور ومعاملته الناس . لقد نظر الى الناس نظرة واقعية فلم يتبرم بها يظن فيهم من صفات وما يبدو عنهم من أعمال لاعتقاده أن هذه الأمور طباع فطروا عليها . ولذا نراه في كتاب البخلاء معجباً بالاشحاء راضياً عنهم غير ساخط عليهم . فهو ينعتهم بالطيبة والملاحة والتعقل<sup>(٢)</sup> . وهو من ناحية أخرى راض عن الأجواد غير ساخط عليهم ينعتهم بالمروءة والوفاء والأريحية .

ثم ان الجاحظ كان نفعياً في حياته . تقرب من أولي الأمر والجاه وأهداهم كتبه لينال رضاهم وجوائزهم ، كما كان من طلاب اللذة يبحث عنها ويقتنصها . لم يزهّد في شيء من أطايب الطعام والشراب ، وعلى الرغم من عدم زواجة لم يحرم نفسه من الجوارى اللاتي تسرى بهن . وإذا كان قد أورد الكثير من أقوال الزهاد والنساك في كتبه إلا انه أورد كذلك الكثير من أحاديث الجنس والمجون كحديث الأعرابية وابنتها وعلاقات الناس بالكلاب الخ . . كما كتب رسالة في الشارب والمشروب ، دافع فيها عن شرب النبيذ وزعم انه محلل لم يحرمه الإسلام ، كما وصف محاسنه ومنافعه . فهو يعدل الطباع ويصلح صفار الجسم ويظهر حمرة اللون ويكسب الصحة والقوة والنشاط والفرح والحركة والأنس ، ويصفى الذهن ، ويقوي الركن ، ويشد القلب

---

١ - المصدر عنه ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

٢ - البخلاء ، ص ٢١ .

والظهر ، ويشحذ المعدة ، ويهيج للطعام ، ويمنع الطحال من العظم والمعدة من التخم ، ويلطف دم العروق ، ويسطو الأمال ، وينعم البال ، ويسخن الكلية ، ويلذ النوم ، ويطيب الأنفاس ، ويطرد الوسواس ، ويسكن الروعة ، ويذهب الحشمة ، ويقذف فضول الصلب بالانشاط للججاج ، ويسل الحزن ، ويذهب الهم ، ويطرد الغم ، ويرضي الساخط ، ويقوم مقام الأنيس<sup>(١)</sup>.

## ب - الفضيلة :

من أهم موضوعات الأخلاق الفضيلة . وهي الصفة الحسنة التي يمتاز بها الإنسان عن غيره ، أو يتفوق على سواء . فكأنها شيء زائد في المرء يفترق إليه من عداه . ان الإنسان يفضل الحيوان بعقله والثقف يفضل الجاهل بعلمه . .<sup>(٢)</sup>.

والهام هو المقياس الذي نقرر به الأعمال فتعدها فاضلة أو ناقصة . يتبنى الجاحظ المفهوم الوسطي للفضيلة : فيقول أن خير الأمور أوسطها . أما الإفراط فهو رذيلة وكذلك التقصير : « فالإفراط في الجود يوجب التبذير ، والإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة ، والإفراط في المؤانسة يدعو إلى خلطاء السوء والإفراط في الانقباض يوحش النصيحة ، وآفة الأمانة اثتان الخانة ، وآفة الصديق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى ألا يوثق بأحد . . »<sup>(٣)</sup>.

هذه القاعدة يرددها الجاحظ كثيراً في كتبه ولكنه يبسطها بأسهاب وتفصيل في كتاب البخلاء . انه يعتبر البخل رذيلة وكذلك الاسراف أو التبذير ، أما الفضيلة فهي الجود ، والبخل رذيلة لأنه تقصير ، والتبذير رذيلة لأنه إفراط ، أما الجود ففضيلة لأنه اعتدال واقتصاد وتوسط في الإنفاق . « ولهذا فإن من قامت اخلاطه على الاعتدال

١- الشارب والمشروب ، (آثار الجاحظ ، ص ١١٥-١١٦) .

٢- الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٤ ، ج ٥ ، ص ٣٢ ، ج ٧ ، ص ١٨ .

٣- المعاش والمعاد (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١١١) .

وتكافأت خواطره في الوزن لم يعرف من الاعمال إلا الاقتصاد ، ولم يجد أفعاله أبداً إلا بين التقصير والإفراط ،<sup>(١)</sup>.

ونراه يهاجم البخلاء والمبذرين معاً . أما البخلاء فقد هاجمهم بلسان أبي العاصم الثقفي الذي فند حججهم وسفه آراءهم : فهم يدعون أن إمساحهم يرجع الى خوفهم من أن يحل بهم الفقر والحاجة إذا بذلوا ما في حوزتهم من المال . فيقول لهم : لقد تعجلتم الفقر قبل أوانه ، وصرتم كالمجلودين من غير لذة . وإن الممسك معذب بحصر نفسه والكسد لغيره<sup>(٢)</sup> . ثم إنهم يحتجون لبخلهم بخوفهم من الجوائح والكوارث التي تنوبهم ، فيرد عليهم قائلاً : ان الجوائح تصيب أموال البخلاء كما تصيب أموال الأسيخاء . كما أن عدد الذين افترقوا من البخلاء ليس أقل من عدد الذين افترقوا من الأسيخاء<sup>(٣)</sup> . ثم إن البخل ليس بذلك الإنسان الذي يتوكل على الله ، وإن اعتلال البخل بالحدثان وسوء الظن بتقلب الزمان كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان وبالذي يحدث الزمان وأهل الزمان<sup>(٤)</sup> . وإذا احتج البخلاء بانهم أعقل من الأجواد وأكثر بصراً بعواقب الأمور ، وخبرة بشؤون العيش قيل لهم : ان الزنج هم أبصر الناس فكرة وروية وأذهلهم عن معرفة العاقبة وهم أبخل الناس<sup>(٥)</sup> . وإذا ادعى البخلاء انهم إنما يجمعون المال من أجل أولادهم قيل لهم : إذن لم لا تعطونهم ما يطلبون ، ولم تتركوا محاسبتهم في كثير مما يشتهون ؟ ولو كان جمع المال والضن به إنما يكون في سبيل الأولاد لما رأينا الرهبان يكتزون الكنوز ، والعاقري يسعى جاداً وراء المال<sup>(٦)</sup>.

من ناحية مقابلة يهاجم الجاحظ الإسراف على لسان ابن التوام . فهو يهزأ من

---

١ - البخلاء ، ص ١٦٩ .

٢ - المصدر عينه ، ص ١٥٦ .

٣ - المصدر عينه ، ص ١٥٨ .

٤ - المصدر عينه ، ص ١٦٠ .

٥ - المصدر عينه ، ص ١٦٠ .

٦ - المصدر عينه ، ص ١٦٢ .

أولئك الذين سموا السرف جوداً وجعلوه كرمًا ، مع أن السرف هو مجاوزة الحق وليس وراء الحق إلى الباطل كرم <sup>(١)</sup>. ثم إن السرف معصية لله لأن الله عاب السرف <sup>(٢)</sup>. ثم إن السرف مذموم لأنه لا يرتكب السرف إلا جاهل لا علم له لا يعرف الاعتدال والجد <sup>(٣)</sup>. ولذا فالتبذير عمقوت لأنه يضيع أموال المرء ، والمال هو القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا <sup>(٤)</sup>. وقد نهى القرآن عن التبذير قائلاً : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ (الإسراء ، ٢٦) . كما قال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ كما قال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ (الإسراء ، ٢٩) <sup>(٥)</sup>.

ويتهي الجاحظ من بحثه إلى تفضيل الجود على البخل والإسراف معاً ، لأنه يجانب التقصير والافراط ويقع وسطاً بينهما «ونخير الأمور أوساطها» ، وسر السير الحقيقة ، والحسنة بين السيئتين . وقالوا : دين الله بين المقصر والغالي . . وقالوا : عليك بالسداد والاقتصاد ولا وكس ولا شطط <sup>(٦)</sup>.

وفي سياق انتصاره للجود ، كفضيلة تقع بين البخل والإسراف ، يورد الجاحظ حججاً عديدة . منها أن الله جواد لا يبخل لأنه أجود الأجودين وأجود الأمجدين وأرحم الراحمين وأحسن الخالقين <sup>(٧)</sup>. ومنها أن الشيء انصف بالجود فكان لا يضع درهما على درهم ، ولا لبنه على لبنه ، ومملك جزيرة العرب فقيض الصدقات وجيبت إليه الأموال ، ثم توفي وعليه دين ودرعه مرهونة ، ولم يسأل حاجة قط فقال : لا ، وكان إذا سئل أعطى وإذا وعد أو أطمع كان وعده كالعيان وإطعامه كالإنجاز <sup>(٨)</sup>.

١- البخل ، ص ١٧١ .

٢- المصدر عنه ، ص ١٧٢ .

٣- المصدر عنه ، ص ١٧٢ .

٤- المصدر عنه ، ص ١٧٠ .

٥- المصدر عنه ، ص ١٨٦ .

٦- المصدر عنه ، ص ١٨٦ .

٧- المصدر عنه ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

٨- المصدر عنه ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

وهناك حجة ثالثة على تفضيل الجود ، وهي أن الأمم أجمعت على مدح الجود وذم البخل ، كما جعل العرب من حاتم الطائي رمزاً للكرم « ولم نر الأمة أبغضت جواداً قط ولا حقرتة . . . بل وجدناهم يتعلمون مناقبه ويدارسون محاسنه . . . » (١).

ان قاعدة الجاحظ الوسطية في تحديد الفضيلة هي التي تبناها الفيلسوف اليوناني أرسطو من قبل . وهذا ما يدعونا الى التساؤل عما إذا كان الجاحظ تأثر أرسطو أو أخذ عنه هذا المذهب .

لا يستبعد اطلاع الجاحظ على مذهب أرسطو الوسطي في مجال الأخلاق وهو الذي قرأ كتبه المنقولة الى العربية . ولكن الجاحظ لم يذكر رأي أرسطو في هذا الموضوع بينما نراه يعزو تحديد الفضيلة بانها وسط بين رذلتين الى عبد الله بن مسعود في سياق خطبته حيث يقول : « وخير الأمور أوساطها ، وما قل وكفى خير من إمارة لا تحصيها » (٢) . كما نسب هذا التحديد الى الحسن البصري الذي سأله إعرابي « أن يعلمه ديناً وسطاً لا ذاهباً شطوطاً ولا هابطاً هبوطاً . فقال له الحسن : لئن قلت ذلك : ان خير الأمور أوساطها » (٣) .

ثم ان المفهوم الوسطي للفضيلة ينسجم مع فلسفة الجاحظ العامة في مختلف مناحيها الكلامية والطبيعية والجمالية والاجتماعية . فلقد اعتبر الاعتزال مذهباً وسطاً بين الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة وبين أهل السنة والجماعة الذين يعدونه مؤمناً ، إنهم الفرقة التي آمنت بالاعتدال والاقتصاد في الآراء والأحكام فلم تقصر ولم تغل . وكذلك اعتبر الجمال الفني في البلاغة وحددها بانها الكلام الذي يقع وسطاً بين السوقي والرحشي . وهكذا نجد فلسفة الجاحظ متساوقة ذات مبادئ تنطلق منها ولا تحيد عنها ينطلق منها ويطبقها في مختلف الموضوعات التي يعالجها .

---

١- المصدر عينه ، ص ١٥٧-١٥٨ .

٢- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

٣- المصدر عينه ، ص ١٧٣ .

## ج- الخير والشر :

ان غاية الأخلاق الخير ، والإبتعاد عن الشر . ولكن ما هو الخير وما هو الشر وكيف السبيل للتمييز بينهما ؟

ان الخير هو ما يختاره الإنسان أو يؤثره على غيره ، من الأعمال والشيم ، وبما أن الخير يتضمن معنى الاختيار ، فإن هذا الاختيار يتم من قبل الإنسان أو من قبل الله<sup>(١)</sup> . وهكذا نعد من الخير كل ما اختاره الله وندب اليه من الأفعال والصفات<sup>(٢)</sup> . وبذلك يكون الله مصدر الخير كله<sup>(٣)</sup> .

ولكن على أي أساس يبنى الله أو الإنسان اختياره ؟ ليس ثمة من معيار موضوعي للخير ، أو هل العمل بحد ذاته خير أو شر ، أو هل الأمر نسبي يخضع لمشيئة الإنسان الذاتية أو لمشيئة الله ؟ يبدو أن الجاحظ ينظر الى الخير نظرة موضوعية ويخضعه للمفهوم الوسطي للفضيلة . فالعمل الخير هو العمل المعتدل الذي ليس فيه افراط أو تقصير . وهو يصرح بفكرته هذه قائلاً : « وإنما العشق اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه حب ، وليس كل حب يسمى عشقاً ، وإنما العشق اسم لما فضل عن ذلك المقدار ، كما أن السرف اسم لما زاد عن المقدار الذي يسمى جوداً ، والبخل اسم لما ينقص عن المقدار الذي يسمى اقتصاداً والجبن اسم لما قصر عن المقدار الذي يسمى شجاعة »<sup>(٤)</sup> .

أما الشر فهو سوء الخلق وفقدان الحياء بحيث يغدو المرء غير مبال بموقف الناس منه واشتمزازهم من أعماله التي تسيء اليهم ، وكأنه فقد كل ضمير يردعه أو يؤنبه . أضف الى ذلك قساوة القلب وخلوه من محبة الآخرين<sup>(٥)</sup> .

١- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ١٥٣ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

٣- المصدر عينه ، ج ٣ ، ص ١١٧ .

٤- آثار الجاحظ ، ص ١٠١ .

٥- البيان والبيان ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

والشر خلاف الخير أو نقيضه « ولقد مر المسيح عليه السلام بخلق من بني إسرائيل فشتموه ، كلما قالوا شرأ قال المسيح خيراً ، فقال له شمعون الصفي : كلما قالوا شرأ قلت خيراً ؟ قال المسيح : كل أمرىء يعطى ما عنده » (١).

كيف نميز الخير من الشر ؟ بالعقل نعرف الخير ونعرف الشر ونميز بينهما . ان عمل العقل هام جداً لأن استبانة الشر ناهية عنه كما يقول الجاحظ بيننا استبانة الخير أمره به (٢).

وإذا كان الله هو خالق الخير والشر وكل شيء في العلم فما هي الحكمة من وجود الشر ؟ الم يكن من الأفضل خلق العالم من الشرور والاقتصار على الخير فقط ؟ بحيث الجاحظ أن مصلحة الإنسان تقضي بوجود الخير والشر معاً في هذه الدنيا ، لأنه لو وجد الشر وحده دون الخير لأدى ذلك الى هلاك الخلق ، ولو وجد الخير صرفاً دون شر لسقطت المحنة وانعدم التفكير والتبين والصبر على المكروه والشكر على المحبوب والتفاضل في البيان ، والتنافس في المرتبة وفرحة الظفر وعز الغلبة والأمل ، ولأصبح الإنسان كالحيوان والجهاد فاقداً للشعور والفكر (٣).

ويتبع عن فقدان الشر للدنيا حرمان الإنسان من لذاته التي ينعم بها في الحياة ، لأنه عندما يغدو حيواناً فاقداً للفكر متقاداً للغرائز يتعذر عنده سرور السؤدد وعز الرئاسة وسرور نفاذ الأمر والنهي وسرور افتتاح باب الحلم وهو سرور لا يوازيه في شيء لذة الهائم في طعم الدم وأكل اللحم (٤).

وعلى الصعيد الديني ينتج عن انعدام الشر في العالم انتفاء الثواب والعقاب لأنه على استواء الأمور يبطل التمييز ، ولأنه إذا لم تكن في الدنيا كلفة لم تكن مثوبة (٥).

---

١- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

٢- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٧١ .

٣- الحيوان ، ج ٢٠٤ .

٤- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

٥- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

وإذا سنل الجاحظ عن سر انتفاء الفكر إذا انعدم الشر في العالم ، أجاب لأنه لا تبقى ثمة حاجة الى الفكر في عالم كله خير وليس فيه شر . « ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور ، لبطل النظر وما يشذ عليه وما يدعو اليه ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها . » (١) .

وهكذا اقتضت المصلحة أن يخلق الله العالم على ما هو علنه من امتزاج الخير بالشر والنافع بالضرار والمذ بالؤلم والمؤنس بالموحش والصغير الحقير بالجليل الكبير ، والعدو بالصادق (٢) .

ويرد الجاحظ على المعطلة والمنانية الذين زعموا أن وجود الشر في العالم دليل على عدم وجود الله لأنه « ان كان للعالم خلاق رؤوف رحيم فلم تحدث فيه مثل هذه الأمور المكروهة » ؟ يرد عليهم قائلاً : « إنه لو خلا العالم من المكارة والشرور وغدت الحياة كلها صفاء لا يكدره مكدر فان الإنسان سيركبه الأشر والعنو ، والأشر والعنو يقودانه الى فساد الدين والدنيا » (٣) .

وإذا قال المعطلة إنه لمن الأفضل للإنسان الا يخضع للمحن والتجارب ويتعرض للمآسي والأخطار . ولو كان له خالق حكيم يحرص على مصلحته لجعل حياته كلها لذات ونعيم خالية من الأتعاب والمشقات والعمل الدائب الناصب . أجاب الجاحظ : « إعرضوا على أمرىء صحيح الجسم والعقل أن يجلس منعماً ويكفي كل ما يحتاج اليه بلا سعي واستحقاق فانظروا هل تقبل نفسه ذلك ؟ بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعي والحركة أشد سروراً واغتراباً منه بالكثير مما يناله بلا استحقاق . وكذلك

---

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٢٠٥-٢٠٦ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

٣- الدلائل والإعتبار ، ص ٦٨ .

نعيم الآخرة إنها يكون لأهله بأن ينالوه بالسعي والاستحقاق» (١).

ويجد أبو عثمان حسنة أخرى لوجود الآفات والشور في العالم وفي إصابتها للبر والفاجر على السواء ، وهو أن حدوثها للصالحين يذكرهم بنعيم ربهم عندهم في سالف أيامهم فيدفعهم هذا إلى الشكر والصبر. أما إصابتها للطالحين فمن شأنها أن تخفف شرهم وتمنعهم عن المعاصي والفواحش (٢).

والكلام عن الخير والشر يجر إلى الكلام عن السعادة . والسؤال الذي يطرح هو التالي : « أين توجد السعادة ، أو ما هي الأمور التي تجعل المرء سعيداً ؟ »

يناقش الجاحظ زعم من يذهب إلى أن السعادة تكمن في « كثرة المال وصحة البدن وخمول الذكر » (٣). فيقول إن كثرة المال وخمول الذكر لا يجتمعان ، لأن صاحب المال إما أن يكون عالماً بالأمور أو جاهلاً بإياها . فإن كان عالماً بالأمور فإن علمه لن يدعه حتى يقول ويعمل حسب علمه ، وعندئذ ينتفي خموله ويعرفه الناس ، لأن العلم أو المعرفة مجلبة للنباهة . أما إذا كان جاهلاً بالأمور فإن جهله بها سيؤدي إلى الجهل بمواضع اللذة والسعادة (٤).

ثم إن صاحب الثروة الخامل الذكر إما أن يكون ممن يرغب في أطايب العيش والمركب الفاره والثوب اللين والجارية الحسنة والدار الجيدة ، أو ممن لا يرغب في ذلك . فإذا كان لا يرغب بها ولا يعمل في ماله للدار الأخرى ولا يعجب بالأحدوة الحسنة ، ويكون مكتفياً بلذة جمع المال فقط ، فهذا حمار أو أجهل من حمار. إما إذا كان راغباً في أطايب الطعام والشراب والجواري واللباس والدور والثياب ، فإنه عندئذ يدل على ماله ولا يعود خامل الذكر (٥).

١- اللاتل والاعتبار ، ص ٦٩ .

٢- المصدر منه ص ٧٠ .

٣- الحيوان ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

٤- المصدر منه ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

٥- الحيوان ، ج ٢ ، ص ٩٨-٩٩ .

ويعتبر الجاحظ لذة العقل والنفس أرفع من لذة الحس والغريزة . ويذكر في عداد اللذات العقلية والنفسية لذة الظفر بالأعداء وعقد المنن في أعناق الرجال ، والسرور بالرياسة وبثمرة السيادة . « فهذه الأمور نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس » (١) .

وأهم اللذات الحسية المطعم والمشروب والمنكح والمشممة وغيرها . وهي لذات يصحبها الشره والم السهر والقلق . ولذلك رأينا صاحبها مفضولاً غير فاضل بالإضافة الى ما يسب به وما يحمل له على القبيح ، وعلى نعمة متى زالت لم يكن أحد أشقى منه (٢) .

## د- الأخلاق العملية :

لم يهتم الجاحظ بعلاقة الأخلاق بالسياسة والوطنية ، ولا بعلاقتها بالشؤون العائلية . واقتصر إهتمامه على علاقة الأخلاق بالحياة الخاصة والاجتماعية . وربما استطعنا أن نعزو ذلك الى أن فكرة الوطن لم تكن قد تبلورت في ذهنه لتدفعه الى بحث علاقة المواطن ببلاده ، كما أن الشؤون العائلية كانت غائبة عنه لأنه لم يبين عائلة ولم يتزوج ولم يرزق أولاداً .

ان رأس الأخلاق - بنظر الجاحظ - تقوى الله لأنها « جماع كل خير » . وهي تقوم على طاعة الله والعمل بما أمر به والابتعاد عما نهى عنه (٣) .

ويلى التقوى الحذر والتنبيه للأمر والتفكير بالعواقب . وهذا يقتضي الابتعاد عن التوكل . ان موقف الجاحظ من التوكل يخالف موقف أهل الجماعة الذين يقولون بالقضاء والقدر وشعارهم انه لا يصيكم إلا ما كتب الله لكم . ينكر الجاحظ هذا الاعتقاد ويرى انه من الخطأ إحالة الأمور الى الأقدار ، لأن ذلك يدفع الإنسان الى

---

١- المصدر عنه ، ج ، ص ٩٨ .

٢- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

٣- للعاش والمعاد رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٩٩- ١٠٠ .

التواني والهونيا ويقضي على عزيمته وإرادته وحرته وهو ينصح قائلاً : « واحذر كل الحذر أن يخذلك الشيطان عن العزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل ، ويسلبك الحذر ، ويورثك الهونيا بإحالتك على الأقدار . فإن الله إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم للقضاء بعد الاعتذار » (١) . ويفتش الجاحظ عن براهين تؤيد رأيه فيجدها في القرآن والسنة ذاتها . جاء في القرآن قوله تعالى : ﴿ خذوا حذرکم ﴾ كما جاء قوله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴾ . وورد في السنة قول النبي : أعقلها وتوكل (٢) .

ومن الناحية الاقتصادية ينصح الجاحظ « بشمير المال لأنه آلة المكارم وعون على الدين ومتألف للإخوان » (٣) . ويقول ان الفقر يبعد الناس عن صاحبه ويدفعهم الى الاستهانة بشانه . وهو يحذر من السرف لأنه يذهب المال ويفسد الدين والدنيا ، كما يحذر من البخل لأنه مذموم ، ويذهب بالمكارم . والفضيلة هي الجود مع الاقتصاد والاعتدال في الإنفاق . وقد أوضح مذهبه هذا في الاقتصاد في كتاب البخلاء حيث رأيناه ينتقد البخلاء والمبذرين معاً ويدعو على لسان ابن التوأم الى التوسط والاعتدال في الانفاق (٤) . وتجدر الإشارة هنا الى الشبه بين أقوال الجاحظ وأقوال كل من علي بن أبي طالب وعبد الله بن المقفع بصدد أثر المال في أخلاق صاحبه ودينه وتقدير الناس آياه .

ومن الصفات الخلقية الشخصية الصمت ، ويفهم به نقيض الهذر وإطلاق اللسان بغير حاجة . وهو يرى « أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة فرصته . وذلك صمتك عند من يعلم انك لم تصمت عنه عيأ ولا رهبة » (٥) . ولكن أبا عثمان يؤثر البيان على الصمت في كتاب البيان والتبيين ويدافع عنه ويبين مزاياه مستشهداً بالأقوال والأشعار والآيات القرآنية .

١- المعاش والمعاد ، ج ١ ، ص ١١١ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١١١-١١٢ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١١٢ .

٤- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١١٣ .

٥- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١١٣ .

وهناك الشجاعة التي لا تكون إلا في الأمور التي لا يعرف عاقبتها ، فيخاطر الإنسان فيها بنفسه وماله . ويربط الإنسان بين هذه الأمور والنتائج أو الغايات التي يرمي إليها ، فإذا كان الأمر الذي يهجم عليه واجباً دينياً أو قيمة معنوية سامية فالشجاعة ضرورية ونحن معذورون بالمخاطرة فيه بالنفس والمال . أما إذا كان الأمر لا يعدو المنفعة الدنيوية الرخيصة فالإقدام عليه وتعرض النفس والمال للهلاك ليس شجاعة وإنما هو حماقة بينة <sup>(١)</sup> .

ويسهب الجاحظ في الكلام على الصداقة ويعتبرها أثمن شيء في الحياة . ولذا ينبغي على الإنسان أن يستكثر من الأصدقاء ، وإذا اكتسب المرء صديقاً وجب أن يحافظ على صداقته وأن يكون أشد ضناً به وحداً عليه من أخيه ، وأحرص عليه من نفائس أمواله . أما حسنات الصداقة فكثيرة : ان الأصدقاء جند معدودون يدافعون عنك وينشرون محاسنك ويحاجون عنك ثم ان الصديق « شقيق روحك » ، وباب الروح إلى حياتك ومستمد رأيك وتوأم عقلك ، ولست منتفعاً بعيش مع الوحدة ، ولا بد من الموانسة <sup>(٢)</sup> .

ومن شروط الصداقة الوفاء . لهذا ينبغي أن يكون من نختاره صديقاً حائزاً على هذه الصفة ، معروفاً بها في أوقات الشدة وحالات الضرورة . أما إذا كان أمراً مشهوراً بالكفر بالنعمة والغدر عند الشدة فينبغي الحذر منه وعدم اتخاذه صديقاً مهماً أظهر من المودة والتقرب <sup>(٣)</sup> .

وإذا حطت الدنيا بالصديق فينبغي عدم الاستهانة به ولا إضاعة حقه بل يجب المواظبة على زيارته وإظهار التقدير له والمعطف عليه <sup>(٤)</sup> .

---

١- رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١١٤ .

٢- المصدرهين ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

٣- المصدرهين ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

٤- المصدرهين ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

أما العدو فيرى الجاحظ في معاملته والاستظهار عليه التخلي ثلاث خلال هي التالية :

١- أن تبذنه بالحسنى ولا تظهر له إلا الفضل فربما استجاب لبادرتك وانقلبت عداوته صداقة لك .

٢- إذا لم يصلحه ذلك فما عليك إلا التحصن عنه بأسرارك واضفاء أساليب تدبيرك ، وعدم إطلاعه على حيلك ومكائيدك له بقول أو فعل لتلا يأخذ منك ويعرف مواضع عوارك . وأن الإكثار من الوعيد لعدوك فشل والأفضل لك أن تداجيه ما داجاك وتحصي معاييه ملاحاك .

٣- إذا كان عدوك ممن يظهر لك العداوة ويعلن عليك المحاربة ، ولم ينفع فيه استصلاح بالحلم والأناة فينبغي الاستعداد له وإظهار الاستهانة به <sup>(١)</sup> .

ويخلص أبو عثمان إلى إعلان القاعدة التالية التي ينبغي اعتمادها في معاملة الصديق والعدو : « إعلم أن الذى تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك . فالصديق وجه معاملته المسالمة ، والعدو وجه معاملته المداواة والمؤاربة . هما ضدان يتنافيان يفسد هذا ما أصلح هذا ، وكل ما نقضت من أحد البابين زاد في صاحبه ، إن قليل فقليل ، وإن كثير فكثير ، فلا تسلم بالمؤاربة صداقة ، ولا تظهر بالعدو مع الاستسلام إليه » <sup>(٢)</sup> .

وهناك نصائح مفيدة يقدمها في معاملة الصديق . منها أن كثرة العتاب تسبب القطيعة ، وإطراحه كله يدل على قلة الأكرات بالصديق . ولذا ينبغي الاعتدال في اللجوء إليه . وكذلك الشأن في زيارة الصديق : ينبغي التوسط فيها ، لأن الإلحاح فيها يذهب بالبهاء ويورث الملالة ، ولأن طول المهجران يعقب الجفوة ويضعف الإخاء <sup>(٣)</sup> .

١- للمعاش والمعاد (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١١٥-١١٦) .

٢- المصدر منه ، ج ١ ، ص ١١٨-١١٩ .

٣- المصدر منه ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

ومن الصفات الخلقية الرفيعة الصدق ، أنبل صفة وأكثر الخلال مجلية للثقة والاحترام . أما الكذب فهو « جماع كل شر » على حد تعبير الجاحظ . والكذب يبرهن عن صغر قدر نفسه . وأشرف الصدق ما قيل عندما يؤدي الى الضرر بصاحبه<sup>(١)</sup> .

أما الحلم فاشرفه العفو عمن هو دوننا ، وهو ضد الغضب ، إذ الغضب لزوم وسوء مقدرة ينتج عن الخيبة في الحصول على ما يهواه المرء . فإذا كان سبب هذه الخيبة من هو أضعف منه ، حمله سوء الطباع على الاستطالة بالغضب والبطش ، وإذا كان سببه من هو أقوى منه أغضى وسمي ذلك حزناً ، والحلم توأم الصبر ومن لا يصبر على حقوات الغير لا يكون حليماً . وإذا اجتمعت في المرء صفات الحلم والصبر والصدق والوفاء تم دينه وصلحت دنياه<sup>(٢)</sup> . وأشرف الصبر التجلد عند المصيبة وتحمل الأرزاء والنكبات ، وضده الجزع الذي يبدو بصورة عدم التماسك عند الشدائد ويعتبر مذمة في المرء<sup>(٣)</sup> .

ومن الصفات الخلقية التي يجب الحرص على التحلي بها التواضع أو عدم التفاخر ومديح النفس ، وهو خلة تقرب القلوب وتحلب المودة لصاحبها . ويرى الجاحظ أن نشر الإنسان محاسنه بنفسه لا يليق به ولا يقبل منه ، بل يمجّه الناس ولا يستسيغونه إلا إذا لهج به أهل المروءات وذوو الصدق والوفاء ومن إذا قال صدق ، وإذا مدح اقتصد . ويندد الجاحظ بهذا الصدد بالمادحين والمرائين الذين أقاموا من مدائحهم أسواقاً للأرباح ، وهم في أقوالهم إنما يسترون المعاييب ويصدون عن المكارم ويشبطون عن المعالي<sup>(٤)</sup> . وبهاجم الجاحظ أيضاً خصلة كان الناس في زمانه يتباهون بها وهي الاعتزاز بالنسب . إنها خصلة فاسدة لأنها تقدح بغضاء في القلوب وتثير

١- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٢٤-١٢٥ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٢٤-١٢٦ .

٣- المعاش والمعاد ، (رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٢٤) .

٤- المصدر عينه ، ج ١ ص ١٢٩ .

العداوة بين الأوداء . وهي خطأ يرتكز على أساس واه لأن الناس متساوون ولا وجه لمفاخرتهم بالانساب « مع اجتماع الأنس جميعاً بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدماثة واللؤم والكرم والجبن والشجاعة في كل حين وانتقالها من أمة الى أمة ، ووجود كل عمود ومذموم في أهل كل جنس من الآدميين . وهذا غير مدفوع عند الجميع »<sup>(١)</sup>.

## هـ- الأخلاق بين الجاحظ ويحيى بن عدي :

في المكتبة العربية كتيب عنوانه « تهذيب الأخلاق » نسبه بعضهم الى الجاحظ ، ونسبه آخرون الى يحيى بن عدي الفيلسوف والمترجم المشهور الذي عاش في القرن العاشر الميلادي ( ٨٩٤ - ٩٧٥ م ) أي بعد الجاحظ بحوالي قرن من الزمان<sup>(٢)</sup> . نجد من المفيد إلقاء الضوء على صحة نسبة هذا الكتاب بالمقارنة بين ما ورد فيه من آراء وبين مذهب الجاحظ الخلفي .

من حيث اللغة لا نجد كبير فرق بين لغة الجاحظ ولغة الكتاب . فهي لغة سهلة الألفاظ خالية من الصنعة والزخارف البيانية ، وهي ذات عبارات مترادفة المعنى .

من حيث التأليف والتبويب ثمة فرق شاسع بين أسلوب الكتاب وأسلوب الجاحظ ، فالكتاب مبوب خير تبويب ، مقسم الى فصول وفقر كل فصل يعالج ناحية من الموضوع ، وكل فقرة تدور حول فكرة . ليس فيه استطراد ولا نقد لاذع ولا تهكم .

---

١ - المصدر عينه ، ج ١ ص ١٢٦ .

٢ - تهذيب الأخلاق ( تحقيق محمد كرد علي - المطبعة الأرثوذكسية ، دمشق ١٩٢٤ ) نشر الكتاب أولاً في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد الرابع سنة ١٩٢٤ . ونسبه كرد علي للجاحظ ( ص ٢٤٣ - ٢٤٥ ) ولكنه استدرك بعد ذلك فرجح نسبه ليحيى بن عدي ( ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ) بناء على لفت نظر تلقاه من مطران دمشق للروم الأرثوذكس غريغوريوس حداد .

من حيث الأفكار يمكننا إبداء الملاحظات التالية :

١ - الأخلاق ، حسب كتاب التهذيب ، هي « حال النفس بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار . والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً ، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد كالسخاء ، قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمل كالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة » (١).

إن هذا المفهوم قال به الجاحظ إذ اعتبر الأخلاق طباعاً غريزية توجد في المرء وتصدر عنه بصورة عفوية . وكذلك لم يغفل أثر العادة في الأخلاق ، ولكنه أرجع العادة إلى الطبع وقال إنها طبيعة ثانية .

٢ - جاء في كتاب « تهذيب الأخلاق » أن الإنسان يغلب على طبعه الشر ، والسبب هو الشهوات والغرائز التي تنطوي عليها نفسه فتدفعه إلى الأهواء والشور . ولا رادع لهذه الشهوات والغرائز سوى العقل . وإذا ضعف العقل في المرء أصبح مشاركاً للبهائم في عاداتها ، والشهوات مستولية عليه ، والحياء غائب عنه ، والغضب يستغزه والسكينة غير حاضرة له والحرص والاحتشاد ديدنه ، والشر لا يفارقه . فالناس مطبوعون على الأخلاق الرديئة منقادون للشهوات الدنيئة ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن والسياسات المحمودة ، وعظم الانتفاع بالملوك الحسنی السيرة ليردعوا الظالم عن ظلمه ، ويمنعوا الغاصب عن غصبه ، ويعاقبوا الفاجر عن فجوره ، ويقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره » (٢).

إن هذه الآراء قال بها الجاحظ جميعاً كما مر بنا . فهو يعتبر الشهوات والأهواء مصدر الشر في الإنسان ، وهي في صراع مع العقل الذي يتزعم إلى الخير . وهو يرى أن

١ - تهذيب الأخلاق ، ص ٨ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٩ - ١٠ .

الضرب على أيدي المجرمين وفاسدي الأخلاق وقمعهم يسطلع به أصحاب السلطان .

٣ - ان سبب اختلاف الناس في أخلاقهم يعلل - حسب كتاب التهذيب - بوجود قوى ثلاث في النفس هي : القوة الشهوانية والقوة الغضبية والقوة الناطقة . وان جميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى . يستوي الإنسان والحيوان في القوة الشهوانية التي تكمن فيها جميع اللذات الجسدية ، وإذا لم يقهر المرء هذه القوة الشهوانية أو يؤديها ملكته واستولت عليه وانقاد لها كاليهاثم فيقل حياؤه ويكثر خرقه ويتعد عن العلم وأهله ويصاحب ذوي الفجور والفواحش ويرتكب الآثام كالسرقة والخيانة والاغتصاب والعدوان<sup>(١)</sup> .

أما النفس الغضبية فيشارك فيها الإنسان مع الحيوان أيضاً ، ويصدر عنها الغضب والجرأة وتنزع بصاحبها الى الغلبة . وإذا استبدت بصاحبها استولى الغضب عليه وكذلك الحقد والانتقام ، وقل حلمه ووقاره . أما إذا أدب الإنسان هذه النفس وكبح جماحها كان حليماً وقوراً محمود السيرة متصفاً بخلال حسنة كمحبة الرئاسة والأنفة والترفع عن الدنيا<sup>(٢)</sup> .

بقيت النفس الناطقة التي يمتاز بها صاحبها عن سائر الحيوانات . وهي مصدر الفكر والتمييز ، وبها يستعين على تهذيب قوته الأخريين : أي القوة الشهوانية والقوة الغضبية . من فضائل هذه النفس اكتساب العلوم والآداب ، وتمييز الخير من الشر ، والحلم والحياء والنسك والفقه وطلب الرئاسة . أما رذائل هذه النفس فهي الحيلة والخبث والخديعة والملك والمكر والحسد والرياء . وعلى قدر ما تقوى النفس الناطقة وتتغلب على القوتين الباقيتين يكون صاحبها خيراً فاضلاً . أما إذا ضعفت أو انحرفت

١- تهذيب الأخلاق ، ص ١١-١٢ .

٢- المصدر عينه ، ص ١٣-١٥ .

وعجزت عن تدبير الشهوانية والغضبية يصبح المرء شريراً فاسداً<sup>(١)</sup>.

ان هذا التقسيم الثلاثي الدقيق لقوى النفس البشرية الذي اعتمده إفلأطين من قبل ، لا نجده عند الجاحظ ، لقد رأيناه يميز قوتين فقط هما الشهوات والعقل ، كما رأيناه يشير الى الصراع الدائر بينهما ، ولكنه يؤكد على ضرورة انتصار قوة العقل الذي يعتبره غريزة كسائر الغرائز النفسية الأخرى ولكنها غريزة خيرة.

٤- يتكلم « تهذيب الأخلاق » على الفضائل الخلقية وعن الرذائل المختلفة التي نجدها متفرقة عند الناس يعددها ويعرفها تعريفاً دقيقاً موجزاً. أهم الفضائل التي ذكرها الفقر ، والقناعة ، والتصوف ، والحلم ، والوقار ، والود ، والوفاء ، وأداء الأمانة ، وكتمان السر ، والتواضع ، والسخاء ، والشجاعة ، والمنافسة ، والصبر ، والهمة ، والعدل<sup>(٢)</sup>. وأهم الرذائل أو القناص الفجور ، والانهاك في الشهوات ، والاستكثار ، والتوفر على اللذات ، وارتكاب الفواحش ، والشر ، والتبذل ، والخرق ، والفسق ، والقساوة ، والغدر والخيانة ، وإفشاء السر ، والكبر ، والعبوس ، والكذب ، والبخل ، والجبن ، والحسد ، والجزع ، والجور<sup>(٣)</sup>.

أما الجاحظ فقد ذكر في كتبه كثيراً من هذه الفضائل والرذائل وتحدث عنها ولكنه لم يعتمد الى هذه التعريفات الدقيقة المختصرة التي نلقاها في التهذيب .

ثمة فرق آخر وهو أن الفضيلة عند الجاحظ تخضع لمفهوم الوسط الخلقى الذي سبق اليه أرسطو ، أما كتاب التهذيب فلا نجد مفهوم الوسط الخلقى واضحاً فيه .

وينبغي الإشارة الى فرق ثالث وهو أن كتاب تهذيب الأخلاق ينزع نزعة مثالية بينما رأينا الجاحظ ذا نزعة واقعية بارزة .

١- المصدر عينه ، ص ١٥-١٨ .

٢- تهذيب الأخلاق ، ص ١٨-٢٤ .

٣- المصدر عينه ، ص ٢٤-٣٠ .

وأخيراً يتحدث كتاب التهذيب عن الفقه والنسك والتصوف وما إلى ذلك من أخلاق التسامي والزهد والابتعاد عن اللذات . وهذا ما لا نجده في أخلاق الجاحظ التي تنحو نحواً طبيعياً ولا تبخس اللذة حقها ولا المنفعة استحقاتها . فنقرأ في كتاب التهذيب مثلاً « وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنسك وأهل الورع والواعظين ، ويلتزم مجالس الرؤساء وأهل العلم . . . وينبغي له أيضاً أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة وأخبار الزهاد والنسك وأهل الورع ، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلقاء والمتهتكين ومن يكثر الهزل واللعب ، وأكثر ما يجب تجنبه السكر ، فأولى الأشياء لمن طلب الفقه هجر الشراب بالجملة » <sup>(١)</sup> . وفي أماكن أخرى ينهى هذا الكتاب عن استماع القيان ومغازلتهم لأن ذلك يثير الغريزة الشهوة <sup>(٢)</sup> .

إن هذه النفحة الزهرية التي تترأى في كتاب تهذيب الأخلاق تناقض مذهب الجاحظ الخلقي ولا تتلاءم مع حالته النفسية وسلوكه الاجتماعي . لقد دعأ أبو عثمان صراحة إلى الشراب ، وقد أتينا على ذكر رسالته في النيذ أو الشارب والمشروب والمديح الذي كاله فيه والدعوة التي وجهها لشربه نظراً للفوائد التي لا تحصى التي يجلبها للشارب . كما نراه يتحدث عن القيان وجمالهن والتسري بهن ، ويدعو إلى إباحة النظر إلى النساء للتمتع بجمالهن لأن الدين لم يحرم ذلك ثم إنه لم يدع إلى الزهد ولم ينصح به ولم يعرفه في حياته وسلوكه .

٥ - في خاتمة كتاب التهذيب نجد وصفاً « للإنسان التام » إنه الإنسان الجامع لمحاسن الأخلاق والذي لم تشنه رذيلة . هذا الإنسان قلما يوجد لأنه أشبه بالملوك منه بالإنسان . ولكنه إذا لم يوجد فهو ممكن الوجود ، وهو الغاية التي سينتهي إليها الإنسان عبر تطوره ورقبه <sup>(٣)</sup> .

١-تهذيب الأخلاق، ص ٣٦-٣٧.

٢- المصدر عينه ، ص ٣٨ .

٣- المصدر عينه ، ص ٤٥ .

ان فكرة الإنسان التام لم تختصر على بال الجاحظ ولا نجد لها أثراً في جميع كتبه التي انتهت اليها ، إنه على العكس يقول ان الأخلاق طباع وهي بذلك غير قابلة للتحويل والانقلاب . فالإنسان سيظل مطية لمنفعته ولذته وسيظل نهياً لمخاوفه وشهواته .

ثم ان السبيل إلى الكمال - حسب كتاب تهذيب الأخلاق - هو النظر في العلوم الحقيقية والإحاطة بماهيات الأمور وكشف عللها وأسبابها وتفقد غاياتها ونهاياتها<sup>(١)</sup> . وبذلك يكون قد ربط الأخلاق ربطاً حكماً بالمعرفة كما فعل سقراط من قبل . أما الجاحظ فيذهب إلى أن العقل إذا قوي يستطيع أن يقف في وجه الشهوات أو يحد من طغيانها ، ولكنه لا يستطيع أن يغير الطباع ، بل نراه يقر أن العقل قد يرشد ولكنه يبقى عاجزاً عن إصلاح النفس .

هناك فكرة أخرى وردت في نهاية التهذيب وقال بها الجاحظ من قبل وهي الدعوة إلى الاعتدال وتجنب السرف والإفراط . ولكنها على ما يبدو ليست معتبرة أساساً للأخلاق كما هو الحال عند الجاحظ وإنما هي مجرد نصيحة ، فما أشبه هذا الكلام الوارد في التهذيب بكلام الجاحظ ذاك الذي مر بنا « وينبغي للإنسان التام ، ولمن طلب التمام أيضاً ، أن يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً يقصد فيه الاعتدال وتجنب السرف والأفراط ، ويعتمد من الشهوات واللذات المعتدلة ما كان من الوجوه المرتضاة المستحسنة »<sup>(٢)</sup> .

ولا بد لنا من الإشارة إلى مسألة هامة وقعنا عليها في كتاب « تهذيب الأخلاق » هي الدعوة إلى محبة الناس أجمعين والتودد إليهم والتحنن عليهم والرفقة بهم ، لأن

١- المصدر cited ، ص ٤٦ .

٢- تهذيب الأخلاق ، ص ٤٧ .

الناس قليل واحد متناسبون تجمعهم الرابطة الإنسانية ، ويشتملون جميعاً على تلك  
الهبة الإلهية أي النفس العاقلة ، وبها صار الإنسان إنساناً ، وهي أشرف جزئي  
الإنسان أي النفس والجسد <sup>(١)</sup>.

ان هذه النزعة الإنسانية المشبعة بالمحبة والرحمة والقائلة بالثنائية أي تركيب  
الإنسان من نفس وجسد تشير الى مدى تأثير صاحب الكتاب بالمسيحية .

يمكننا أن نخلص الى القول ان كتاب تهذيب الأخلاق ليس على الأرجح  
للجاحظ ، وإذا كان يتضمن الكثير من آراء الجاحظ في الأخلاق فهذا دليل على مدى  
تأثيره في المفكرين الذين أتوا بعده ومنهم يحيى بن عدي <sup>(٢)</sup>.

---

١ - المصدر عينه ، ص ٥٣ .

٢ - عن ابن عدي ، راجع مثلاً : A . perier , yahya ben adi , un philosophe arabe chretien de x  
siecle , paris.1920.

## الفصل الثاني الاجتماع

### أ- أسس الاجتماع :

يدرس علم الاجتماع المجتمعات البشرية من نواحيها التركيبية والوظيفية . تتناول الناحية الأولى عدد السكان وتوزيعهم حسب المناطق والأرياف والمدن والقرى والمهن والجنس والأعمال والأعمار الخ . . . كما تتناول تأثير البيئة في السكان وتأثير السكان في البيئة وتتناول الناحية الثانية النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والمنزلية .

وعندما يدرس عالم اجتماعي واقعة من الوقائع كالأسرة أو الجريمة أو الرق فإنها ينظر إليها بمنظاريين : منظور إحصائي عددي لأن المجتمع يتألف من مجموعة أفراد يؤثر عددهم في حياتهم وأوضاعهم ، ومنظار تاريخي لأن الواقعة ذات علاقة بظروف المجتمع المكانية والزمانية ، وبالمعتقدات والأعراف والتقاليد .

لم يكن علم الاجتماع معروفاً زمن الجاحظ ، ولم يؤلف فيه بحثاً مستقلاً ، ولم يدع إنه يريد تأسيس علم جديد بهذا الاسم . لقد كانت أولى محاولة لإرساء قواعد هذا

العلم على يد ابن خلدون (١٤٠٦م) الذي عاش بعد الجاحظ بحوالي خمسة قرون حتى جاء أوغست كونت في القرن الثامن عشر فأنشأه علماً حديثاً متكاملًا .

أما الجاحظ فكان شأنه شأن سائر الفلاسفة الذين سبقوه يرسل أفكاراً اجتماعية ذات طابع فلسفي أكثر مما هو علمي أمثال أفلاطون وأرسطو والفارابي وابن طفيل . هذه الأفكار الاجتماعية هي التي سنحاول أن نتبينها في هذا الفصل .

يرى الجاحظ أن الأساس الذي بنيت عليه المجتمعات البشرية منذ القدم ولا تزال وسوف تبقى إلى آخر الدهر هو « حاجة الناس بعضهم إلى بعض » هذه الحاجة هي التي تدفعهم إلى التعاون فيما بينهم والتوازر على بلوغ ما يعيشهم ويحييهم ، ومعرفة ما يضرهم ، لتجنبه ودفعه<sup>(١)</sup> .

إن حاجة الناس بعضهم إلى بعض لا تقتصر على أبناء العائلة الواحدة أو القرية الواحدة أو المدينة الواحدة أو الأمة الواحدة ، في عصر من العصور ، وإنما تتجاوز ذلك كله إلى سائر الأمم وفي مختلف العصور « إن حاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد . . وإن حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا »<sup>(٢)</sup> .

ولا يعتقد الجاحظ أن أي إنسان مهما كان شأنه يستطيع أن يبلغ حاجته بنفسه دون الاستعانة بسائر الناس . وهو في هذا يخالف ابن طفيل ويتفق مع أرسطو . ويقول إن الناس مهما اختلفت مهنتهم وتباينت رتبهم لا يستغني بعضهم عن بعض « إن أذناهم مسخر لأقصاهم ، وأجلهم مسخر لأذناهم ، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوق في باب ، وأحوج السوق إلى الملوك في باب وكذلك الغني والفقير ، والعبد وسيد »<sup>(٣)</sup> .

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٢-٤٣ .

٢- الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٣ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٤٤ .

أما الحاجات التي اعتبرت أسس الاجتماع فيقسمها أبو عثمان الى قسمين :

١- حاجات ضرورية لا تقوم الحياة بدونها كالطعام والشراب واللباس والعتاد .

٢- حاجات إضافية تهدف الى اللذة والازدياد في الأكلة والمتعة .

غير أن الجاحظ يلاحظ أن حاجة الناس بعضهم الى بعض لم تقض على عداواتهم ، وهذا ما دعاه الى التفكير في أسباب هذه العداوات التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات فيرى أن أسباب العداوات أنواع « فمنها المشاكلة في الصناعة ، ومنها التقارب في الجوار ، ومنها التقارب في النسب ، ومنها عداوة الساكن للمسكن والفقير للغني . . . »<sup>(١)</sup> .

ان الجاحظ يشير الى أسباب الصراع داخل المجتمعات وهي التي ركز عليها ماركس حديثاً والتي سماها بصراع الطبقات . فطبقة الفقراء تناصب طبقة الأغنياء العدا بسبب عدم عدالة التوزيع في الثروات ، وان الساكن يكن العدا لصاحب المسكن لأنه يستغله ، أما سبب عداوة أصحاب الصناعة الواحدة فهو المنافسة في الإنتاج وتصريف السلع واجتذاب الزبائن . ولا نستطيع أن نعلل عداوة الإنسباء والجيران إلا بالاكتظاظ السكاني الذي ينتج عنه المضايقات والاحتكاك وبالتالي الخصومات والشحناء . وكنا نود أن يتوسع الجاحظ بشرح هذه الأسباب ، ولكنه اعتذر عن نقصه هذا بالتطويل مع اعترافه بأن لكل سبب منها تفسيراً وشرحاً .

## ب- طبقات المجتمع :

ان المجتمع العباسي في القرن التاسع الميلادي هو مادة الجاحظ أو موضوع أبحاثه الاجتماعية . لقد تناول هذا المجتمع كما رآه أمامه بأوضاعه القائمة آنذاك دون التفات الى الماضي أو المستقبل . أي انه لم يعن بالنواحي التاريخية الماضية ، كما لم يهتم

---

١- المصدر عينه ، ج ٧ ، ص ٩٦ .

بالأمور التي ستحدث لهذا المجتمع في المستقبل . ان الواقعية هي التي تهيمن على تفكيره ، ولهذا لن نتظر منه دراسة المجتمع من خلال التطور التاريخي كما هو الحال عند إبن خلدون وهيجل وماركس ، ولن نتظر منه نزعة إصلاحية تقود خطاه كما هو الحال عند أفلاطون والفارابي . ان كل ما فعله هو انه وصف مجتمع عصره وصفاً واقعياً دقيقاً الم بمختلف طبقاته وفتاته ونواحيه .

إنه مجتمع يتكون من عنصرين أساسيين هما العرب والعجم . والعجم يتنمون الى أمم مختلفة أهمها الفرس والهنود واليونان والأترك والزنج . أما العرب فهم أصحاب الدولة إذ منهم الخلفاء ، وهم أمة واحدة تربطهم أواصر متينة تتمثل بوحدة الأرض والأخلاق واللغة والطبائع . « العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، واللغة واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك ، والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق ، من جهة الخزولة المرددة والعمومة المشتبكة ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء ، فهم في ذلك وبذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشئائل والمرعى والراية والصناعة والشهوة »<sup>(١)</sup> . وعلى الرغم من هذه الوشائع التي تربط بين العرب ، فقد كثرت بينهم الخصومات والانقسامات ومرجعها الى أربعة هي العصبية القبلية ، والتعصب الطائفي والمنافسة على الرياسة ، والتدخل الأجنبي<sup>(٢)</sup> . لقد انقسموا بين عدنانية وقحطانية ، وعثمانية وعلوية وهاشمية وأموية . وقد تكلم الجاحظ على هذه الانقسامات في « رسالة العدنانية والقحطانية » وفي « رسالة العثمانية » وفي « رسالة فضل هاشم على عبد شمس » وفي « رسالة الحكمين » وغيرها .

وشكل قسم من المعجم الذين وقعوا أسرى أثناء الحروب ، أو أتى بهم عن طريق

١ - البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٦ .

٢ - الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

التجارة من الأصفاق النائية ، طبقة الرقيق ، وكان عدد أبناء هذه الطبقة كبيراً ، وكان لهم تأثير عظيم في الحياة الاجتماعية ، كانوا يعملون في خدمة أسيادهم بالبيوت ، وكانوا يعملون أيضاً بالزراعة والصناعة ، واحترفوا الغناء والرقص ، وساهموا في انتشار المجون والتهتك كما يبدو في رسالة « مفاخرة الجوارى والغلمان » وغيرها من كتب الجاحظ .

وظهرت الخصومة بين العرب والعجم ، وعرفت على الصعيد الفكري والاجتماعي والسياسي باسم الشعبية . وقد تكلم الجاحظ على الشعبية في « البيان والتبيين » وفي رسالة « فخر السودان على البيضان » و « رسالة مناقب الترك » وغيرها . وقد أتينا على ذكر أسبابها ومراميها والدعاوى التي كانت تروج لها أو تنشرها <sup>(١)</sup> . ولا يهمنا الآن سوى تبيان موقف الجاحظ منها .

وقف الجاحظ في وجه الشعبية لأنها تدعو الى البغضاء والتناحر بين أبناء الشعوب المختلفة . وأعلن أن الغاية التي رمى اليها من كلامه عن الشعبية هي محاربة التفرقة بين الأمم ومكافحة العداء والأحقاد التي تثيرها ، ثم الدعوة الى الألفة ونزع أسباب الخصومات من الصدور . وقد أفصح عن مرماه بقوله : « وكتابتنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولتزيد الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغير بعضهم مغيرة ، ولا يفسده عدو بأباطيل عموه وشبهات مزورة ، فإن المناق العليم والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لهم الباطل في صورة الحق ، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم . . . » <sup>(٢)</sup> .

---

١ - انظر الباب الأول من هذا البحث .

٢ - مناقب الترك ( رسائل الجاحظ ) ج ١ ، ص ٧٥ .

ويذهب الجاحظ الى أن البشر وإن اختلفت أجناسهم ولغاتهم وهيئاتهم فهم لم تختلف حقائقهم ومعانيهم<sup>(١)</sup>. وكأنه يقول ان رابطة الانسانية هي التي تربطهم وتجمع بينهم. ويأتي بحجج عقلية يستقيها من القرآن والسنة ليثبت أن جميع الشعوب ذات أصل واحد ، ثم ان المولى الذي يعيش مع العرب يصبح منهم ويلتصق نسبه بنسبهم عملاً بالحديث النبوي : مولى القوم منهم<sup>(٢)</sup>. وقد جاء في القرآن أن إسماعيل - أبا العرب - عجمي الأبوين ، فأصبح العرب والعجم من أصل واحد ، وبهذا يؤيد الجاحظ ما ادعاه الترك حول نسبهم<sup>(٣)</sup>.

وهو يؤكد أن الله خلق جميع الناس ، ولم يشأ أن يفضل قوماً على قوم أو أمة على أمة : « وله أن يجعل من عباده من شاء عربياً ومن شاء عجمياً ، ومن شاء قرشياً ومن شاء زنجياً ، كما له أن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ومن شاء خثى ، ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكراً ولا أنثى ولا خثى . وكذلك خلق الملائكة وهم أكرم على الله من جميع الخليفة . وخلق آدم فلم يجعل له أباً ولا أمساً ، وخلق من طين ونسبه اليه ، وخلق حواء من ضلع آدم وجعلها له زوجاً وسكناً . وخلق عيسى من غير ذكر ونسبه الى أمه التي خلقه منها . . . »<sup>(٤)</sup>. ويخلص الجاحظ الى هذه المعادلة التي ينتج عنها أن جميع الأمم شيء واحد : « وإذا كان الأمر على ما وصفنا فالنبوي خراساني . وإذا كان الخراساني مولى ، والمولى عربي ، فقد صار الخراساني والنبوي والمولى والعربي واحداً »<sup>(٥)</sup>.

وخير للبشر أن يقتنعوا بهذه الأفكار . فإذا اقتنعوا بها عم التسامح النفوس وذهبت الأحقاد ، ولم يبق إلا التحاسد والتنافس الذي نراه بين المتقاربين والمتجاورين .

١- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٣٠ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ص ٣٠ .

٣- مناقب الترك ( رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣١ ) .

٤- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٣٢ .

٥- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٣٤ .

ويرى الجاحظ أن الحاجة إلى التعاون بين الناس أقوى من دوافع الخصومات والتناذب ولذا كانت الغلبة دائماً للتآلف من التنافر<sup>(١)</sup>. وإذا الغينا الفوارق بين الشعوب فينبغي أن نفتش عن الأسباب فإننا لا بد من أن نجد عللاً تقابل هذه الفوارق وتفسر تلك المعاني. فاليونان اهتموا بالفلسفة وتفرغوا للنظر في الأسباب والعلل لأنهم لم يكونوا تجاراً أو صناعاً بأكفهم ، ولا أصحاب زرع وبناء وغرس ، ولا أصحاب جمع ومنع وحرص وكد ، وكان الملوك يفرغون المفكرين ويجرون عليهم كفايتهم ، فانصرفوا للتفكير في أنفسهم ، فاستخرجوا الآلات والأدوات والملاهي ، واخترعوا من المنافع القرسطونات والقبانات والاسطرلابات وآلة الساعات والبركار والمزامير والمعازف والطب والحساب واللحون وآلات الحرب كالمجانيق والعرادات والرتيبات والدبابات وأكثر النفط وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

والصينيون برعوا بالصناعة وأجادوا الأصباغ العجيبة والتصاوير الرائعة والمنحوتات المدهشة ، كما أجادوا الخط والنسخ ، لانهم كانوا يتولون ذلك بأكفهم ويعانون ولم يكونوا أصحاب نظر وفلسفة<sup>(٣)</sup>.

والعرب وجهوا قواهم لقول الشعر واللغة وقيافة الأثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم وتعرف الأنواء والبصر بالخيال والحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس ، فبلغوا في ذلك الغاية وأدركوا كل أمنية. ولم يكونوا أصحاب تجارة أو صناعة أو طب أو حساب أو فلاحه لخوفهم من صغار الجزية ، ولم يكونوا فقراء فقراً مدقماً ولا أغنياء غنى يورث البلادة . كانوا أصحاب أذهان حداد ونفوس أبية وإحساس مرهف ، وكل هذا يتلاءم مع حياة البداوة والقيافي ، ويعين على النبوغ بالأدب<sup>(٤)</sup>.

١- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٣٥ .

٢- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٧-٦٩ .

٣- المصدر عنه ، ج ١ ، ص ٦٩ ، انظر حول مزايا الأمم ، مجلة لغة العرب ، بغداد ، مج ٩ / ٢ / ١٩٣١ .

٤- مناقب الترك ، ( رسائل الجاحظ ، ج ١ ص ٣١ ) .

والترك لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ، ولا  
البنان وشق الأنهار وجباية الغلات ، كانوا أصحاب عمد وسكان فياف وأرياب  
مواش ، وهم أعراب المعجم . ولم يكن مهمهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل  
ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم . وبهذا عرفوا وعليه قامت مفاخرهم جميعاً<sup>(١)</sup> .

أما الفرس فقد اهتموا بالملك والرياسة ، فنظموا الإدارة ووضعوا القوانين  
الدقيقة المحكمة<sup>(٢)</sup> .

وفي النهاية يعتبر الجاحظ أن الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم  
أربعة هي : العرب والهند وفارس والروم<sup>(٣)</sup> .

### ج - السياسة :

١- لن نتكلم هنا عن الإمام أو الرئيس الذي يسوس الناس ، من ناحية اختياره  
أو طريقة تنصيبه ، وآراء الفرق الدينية المختلفة في نظرتها إلى الإمامة . إذ سبق وبحسنا  
عن ذلك في نظرية الإمامة عند الجاحظ . وستقصر الكلام على كيفية تدبير الأمور  
وتصريفها .

إن السياسة تعني ، عند الجاحظ ، رعاية مصالح الناس ، وتدبير أمورهم ،  
من قبل الإمام أو الرئيس أو السلطان ، وذلك بأن يجمع شملهم ، ويكفيهم ،  
ويحميهم من عدوهم ، ويمنع ضعيفهم من قويهم . . . . . وكذلك فرض على الائمة  
أن يحوطوها (عامة الناس) بالحراسة لها والزيادة عنها برد قويها عن ضعيفها ، وجاهاها  
عن عالمها ، وظالمها عن مظلومها ، وسفيعها عن حليمها ، فلولا السانس ضاع  
المسوس ، ولولا الراعي لهلكت الرعية<sup>(٤)</sup> .

١- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٣٢ .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٧١ .

٣- البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

٤- النساء (آثار الجاحظ ، ص ١٠٧) .

يشدد الجاحظ على ضرورة الرئاسة ، فيقول ان وجود السلطان ضروري للحفاظ على ارواح الناس وأملاكهم ، ولتدبير أمورهم وحمائتهم من أعدائهم ، ومنع ضعفهم من قوتهم . وإذا لم يكن هناك سلطان أو ملك أو إمام اضطرب نظام المجتمع ، وسطا القوي على الضعيف وعمت الفوضى مختلف مرافق الحياة<sup>(١)</sup>.

والرئاسة أمر طبيعي أوجده الله في جميع مخلوقاته طبعاً فيهم رعاية لهم وصوناً لمصالحهم . إننا نجد في البهائم رئيساً لكل جنس منها يوردها ويصدرها الماء ويقودها إلى الكلاء كالعير في العانة ، والفحل في الأبل ، والملكة في النحل<sup>(٢)</sup>.

ويركز أبو عثمان على وحدة الرئاسة ، فلا يصح ، بنظرة ، أن يعتلي سدة الحكم رئيسان معاً ، والسبب في ذلك هو أنه إذا وجد رئيسان فإنها لا يلبثان أن يتنازعا ، وتتضارب آراؤهما وتصرفاتهما ويتحول ذلك إلى قتال : « ان افراد السيد بالسيادة كافراد الإمام بالإمامة ، وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة وتكون الألفة ، ويصلح شأن الجماعة . وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء وانقطعت الأهواء»<sup>(٣)</sup>.

ويتحدث الجاحظ عن صفات الرئيس وكيفية معاملته للرعية<sup>(٤)</sup> . ويذهب إلى أن أساس التدبير الرغبة والرهبة ، ذلك لأن الناس طبعوا على هذين الأصلين ، ولا بد لصاحب السلطان من مراعاتها في معاملتهم . ان الناس برأيه لا يتقادون إلا لمنافعهم (الترغيب) ولا يخضعون إلا لصاحب القوة (الترهيب) . والمثال على ذلك ما جاء به القرآن من الوعد والوعيد . فالوعد هو الترغيب بالجنة والوعيد هو الترهيب من النار ، ولنسمعه يشرح فكرته فيقول : « فعلم الله أنهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا يتقادون

١- المصدر عينه ، ص ١٠٧ .

٢- المصدر عينه ، ص ١٠٧ .

٣- المصدر عينه ، ص ١٠٨ .

٤- راجع بشأن السياسة عند الجاحظ : J. Rosenthal the political thought in Medieval Islam , Cambridge , 1982, P.75.

إلا بالتأديب ، وأن التأديب ليس إلا بالأمر والنهي ، وأن الأمر والنهي غير ناجعين فيهم إلا بالترغيب والترهيب اللذين في طبائعهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنته ، وجعلها عوضاً عما تركوا في جنب طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالنار عن معصيته ، وخوفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جل ثناؤه والطباع الأول جبروا على سنن الفطرة وعادة الشيمة <sup>(١)</sup> .

وعلى هذا الأساس يبنى الجاحظ آراءه ويقول أن الناس إذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم يطيعوا إلا بالرغبة والرهبة ، فأعجز الناس رأياً ، وأكثر الحكام خطأ من ظن أو أمل أن أحداً من الخلق يصح في تدبيره شيء غير الترهيب والترغيب ، أن الرغبة والرهبة أصلاً كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت أو صغرت <sup>(٢)</sup> .

على أن سياسة الترغيب والترهيب ينبغي أن تتم ضمن حدود العدالة . وهذا المبدأ كرسه القرآن حيث يقول : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة شراً يره (الزلزله ، ٨) ﴾ <sup>(٣)</sup> . وأساس العدالة معاملة الجميع على قدم المساواة ، أو عدم المحاباة ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وتطبيق القانون الذي يثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على أساءته <sup>(٤)</sup> .

وتقتضي العدالة أيضاً أن لا يؤثر صاحب السلطان بعض الناس على بعض إلا بالاستحقاق والبلاء . أما إذا أثر ناساً لهُوى ، فإن هذه الأثرة توجب سخط من أثر ومن أثر عليه . أما من أثر فيترقب أن ينتقل هوى الحاكم إلى سواه كما انتقل إليه ، ولذلك نراه مدخول القلب من مودة الحاكم غير أمن تغيره . وأما من أثر عليه بعد الاستحقاق منه فهو يطعن على الحاكم ويعتبر نفسه مظلوماً .

أما الصفات الخلقية التي ينبغي أن تتوافر في صاحب السلطان فهي الحذر وعدم التوكل على الأقدار <sup>(٥)</sup> ، ثم الجود الذي يتوسط التبذير والبخل ، ولن يكون ثمة جود إلا إذا وجد المال ، ولهذا ينصح الجاحظ الحاكم بشير المال لأن من فقد ماله قلت الرغبة فيه والرهبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره <sup>(٦)</sup> .

١- المعاش والمعاد ، (الرسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٠٤) .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

٤- المصدر عينه ، ١٠٧ .

٥- المصدر عينه ، ص ١١١ .

٦- المصدر عينه ، ص ١١٢ .

ويقدم الجاحظ إرشادات قيمة لصاحب السلطان في معاملة الأصدقاء والأعداء . منها ابتداء العدو بالحسنى وإلا فبالتحصن له ، وإلا فبالاستعداد لمجابهته . أما الصديق فينبغي المحافظة عليه ومساعدته عند الحاجة وعتابة إذا أساء ، والاستمرار بزيارته لتنفذ أحواله <sup>(١)</sup> .

وهناك صفات عديدة ينبغي أن يتحلّى بها الحاكم كالشجاعة والحلم والصبر والصدق ، وهي الصفات التي تستحسن في الإنسان من عامة البشر فكيف يمكن الاستغناء عنها في الحاكم ؟ <sup>(٢)</sup> .

ويركز الجاحظ على صفة الحزم في الرئيس ، وهي الصفة الأساسية التي ينبغي توافرها « لأن أي رئيس كان خيره محضاً عدم الهيبة ، ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأجبا في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الرب في تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه . . . » <sup>(٣)</sup> .

والجاحظ يشير بهذا إلى مسألة الوعد التي عول عليها المعتزلة وتشددوا بها ، وتقضي بتطبيق قاعدة العقاب والثواب بحيث يعاقب الله المذنب على خطئه ويشيب المحسن على إحسانه .

ومهما كان الأمر ، يرى الجاحظ أن السياسة أمر صعب ، وإنه ليس من عمل

أكد لأهله من سياسة العوام . ويستشهد بقول الهذلي :

وإن سياسة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلبها طويل <sup>(٤)</sup> .

---

١ - المعاش والمعاد ، ( رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١١٥ .

٢ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١١٤ - ١٣٣ .

٣ - الحيران ، ج ١ ، ص ٨٧ .

٤ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

٢- وثمة موضوع يتعلق بالسياسة هو الوطنية . وقد ألف الجاحظ رسالة عنوانها «الحنين إلى الأوطان» يتحدث فيها عن تعلق المرء بوطنه ، ويرى أن هذا التعلق فطرة فيه ، ويستدل على ما يذهب إليه بأقوال الفلاسفة والعظماء والشعراء . ويضرب مثل الحضري الذي يولد بأرض وبراء قليلة الخصب ، إذا سافر إلى بلاد أخصب وأطيب مناخاً واستفاد غنى حن إلى مستقره وعاد إلى وطنه <sup>(١)</sup>.

وخبرنا أن العرب كانوا إذا غزوا أو سافروا حملوا معهم حفنة من تربة بلادهم يستشقونها إذا أحسوا بزكام أو صداع أو نزلة <sup>(٢)</sup>.

والأعراب يجدون الغبطة والسعادة كلها في ملازمة أوطانهم والجلوس مع إخوانهم وكذا الكفاية أو عدم الحاجة . كما يجدون الذلة في الابتعاد عن الأوطان والتنقل في البلدان . وقد عبر شاعرهم عن فرحة الأوبة إلى الوطن بعد الغياب عنه :  
فألقت عصاها واستقر بها النوى      كما قر عينا بالإياب المسافر <sup>(٣)</sup>.

ولحب الأوطان حسنة كبرى هي رضا الناس ببلدانهم مهما كانت رديئة . ولولا ذلك لاندفعوا إلى التنافس إلى البلدان الطيبة المناخ والخصب ولانساقوا إلى التحارب والتفاني <sup>(٤)</sup>.

٣- وفي سياق كلامنا عن السياسة عند الجاحظ لا بد من الإشارة إلى كتاب نسب إليه عنوانه «التاج» يدور حول موضوع السياسة . وقد شك بعض الباحثين في صحة هذه النسبة وقالوا إن الكتاب منحول ، أو ليس له . ويبدو للنظر الأولى أن أسلوب الكتاب لا يبتعد كثيراً عن أسلوب الجاحظ وكذلك التبويب لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن طريقة الجاحظ في التأليف . ثم إن حشد المعلومات من هنا وهناك

---

١- الحنين إلى الأوطان ، ص ١٠ .

٢- المصدر عينه ، ص ١٤ .

٣- المصدر عينه ، ص ٣٦-٣٧ .

٤- كتاب البلدان ، ص ٤٦٤ .

والإكثار من الرواية هو ما نعهده عند الجاحظ في مختلف مؤلفاته . وقد يوهم أن الكتاب للجاحظ ما ورد في مقدمته من ذكر كتاب الفه الجاحظ يتحدث فيه عن أخلاق الفيان وفضائل أهل البطالة<sup>(١)</sup> . كما نجد في التاج عبارة وردت حرفياً تقريباً في البيان والبيان وهي التالية : « ان مدار الأمر والغاية التي يجري اليها الفهم والإفهام والطلب والثبت . . . »<sup>(٢)</sup> .

يقول صاحب التاج أن مصدر السطان هو الله فهو الذي « خص الملوك بكرامته وأكرمهم بسلطانه ، ويمكن لهم في البلاد وخواطهم أمر العباد »<sup>(٣)</sup> .

وعلى الرعية طاعة الملك وتبجيله ، وهذه الطاعة واجب يؤديه المرء نص عليه كتاب الله تبعاً للآية : ﴿ إطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر فيكم ﴾ (النساء ، ٥٩)<sup>(٤)</sup> . ولكن هل يجب على الرعية إطاعة الملك إذا عصا الله أو ظلم الناس ؟ يجب مؤلف التاج أن على الناس في مثل هذه الحال أن ينبهوا الملك إلى خطأه وظلمه بأسهل القول وألين اللفظ وأحسن المخاطبة<sup>(٥)</sup> .

ويقر المؤلف بأن الأفكار التي أوردها والمعلومات التي ضمنها كتابه إنما استقها عن الفارسية لأن المعجم هم الذين سبقوا إلى وضع قوانين الملك والسياسة وعنهم أخذها العرب<sup>(٦)</sup> . ولذا نراه يتحدث عن تقاليد ملوك الفرس أولاً ثم يردف ذلك بالحديث عن أعراف ملوك العرب بصدد الموضوعات التي يعالجها وهي الدخول على الملوك ومطاعمتهم وصفات الندماء وآدابهم .

ونخبرنا أن الناس في عهد ملوك الفرس كانوا أربع طبقات هي : طبقة الأساورة

١- التاج ، ص ١١ .

٢- المصدر عينه ، ص ٦٢- البيان والبيان ج ١ ، ص ٥٥ .

٣- المصدر عينه ، ص ١٠ .

٤- التاج ، ص ١٠ .

٥- المصدر عينه ، ص ١٢ .

٦- المصدر عينه ، ص ٣١ ، ص ٨٠ .

وطبقة النساك ومسند بيوت النيران ، والطبقة الثالثة هي طبقة الكتاب والمنجمين ، والرابعة هي طبقة الزناح والمهان وأضرابهم <sup>(١)</sup> . فلما أفضى الحكم الى العرب ونشأت الخلافة الغيت تلك الطبقات <sup>(٢)</sup> .

أما القوانين التي يجب على الملك أن يطبقها فهي الشريعة الإسلامية ولكن ينبغي على الملك إلا يعاقب وهو غضبان ، كما يجب أن تكون العقوبة بمستوى الذنب المرتكب <sup>(٣)</sup> . ويشير الى أن منصب الملك هو ديني وفي آن واحد ولذا كان من حقه أن يصلي في الناس لأنه الإمام <sup>(٤)</sup> .

لقد تطرق لنحل كتاب التاج كل من أحمد زكي وشارل بلا . ويذهب أحمد زكي الى أن الكتاب من وضع الجاحظ ، وإذا لم يرد اسمه في قائمة كتبه فلأن كلمة تاج أضيفت فيما بعد (بعد موت الجاحظ) الى كتاب معروف للجاحظ هو كتاب أخلاق الملوك . وقد ورد اسم هذا الكتاب في المراجع القديمة ، يعني كتاب أخلاق الملوك <sup>(٥)</sup> .

ويورد أحمد زكي عدة أدلة على صحة نسبة الكتاب للجاحظ : منها الشبه الموجود بين أسلوب كتاب التاج وسائر كتب الجاحظ ، ففي أسلوب الكتاب استطراد وتكرار وحلاوة <sup>(٦)</sup> وهي ميزات اتصف بها أسلوب الجاحظ . ومنها ما نقل الى الكتاب من مؤلفات الجاحظ كالبيان والبخل والخير من أخبار ونوادر وتعاير <sup>(٧)</sup> . ومنها أخيراً ذكر أسماء بعض كتب الجاحظ في كتاب التاج مثل كتاب القيان ، وكتاب فضائل أهل البطالة <sup>(٨)</sup> .

---

١ - المصدر عينه ، ص ٣٣ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٣٨ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٦٠ .

٤ - المصدر عينه ، ص ٨٤ .

٥ - كتاب التاج في أخلاق الملوك (تحقيق احمد زكي باشا ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٤) ص ٣٢ .

٦ - المصدر عينه ، ص ٣٧ ، ٤٠ ، ٧٣٢ .

٧ - المصدر عينه ، ص ٤٠ .

٨ - المصدر عينه ، ص ٥٩ .

أما المستشرق شارل بلا فيؤكد العكس ويقول ان كتاب التاج منحول ويخطئ. أحمد زكي فيما ذهب اليه . ويرى أن ما ورد في كتاب التاج من أن كاتبه أهدها إلى الفتح بن خاقان لا يشكل دليلاً على صحة نسبته إلى الجاحظ ، والدليل على أن الكتاب ليس للجاحظ - بنظر بلا - هو أن مؤلفه يبدي إعجاباً بالفرس ، والجاحظ لم يكن معجباً بهم ، وكثيراً ما هاجمهم بسبب شعوبيتهم . ثم ان الكتاب ينتمي إلى نوع الآداب الفارسية إذ يدور حول الملك وحاشيته ، والعنصر العربي فيه ضعيف . والجاحظ قام بردة فعل ضد الثقافة الفارسية التي حاول إدخالها إلى الأدب العربي أمثال عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع ، ولم يمنح تلك الثقافة سوى قليل اهتمام ، والتفت هو العناصر الإنسانية القيمة المتمثلة في الثقافة العربية ، وأضاف إليها قليلاً من الثقافة اليونانية لأنه لم يجد خطراً فيها<sup>(١)</sup>.

وثمة دليل آخر يدعو إلى القول إنه منحول هو اختلاف أسلوبه عن أسلوب الجاحظ . ان لغة الكتاب فقيرة ، وأسلوبه ثقيل ، وليس فيه ذلك الترادف الذي نعهده في أسلوب الجاحظ<sup>(٢)</sup> . الواقع هو ان كتاب التاج منحول وليس من وضع الجاحظ ، وقد نسب مؤلفه إلى الجاحظ مدفوعاً بعصبية شعوية فارسية ، على الأرجح ، ليثبت أن الجاحظ معجب بالفرس ونظمهم وآدابهم ، ولينخفف من حملة الجاحظ على الشعبية<sup>(٣)</sup>.

وقد بذل مؤلف الكتاب ما بوسعه لمحاكاة أسلوب الجاحظ ، شأنه في ذلك شأن جميع المزيفين . ولذا نراه يستعمل بعض تعابير الجاحظ الواردة في بعض كتبه مثل العبارة التالية : « أنت تجده ذلك عياناً ، وتشهد عينك بياناً »<sup>(٤)</sup> ، ومثل العبارة « وإنما مدار الأمر والغاية التي إليها تحري الفهم والإفهام والطلب ثم التثبت »<sup>(٥)</sup> . كما نجده

١ - le livre de la couronne ( traduit par ch . pellat , paris . 1954 ) pp.88

٢ - المصدر عينه ، ص ١٧ .

٣ - كتاب التاج في اخلاق الملوك . تحقيق فوزي عطوي ، ص ١٤ . الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ١٩٧٠ .

٤ - المصدر عينه ، ص ٦٢ .

يقحم أسماء بعض كتب الجاحظ إقحاماً دون مبرر ويناقض رأي الجاحظ في تقويم موضوعات كتبه ، فبينما نراه يدافع في مقدمة كتاب الحيوان عن الكتابة في الموضوعات الشعبية ، نرى صاحب كتاب التاج يقول « ومنها أنا الفنا كتاباً ، قبل كتابنا هذا ، فيه أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة ، وكان غير ذلك أولى بنا وأحق في مذهبنا . . . »<sup>(١)</sup>.

ومن الناحية الفكرية نجد في التاج آراء مناقضة لآراء الجاحظ حول السياسة . فالجاحظ يرى أن الإمام أو الخليفة يجب أن يختار من قبل النخبة بطريق الشورى ، ويجب أن يكون أفضل أهل زمانه ، وإذا جار أو حاد عن تعاليم الدين فيجب سبه وخلعه<sup>(٢)</sup> . أما في كتاب التاج فقد ورد أن الله هو مصدر السلطان<sup>(٣)</sup> ، وأن الملك ورائته<sup>(٤)</sup> ، وأن على الشعب أن يحل ملكه ويطيحه مهما بدر منه ولا يخاطبه إلا باللين<sup>(٥)</sup>.

ومن الناحية التاريخية ، هناك إشارة واردة في كتاب التاج ، تدل على أن واضعه عاش بعد عصر الجاحظ بقرن على الأقل . لقد ورد في كتاب التاج أن كتاب الأغاني أخبر عن مراتب الندماء والمغنين<sup>(٦)</sup> . ونحن نعلم أن كتاب الأغاني من تصنيف أبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . أي بعد موت الجاحظ بقرن من الزمان . وقد ذكر اسم لا ينطبق إلا على كتاب يوحى انه مشهور ومعروف بحيث لم يجد حاجة الى ذكر مؤلفه . وهذا لا ينطبق إلا على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

١- المصدر عينه ، ص ١١ .

٢- أنظر نظرية الجاحظ في الإمامة ص ١٨٤ من هذا البحث .

٣- كتاب التاج ، ص ١٠ .

٤- المصدر عينه ، ص ١٣٠ .

٥- المصدر عينه ، ص ١٢ .

٦- المصدر عينه ، ص ٣٢ .

٤- وتتلور نظرة الجاحظ السياسية في استعراضه وتقويمه للأحداث التاريخية التي مرت بالامة منذ الجاهلية حتى عصره .

لقد أخرج الإسلام العرب من جاهليتهم ، فوحد كلمتهم على الكتاب والسنة ، وقضى على وثنيّتهم ، وهذب أخلاقهم ، وقضى على نزاعاتهم ووطد لهم الأمن والطمأنينة في ربوعهم ونفوسهم . واستمر الحال كذلك طوال عهد النبي وأبي بكر وعمر وست وسنين من خلافة عثمان ، فلما قتل عثمان تفرق شمل الأمة وبدأت الفتن والنزاعات الدموية تعصف بها عصفاً .

يستكر الجاحظ مقتل عثمان ، ويقول ان قتله ارتكبوا جريمة شنعاء ، إذ « اجتلبوا دماً لا تطير رغوته ، ولا تسكن فورته ، ولا يموت ناثره ، ولا يكل طالبه ، وكيف يضيع دم ، الله وليه والمنتقم له » (١) .

ويزيد في شناعة تلك الجريمة الأساليب الوحشية التي لجأ إليها القتلة : لقد خبطوه بالسلاح وبعجوا بطنه بالحرايب وشدقوا هامته بالعمد ، وضربوا نساءه ، ثم وطأوا أضلاعهم بعد موته والفقوا جسده على المذبة . فعلوا ذلك بعد السب والتعطيش والمنع من القوت (٢) .

ويرى الجاحظ أن قتله عثمان خالفوا تعاليم الدين الإسلامي الذي يحرم دم المؤمن أو الفاسق ، ولا يحلل إلا قتل من ارتد عن الإسلام ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل مؤمناً على عمد ، أو رجل عدا على الناس بسيفه . وعثمان ليس من هؤلاء وإنما هو مؤمن منكب على قراءة المصحف (٣) .

وإذا سلمنا أن قتله كانوا على حق فيما قذفوه به أو ادعوه عليه ، فإنهم كان يوسعهم أن يتجنبوا قتله وذلك بأن يقتضوا منه فيحبسوه ويصادروا أملاكه (٤) .

١- رسالة النابتة (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٩) .

٢- المصدر عينه ، ص ٧-٨ .

٣- المصدر عينه ، ص ٨ .

٤- المصدر عينه ، ص ٩ .

بعد مقتل عثمان بويج علي بن أبي طالب بالخلافة ، ولكن الفتن التي بدأت بمقتل عثمان لم تتوقف . فمن يوم الجمل ، الى وقائع صفين ، الى معركة النهروان ، حتى إغتيال علي على يد عبد الرحمن بن ملجم ، فكان ذلك الحدث الجلل الثاني في تاريخ الأمة . ان رأي الجاحظ في مقتل علي كراهيه في مقتل عثمان : استنكار شديد واعتبار علي شهيداً في سبيل الدين واعتبار ابن ملجم شقياً يستحق النار واللعنة<sup>(١)</sup> .

وبعد استشهاد علي اعتزل ابنه الحسن الحرب وتحلى عن الخلافة لمعاوية بسبب تحاذل أصحابه واختلال عسكره .

ويعلن الجاحظ رفضه لخلافة معاوية لأنها لم تأت نتيجة الاختيار أو الشورى وإنما قامت على الغلبة والقهر ، ولا يقبل تسمية العام الذي استوى فيه على الملك عام الجماعة . فالجاحظ إذن يتمسك بمبدأ الشورى في اختيار الخليفة ويرفض مبدأ الملكية الوراثية . ان معاوية خالف هذا المبدأ وحول الخلافة ملكاً كسروياً قائماً على الغصب والوراثة<sup>(٢)</sup> .

والمخالفة الثانية للكتاب والسنة - بعد التخلي عن الشورى - هي اعتراف معاوية بزياد ابن أبيه أخاً له « مع إجماع الأمة أن سمية لم تكن لأبي سفيان فراشاً ، إنها كان بها عاهراً... »<sup>(٣)</sup> .

ثم يسرد الجاحظ أعمال معاوية التي تشكل خروجاً عن تعاليم الإسلام ، من قتل حجر بن عدي ، الى إطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، الى اختيار الولاة على الهوى ، الى تعطيل الحدود بالشفاعة والقرباة من جنس جحد الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوصة وانتهاء ببيعته يزيد الخليفة<sup>(٤)</sup> .

---

١- المصدر عنه ، ص ١٠ .

٢- رسالة النابتة (ضمن رسائل الجاحظ ، ص ١١) .

٣- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١١ .

٤- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١١ .

فلما ولي يزيد تفاقم الشر فغزا مكة ، ورمى الكعبة ، واستباح المدينة ، وقتل الحسين بن علي في أكثر أهل بيته مصايح الظلام وأوتاد الإسلام ، ومثل برأسه ، وحمل بنات رسول الله حواسر على الاقتاب . وقال عبيد الله بن زياد : دعوني أقتل علي بن الحسين فإنه بقية هذا النسل ، فاحسم به هذا القرن وأميت به هذا الداء وأقطع به هذه المادة . ان هذا لا يدل على حب النبي والإخلاص لدينه ، بل يدل على القسوة والبغضاء والنفاق والإيمان المزوج<sup>(١)</sup> .

ولما انتهى الأمر الى عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعاملهما الحجاج بن يوسف أمعنوا في الفساد والإثم « فأغاروا على البيت بالهدم ، وعلى حرم المدينة بالغزو فهدموا الكعبة وإستباحوا الحرمه وحولوا قبله واسط وأجروا صلاة الجمعة الى مغربان الشمس<sup>(٢)</sup> . ولا نستطيع أن نسمي هذه الأعمال إيماناً وتقوى وإنما هي دلالة على أن بني أمية لم يكونوا إلا متمردين على الله مستخفين بدينه ، متهاونين بالمسلمين .

وتنطوي صفحة جديدة من التاريخ الإسلامي ، إذ تسقط دولة الأمويين وتنهض على أنقاضها دولة العباسيين ، ويلاحظ الجاحظ أهم تحول حدث ، وهو النفوذ الفارسي ، ويشير اليه بجملة قصيرة تعبر عن نزعته العربية : « ان دولة بني العباس عجمية خرسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية . . . »<sup>(٣)</sup> .

ومع ذلك نراه يؤيد بني العباس ويذكر أخبار خلفائهم وأعمالهم دون إعتراض أو نقد ، فالمنصور كان « داهياً أريباً مصيباً في رأيه سديداً »<sup>(٤)</sup> ويظهر دهاؤه في قضائه على مثل النفوذ الفارسي أبي مسلم الخراساني وفي ضبطه أمور الدولة وأموالها . والمأمون

١- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٤ .

٢- المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٦ - ١٧ .

٣- البيان والبيان ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

٤- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

كان متكلماً حكيماً محباً للعلماء ، مدافعاً عن الدين الإسلامي ، ناصراً للمعتزلة <sup>(١)</sup> . وكذلك كان المعتصم والوائق اللذان تابعاً سياسة المأمون في محنة خلق القرآن .

ولكن تحولاً خطيراً يحدث إثر اعتلاء المتوكل سدة الحكم ، فقد راح يضيق على المعتزلة ويقرب أهل السنة الذين سيطروا على العامة والشارع وناصروا المعتزلة العداء ، فيشعر الجاحظ بخيبة الأمل والحزن ويقلق للمصير الذي آلت إليه الأمور فيدبج الرسائل التي يعتبر كل منها نداء ينذر بالخطر ويدعو إلى مقاومة الفساد والانحراف . أهمها رسالة النابتة التي وجهها إلى القاضي أبي الوليد بن أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي . وفيها يشن هجوماً على هؤلاء النابتة في عصره الذين يحبون معاوية وسائر الأمويين ويعتبرون سبهم بدعة وبغضهم مخالفة للسنة . وكأنهم برأيه يقولون « ان من السنة ترك البراءة عن جحد السنة » <sup>(٢)</sup> .

ثم ان هؤلاء النابتة - ويعني بهم الحشوية أو أهل السنة والجماعة - يقولون بالجبر والتشبيه وعدم خلق القرآن ، وهذا كله بنظره كفر وضلال « وقد كانت هذه الأمة لا تتجاوز معاصيها الإثم والفضلال ، إلا ما حكيت لك عن بني أمية وبني مروان وعمالها ، ومن لم يدن بأفكارهم ، حتى نجمت النوابت وتابعتها هذه العوام ، فصار الغالب على هذا القرن الكفر وهو التشبيه والجبر ، فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق ، وصاروا شركاء من كفر منهم بتوليهم ترك إكفارهم . . . » <sup>(٣)</sup> .

وهناك خطر آخر غير النابتة يهدد الأمة يتمثل بالشعبوية التي انقادت للعصبية وأبغضت العرب ، والعصبية برأي الجاحظ « لا تبقي ديناً إلا أفسدته ولا دنياً إلا أهلكتها » <sup>(٤)</sup> .

---

١- المصدر عينه ، ج ٤ ، ص ٧١ وما بعدها .

٢- النابتة ( ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٢ ) .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٠ .

٤- النابتة ( ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٠ ) .

وفي رسالة ثانية عنوانها نفي التشبيه يطلب الجاحظ من القاضي أبي الوليد أن ينصر المعتزلة ويضرب على أيدي المشبهة ويكبح جماح العامة الذين أخافوا علماء المتكلمين وأسقطوا شهادة الموحدين . ويذكره بفضل علماء الكلام - ويعني بهم المعتزلة - فلولاهم لم يقم الدين ولم يكن بين الباطل والحق فرق <sup>(١)</sup> . ويبلغ تحريضه عليهم ذروته عندما يقول له « وليس ينبغي لديان أن يواد من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، فمتى إذن تزول التقية ويجب إظهار الحق والزمرة للدين والمباينة للمخالفين ؟ أحين يموت الخصم ويبد أثره ويهلك عقبه ويقل ناصره ، ويحول جمع الخوف ويكون على يقين من السلامة ، وكيف يكون القائم حينئذ بالحق مطيعاً ، ولله معظماً ؟ » <sup>(٢)</sup> .

والخلاصة أن موقف الجاحظ السياسي ومحاكمته للأحداث التاريخية والراهنة في زمانه يرتكزان إلى منطلق اعتزالي . إنه يعتبر عصر النبوة عصر الصلاح واجتماع الكلمة والتوحيد الصحيح ، وينظر إلى الأحداث التي تعاقبت على الأمة بمنظار الدين والحرص على مبادئه . فهو يبني نظام الحكم على مبدأ الشورى ، ويهاجم الأمويين لأنهم خالفوا هذا المبدأ ، كما يستنكر مقتل الخليفين عثمان وعلي لأنها مسلمان مؤمنان والإسلام يحرم قتل المؤمن ، ويهاجم النابتة أو المشبهة أو الحشوية في عصره لأنهم قالوا بالتشبيه والجبر وقدم القرآن ، وكل هذا مخالف لمبادئ الإسلام بنظره . ثم إنه يهاجم الشعوبية لأنها خطر على الدين ومثار للشحناء بين الناس . ولكنه يبدو راضياً عن العباسيين لأنهم أيدوا المعتزلة ولا سيما المأمون والمعتصم والواثق . وأخيراً يطبق الجاحظ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيرى أن واجبه أن يدلل على الفساد الذي استشرى في عصره وينبه أولي الأمر إليه ، ويدعو الناس إلى رفضه ، وسب الإمام

١- نفي التشبيه (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٨٥) .

٢- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

المنحرف أو الظالم أو المخالف لتعاليم الدين ، كما ييبب بالخاصة لإقامة الإمام الأفضل مكان الإمام الفاسد<sup>(١)</sup> وبهذا يمتاز الجاحظ عن بعض المفكرين السياسيين الذين دعوا الى طاعة الإمام ولو جار أمثال الماوردي (١٠٥٨ م) ، وابن تيمية (١٣٢٨ م) وابن جماعة (١٣٣٣ م) .

٥- ويتعلق بالسياسة موضوعان أكثر الجاحظ في الكلام عنهما هما الحجابة والكتابة . لأن صاحب السلطان يحتاج في إدارته شؤون العباد الى حاجب يقف على بابه ويستقبل الناس ، والى كاتب يعلي عليه ما يأمر وينهى . وكان النبي والخلفاء الراشدون يرفضون أن يجتنبوا عن الناس ويطلبون من ولائهم وعملهم عدم اتخاذ حجاب<sup>(٢)</sup> .

وفي العصرين الأموي والعباسي عندما تعقدت أمور الدولة اصطنع الحكام حجاباً ، وأصبح لهم آداب عليهم التحلي بها أهمها التواضع ، والبشر ، واللفظ ، ورفع حوائج الناس الى الحاكم ، ومراعاة استحقاقهم ومراتبهم . وقد لخص هذه الآداب أحد الخلفاء عندما قال لحاجة : « إذا جلست فإذا للناس جميعاً علي ، وأبرز لهم وجهي ، وسكن عنهم الأحراس ، وأخفض لهم الجناح ، وأطب لهم بشرك ، وأمن لهم في المسألة والمنطق ، وارفع لهم الحوائج ، وسو بينهم في المراتب ، وقدمهم على الكفاية والغناء على الميل والهوى . »<sup>(٣)</sup>

أضف الى ذلك العلم والذكاء وطلاقة اللسان وقوة الذاكرة . وهي صفات ضرورية في الحاجب لأنه إذا كان جاهلاً سبب الضرر للحاكم ، وإذا كان غيباً لم يفهم الحاكم ما يطلبه الناس ولن يفهم الناس ما يريد الحاكم . « وإذا كان غيباً جهل

---

١- العثانية ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

٢- كتاب الحجاب (ضمن رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٣٠-٣٢) .

٣- المصدر عينه ، ص ٣٣ .

الشريف فأحله غير منزلته . وإذا كان ذهولاً متشاغلاً أدخل بها يحتاج إليه صاحبه في وقته وأضاع حقوق الغاشين لبابه « (١) » .

ولا يكتفي الجاحظ بإيراد أقوال الخلفاء والساسة العرب في الحجابة بل يورد أيضاً أقوال ملوك الفرس في ذلك . فهذا كسرى أنوشروان يعدد آداب الحاجب فيقول إنه ينبغي أن يكون رجلاً شريف النسب ، بعيد المهمة ، كريماً متواضعاً طلقاً ، جميل المنظر ، لين الكلام ، صادقاً ، وفياً في وعده ، ذكياً يفهم ، ما يقال له ، منصفاً ، مخلصاً لسيدته . أما حاجب العامة فيجب أن يكون على عكس هذه الصفات ، مخوف اليد ، خشن الكلام ، مخيفاً ، دائم العيوس ، دائم الحراسة للملك (٢) .

لقد تبوأ الحاجب منزلة رفيعة ، واعتبرت وظيفته خطيرة فهو من الحاكم وجهه ، وعينه التي ينظر بها ، وجنته التي يستند إليها ، وعرضه الذي يفرضه (٣) .

أما الكتاب فقد كان الجاحظ عدواً لدوداً لهم ، وقد أعلن عن رأيه فيهم في رسالة « ذم أخلاق الكتاب » (٤) ، وأماكن أخرى من كتبه .

## د - الاقتصاد :

لم يخلف الجاحظ أبحاثاً تندرج في موضوع علم الاقتصاد على النحو الذي نفهمه اليوم (٥) . ولكن له آراء تمت إلى الاقتصاد بصلة وثيقة يهمننا أن نستقيصها .

يرسم الجاحظ للمجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري صورة واضحة يبدو فيها التباين الكبير في المستوى الاقتصادي ، فهناك طبقتان رئيسيتان هما طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء .

١ - المصدر عنه ، ص ٣٧ - ٣٨ .

٢ - المصدر عنه ، ص ٣٩ - ٤٠ .

٣ - كتاب الحجاب ( ضمن رسائل الجاحظ ، ص ٢٣ ) .

٤ - راجع الباب الأول ، الفصل الثاني من هذا البحث ص ٣٠ - ٣٢ حول رأي الجاحظ في الكتاب .

٥ - راجع حول معنى الاقتصاد : a ) encyclopaedia universalis , vol . v , pp.938-941 .

ويلوح أن جمع المال أصبح فضيلة يحرص عليها قوم كثير والعدد في ذلك الزمان فيجدون لتحصيله وتثميته وادخاره حتى تربو ثروته بعضهم على ملايين الدارهم ومئات الألوف من الدنانير . فأحمد بن خلف مثلاً وهو أحد طباطب البخلاء يرث عن أبيه ألفي ألف درهم وستمائة ألف درهم وأربعين ومائة ألف دينار ذهباً عتيماً مشاقيل وأزنة جياداً ، سوى العروض (١) .

في سبيل جمع المال يلجأ أصحاب الجمع والمنع - على حد تعبير الجاحظ - إلى طرق من التوفير والاقتصاد طريقة غريبة يحلو للجاحظ أن يعرضها في كتاب البخلاء ، فهو يصف أحد البخلاء بأنه « كان لا يأكل إلا ما لا بد منه ، ولا يشرب إلا ما لا بد منه » (٢) . ويخبرنا عن شيخ من أهل خراسان اعتبر توصله إلى استبدال عود المسرجة بإبرة أو مسلة من الحديد هداية من الله ، لأن العود تعلق به الشعرة من قطن الفتيلة ، ويمتنع قليلاً من دهن المسرجة ، بينما لا تؤذي المسلة الفتيلة ولا تفتنيها ولا تمتص الدهن لأنها ملساء ، وفي ذلك توفير كبير للفتيلة ولدرء ضياع كمية من الدهن تكفي إضاءة ليلة خلال شهر (٣) . ويروي على لسان إبراهيم النظام نادرة مروزي مقتصد رأى إبراهيم النظام يرمي ما تبقى من قصب السكر الذي مص ماءه فاستوقفه وقال له : ان كنت لا تنور لك ولا عيال عليك ، فهبه لمن له تنور وعليه عيال ، وإياك أن تعود نفسك هذه العادة في أيام خفة ظهرك فإنك لا تدري متى يأتيك العيال (٤) . وإذا كان أهل خراسان مضرب المثل في البخل فإن أهل البصرة من المسجدين

١- البخلاء ، ص ٢١ .

٢- المصدر عينه ، ص ٢٤ . b ) lalande , Vocabulaire technique et critique de la philosophie. p.p.261-264.

٣- البخلاء ، ص ١٩ .

٤- المصدر عينه ، ص ٢٨ .

مثال الاقتصاد والتحايل على توفير المال » وقد أصبح هذا المذهب عندهم كالنفس الذي يجمع على التحاب وكالحلف الذي يجمع على التناصر . وكانوا إذا اتفقا في حلقتهم تذكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماساً للفائدة واستمئاعاً بذكره <sup>(١)</sup> .

فهذا شيخ يبتكر طريقة لتوفير الماء العذب فعمد الى حفر حفرة بالقرب من المتوضأ وملسها وأجرى اليها الماء الذي يغتسل به ويتوضأ ، وسقى الحمار من هذا الماء . وبذلك أسقط عن نفسه مؤونة النفس والمال لأن الماء العذب كان يؤولى به من الأبله التي تبعد قليلاً عن البصرة <sup>(٢)</sup> . وتلك مريم الصانع التي كانت امرأة صالحة من ذوات الاقتصاد تلجأ الى حيلة لتجمع كمية من المال تجهز به ابنتها عندما تكبر وتزوج ، فكانت ، منذ ولدتها الى يوم زفافها ترفع من دقيق كل عجنة حفنة ، وتبيع الطحين الذي يجمع لديها من ذلك وتخفي عن بعلمها ثمنه ، حتى تمكنت من أن تحلى ابنتها بالذهب والفضة وإن تكسوها المروى والوشى والقز والخز <sup>(٣)</sup> . وهناك معادة العنبرية تذيب شاة بمناسبة عيد الأضحى وتفيد من جميع أعضائها : أما القرن فتسمره في السقف وتجعل منه وتدًا تعلق به الأشياء . وأما المصران فتستعمله أوتاد المدفنة ، وأما العظام فتطبخ وتجمع دسمها للمصباح وحساءها للأدام ، ثم تأخذ تلك العظام فتوقد بها النار . وأما الجلد فتصنع منه جراباً . وتستعمل الصوف في وجوه كثيرة لا تعد ، وتجفف البعر وتجعله حطباً . وتبقى أمامها مشكلة عويصة هي كيف تفيد من الدم وقد حرم الإسلام شربه وأكله ؟ لقد فكرت تلك المرأة ملياً فأنفتحت لها باب الرأي وقررت أن تستعمل الدم دباغاً لقدورها ، وعندئذ استراحت إذ وقع كل شيء في مرقعه <sup>(٤)</sup> .

---

١ - المصدر عينه ، ص ٢٩ .

٢ - المصدر عينه ، ص ٢٩ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٣٠ .

٤ - المصدر عينه ، ص ٣٣ - ٣٤ .

ان المذهب الاقتصادي هؤلاء يتلخص في انه يمكن جمع الثروات الطائلة بوضع الدرهم الى جانب الدرهم ، وهذا ما عبر عنه أحد شيوخ المسجدين المقتصدين بقوله « يا قوم لا تحمروا صغار الأمور ، فإن أول كل كبير صغير ، ومتى شاء الله أن يعظم صغيراً عظمه ، وأن يكثر قليلاً كثره . وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ؟ وهل الدرهم إلا قيراط على قيراط ؟ أو ليس كذلك رمل عالج وماء البحر ؟ وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا درهم من ههنا ودرهم ههنا . قد رأيت صاحب سقط قد اعتقد مائة جريب في أرض العرب ، ولربما رأيت يبيع الفلفل بقيراط والحوص بقيراط ، فاعلم انه لم يربح في ذلك الفلفل إلا الحبة والخبتين من خشب الفلفل . فلم يزل يجمع من الصغار والكبار حتى اجتمع به مائة جريب »<sup>(١)</sup>.

لاحظ الجاحظ أن الناس قد انقسموا فريقين بصدد ادخار المال والحرص عليه ، أو بعبارة أخرى بصدد سياسة الإنفاق . فريق يذهب الى وجوب الضن بالمال وعدم التفريط به حتى أصبح غاية بحد ذاته ، فأداهم هذا الموقف الى البخل والامساك الشديدين . وقد عبر عن مذهبهم سهل بن هارون في رسالته الى بني عمه ، فدافع عن موقفه بحجج كثيرة . وفريق يقول ان المال ليس سوى وسيلة لقضاء الحاجات ينبغي أن تنفقه على أنفسنا ، ونجود به على الغير . فإن الجود فضيلة ينبغي التحلي بها بينما البخل رذيلة ينبغي تجنبها . وقد عبر عن مذهبهم أبو العاص الثقفي في الرسالة المنسوبة اليه<sup>(٢)</sup>.

يبدو وأن الجاحظ وقف موقفاً وسطاً بين الفريقين . فهو ينتقد البخلاء الذين أسرفوا في شحهم وحرموا أنفسهم من لذات العيش في سبيل توفير المال واكتنازه ، كما ينتقد المبذرين الذين أسرفوا في الإنفاق وبذروا أموالهم في غير أماكنها . وربما كانت رسالة ابن التوأم<sup>(٣)</sup> تعكس رأي الجاحظ هذا الذي يرى الفضيلة في الاعتدال ويرى أن

١- البخلاء ، ص ٣١.

٢- المصدر عينه ، ص ١٥٤ .

٣- المصدر عينه ، ص ١٦٩ .

من قامت أخلاطه على الاعتدال وتكافأت خواطره في الوزن ، لم يعرف من الأعمال إلا الاقتصاد ، ولم يجد أفعاله أبداً إلا بين التخصير والأفراط ،<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك يضفي الجاحظ على المال هالة من العظمة ويبالغ في أهميته . فهو يقول على لسان ابن التوأم ان الدرهم هو القطب الذي تدور عليه ربح الدنيا<sup>(٢)</sup> . لقد كان المال ولا يزال الوسيلة التي يستحصل بواسطتها المرء على ما يشاء من السلع والحاجات باعتباره وسيلة التبادل التي اعتمدتها المجتمعات القديمة والحديثة . ولكن الأخطر من كونه قوة شرائية هو تأثيره في العلاقات الاجتماعية والقيم الخلقية والإيمان الديني . فهو يقول ان تسمير المال وسيلة لكسار الأخلاق وهون على الدين وجاذب للأصدقاء . وان المرء الفقير ينفض من حوله الناس ولا يكثرئون به<sup>(٣)</sup>.

صحيح أن بعض هذه الآراء قد ورد في « نهج البلاغة » ، وفي « الأدب الكبير والأدب الصغير » و « كلیلة ودمنة » ولكن تركيز الجاحظ عليها يدل على اعتقاده بصحتها<sup>(٤)</sup>.

ويقدر الجاحظ المبدأ الاقتصادي الهام المعروف باسم مبدأ العرض والطلب الذي بموجبه تتحدد الأسعار والقائل بان الأسعار ترتفع كلما قلت السلع في السوق وتنخفض إذا كثرت . وقد عبر عنه بقوله : « زعم بعض المحصلين من الأوائل أن الموجود من كل شيء رخيص بوجوده ، غال بفقدانه ، إذا مست الحاجة إليه »<sup>(٥)</sup>.

كما يشير الى المكانة التي يتبوأها الذهب في دنيا الاقتصاد ، وهي مكانة ما زال

---

١- المصدر عينه ، ص ١٦٩ .

٢- البخل ، ص ١٧٠ .

٣- المعاد والمعايش ( رسائل الجاحظ ، ج ، ص ١١٢ ) .

٤- علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة ( دار الأندلس ، بيروت ، ط ٢٠ ، ١٩٦٣ ) ص ١٣٠ ، ابن المقفع ، كلیلة ودمنة ( مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ) ص ٢٤٩ .

٥- التبصر بالتجارة ، ص ١١ .

يحافظ عليها حتى اليوم باعتباره المعدن الذي تكمن قيمته فيه وتتقرر بحد ذاتها وليس بالقياس الى شيء آخر . ولهذا اتخذ مقياساً لقيمة العملات كما اتخذ نقداً . والسر في ذلك أي في كون الذهب ثميناً يرجع الى قلة تغيره وازدياد نفاسته وحسنه على مر الزمن<sup>(١)</sup>.

ويتحدث أبو عثمان عن معيار جودة الأشياء التجارية ، فيرى أن الأنواب والأقمشة كلما كانت أكثر ليناً وأنعم ملمساً كانت أرفع قيمة ، وكلما كانت الجواهر أصفى كانت أنفس ، أما الحيوانات فقيمتها ترجع الى ضخامة أجسامها وطواعيتها . أما قيمة الرجل فتكمن في عقله ودماثة أخلاقه ، وقيمة الأمة أو المرأة تعود الى جمالها ومهذونها وقلة مأكليها<sup>(٢)</sup>.

أن ما يسترعي الانتباه في كلام الجاحظ هو اعتباره الإنسان مادة تجارية ، ولا شك في أنه ينطلق من الواقع الذي يعيشه عصره ومجتمعه ، ذلك المجتمع الذي أقر تجارة الرقيق فراجت سوقه وامتلات بالعبيد الذين يؤتى بهم من مختلف أنحاء العالم . وهو في ذلك يشبه أرسطو . ولذا نراه يتكلم على صفات العبد ومعايير جودته ، كما يتكلم على صفات الأقمشة والجواهر أو الحيوانات المتوحشة والأهلية ومعايير جودتها . ويرى أن صفات العبد الصالح طلاقه الوجه والتواضع وبهاء المنظر وحب الدعابة . أما صفات العبد السيئ فالانقباض واصفرار اللون من غير مرض والطيش وكره الدعابة والخشونة عند المجاورة<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يقدم لنا الجاحظ « أوصاف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفسية ، والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة ليكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب وهوناً لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب »<sup>(٤)</sup>.

١- المصدر عنه ، ص ١٤ .

٢- المصدر عنه ، ص ٤٧ .

٣- التبصر بالتجارة ، ص ٤٨ .

٤- المصدر عنه ، ص ١١ .

ويطلعننا كتاب « التبصر بالتجارة » على الحركة التجارية في عصر الجاحظ ،  
والصادرات والواردات بالنسبة لمختلف الأقطار التي تتعامل تجارياً كالهند والصين  
والجزيرة العربية واليمن ومصر وفارس (١).

وهناك نصائح عديدة يسديها أبو عثمان للتجار كوجوب اعتزال التجارة الخاسرة  
أو غير الربحية الى غيرها من التجارات ، والانتقال من بلد لم يرزق فيه التاجر الى بلد  
أحر يلتبس فيه الرزق (٢).

### هـ- الأسرة :

ظهرت الأسرة منذ القدم ، ولا تزال حتى اليوم تشكل المؤسسة الاجتماعية  
البعيدة الأثر في حياة المجتمعات البشرية . وعلى الرغم من أن الجاحظ لم يتزوج ولم  
ينجب أولاداً أو لم يؤسس أسرة ، فإنه تكلم على أركان الأسرة الثلاثة : الرجل والمرأة  
والأولاد .

أن الرباط الذي يجمع المرأة والرجل ، ويدفعهما الى تأسيس أسرة ، ويشدهما  
شداً قوياً نحو بعضهما البعض إنما هو العشق . والعشق في نظر الجاحظ داء يصيب  
الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، وهو يتركب من أربعة أركان هي الحب والهوى  
والمشاكلة والإلف (٣).

إن الحب أولى درجات العشق أو هو بداية العشق . إنه يعني المحبة التي ليس  
لها نزعة جنسية . ومن هنا يقال ان المرء يحب الله والله يحبه ، والأب يحب ولده  
ووطنه ، والصديق يحب صديقه .

وثاني درجات العشق الهوى . والهوى عاطفة تدفع صاحبها الى ميل قوي نحو

---

١- المصدر منه ، ص ٣٣ .

٢- المصدر منه ، ص ١٢ .

٣- القيان ( رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ) .

المرأة . وربما وافق الهوى الحق وربما تنكبه . وذلك لأن المرء قد يخطئ الجمال والكمال فيهوئ فتاة قبيحة ولا يرى ما فيها من وجوه الفبح ، وإنما يرى كل ما فيها جميلاً ويحتج لموقفه هذا ويدافع عنه ، ولهذا قيل « حبك الشيء يعمي ويصم » . ومع ذلك لا نسمي الهوى عشقاً لأن الهوى قد يكون في المرأة ، وقد يكون في سائر الأمور كالأديان والبلدان والولد والصديق واللباس والدواب <sup>(١)</sup> .

وينبغي أن يضاف على الحب والهوى عنصر ثالث لنحصل على العشق هو المشاكلة « أعني مشاكلة الطبيعة ، أي حب الرجال النساء ، وحب النساء الرجال ، المركب في جميع الفحول والإناث في الحيوان » <sup>(٢)</sup> .

بيد أن هذا العشق لا يصبح تاماً ولا يستحكم في القلب إلا بالإلف . ان اللقاء الأول بين الرجل والمرأة قد يولد الحب ، ولكن هذا الحب ليس سوى بذرة تغرس في القلب يلزمها عنصر الوقت أو المواظبة لكي تنبت وتشتد وتثمر <sup>(٣)</sup> .

ومتى استحكم العشق في قلب المرأة والرجل تيمهما ، فإذا افترقا ولم يتمكن من رؤية بعضهما البعض توقدت ناره حتى « يذهل العقل وينهك البدن ويشغل القلب عن كل نافعة ، ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق والغالب على فكرته والخطاير في كل حالة على قلبه » <sup>(٤)</sup> .

ثمة عاملان يضعفان العشق هما طول الزمن والزواج . فإذا طال العهد بين العاشقين اضمحل الحب وإن كانت ندوبه لا تكاد تغفو آثارها أو تدرس رسومها . وكذلك الطفر بالمعشوق يسرع في حل العشق <sup>(٥)</sup> .

---

١- المصدر منه ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

٢- المصدر منه ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

٣- المصدر منه ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

٤- المصدر منه ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

٥- القيان (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٦٩) .

أما سر اختيار الفتى فتاة بعينها دون غيرها ، أو اختيارها له دون غيره فبرغمه الجاحظ الى المناسبة أو الشبه في الخلق أو في الطباع . وهذا هو السبب فيما نرى من عشق الحسن للقيح وعشق القبيح للحسن ، وتفضيل الأقيح على الأحسن أحياناً . إن سر هذا الاختيار يعزى : « لى تعارف الأرواح وازدواج القلوب » . ولكنه يلاحظ في موضع آخر أن العادة تلعب دورها في عملية الاختيار ، ويضرب مثل أهل البصرة الذين يفضلون النساء الهنديات على غيرهن<sup>(١)</sup> .

ويمكن حصر الدوافع لى الزواج وإثاره على حياة الانفراد او العزوبة في إثنين :

١ - الغريزة الجنسية التي تغلب على كل شهوة وعلى كل متاع في الحياة حتى إننا « لو خيرنا رجلاً بين الفقر أيام حياته ، وبين أن يكون ممتعاً بالباه أيام حياته لاختار الفقر الدائم مع التمتع الدائم »<sup>(٢)</sup> .

٢ - الولد : ان الإنسان يصبو الى إنجاب الأولاد ، ويرى في ذلك نعمة من أجل النعم لأن الولد الذكر يحبي ذكر والده ويحفظ حرمه ويقضي ديونه ويدعو له بعد الموت ويرث ماله . ولكن السبب الرئيسي لطلب الولد هو بقاء النوع واستجابة الطبع الذي ركه الله فيه كما ركه في الحمام والسنانير<sup>(٣)</sup> .

ويعالج الجاحظ موضوعاً هاماً سبق اليه عصره هو المساواة بين الرجل والمرأة . هذه المساواة التي ما زال كثير من المجتمعات حتى عصرنا الراهن لا يعترف بها . انه يذهب الى ان المرأة مساوية للرجل لا تعلو عليه ولا يعلو عليها وبما انه وجد الناس « يزررون على النساء أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويخسونهن أكثر حقوقهن »<sup>(٤)</sup> فقد اندفع للدفاع عنهن وإبراز مزاياهن . فقال أن المرأة ارفع من الرجل

١ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، ١٦٩ .

٢ - النساء (آثار الجاحظ ، ص ١٠٥) .

٣ - المصدر عينه ، ص ١٠٦ ، الحيوان ، ج ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

٤ - النساء (آثار الجاحظ ، ص ١٠٨) .

في أمور كثيرة منها انها هي التي تحطّب وتراد وتعشّق وتطلب ، وهي التي تفدى وتمعى . وليس من قوة في الدنيا غمك على الرجل قلبه سوى المرأة . فالمولى لا يملك من عبده سوى بدنه ، أما قلبه فليس له عليه سلطان ، والسلطان نفسه وإن ملك رقاب الأمة لا يملك قلوبهم . أما المرأة فهي التي تقيم الرجل فيصبح عبداً لها . وهناك دليل آخر على تعظيم شأن النساء وهو أن الرجل يستحلف بالله وبصدقة ماله وعق عبيده فيسهل عليه ذلك ، فإذا استحلف بطلاق إمرأته أبى <sup>(١)</sup> . ومع ذلك لا تعدو المرأة كونها متاعاً للرجل سخرت له كما سخر له جميع ما نقله الأرض ، ولكن المرأة أقرب الى الرجل في جميع الأشياء لأنها مخلوقة منه ، ولكونها جزءاً من أجزائه وبعضاً منه . لقد خلقت ليسكن الرجل إليها ، وجعلت بينه وبينها مودة ، وفي الأجمال أن النساء حرث الرجال <sup>(٢)</sup> .

ونجد عند الجاحظ فكرة غريبة هي الاشتراكية في النساء . ولا نعلم إذا كان قد تأثر فيها بإفلاطون الذي سبق إليها ، أم ساقه إليها مذهب الطبيعى وقياسه المنطقي المنطلق من الواقع . فهو يقول إن الأصل هو إباحة النساء بين الرجال إذ ليس واحد في الرجال أحق بواحدة من النساء من الآخر كما ليس بعض السوام أحق برعي مواقع السحاب من بعض . ولكن الشريعة منعت ذلك وقيدت الرجل والمرأة بعقد الزواج وحرمت عليه النساء الآخر تخليصاً للمواليد من شبهات الاشتراك ولحصر الموارث في أيدي الأعقاب <sup>(٣)</sup> .

وكذلك تقدم الجاحظ عصره بنحو ألف سنة في معالجة مسألة حجاب المرأة . هل يسمح للمرأة بمحاذة الرجال والظهور لهم ، أم ينبغي أن تستتر عنهم وتقع من

١ - النساء ( آثار الجاحظ ، ص ١٠٥ ) .

٢ - البيان ( رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ) .

٣ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

الكلام معهم ؟ ان جواب الجاحظ هو جواب قاسم أمين ذاته في مطلع القرن العشرين . لقد دعا الى نزع الحجاب والسماح لها بالخروج من بيتها ومقابلة الرجال لأن الدين لم يمنع ذلك . والغريب أن الجاحظ عندما دعا الى سفور المرأة لم يجد معارضة في عصره ، ولم تهب في وجهه الثورة التي هبت في وجه قاسم أمين عندما أصدر كتابه « تحرير المرأة » وهذا يعني أن الحرية - حرية الفكر - في عصر المأمون والمعتصم كانت أكثر توافراً من عصرنا الحاضر ، وأن مجتمع الجاحظ كان أكثر انفتاحاً ومرونة عقلية من مجتمعنا المعاصر .

يلقي الجاحظ نظرة تاريخية على الحجاب فيرى إنه لم يكن حجاب بين رجال العرب ونسائهم ، وكانوا يجتمعون رجالاً ونساء على الحديث والمسامرة ، ويزدوجون في المناسمة والمثاقفة ، ويسمى المولع بالجلوس الى النساء الزير المشتق من الزيارة . يجري كل هذا بمعرفة الأولياء والأزواج وحضورهم دون أن ينكروه . وفي الإسلام بقي الرجال يتحادثون مع النساء ، وكانت الشرائف منهن يقعدن للحديث الى الرجال « ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً في الإسلام » (١) .

ويأتي براهيمين نقلية كثيرة تدل على صحة ما يذهب اليه . ان خلفاء أمثال عمر ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، وفقهاء أمثال الشعبي والحسن بن علي سمحوا لأنفسهم بالدخول على النساء والتحدث اليهن . ثم ان النساء ، الى اليوم ، من بنات الخلفاء وأمهاتهن فمن دونهن يطفن بالبيت مكشفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل حجج الآبه (٢) .

ويتنقد الجاحظ الحشوية الذين يطلون النظر الى المرأة ، ويعتبرونه حراماً ، فيقول أن هذا التحريم « أمر أفرط فيه المتعدون حد الغيرة الى سوء الخلق وضيق الفطن ، فصار عندهم كالحق الواجب » (٣) .

كما يهاجم أولئك الذين يميزون بين المرأة الحرة والأمة ، فيلزمون العار من يتزوج

١ - البيان ( رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ) .

٢ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

٣ - المصدر عينه ، ج ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٧ .

حرة مطلقة ولو نكحها رجل واحد من قبل ، بينما لا يرون عاراً في أن يتزوجوا الأمة التي تداولها من لا يحصى عددهم من الرجال . ويتساءل : من حسن هذا في الإمام وقبحه في الخرائر ؟ ولم لم يغاروا في الإمام ومن أمهات الأولاد وحظايا الملوك ، وغاروا على الخرائر (١) .

ويتهيء للنتيجة التالية وهي « أن مكاملة النساء ومفاكهن ومغازلتهن ومصافحتهن للسلام ، ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر حلال ما لم يشب ذلك ما يحرم » (٢) .

ولا يكتفي الجاحظ بالمطالبة بسفور المرأة وإنما يطالب أيضاً بالسماح لها بالغناء وممارسة سائر الفنون والأعمال . ويقول ان ملوك العرب والعجم كانوا يسمعون غناء القيان ، واعتبر الفرس الغناء أدباً واعتبره الروم فلسفة (٣) . ولم يحرم الإسلام الغناء لأنه مؤلف من كلام وموسيقى ، والكلام مباح وكذلك الموسيقى ، فلا وجه لتحريمه ، ولا أصل لذلك في كتاب الله ولا سنة نبيه . وإذا كان الذين يدعون إلى تحريمه يحتجون بأنه يلهي عن ذكر الله ، فإننا نجد كثيراً من المطاعم والمشارب والنظر إلى الجنان والرياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالنساء ، وسائر اللذات ، تصد وتلهي عن ذكر الله . . . (٤) .

ومع تقديره للمرأة ، ودعوته إلى إنصافها ، لا ينسى الجاحظ المستوى المنحط خلقياً الذي إنحدرت إليه القيان في عصره . فهن لا يتأصحن في ودهن ، ويرمين بحبالهن لاصطياد الرجال ، ويلجأن إلى ضروب الخداع ، ويتظاهرن بالصباية ، ويرمين عشاقهن باللحظ ويشربن معهم ويمكنهم من تقييلهن والزنا بهن الخ . . . (٥) .

١- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

٢- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

٣- القيان (رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٥٨) .

٤- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١٦٠-١٦١ .

٥- المصدر عنه ، ج ٢ ، ص ١٧١-١٧٦ .

## الباب السابع

---

### منهجية الجاحظ



ما هي الطريقة التي سلكها الجاحظ في معالجة المسائل الفلسفية ؟ هذا ما توخينا الإجابة عنه في الباب الأخير من بحثنا . كان للجاحظ منهج أصيل في التفكير والتعبير . وقد فطن هو لخطوطه الأساسية فأشار إليها في كتبه . وكان مقتنعاً بصحة ذلك المنهج ولذا دافع عنه ورد على منتقديه .

لقد رصدنا خصائص منهجية الجاحظ من خلال كتبه وأرجعناها الى ما يلي :

١ - الفصل الأول : في المنهج الفكري : النقدية والجدلية ، والاستقرائية ، والاستطرادية ، والواقعية ، والعقلانية ، والشكية ، والشمولية .

٢ - الفصل الثاني : في المنهج التعبيري : الطبيعة ، ومرونة العبارة ، والترادف ، وفصاحة اللفظ ، والملاءمة بين اللفظ والمعنى ، والإسهاب .

وينبغي أن نشير الى أن المنهجية عند الجاحظ لم تكن تعني خطة عمل مصممة مسبقاً ، محكمة الربط ، شاملة ، يسير عليها ولا يجيد عنها أبداً وإنما تعني فقط الاتجاهات الغالبة على تفكيره ، والسمات المميزة لتعبيره .



# الفصل الأول

## المنهج<sup>(١)</sup> الفكري

لكل مفكر كبير وكاتب أصيل منهج خاص في التفكير والتعبير يتجلى في آثاره بحيث نستطيع من خلال قراءتها أن نعرف صاحبها اعتماداً على الخصائص المميزة الملزمة لذلك المنهج . والجاحظ صاحب منهج فكري وتعبيري ذي سمات لا نخطئها ومعالم لا تخفى على ذي نظر.

ثمة خصائص يمتاز بها منهج الجاحظ الفكري هي : النقدية ، والجدلية والاستقرائية ، والشكية ، والشمولية ، والاستطردادية ، والواقعية ، والعقلانية

### ١- النقدية :

لا يكتفي الجاحظ بعرض فلسفته الطبيعية والكلامية والجمالية والخلقية ، وإنما ينتقد المذاهب الفكرية الأخرى . وهكذا الفناء يصب جام سخطه على الشيعة ، كما هاجم أهل الجماعة ، ولم يوفر الخواارج والمرجئة . وينتقد المسيحيين واليهود ويصلي

---

١ - حول تعريف للمنهج <sup>†</sup>Method<sup>†</sup> — Ålalande vocabulaire technique et critique de la philosophie, (8 eme ed . , paris, 1960) pp.623-625.

المجوس ناراَ حامية ، ولم ينس الدهرية الذين رفض جميع مبادئهم لمعارضتها تعاليم الإسلام وأحكامه . وحملته نزعتة النقدية هذه لى الطعن في فلاسفة كبار أمثال أرسطو والنظام على الرغم من إفادته منها وأخذة عنها ، كما دفعته لى إلا زراء ببعض القيم الاجتماعية والخلفية السائدة في عصره .

ان نقدية الجاحظ لا تصدر عن تعصب أعمى لمذهبه الاعتزالي ، فهو أبعد الناس عن التعصب ، ينادي بحرية التفكير حتى نراه يتفقد شيوخه المعتزلة كما نراه يخالفهم في آراء كثيرة ويؤسس فرقة نسبت اليه .

وهو موضوعي في نقده لا يتجنى على أحد ولا يتهم أحداً بما ليس فيه ، ولا يحاسب الغير إلا على ما قاله . ولهذا يهتم بشرح آراء الغير وتبينها ثم يعمد لى إظهار ما فيها من تهاوت أو خطأ .

وهو في نقده لا يصدر عن خبت أو لؤم أو حقد ، بل عن روح ساخرة ضاحكة سمحة رائدها التقويم والهداية ، وكأنه يعتقد أن خطأ الناس وعيوبهم تحمل العذر لأنها نتيجة ظروف قاهرة وطبائع فطروا عليها لا يد لهم فيها . وهذا ما يظهر بوضوح في «البخلاء» ورسالة « التبريع والتدبير » وغيرهما من آثاره .

## ٢- الجدللية :

فهم الجاحظ الجدل بمعنى المناظرة أو النقاش الذي يدور بين شخصين يمثلان أفكاراً متناقضة ، ولهذا بنى جدله على مبدأ التناقض . واستخدمه كما استخدمه إفلاطون وسقراط وسيلة للكشف عن الحقيقة عن طريق إحتكاك الآراء التي يتولد فيها نور اليقين .

ولا سبيل للمقارنة بين مفهوم الجدل عند الجاحظ وأرسطو ، ان أرسطو نظر الى الجدل كباب من أبواب المنطق واعتبره قياساً قائماً على مقدمات غير يقينية أو احتمالية . أما الجاحظ فاعتبره أسلوباً من أساليب البحث للتمييز بين الباطل والحق والخطأ والصواب .

كما لا سبيل الى المقارنة بين جدل الجاحظ وجدل ماركس وهيجل . أن الجدل عند كل منهما يهدف الى تفسير تطور المجتمعات عبر التاريخ والعوامل المؤثرة في ذلك ، ولم يخطر هذا المفهوم على ذهن الجاحظ مطلقاً .

انطلق الجاحظ في جدله من مبدأ يقول ان معرفة الشيء معرفة كاملة لا تتأتى من النظر اليه من زاوية واحدة أو جانب واحد . وكما أن القاضي قبل إصدار حكمه لا بد له من سماع أقوال الخصمين ، هكذا الشأن في جميع المسائل ، لا يمكن إصدار حكم عادل وصحيح في أية مسألة أو قضية إلا بعد الاستماع الى وجهات النظر المختلفة حولها . وقد طبق الجاحظ هذا المبدأ في أبحاثه فأعطى لنفسه دور الحكم الذي ينصت أولاً الى ما يدلي به الخصوم من حجج مختلفة لدعم مواقفهم المتبانية (في البخلاء : رسائل سهل بن هارون وأبي العاص الثقفي وابن التوام ، في العثمانية : حجج الشيعة وحجج البكرية ، في رسالة الحكمين : أقوال أنصار الإمام علي وأقوال أنصار معاوية ، في مناقب الترك : حجج الخراسانيين وحجج الأتراك . . . . ) .

وبعد سماع الخصوم يناقش أبو عثمان الحجج المدلى بها والآراء التي أبداها الأطراف وعلى ضوء ذلك يصدر حكمه المعلن .

وكما هو الحال في شأن المرافعات القانونية لا بد من أدلة إثبات وأدلة الإثبات عند الجاحظ هي الشواهد التي يستقيها من الشعر والقرآن والسنة والسماع ، أو من الوقائع أو المعاينة . وهو لا يفتأ يجرح تلك الأدلة أو يعدلها على ضوء العقل والمنطق حتى ينتهي الى القاء أضواء كاشفة تنير حقيقة الأمر .

### ٣- الاستقرائية :

الاستقراء هو النظر في الوقائع الجزئية لاستخراج حكم كلي عند البحث في أمر من الأمور . أو هو سير الفكر من الخاص الفردي الى العام الكلي . كان تفكير الجاحظ استقرائياً بشكل إجمالي . فإذا عرضت له مسألة من المسائل راح يتأملها ويلاحظ ما

يتصل بها وما يصدر عنها وما يحيط بها ، ويجمع الملاحظات عن طريق التجربة والسماع والعيان ثم يستتبط أحكامه . هذا كان دأبه في أبحاثه الطبيعية والاجتماعية .

أما في أبحاثه الكلامية فكان ينهج غير هذا المنهج . كان يلجأ الى الاستنتاج أو القياس ، وكان منطلقه القرآن والسنة . وهذا المنطلق لا يسمح له باستخدام الاستقراء إلا بشكل محدود ، بينما يفسح المجال واسعاً أمام الاستنتاج . وبهذا الصدد ، يؤخذ على الجاحظ انه اعتمد السماع والرواية أكثر مما اعتمد المعاينة والتجربة حتى في أبحاثه الطبيعية كما هو ظاهر في كتاب الحيوان . وربما شفع له حال العلوم في عصره وما كان يعتورها من الضعف وقلة الوسائل الاختيارية ثم ظروف حياته الخاصة . ويدلنا على ذلك انه كان لا يتلصكاً عن المعاينة والتجربة إذا ما أتبع له ذلك ، وكان يحسن الملاحظة والتفحص كما كان يحسن التجربة والاستنباط .

ولقد أتى الجاحظ بفكره هامة عندما أعلن أن القياس لا يصح في المسائل الطبيعية ، إذ لا ينفع في هذا الحقل سوى العيان والتجربة .

وكذلك استعمل الاستقراء بصورة ناجحة في المنحى الجمالي . لقد رأيناه يركز على الجمال اللغوي<sup>١</sup> فراح يدرس اللغة من حيث الصيغ والتركيب والألفاظ والحروف وعلاقة ذلك بالجمال فأرسي بذلك أسس فلسفة الجمال اللغوي التي أطلق عليها اسم « البيان » . وقد بلغت به الثقة بالنفس حداً جعله يقرر مثلاً انه أحصى أنواع الدلالات فوجدها خمساً لا تزيد ولا تنقص هي اللفظ والإشارة والحال والعقد والخط .

وفي المنحى الاجتماعي يطبق الاستقراء على نطاق واسع . فهو مثلاً يدرس نسبة السودان في بلاد العرب ، ويعتمد في ذلك الطرق الإحصائية وهي وسيلة هامة من وسائل الاستقراء في علم الاجتماع . فيلاحظ توزع السودان في بلاد العالم ، والأقطار التي يؤتى بهم منها الى البلاد العربية ، وحركة هجرتهم من العراق ، وزواجهم من الغرباء ، وقوة الخصوبة في التناسل الخ . . .<sup>(١)</sup>

---

١- فخر السودان على البيضاء ( وسائل الجاحظ ، ج ١ ، ٢١١-٢١٦ ) .

٤ - الشككية : تختلف الشككية عند الجاحظ عن مفهومها الفلسفي العام المعروف . ان مذهب الشك المعروف فلسفياً يقول ان المعرفة نسبية وليس ثمة من حقيقة ثابتة ، وينتهي الى الزعم باستحالة المعرفة أو استحالة الوصول الى الحقيقة .

أما الجاحظ فهو يعتقد بإمكانية المعرفة كما يعتقد بوجود الحقيقة ، ويقول ان عقل الإنسان قادر على المعرفة وفهم الأشياء وإدراك العالم الذي يحيط به . وان كانت نظريته في المعرفة لا تجعلها مطلقة لأنه يقيدتها بأصول وقوانين معينة . إنها تحصل بنظره طباعاً وليس للإنسان من الإدارة فيها سوى توجيه الانتباه . وما عدا ذلك يحصل بشكل عفوي غير إرادي أي طباعاً .

والشك الذي لازم تفكير الجاحظ حمله على عدم التسليم بالأخبار والآراء التي يسمعها أو يقرأها والظواهر التي يراها إلا بعد الفحص والتدقيق والملاحظة الشديدة . لأنه يعتقد أن آراء الناس وأخبارهم عرضة للضلال والكذب لأسباب عديدة . كما أن الظواهر الطبيعية تخفي تحتها حقائق أو نواميس يجب البحث عنها وعدم الاكتفاء بمعطيات الحس الخارجية .

وهكذا غدا الشك عند الجاحظ طريقاً للوصول الى حقائق الأمور وليس هدفاً بذاته . ولذا نهى عن الإسراف فيه واتخاذ غايه يقصد اليها قصداً لأنه يصبح خطراً يؤدي الى الهلاك .

طبق الجاحظ الشك في أبحاثه تطبيقاً رائعاً . فهو لا يقبل الروايات والأخبار التي تنتهي اليه إلا بعد فحصها وفحصها لاختبار مدى صحتها . يستوي في ذلك المفكرون الكبار أمثال أرسطو والنظام وهشام بن الحكم والكندي وعامة الناس والأعراب ورجال الدين والسياسة والأدب . لقد وضع أقوالهم جميعاً على محك النقد بكل جرأة وثقة بالنفس .

ولذلك نراه يشك في الأعراف الاجتماعية والمعتقدات الدينية والأساطير والخرافات التي كانت تملأ عقول الناس في عصره . يشك في أخبار الجن ، وفي اختفاء

الإمام المنتظر عند الشيعة ، وفي رؤية الله عند المشبهة وفي عود الصليب الذي لا يحترق عند النصارى . وفي أخبار نار المجوس عند الزرادشتية ، وفي عقول الأفلاك عند الدهرية .

وهو يعتمد في شكه على التناقض أو على الإحالة أو على الشاهد الذي لا يؤيد الأمر . وإذا شئنا أن نضرب مثلاً يوضح شك الجاحظ وجدناه في كلامه عن حقيقة الجن . لقد تحدث مطولاً عن صفات الجن وأقوالهم وعلاقاتهم بالناس حسب اعتقادات الناس وبعض العلماء وما ورد في الشعر والقرآن والأحاديث عنهم .

لم ينكر ما ورد في القرآن عن الجن بل نراه يثبت تلك الآيات التي تشير إلى الجن وهي : ﴿ لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان ﴾ (سورة الرحمن ، ٧٤) ، ﴿ وإنه كان رجال من الأنس يعمدون برجال من الجن ﴾ (سورة الجن ، ٦) ، ﴿ ولنذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه إنه مسني الشيطان بنصيب وعذاب ﴾ (الأعراف ، ٤١) ، ﴿ والذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ (البقرة ، ٢٧٥) ، ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظنا من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مين ﴾ (الحجر ، ١٦) ، ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأرسلنا له عين القطر ، ومن الجن يعمل بين يديه بإذن ربه . . ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل . يجفان كالجوابي وقدور راسيات ﴾ (سبا ، ١٢) ، ﴿ وقال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم مقامك وإني عليه لقوي أمين ﴾ (النمل ، ٣٩) .

يورد الجاحظ هذه الآيات <sup>(١)</sup> ويؤولها تأويلاً على أنها معان مجازية قصد منها التخويف والتفزع <sup>(٢)</sup> . فهو مثلاً عندما يصل إلى الآية : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل

١- الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٦٢-١٦٤ .

٢- انظر هل زعمور ، مذاهب علم النفس (دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٧) ص ٥٩ .

الجمجم طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴿ يورد عدة تفاسير لها . فتأس يذهبون إلى أن رؤوس الشياطين هي ثمرة شجرة تكون ببلاد اليمن ذات منظر كريه . والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ويقولون : لا تعني إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم . وقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فتورهم ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق . ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفرعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورته لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق . وعلى أن أكثر الناس من هذه الأسم التي لم تعايش أهل الكتابين وحمل القرآن من المسلمين ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ولا يفرعون منه ، فكيف يكون ذلك بعيداً عاماً . قلنا : وإن كنا نحن لم نر شيطاناً قط ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده . ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يصفون ذلك في مكانين أحدهما أن يقولوا « هو أقبح من الشيطان » ، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطاناً على وجه التطير كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشبه ذلك على جهة التطير له . ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح . والقرآن إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية الثبوت . . (١)

ويقول الجاحظ أنه كمسلم مضطر إلى الاعتراف بما جاء في القرآن بالاحجج الاضطرارية نظراً للعلة التي تقتضيه التصديق . فإذا كانت تلك صحيحة كان إقراره صحيحاً ، وإذا لم تكن صحيحة أدرك أن خطاه ناتج عن التأويل ، والعلة التي يعينها

هي الإيـان بالله ورسوله وكتابه الذي يستتبع تصديق ما جاء في ذلك الكتاب ، وإذا جاء في الكتاب أخبار لا يصدقها الواقع أو لا تقع تحت العيان فينبغي أن تؤول تأويلاً مجازياً<sup>(١)</sup>.

ان موقف الجاحظ من موضوع الجن يتوضح أكثر عندما يسرد أخبارهم التي ينسبها الى الأعراب والشعراء . فهو يقول ان الأعراب يتزيدون في هذا الباب وأشباه الأعراب يغلطون فيه وبعض أصحاب التأويل يجوز في هذا الباب ما لا يجوز فيه<sup>(٢)</sup>.

ويبلغ الجاحظ حد التهكم من أخبار الأعراب عندما يورد مثل هذا الخبر: « وعدت أعرابية أعرابياً أن يأتيها ، فكمن في عشرة كانت بقرهم ، فنظر الزوج فرأى شبحاً في العشرة فقال لامرأته : يا هنتاه ، ان إنساناً ليطل العنا في العشرة . قالت صه يا شيخ ذاك جان العشرة اليك عني وعن ولدي . قال الشيخ : وعني يرحمك الله . قالت وعن أبيهم إن هو غطى رأسه ورقد . قال : ونام الشيخ وجاء الأعرابي فسفع برجلها ثم أعطاها حتى رضيت . »<sup>(٣)</sup>.

وكذلك نرى الشعبي يسخر من مسألته عن اسم امرأة إبليس فيقول : « ذاك نكاح ما شهدناه . »<sup>(٤)</sup>.

ويعلق على زعم أهل تدمر أن الشياطين بنوا مدينتهم القديمة قائلاً : « إذا رأيتم بنياناً عجيباً ، وجهلتم موضع الحيلة فيه ، أضفتموه الى الجن ولم تعانوه بالفكر »<sup>(٥)</sup>.

وكذلك يسفه أبو عثمان بعض العلماء الذين يجوزون أخبار الجن هذه على الرغم من زيفها كخبر السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم ، فلما رأت برقاً

١- المصدر عنه ، ص ٩٠-٩١ .

٢- الحيوان ، ج ، ص ١٦٤ .

٣- المصدر عنه ، ص ١٦٨-١٦٩ .

٤- المصدر عنه ، ص ١٦٩ .

٥- المصدر عنه ، ص ١٨٦ .

يلمع من شق بلاد السعالي حنت و طارت اليهم ، قائلاً : « ولم أعب الرواية وإنما عبت الإيثار بها والتوكيد لمعانيها . فما أكثر ما يروى هذا الضرب على التعجب منه . . . وأبو زيد (راوية الخبر) وأشياؤه مأمونون على الناس ، إلا أن من لم يكن متكلماً حاذقاً وكان عند العلماء قدوة وإماماً فما أقرب إفساده لهم من إفساد المتعمد لأفسادهم . » (١) .

ويذكر الجاحظ الأصل اللغوي لاسم الجن فيقول إنه اسم أطلق على كل خفي لا يظهر : « كل مستجن فهو جنني وجان وجنين ، وكذلك الوليد قيل له جنين لكونه في البطن والسجانة ، وقالوا للميت في القبر جنين » (٢) .

٥ - الشمولية : تعني الشمولية النظرة المحيطة للكون ، وعدم الاختصار على ناحية واحدة منه وإغفال سائر النواحي . لقد مد الجاحظ على العالم الواسع بصره فالفاه بشكل كلا مترابط الأجزاء تهيمن عليه قوة أوجدته وسيرته منذ الأزل وستسيره إلى الأبد هي الله . ويأتي بعد الله في المكانة كائن سخر له كل ما في الكون من جماد وحيوان ونبات هو الإنسان . ثم الفى في العالم كائناً ثالثاً تمثلت فيه حكمة الله بأحلى مظاهرها على اختلاف هيئاته وأنواعه ، وغرابة طباعته وحركاته هو الحيوان . ويأتي في المرتبة الأخيرة الجهاد المؤلف من أجزاء صغيرة جداً بعناصره وظواهره التي يحاول العقل كنهها .

وتعني الشمولية عند الجاحظ الثقافة الواسعة . فالجاحظ كان كما قيل عنه بحق دائرة معارف ، الم بمختلف حقول المعرفة من فلسفة وكلام ودين وطبيعات وحيوان ونبات وإنسان وأخلاق واجتماع وسياسة وتاريخ وأدب . وقد كتب في جميع الموضوعات تقريباً ، ومن يراجع قائمة كتبه يتحقق من مصداق ما نقول .

---

١ - المصدر فيه ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

٢ - المصدر فيه ، ص ١٩١ .

وقد عيب الجاحظ انه لم يتعمق الموضوعات التي يبحثها ، وانه ذهب عمقاً أقل مما ذهب عرضاً ، فبدت معلوماته سطحية غير منسقة أو مبررة ، يبدو ذلك في كثرة ما يروي حتى يشبه خزاناً مملوءاً بالمعارف فتحت فروته فراحت تتدفق لتملأ بطون الكتب التي لا تحصى .

لم يكن الجاحظ جاهلاً أن عقل الإنسان محدود لا يستطيع الإحاطة بجميع العلوم ، كما لا يستطيع أن ينفذ إلى جميع الكائنات . وقد عبر عن هذه الحقيقة مراراً في كتبه .

والطريف في ثقافته الشاملة انها متنوعة المصادر تنوع الموضوعات التي تناولتها . وتعتبر الكتب أهمها جميعاً ، وقد كان به نهم للمطالعة ، لازمه منذ صباه حتى وفاته ، وقد اعتبر الكتاب خير جليس ومعين وذخر للإنسان .

والمصدر الثاني هو السماع . لقد أخذ العلم عن علماء كبار ومفكرين أفذاذ ، كما سمع من عامة الناس الذين اختلط بهم طالباً يرتاد المساجد والأسواق ، أو بانعاً يتجول في سبيل .

## ٦ - الاستطرادية (١) :

الاستطراد هو الخروج من موضوع البحث إلى موضوعات أخرى بعيدة أو قريبة منه ، هذا ما نعينه بالاستطراد عندما نتكلم عن منهجية الجاحظ في التفكير . والجاحظ لا يحافظ على وحدة الموضوع بل يقحم فيه موضوعات جانبية وغريبة ، وهكذا نجد في الكتاب الواحد معرضاً متنوعاً للنتجات مختلف الألوان والأزياء . ولناخذ مثلاً على ذلك كتاب الحيوان . ان موضوعه الأساسي الحيوان . ولكن أباً عنثمان حشر في تضاعيفه أبحاثاً لا تمت إليه بصلة . فنجده يتكلم على الكتاب ومنافعه والخط

---

١ - حول الاستطراد الواقعية ، راجع : شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ( دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ ، ط ٣٠ ) ص ١٦٦ وما بعدها .

وأنواعه ، والشعر العربي ، وترجمته وتاريخه ، واللغة واشتقاقاتها ، والكلام وأصوله ،  
والديانات وشعائرها من يهودية ومسيحية ومجوسية الى جانب الإسلام وفرقه من شيعة  
ومعتزلة وخوارج ومرجئة ومشبهة وسنة . ثم النار وكونها وجوهرها ، والعناصر التي  
تركب منها الأجسام ، والأمراض والجواهر ، والألوان والطعوم .

وإذا نظرنا الى كتاب البيان والتبيين وجدنا الاستطراد يصدمننا . فعل الرغم من  
أن موضوع الكتاب هو البيان ، إلا أنه يتطرق الى موضوعات عديدة مختلفة منها  
الخطابة وأصولها وأنواعها ورجالها ، ومنها التركي والعلماء ، ومنها النساك والزهاد  
والقصاص ، ومنها العصا ، ومنها السيف والقلم ، ومنها الأحاجي والألغاز ومنها  
اللغة وأصلها . ومنها الكلام والتاريخ والحديث الخ . . .

وإذا قرأنا رسالة الترييع والتدوير وجدنا خليطاً بديعاً من مختلف العلوم ،  
طبيعيات واجتماعيات وأخلاقيات وعلوم وفلسفة وقلك ونفس وفن وأدب الخ . . .

ولو أن الجاحظ بحث هذه الموضوعات على حدة ضمن الكتاب الواحد لكان  
الأمر ، ولكنه يدخلها بعضها في بعض ، فبينما نراه يتحدث عن الكلب والديك في  
كتاب الحيوان ، يتنقل فجأة ليتكلم عن بشارات الأنبياء وعن الشياطين وعن المسيح  
وعن الحجاج بن يوسف الثقفي وولايته ، وعن التسمية عند العرب ، وعن كلمات  
إسلامية محدثة ، وعن تكلف بعض القضاة في أحكامها ، وعن الهجاء . ثم يعود الى  
الحديث عن الديك والكلب مجدداً .

كيف نحلل هذه الظاهرة عند الجاحظ ؟ التعليل الأول يعزو الاستطراد الى غزارة  
المعارف التي خزنتها حافظة أبي عثمان بحيث غدت عبئاً عليها أرادت التخلص من  
نقلها بإفراغها كيفما اتفق دون فصل بينها ودون تبويب أو تنظيم . والتعليل الثاني هو  
رغبة الجاحظ في جذب انتباه القارئ ودفع الملل عنه ، وذلك بتعدد الموضوعات  
وتنوعها لاعتقاده أن الاسترسال في البحث الواحد يضجر القارئ ويحمله على السأم  
وعدم مواصلة القراءة .

والتعليل الثالث أشار اليه الجاحظ أشارته الى التعليل السابق وهو عجزه عن التنسيق والتبويب بسبب المرض .

ومهما كان من أمر فإن الجاحظ أساء إساءة كبيرة الى قيمة كتبه عندما استسلم للاستطراد . وإذا كان عصره يغفر له هذه الإساءة فإن المنهجية التأليفية في عصرنا لا تستيفها مهما كانت المبررات .

## ٧- الواقعية :

نعني بالواقعية الالتزام بمعطيات الواقع المحسوس ، والرغبة عن الأمور الوهمية التي لا علاقة لها بالحقيقة والواقع .

كان الجاحظ ينطلق في تفكيره من العالم المادي ، ولا يأخذ بالخرافات والأساطير والغيبيات التي تنسجها المخيلات المجنحة ، ويهاجمها ويتفقد القائلين بها .

لقد أقبل على دراسة الأشياء بكل حواسه وعقله ، يلاحظ ويراقب ويحصى الحركات والسكنات ، ويتأمل الألوان والأشكال والأجزاء ، لا يترك منها موضعاً ولا يغفل ناحية . وإننا لندهش بدقة إحساسه ويقظته وتنبيهه لاتفه التفاصيل عندما يصف ما يسمع ويرى من جماد أو حيوان أو إنسان ، حتى كأنه آلة فوتوغرافية تقدم صورة طبق الأصل عن الأشياء (القاضي والذباب - حية بلعبر الخ . . ) .

ان مقدرته على الوصف التفسيري الداخلي لا تقل عن مقدرته على الوصف التصويري الخارجي . إنه يجيد الربط بين الانفعالات الداخلية وانعكاساتها الخارجية . وهو يبرع أياً براعة في تحليل النفسيات وما يعتلج فيها من مشاعر ونزعات . يبدو ذلك واضحاً في كتاب البخلاء وفي الرسائل .

ثم إنه في نقله للواقع يعتمد الكلمات الموحية الوضعية الدقيقة الدلالة ، ولا يلجأ الى وسائل البيان المعقدة إلا نادراً ، وقلما وجدنا عنده استعارة أو كتابة أو مجازاً . ويؤثر من أدوات البيان التشبيه على سواء ، وفي تشبيهه لا يبتعد عن المحسوسات إذ

يشبه محسوساً بمحسوس ، ويبقى وجه الشبه موهولاً في الحسية . وأجل ما عنده وصف الحركة التي يتبناها خطوة خطوة حتى النهاية .

وإذا كان موضوع البحث الذى يتناوله مجرداً كما هو الحال في الفلسفة وعلم الكلام يبط به الجاحظ الى المستوى الطبيعي ، وحاول أن يفهمه بربطه بالواقع المعقول كما فعل مثلاً في رسالة : « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » ، وفي نظرية المعرفة . وهكذا اتخذ من الطبيعة أساساً بنى عليه فلسفة ، فما هو محقق في الطبيعة آمن به وذهب اليه ، وما هو غير محقق في الطبيعة رفضه ورغب عنه .

ومن مظاهر واقعية الجاحظ التزامه بالمشاكل التي تهم عصره ، والموضوعات التي عالجها استقها من صميم ذلك العصر . فقد قدم لنا في كتبه صورة واضحة مفصلة عن عصره من جميع النواحي الفكرية والدينية والاجتماعية والخلقية والعلمية والأدبية والسياسية . وعالج موضوعات شعبية استهجنها علماء عصره فانتقدوه من أجلها واتهموه بأنه أزرى بالأدب والفكر قائلين له : « ما بال أهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل ، والعلماء وأهل البصر ، في بخارج الملل وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهي والفكاهات ، وكتب أصحاب الخصومات ، وكتب أصحاب المراء ، وكتب أصحاب العصية وحمية الجاهلية . » (١) .

كما ظهرت واقعية الجاحظ بالصدق في نقل الوقائع والصراحة في تسمية الأشياء بإسمائها دون حرج واستحياء ، لأنه يعتبر أن ما وجد في الطبيعة وما وضع له اسم في اللغة ، فلا مبرر لإغفاله أو الخجل منه . ولهذا يذكر الأعضاء التناسلية وعلاقة المرأة بالرجل وما أشبه بلا تردد أو مواربة (٢) .

---

١- الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٥ .

٢- المصدر عينه ، ص ١٣٧ ، ٣٧٠ .

## ٨- العقلانية :

نفهم بالعقلانية بالنسبة للجاحظ أمرين : الأول تحكيم العقل والثقة به في جميع الأمور ، والثاني اللاذاتية .

أما تحكيم العقل والثقة به فاول ما يطالعا في آثار الجاحظ . إنه مفكر ملك ذكاء متوقداً ومنطقاً سديداً تمخض عن فلسفة وضعية للعالم لها معالمها وأصولها المميزة . وهو عقل نهم للمعرفة يحذوه فضول غريب على النظر في الأشياء ومحاولة سبر أغوارها وإماطة اللثام عن حقائقها . ولذا نراه يتحصصها ويقلبها على كل وجه ويختبرها ويسمع ما يقال عنها حتى ينتهي الى اتخاذ موقف منها أو إصدار حكم عليها .

حتى الإيمان أحضعه للعقل فذهب كما ذهب المعتزلة الى أن المعرفة أساس الإيمان وأن الإنسان لا يحاسب إلا بعد المعرفة والتنبه . ولذا أرسل الله الأنبياء لتبليغ الرسالات السماوية وإرشاد الناس الى الحقيقة . ومتى اطلع المرء على تلك التعاليم الدينية يصبح مسؤولاً عن أعماله التي تخالفها .

ولكنه يرتبك عندما يجد في الدين أموراً لا يقرها العقل ، فيقول ان الإيمان بالله ونييه وكتابه يقتضي تصديق ما جاء به النبي وما تضمنه ذلك الكتاب .

أما اللاذاتية فترجع الى ضعف عنصر العاطفة في كتابة الجاحظ . لم يكن الجاحظ انفعالياً عصبي المزاج ، لقد غلب فيه العقل على العاطفة حتى كاد يمحوها كل أثر من آثاره ، ولهذا كانت آثاره ، ذات طابع فكري جامد لا تحرك فينا شعوراً ولا تثير إحساساً .

ثم ان الجاحظ أبعد ذاته عن كتابته ، فلم نجده يتحدث عن نفسه أو عن أهله إلا نادراً . ولم يهتم بأن يغني إفراحه وإتراحه ولذاته وآلامه وفضائله ونقائصه وطموحه وإخفاقه .

نمة مظهر واحد من مظاهر الذاتية أو العاطفة هو روح السخرية والفكاهة التي

نشعر بهما تسريان بين حروفه فتتحرك نفوسنا وتندفع الى الضحك . لقد طبع الجاحظ على الفكاهة فلم يتكلفها تكلفاً ولم يتعمدها تعمداً ، ولذلك لم يستطع أن يمنع نفسه منها ، فتدفعه الى إرسال نكته هنا ورواية نادرة هناك وتوجيه نقد هنالك كلما لقي شيئاً لا يعجبه أو منظراً بشعاً أو رأياً موعلاً في الخطأ ، وقد يسخر من نفسه . كان هذا دأبه مهما كان الموضوع الذي يعالج علمياً أو فكرياً يحتاج الى الرصانة والجد .

ان سخرية الجاحظ لطيفة خفيفة غير جارحة أو ثقيلة ، يقبلها الإنسان ولا يمجها الذوق الفني أو الاجتماعي .

ان من يقرأ كتاب البخلاء لا يتمالك من الضحك وهو يسمع نوادرهم الطريفة وأخبارهم العجيبة . وكذلك من يتصفح رسالة التربيع والتدوير يبقى في ضحك متواصل من هيئة أحمد بن عبد الوهاب المربع المدور المدعي العلم ، والذي لا يستطيع رغم إدعائه أن يجيب على أي سؤال من أسئلة الجاحظ المائة التي يطرحها عليه .

يحاول الجاحظ أن يفلسف مذهبه في الدعابة والهزل فيزعم أن الضحك نافع للجسم والنفس ، وهو أفضل من الكآبة والبكاء اللذين يوهنان العزائم ويميتان النفوس<sup>(١)</sup> .

وهناك مبرر آخر للهزل يذكره الجاحظ هو طرد السأم عن القارئ الذي يضجر بزعمه إذا طال عليه الجد<sup>(٢)</sup> .

---

١- البخلاء ص ٦ .

٢- الحيوان ج ١ ، ص ٩ ، ج ٣ ، ص ٥-٧ ، ج ٧ ، ص ١٦٢ ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ١٤ .



## الفصل الثاني

### المنهج التعبيري

كيف ينظم الشاعر قصيدة ، وكيف يجبر الكاتب مقالة أو قصة ، أو ما هي شروط الخلق الفني ، يورد الجاحظ صحيفة ينسبها الى بشر بن المعتمر أحد شيوخ المعتزلة تحيب على هذه الأسئلة وتتضمن الشروط التالية للخلق الفني .

أولاً : الموهبة أو الطبيعة هي شرط أساسي لا بد من توافره في الأديب فإذا لم تكن متوافرة فلا جدوى من التعب وكد الذهن ومحاولة الإبداع ، ومن الخير عندئذ التحول الى أية صناعة أخرى غير الأدب « إنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إذا كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق . فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل غرض ومن غير طول إهمال ، فالمعتزلة أن تتحول من هذه الصناعة الى أشهر الصناعات اليك وأخفها عليك ، فإنك لم تشته ولم تنازع اليه إلا وبينكما نسب ، والشئ لا يحسن إلا الى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع الشهوة والمحبة ، فهذا هذا . »<sup>(١)</sup>

---

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٦-٩٧ .

ثانياً : الدافع أو الرغبة : ان الشرط الثاني للإبداع الفني هو أن يشعر الفنان بدافع قوي يدفعه الى الكتابة ويلج عليه بالاقبال عليها . وإذا لم يشعر بالحاجة الى الكتابة ثم تكلف ذلك تكلفاً لم يأت بشيء ذي قيمة ، أو إنه يأتي بشيء تظهر عليه الصنعة . وينصح قائلاً : « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ وأشرف حسباً وأحسن في الاسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأصلب لكل عين وعرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة » (١).

ثالثاً : تجنب التعقيد : الشرط الثالث هو تحاشي التعقيد في المعاني والألفاظ فلا تكون الألفاظ متوعرة ولا المعاني غامضة ، ولا يكون فهمها عسيراً على القارئ . « وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك ، ومن أراد معنى كريماً فليتمس له لفظاً كريماً . فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (٢) .

رابعاً : لكل مقام مقال : يجب أن يراعي الكاتب حالة الناس الذين يوجه اليهم الكلام فإن كانوا من الخاصة اختار لهم معاني والفاظاً تناسبهم ، وإن كانوا من العامة اختار لهم كلاماً ومعاني في مستواهم . « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجمل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامان وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات » (٣) .

١ - المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٩٥ .

٢ - البيان والنبين ، ج ١ ، ص ٩٥ .

٣ - المصدر عينه ، ص ٩٧ .

وبقطع النظر عن صحة نسبة هذه الصحيفة إلى بشر بن المعتمر ، فإن الشروط التي تضمنتها فيما يختص بالخلق الفني ذكرها الجاحظ في أماكن كثيرة من كتبه ، وهو يعلق أهمية كبرى على الشرط الأول أي الطبع ويعتقد أن الناس مفطورون على ميول مختلفة تتحكم باتجاهاتهم في الحياة وهو القائل : « وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام . . . ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت من الشعر » (١) .

ويقول الجاحظ بشرط آخر هو المران على الكتابة لأن الإهمال أو سوء العادة يضعفان القريحة ويشوهانها (٢) .

وينصح الكاتب الناشئ بعدم التسرع في نشر نتاجه بين الناس ، وعدم ادعاء ما يكتبه في البدء ، وإنها عليه أن يعرضه على العلماء في معرض رسائل أو أشعار أو خطب ، فإن رأى الأسماع تصفي اليه ورأى من يطلبه ويستحسنه انتحله . أما إذا لم يجد إقبالاً عليه واستحساناً فمعنى ذلك إنه ليس له موهبة في الكتابة ، وعليه عندئذ أن يترك هذه الصناعة إلى صناعة أخرى (٣) . وقد طبق هذا المبدأ على نفسه فكان في بدء حياته الأدبية ينسب ما يكتب إلى أدباء مشهورين كابن المقفع والخليل بن أحمد الفراهيدي والعتابي (٤) .

أما خصائص أسلوب الجاحظ فهي الطبيعية ومرونة العبارة ، والترادف ، وفصاحة اللفظ ، والملاءمة بين اللفظ والمعنى ، والإسهاب ، وعدم تنقيح العبارة .

١ - المصدر عنه ، ص ١٤٢ .

٢ - المصدر عنه ، ص ١٣٧ .

٣ - المصدر عنه ، ص ١٣٩ .

٤ - فصل ما بين العداوة والحسد . ( رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٥١ ) .

## ١- الطبعية :

لم يكن الجاحظ مفكراً فحسب وإنما كان أديباً ذا موهبة فنية قوية تجلت بقدرته الفائقة على التعبير بسهولة ويسر. فما إن يتحرك قلمه للكتابة حتى تنثال عليه الألفاظ انشياً وتتدفق عليه العبارات تدفقاً. إننا نشعر ونحن نقرأه إنه لا يعاني جهداً في الكتابة أو ارتباكاً في التفكير<sup>(١)</sup>. ولم يكن بحاجة إلى تكلف شيء ليس من طبعه ، أو إرهاق ذهنه بالبحث عن فكرة شاردة أو لفظة بائنة أو عبارة مناسبة ، وكان أكره شيء عنده التكلف ، وهذا ما أشار إليه كثيراً في آثاره فنسمعه يقول : « ومن أعاره الله من معونته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنباً ، جلبت إليه المعاني وسلسل له النظام ، وكان قد أعفى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم ، ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح الفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً رديئاً ، ولا قولاً مستكرها . وأكثر ما تجد ذلك في خطب المولدين . وفي خطب البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدين سواء كان منهم ذلك على جبهة الارتجال والاقتضاب ، أم كان من نتاج التحجير والتفكير »<sup>(٢)</sup>.

## ٢- العبارة المرننة :

عبارة الجاحظ مرنة مطاطة تطول وتقصّر حسب المعاني التي تؤذيها وتخرج وتتلوى تبعاً لحركة الأفكار في الذهن . وتتخذ شكلين مختلفين من حيث الإيفاع . فتارة تكون مقطعة تقطيعاً موسيقياً متوازياً ، ولكن دون تقييد بقافية أو تسجيع ، وتكون طوراً وغالباً مرسله إرسالاً دون اهتمام بتقطيع أو تفصيل . وهاك مثلاً على العبارة المقطعة مأخوذاً من رسالته في ذم أخلاق الكتاب : « ومتى وقع الوصف من القائل تقصياً ، والنعى من الواصف تألقاً ، قل شهداؤه وكثر خصماؤه ، وخفت

١ - من حديث الشعر والنثر ، ص ٦٢ .

٢ - البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

المؤونة على مجاويبه في دعواه ، وسهلت مناصبة الأدياء له في معناه ، لأن أغلظ المحن ما عرض المشهود فأزاله ، وتصفحه المعقول فأحاله . واضعف العلل ما التمس بعد المعلول ، ونصبت له علماً على الموجود بعد الوجود ، وإذا تقدم المعلول منه والمخبر عنه خبر ، أستغنى عن المحاكم وظهر عوار الشاهد . <sup>(١)</sup> وهذا مثل على العبارة المرسلة : « وكان عندنا رجل من بني أسد ، إذا صعد ابن الأكار الى نخلة له ليلقط له رطباً ملاً فاه ماء . فسخرؤا به وقالوا له : إنه يشربه ويأكل شيئاً على النخلة فإذا أراد أن يتزل بال في يده ثم أمسكه في فيه ، والرطب هون على أولاد غير الأكرة من أن يحتمل منه أحد شطر هذا المكروه ولا يعضه . قال : فكان بعدها يملأ فاه من ماء أصفر أو أخضر لكيلا يقدر على مثله في رؤوس النخل » <sup>(٢)</sup> .

### ٣- الترادف :

يكثر الترادف في كتابة الجاحظ كثرة تلفت النظر ، وهذا دليل على ثروته اللغوية الطائلة وعدم اهتمامه بالتنقيح وصدوفه عن الإيجاز وجنوحه الى الإسهاب . والترادف على نوعين : ترادف معنوي وترادف لفظي . والترادف المعنوي يكون بين عبارتين أو أكثر تتضمن كل منهما المعنى نفسه كما في المعطع التالي : « ذكرت - حفظك الله - أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار ، وفي تفصيل حيل سراق الليل ، وإنك سددت به كل خلل وحصنت به كل عورة ، وتقدم - بها أفادك من لطائف الخدع ونبهك من غرائب الحيل - فيما عسى ألا يبلغه كيد ولا يجوزه فكر . » <sup>(٣)</sup> أما الترادف اللفظي فيكون بين لفظتين أو أكثر تتفقان في المعنى كما في ما يلي : « ولست آمن - جعلني الله فداك - بأن تكون هذه الكتب التي أعني بتأليفها وأناثق في ترصيفها ، يتولى عرضها عليك من قد ليس لباس الزور في انتحال عرض مثلها ونسب نفسه الى القوة على نظائرها والمعرفة بها بقرارها » <sup>(٤)</sup> .

١- آثار الجاحظ ، ص ٥١ .

٢- البخلاء ، ص ١٣٣ .

٣- المصدر عينه ، ص ١ .

٤- فصل ما بين العداوة والحسد (رسائل الجاحظ ج ١ ، ص ٣٤٠) .

٤ - فصاحة اللفظ : رغب الجاحظ عن الإعراب في اللفظ وقصد إلى اللفظ الفصيح المفهوم ، ولكنه مع ذلك لم ينحدر إلى اللفظ المبذل أو العامي . وهكذا جاءت الفاظه وسطاً بين السوقي الساقط والغريب الوحشي . وقد عبر عن هذا الأسلوب بقوله : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً . . » (١).

٥ - الملاءمة بين اللفظ والمعنى تتناول ثلاثة أنحاء : فمن ناحية أولى تكون الألفاظ على أقدار المعاني لا تزيد عنها ولا تنقص ، ومن ناحية ثانية تكون الألفاظ موافقة للمعاني من حيث الدلالة ، ومن ناحية ثالثة تنسجم الألفاظ مع الموضوع أو المقام وقد عبر الجاحظ عن ذلك بقوله : « ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكرة لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه موثقاً ، وهول تلك المقامات معاوداً . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على إقدار منازلهم » (٢).

ان حرص الجاحظ على الملاءمة بين اللفظ والمعنى حمله على أن ينقل الكلام كما جاء على لسان أصحابه دون تغيير أو تبديل حتى ولو كان سخيلاً . وقد برر هذا المذهب بأن سخييف الألفاظ يشاكل سخييف المعاني ، وانه قد يحتاج إلى السخييف في بعض المواضع ويكون أمتع من الكلام الجزل الفخم . « ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج الفاظها ، فإنك ان غيرتها بأن تلحق بإعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطفام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظاً أو تجعل لها

١- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٧ .

٢- البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٧ .

من فيك مخرجاً سريعاً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها . » (١)

## ٦- الإسهاب :

هو إطالة الشرح وعدم الاكتفاء بالإشارة والتلميح الى المعاني . وقد اعتمده الجاحظ لأنه يرغب في أن تكون معانيه واضحة مفهومة من القارئ . ولن يتأتى له ذلك إلا إذا عرضها عرضاً واقعياً . أما إذا لجأ الى التنقيح والتصفية غدت تلك المعاني غامضة عسيرة الفهم . ومن هنا شاع التريد والتزادف والحشو والاستطراد في كتابته . وقد أوضح نهجه في الإسهاب بقوله : « وليس الكتاب لى شيء أحوج منه الى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية ، ويحتاج في اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الفاظ السفلة والحشو ويحطه من غريب الإعراب ووحشي الكلام . وليس له أن يهذه جداً ويتفحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق إلا بلب اللب ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله وأسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه . فإنه ان فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يحدد لهم أفهاماً مراراً وتكراراً ، لأن الناس كلهم تعودوا لمبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها . الا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره . . . » (٢)

وبما أن الإيجاز هو قوام البلاغة العربية ، وبما إنه يخالف الإسهاب لهذا يحاول الجاحظ أن يفهمه فهماً خاصاً ليوثق بينه وبين مذهبه في الإسهاب . إنه يعني بنظره ، حذف ما فضل عن المقدار اللازم لإيضاح المعنى . « فالإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسمع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما يكون سبباً لإغلاقه ، ولا يردد وهو يكتفي في الأفهام بشطره . فما فضل عن المقدار فهو الحطل . » (٣)

١- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ١٠١-١٠٢ .

٢- الحيوان ، ج ١ ، ص ٨٩-٩٠ .

٣- المصدر عينه ، ج ١ ، ص ٩١ .



## الخاتمة

في الخاتمة نعلن حصيلة ما وعدنا القيام به في المقدمة . لقد ذكرنا في المقدمة أن المناحي الفلسفية عند الجاحظ هي نزعاته الفكرية وأشرنا الى انه لم يبن فلسفة متماسكة منظمة صاغها بفالب منسق ، فاكثفى بإرسال آراء مبعثرة في تضاعيف كتبه حول مختلف موضوعات الفلسفة . وقلنا ان جهدنا سينصب على للممة هذه الآراء ونظمها ومحاولة تركيب مذهب منها يبين نظرتة الى الحياة .

لقد توصلنا الى تحديد ملامح تلك النظرة فبدا لنا الجاحظ إنساناً مؤمناً وقد أرسل الله الأنبياء أمثال موسى وعيسى ومحمد وحملهم رسالات سماوية وكلفهم بإبلاغها الى البشر لهدايتهم الى الحق أو نهيبهم عن الشر . وعلى الناس العمل بموجب تعاليم الدين . وليس صحيحاً ما رماه به خصومه من الزندقة . فالجاحظ ليس زنديقاً وهو الذي حارب الزندقة بلا هوادة ، ولم تقع في جميع آثاره على كلمة تدل على شكه في الله أو تعاليم الدين .

يبدا أن الجاحظ لم يكن متزمتاً في دينه ، وإنما كان حر التفكير سمحاً آخذاً

بجوهر الدين ولم يتم بقشوره . وعرف كيف يوفق بين الدين والدنيا وحاول أن يبني الإيمان على أسس طبيعية ، فاستدل من المخلوقات الطبيعية على وجود الخالق ، ودعاً الناس إلى أن يعيشوا حياة طبيعية ، وأن يلبوا حاجاتهم الفطرية ، وندب إلى الضحك لأنه ينمي الجسم ويريح النفس ، وجعل المزاح عناصر كتابته ، ولم يتورع عن شرب النبيذ والدعوة إلى احتسائه لأنه مفيد للجسم والروح ، وأقبل على اللذات دون أن يتبذل ، فتسرى بالجوارى وإن لم يؤسس عائلة ، وتقبل الهبات من أصحاب الشأن وحضر المآدب . ومن جهة أخرى ، وانسجماً مع مذهبه هذا في الحياة ، انتقد الزهاد والمتصوفة لأنهم برأيه يخالفون طبيعتهم البشرية عندما يقرون أنفسهم على الحرمان من لذات الدنيا .

أما العالم الذي أبدعه الله فقد جاء على خير ما يمكن أن يكون عليه . السماء تظلمه وتسبح فيها الكواكب والنجوم ، ويعمر الأرض الحيوان والإنسان والنبات ويحتل الإنسان مركزاً عالياً يأتي بعد الله في المكانة ، وهو سيد المخلوقات وسيد نفسه ، حباه الله عقلاً به يهتدي إلى الرشاد ويكبح جماح شهواته . وتأتي بعد الإنسان في الدرجة الحيوانات التي تتمثل فيها حكمة الله خير تمثيل لما تتصف به من الطباع الغريبة والعجيبة .

في هذه النظرة لا يختلف الجاحظ عن أي مؤمن أو مسلم . ولكن الذي يمتاز به هو نزعة طبيعية ونزعة كلامية .

أما النزعة الطبيعية فقد مهتت كافة آرائه واتجاهاته . لقد أقر بوجود قوانين تسير العالم ، على الإنسان أن يجتهد في اكتشافها . وعلى هذا الأساس لم يعتقد بالأساطير والخرافات التي كانت تحشو أذهان أبناء عصره ، فسخر منها ودعا إلى نبذها وتحكيم العقل فيها . ودعته نزعته الطبيعية إلى تفسير كثير من الظواهر تفسيراً طبيعياً : فاعتبر المعرفة طباعاً وجعل العقل غريزة طبيعية كسائر الغرائز في الإنسان تعمل وفق قواعد لا تخضع لمشيئتنا . ونظر إلى أثر البيئة فوجده ظاهراً في أجسام الناس وألوانها وحياتهم

الاجتماعية . وتبين أثر الطبيعة في الأخلاق وذهب الى أن الأخلاق تصدر عن طبائع فطر عليها الناس ، فالبخل طبع والكرم طبع والشجاعة طبع وكذلك الجبن . وطبق نزعة الطبيعة على الفن وقال ان الشعر والخطابة موهبتان طبيعيتان ، وجعل من الطبيعة أو عدم التصنع منهجاً في كتابته وفكره .

وتبدت النزعة الكلامية في ميله الى الجدل ، وقد أصبح الجدل نهجاً التزامه في جميع ابحاثه الفلسفية والطبيعية والدينية . وقد دخل في مباحثات لا تنتهي مع خصوم المعتزلة من شيعة ومرجئة وخوارج وأهل جماعة أو حشوية كما كان يدعوهم ، وبجوس ودهرية . ولم يقف عند هذا الحد بل انساق مع نزعة الجدلية الى انتقاد شيوخ المعتزلة أمثال أبي الهذيل العلاف وأستاذة النظام ، واستقل عنهم بآراء عديدة دعت الدارسين الى اعتباره صاحب فرقة كلامية خاصة سميت الجاحظية نسبة اليه ، وقد حرصنا منذ مطلع البحث أن نبين تلك الآراء الخاصة التي اختلف بها عن أساتذته وسائر العلماء الذين عرفهم في عصره ، وقد تعرض الجاحظ بسبب موافقه من أصحاب الفرق الى حملات عنيفة شنت عليه من هؤلاء ولا سيما من الشيعة وأهل السنة والجماعة ، وإتهموه بفساد الدين والخلق والكذب والافتراء . فهو في نظر ابن حزم « أحد المجان والضلال ، غلب عليه الهزل ، ومع ذلك فانا ما رأينا له في كتبه تعتمد كذبة يوردها مثبتاً لها ، وإن كان كثير الإيراد لكذب غيره . »<sup>(١)</sup> وينسب ابن حجر العسقلاني لابن وحشية قوله في الجاحظ « هو أحسنهم للحجة استنارة وأشدهم لطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر . ويكمل الشيء وينقصه فنجد مرة يحتاج للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزنادقة على أهل السنة ، ومرة يفضل علياً ومرة يؤخره »<sup>(٢)</sup> ويتهمه كاهن حزم بالضلال لأنه كان لا يصلي ، وكان متهماً في دينه ، يصنع الأحاديث وينصر الباطل ويكذب<sup>(٣)</sup> .

١- ابن حزم الفصل بين الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٤٥٧ .

٢- ابن حجر العسقلاني ، لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٣٥٦ .

٣- المصدر ج ٢ ، ص ٣٥٦ .

وشن عليه ابن الراوندي حملة عنيفة في كتابه الذي دعاه « فضيحة المعتزلة » واتهمه بالتجني والافتراء والباطل . « وحاول أن ينقض كتاب الجاحظ المسمى فضيلة المعتزلة » (١) .

بيد أن الجاحظ وجد من ينصفه من المؤرخين والمفكرين ويدي إعجابه به . من هؤلاء أبو حيان التوحيدي الذي يدافع عنه قائلاً : « سمعت ابن ثوبة يقول : أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظن أنه إذا تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوقع بعيداً عن الجاحظ قريباً من نفسه . الا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ، ولا تتجمع في صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ . هذه مفاتيح ، قلما يملكها واحد ، وسواها مغالتي قلما يتفك منها أحد » (٢) .

ويقول عنه ابن نباتة إنه « إمام الفصحاء والمتكلمين ، الذين ملأت الأفاق أخباره وموائده حتى قيل : مما فضل الله تعالى به أمة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، على سائر الأمم : عمرين الخطاب بسياسته ، والحسن البصري بعلمه ، والجاحظ ببيانته » (٣) .

وأخيراً أتينا إلى الناحية الجمالية التي حجبت سائر النواحي عن أعين معظم الباحثين المحدثين فاهتموا بها وأهملوا ما عداها . لقد كان الجاحظ بحق أديباً كبيراً . ولكنه كان إلى جانب ذلك مفكراً وفيلسوفاً . ونحن لا نجد له أدباً خالصاً صرفاً . والموضوعات التي هاجمها كانت موضوعات فلسفية صاغها بقلب أدبي كما هو الحال عند أفلاطون قديماً وبرغسون ومارتز حديثاً . ونحن لم نعن في بحثنا من هذه الناحية إلا بإبراز فلسفته الجمالية التي تمثلت بوضعه أسس البلاغة في اللغة العربية .

١ - انظر : الحياض ، الانتصار ، المقدمة .

٢ - أبو حيان التوحيدي ، الاجتهاد والمؤتة ، ص ٦٦ .

٣ - ابن نباتة ، شرح العمود ص ٢٤٨ .

## الملحق



## كشاف كتب الجاحظ

إن كثرة مؤلفات الجاحظ دفعت الباحثين إلى محاولة احصائها . وقد قام ابو عثمان ذاته بوضع اول لائحة بها في مقدمة كتابه «الحيوان» ، ضمت نحو ٣٦ كتابا . ثم عقبه ابن النديم فوضع ثبناً بها يناهز ١٢١ كتابا ، واورد له ياقوت الحموي في كتابه معجم الادباء نحو ١٢٣ كتابا .

وفي العصر الحديث اهتم السندوبي بهذه الناحية فوضع قائمة بمؤلفات الجاحظ اعتمد فيها بصورة اساسية على ياقوت الحموي . وضمن تلك القائمة كتابه « ادب الجاحظ » .

وعقبه بروكليمان في كتابه « تاريخ الادب العربي » فاورد للجاحظ حوالي ١٧٦ كتابا ، اعتمد فيها على الذين سبقوه كياقوت والسندوبي .

وكانت آخر محاولة بهذا الصدد تلك التي اضطلع بها شارل بلا بعنوان « محاولة كشف نتاج الجاحظ » وهي مقالة نشرها في مجلة « أوابيكا » العدد الثالث سنة ١٩٥٦ . وقد استغاد فيها من المحاولات السابقة - عدا فهرست ابن النديم - وبشكل خاص من بروكليمان كما يعترف هو ذاته .

اما الكشف الذي نضعه الآن فهو تعريب لعمل بلا مضافاً إليه ابن النديم<sup>(١)</sup> والطبعات الجديدة لكتب الجاحظ<sup>(٢)</sup> ، وقد جعله فهرساً مرتباً حسب الحروف الابجدية يضم نحو ١٩٣ كتاباً . وقد اورد بعد اسم الكتاب المعلومات التالية :

أ- تاريخ تأليف الكتاب .

ب- الكتب القديمة التي اشارت الى عنوانه .

ج- الكتب الحديثة التي اشارت الي عنوانه .

د- حجم الكتاب كاملاً او ناقصاً .

هـ- الطبقات الكاملة .

و- الطبقات الجزئية او المنتخبات الواردة في كتب مطبوعة .

ز- الترجمات الكاملة او الناقصة للكتاب .

ح- الابحاث المختلفة حوله .

ط- ملاحظات .

اذا وضعت نجمة واحدة امام اسم الكتاب ففي ذلك دلالة على ان قسماً من الكتاب حفظ فقط . واذا وضعت نجمتان امامه فهذا يعني ان الكتاب حفظ كله . وقد اعتمدت المصادر التالية :

ابو الفداء : مختصر تعريف البصر ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ ، ٤ مجلدات .

البغدادي : كتاب الفرق بين الفرق . طبعة م بدر ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ /

١٩١٠ م

البغدادي : خزانة الادب ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ ، اربعة مجلدات .

الجاحظ : كتاب البيان والتبيين ، طبعة عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٦٧

١٣٦٨ / ١٩٤٨ - ١٩٥٠ في جزأين .

---

١- ابن النديم ، الفهرست ، مطبعة داشكا ، طهران ، ١٩٧١ ، ص ٢١١-٢١٢ .

٢- ظهرت بعد كشف بلا طبعات عديدة لكتب الجاحظ ، أحدثها طبعة دار ومكتبة الهلال في بيروت ، شملت البيان والتبيين ١٩٨٨ ، والحيوان ١٩٨٦ ، والرسائل في ثلاثة أجزاء وقد ضمت جميع رسائله سنة ١٩٨٧ .

برلين : المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ مخطوطة برلين (اهلوت ٥٠٣٢ ،  
لامبرج ، ٨٢٨) ...

م.ب ١١٢٩ : مختارات فصول الجاحظ ، مخطوطة المتحف البريطاني ،  
١١٢٩ . والمخطوطة نسخة عن مخطوطة القاهرة التي اعتمد عليها ناشر المتخبات  
المنبئة على هامش الكامل للمبرد وهي : الحاسد ، المعلمين ، اللواط ، الرد على  
النظام ، الترييع ، مدح النبيذ ، المغنين ، النساء ، الترك ، النبوة ، خلق القرآن ،  
النصارى ، العثمانية مسائل وجوابات ، المعاد ، الجدد ، الوكلاء ، البلدان ، البلاغة ،  
الظن ، النبيل ، المودة ، استحقاق الامامة الوعد ، النطق ، فضيلة الكلام ،  
التجارب ، الشارب ، جوابات في الامامة ، الزيدية ، ثبت عناوين الكتب ، ولكن  
تسيطر الفوضى على المتخبات ، ولذا يجب اخضاع النصوص لنقد صارم .

داماد (١) : مجموعة من رسائل الجاحظ ، مخطوطة داماد إبراهيم باشا ٩٤٩ .  
وقد اوردت النصوص كاملة وهي : الترك ، الاخلاق المحمودة ، السر ، المعاد ،  
السودان ، الجدد ، التشبيه ، رسالة في الفتيا ، رسالة الى الفرج ، العداوة ، القواد ،  
الناطقة ، الحجاب ، الجوارى ، القيان ، الكتاب ، البغال ، الحنين الى الاوطان .

رسائل : ج . فنكل ، ثلاث رسائل لابي عثمان بن بحر الجاحظ ( ١٨٦٩ )  
القاهرة ١٩٢٦ هذه الرسائل تضم : النصارى ، الكتاب ، القيان .

متخبات : اوريشر ، متخبات من الجاحظ ، ستوتغارت ، ١٩٣١ ، هذا  
المؤلف يضم ترجمات لعدد كبير من كتابات الجاحظ .

الجمهرة : احمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، ٤ ، القاهرة ،  
١٣٦٥ / ١٩٣٧ ينشر الكتاب مقتطفات مختلفة مستقاة من العقد ، والحصري وابن  
نباتة ، ورسالتين مقتبستين من البخلاء .

---

١ - طبعها عبد السلام هارون بعنوان «رسائل الجاحظ» ، القاهرة وبغداد ، ١٩٦٥ في جزئين .

الغزولي : مطالع البدور في منازل السرور ، القاهرة ١٢٩٩-١٣٠٠ ، جزآن .

الحيوان : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، طبعة عبد السلام هارون ، القاهرة ، طبعة ثانية ، ٧ أجزاء . يقدم الجاحظ في بداية الجزء الاول قائمة بالمؤلفات التي صنفها قبل كتاب الحيوان ، وتصنيف هذا الكتاب الاخير سبق موت ابن الزيات ٢٣٢/٨٤٧<sup>(١)</sup> .

الخياط : كتاب الانتصار ، طبعة نيبرج ، القاهرة ، ١٩٢٥ .

العقد : ابن عبدربه ، العقد ، القاهرة ، ١٣٤٦/١٩٢٨ ، ٤ أجزاء .

الاربلي : كشف الغمة (لم يره) .

الارشاد : ياقوت ، ارشاد الاربلى الى معرفة الاديب ، طبعة مرغليوت ، لندن . يقدم ياقوت واحدة من اللائحتين الاكثر اكتمالا لمؤلفات الجاحظ .

الكامل : المبرد ، الكامل ، القاهرة ١٣٢٤ ، مع منتجات من الجاحظ مثبتة على الهامش .

الكتبي : عيون التواريخ ، مخطوطة رقم ١٥٨٨ في المكتبة الوطنية بباريس . تتضمن ترجمة الجاحظ لائحة شبيهة بلائحة ياقوت .

مجموع : ب . كراوس ومحمد طه الحاجري ، مجموع رسائل الجاحظ ، القاهرة ، ١٩٤٣ هذه المجموعة تحتوي على : المعاد ، السر ، العداوة .

---

١ - ان الجاحظ بدأ تصنيف « الحيوان » قبل موت ابن الزيات وقد أهداه بعض أجزاء منه ونال جائزته ، ولكنه أكمل تأليف الكتاب بعد موت ابن الزيات أي بعد احتلاله وانتقاله الى البصرة . وقد صرح هو في أماكن من الحيوان بأنه كتب قسماً ابان مرضه . وفي المقدمة اشارة الى إنها كتبت بعد نشر الكتاب أو قسم منه : فهو يقول لمن انتقد كبه : إنه قد عابه في كتاب الحيوان بكذا وكذا . . وهذا دليل على أن الكتاب كان معروفاً ومتداولاً عندما كتبت المقدمة . وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتبار المقدمة قد كتبت كما يقول بلا قبل موت ابن الزيات ، وبالتالي لا يمكن اعتبار اللائحة التي أثبتت في المقدمة تتضمن فقط الكتب التي ألفها قبل موت ابن الزيات .

الموصل : داود حلبى الموصلى ، كتاب مخطوطات الموصل ، بغداد ، ١٣٤٦ / ١٩٢٧ . بعض المخطوطات الهامة كانت محفوظة في الموصل ، ولكن أهمها بقي ضائعا بسبب موت صاحبها الذي بعثرت مكتبة .

ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، القاهرة ١٣٢٩ ، ٤ أجزاء . ينشر المؤلف بعض صفحات كتب الجاحظ ، ولا سيما من كتاب العثمانية ، وقد نشرها السندوي دون ذكر المصدر .

النصوص : شارل بلا ، نصوص جاحظية غير منشورة . مجموعة من الرسائل الصغيرة والمقتطفات غير المنشورة .

الرسائل : حسن السندوي ، رسائل الجاحظ ، القاهرة ، ١٣٥٢ / ١٩٣٣ . هذه المجموعة تحتوي على : العثمانية ( مع نقض الاسكافي ) ، هاشم ، النبوة ، الحجاب ، الترييع ، استحقاق الامامة ، النساء ، مدح النبيذ ، بنو أمية ( = نابتة ) العباسية ، المودة ، النظام ، ورسائل خاصة ، يصرح السندوي أن هذه النصوص مستخرجة من كتب الجاحظ وكتب أخرى . ولكنه ، تبعا لعادته ، لا يشير الى المصادر ، وسنشير الى بعضها عرضا .

١١ رسالة : احدى عشرة رسالة ، القاهرة ، ١٣٢٤ / ١٩٠٦ . هذه المجموعة تحتوي : الحاسد ، الترك ، السودان ، الترييع ، النطق ، التجار ، العشق ، الوكلاء ، الشيعة ، المغنين .

السندوي : حسن السندوي ، أدب الجاحظ ، القاهرة ، ١٣٥٠ / ١٩٣١ . يقدم الكاتب لائحة بكتب الجاحظ مطابقة للائحة ياقوت .

سرح : ابن نباتة ، سرح العيون ، بولاق . دون تاريخ .

صفدي : الوافي ، مدريد ١٩١٤ .

١ × - رسالة إلى أبي الفرج ابن نجاح الكاتب: (١)

(د) داماد ، ٩٤٩ .

(هـ) طبع داود جليبي ، في لغة العرب ، ٨ ، ٣٢-٣٥ .

(ط) انظر رقم ٨٧ .

٢ - رسالة إلى أبي حاتم السجستاني .

(ب) العقد ، ٢ ، ١٩٩ .

(و) العقد ، ٢ ، ١٩٩ ، نشر في الجمهرة ، ٤ ، ٥٧ ، (سطران) .

٣ - رسالة إلى أبي النجم وجوابه (٢)

(ب) الإرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٤ ب .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٥ ، سندوبي ، رقم ٤ .

(ط) يعني بأبي النجم هلالا الأنباري ، مولى بني سليم ، كاتب بغدادي .

٤ أبناء السرايري والمهرات .

(أ) قبل ٢٤٠ هـ .

(ب) البيان ، ١ ، ٣٤ .

(ط) يبدو أن الكاتب يبحث في الأسماء والشهرة .

٥ - كتاب الأدب .

(ب) العقد ، ٢ ، ٣٨ (٣)

---

١ - ابن النديم ، ٢١١ : « رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح في امتحان عقول الأولياء » .

٢ - ابن النديم ، ٢١١ .

٣ - المصدر منه ، ٢١١ (عناصر الأدب) .

(و) العقد ، ٢ ، ٣٨ (طبعة ١٩٤٠ ، ٢ ، ٣٣٦) .

ط) يضم عناصر الأدب .

٦- أديان العرب .

ب) فخر الدين الرازي ، المناظرات ، كمصدر للشهرستاني ( هامش فضل ابن حزم ) ٣ ، ٢١٥ ، في الفصل الذي عنوانه : آراء العرب في الجاهلية .

٧- أعمال الطبائع :

ب) الخياط ، ٩٢ .

ج) بروكليمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٦ ، السندوبي رقم ٢٤ .

٨- كتاب الأخبار وكيف تصح .

(١) قبل ٢٣٢هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٩ ، الإرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ ب ، الخياط ، ٢٢ ، ١٥٥ ( تصحيح مجي ، الأخبار ) ، صفدي ، ١٣٤ (١)

ج) بروكليمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٤ ، السندوبي ، رقم ٨ .

(و) أحمد بن يحيى ، المنية والأمل ، ٢ ، ١٨٧ ، نشر من جديد في مجلة لغة العرب ، ٩ ، ١٧٤ - ١٨٠ .

ز) مستخيات ريش ، ٥٥٢ - ٥٦٢ .

أخلاق ، أنظر الكتاب ، التاج ، الوزراء .

رسالة في الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة - انظر المعاد .

كتاب أخلاق الملوك ، أنظر التاج (٢) .

١- ابن التميم ، ٢١٠ .

٢- ميه ، ٢١١ .

## xx كتاب تهذيب الأخلاق

هـ) طبعة كرد علي في مجمع اللغة العربية ، ٤ ، ١٣٤٢ / ١٩٢٤ .

ط) هذه النسبة خطأ صححه كرد علي جزئياً في ملحق ( عدد ٥٩ - ٦٠ ) ثم في تعريف حكماء الإسلام لليهقي ( ٩٧ ، رقم ١ ) ، والكتاب ينسب لى أبي زكريا يحيى ابن عدي .

و) (متخبات ريشر ٢٥٧-٢٦٢ .

٩- كتاب الأخطار والمراتب والصناعات .

ب) (الإرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ أ<sup>(١)</sup> .

ج) (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٤ ، السندويي رقم ٩ .

ط) ( يتساءل بروكلمان عما إذا لم يكن هو عينه الكتاب الذي يحمل عنوان غش الصناعات .

١٠- كتاب الرد على من الحد في كتاب الله عز وجل .

ب) (إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ ، الصفدي ، ١٣٤<sup>(٢)</sup> .

ج) (بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٢٢ ، السندويي ، رقم ٧٧ .

١١- رسالة في الأمل والمأمول .

ب) (الإرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٨ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ أ<sup>(٣)</sup> .

ج) (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٨ ، السندويي ، رقم ٣٢ .

كتاب الأمصار وعجائب البلدان ، أنظر : بلدان .

---

١- عنه ، ٢١١ .

٢- عنه ، ٢١١ .

٣- ابن التديم ، ٢١١ . طبعة دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٨ م ، تحقيق ششن .

## ١٢- كتاب الأمثال .

ب) (إرشاد ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ١٥٥ أ<sup>(١)</sup> .

ج) (بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٥ ، السندوي ، رقم ٣٠ .

ط) (أنظر الكتاب التالي :

مائة من أمثال علي .

ج) (بروكلمان ٢٤٤ ، رقم ٦٢

د) (برلين ، ٨٤٢٢ ، ٨٦٥٦ .

هـ) (صيدا ١٣٤١ ، نصوص .

هناك شك ينجم على نسبة هذه المجموعة . هذا ما تدل عليه مقارنة سريعة بين

الحكم التي جمعت والكلام المنسوب الى علي والذي يردده الجاحظ في كتبه .

اقسام فضول الصناعات ، أنظر الصناعات .

## ١٣- كتاب الأسد والذئب .

ب) (إرشاد ٦ ، ٧٨/١٦ ، ١١٠ ، الكتبي ١٥٥ أ<sup>(٢)</sup> .

ج) (بروكلمان ٢٤٦ ، رقم ٧٨ ، السندوي ، رقم ١٨

## ١٤- كتاب الأسماء والكنى والألقاب والأنباز .

١) قبل ٢٤٠ هـ .

ب) (البيان ، ١ ، ٣٤ .

## ١٥- كتاب الأصنام .

---

١- عيه ، ٢١٠ .

٢- عيه ، ٢١٢ .

(١) قبل ٢٣٢ هـ.

(ب) الحيوان ، ١ ، ٥ ، إرشاد ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ١٥٤ ب ،  
الصفدي ، ١٣٤ (١).

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ١ ، السندوي رقم ٢٠ ، الألوسي ،  
البلاغ ، ٢ ، ٢١٢.

(ط) الحيوان ، ١ ، ٥ : «وعبثني بكتاب الأصنام وبذكر اعتلالات الهند لها  
وصيب عبادة العرب إياها ، وكيف اختلفا في جهة العلة مع اتفاقهما على جملة  
الديانة ، وكيف صار عباد البداوة والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة والأصنام  
المنجورة أشد الديانين إلفاً لما دانوا به وشغفاً بما تعبدوا له وأظهرهم جداً» .  
رسالة في فضائل الأتراك . أنظر الأتراك .

١٦ - كتاب اطعمة العرب .

(ب) الميداني ، ٢ ، ٧٣ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٨ .

(ط) من الممكن أن يكون الميداني قد أعطى هذا العنوان للفصل الأخير من  
كتاب البخلاء الذي كرسه الجاحظ للكلام عن أطعمة العرب القدامى .

١٧ - كتاب الأوقاف والرياضات .

(١) قبل ٢٣٢ هـ.

(ب) الحيوان ، ١ ، ٧ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٦ ، السندوي ، رقم ٣٥ .

ط) الحيوان ، ١ ، ٧ ، وعبتي بكتاب الأوفاق والرياضات .

١٨- كتاب حكاية قول الأباضية والصفرية والأزارقة والنجدية .

أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٢ . وقد حكينا في كتابنا قول الأباضية والصفرية كما حكينا قول الأزارقة والزيدية ( إقرأ النجدية ) . ولكن لا نعرف إذا كان ذلك يعني مؤلفاً مستقلاً .

ط ) نص الحيوان هو التالي :

وعلى هذه الأركان الأربعة بنيت الخارجية الخ . .  
كتاب الأبل .

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٥ / ١٦ ، ١٠٨ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٨ ، السندوبي ص ١٤٥ .

ط ) ذكر ياقوت انه منحول .

كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن ، أنظر قرآن .

كتابة احالة القدرة على الظلم ، انظر قدرة .

١٩- كتاباً بالأخوان :

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٧ / ١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤<sup>(١)</sup> .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٩ ، السندوبي ، رقم ١٣ .

٢٠ x - الأخوانيات

ب) الحيوان ، ١ ، ٧ : وعبتي برسائلي وبكل ما كتبت به لى إخواني

وخلطائي من مزج وجد ، ومن افصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسمه باقيا ، ومديح لا يزال اثره ناميا ، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكي .

(و) رسائل ، ٣٠٣-٢١٦ .

ط ( من الممكن وجوب التمييز بين كتاب الإخوان وبين المراسلات الخاصة التي نشر السندوبي نماذج منها .

٢١- كتاب اصحاب الإلهام .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب ( الحيوان ، ١ ، ٩ ، الخياط ، ١٧٢ ، إرشاد ، ١٦/٧٦/٦ ، ١٠٧ (الرد على أصحاب الإلهام ، الكتبي ، ١٥٣ ب<sup>(١)</sup> .

ج ( بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٩ ، السندوبي ، رقم ١٠٩ .

يستفاد من البيان والتبيين ، ٣ ، ٣٧٤ ، ان الجاحظ كتب في مطلع حياته الأدبية ( حوالي ٢٠٠/٨١٦ ) أبحاثاً حول الإمامة . هذه هي العناوين التي حفظت :

٢٢××- إثبات إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

ب ( أربلي ، الكشف .

ج ( أربلي ، نبذ ، حلبي ، في لغة العرب ، ٩ ، ٤٩٧-٥٠٠ .

ط ( مع تصويب علي ، ليس عجيباً أن يكتب الجاحظ كتباً في نصرته الخليفة علي ، في زمن لم يكن العباسيون قد انسلخوا عن العلويين ، وحيث ينبغي التركيز على فساد الأمويين<sup>(٢)</sup> .

---

١- عنه ، ٢١٠ . (لقد على أصحاب الإلهام) .

٢- هذه الفكرة بطبيعة الحال إشباح فلك أن العلاقة بين العباسيين والعلويين مرت بفترات مختلفة ففي بدء الثورة العباسية كان ثمة امتزاج تام بين العباسيين والعلويين ، ثم انفرد العباسيون بالحكم وحاربوا العلويين حتى عهد للمؤمن الذي قرب العلويين ، وفي عهد المتوكل عاد الخلاف بينهم إلى سابق عهده .

## ٢٣- إمامة ولد بني العباس .

ب) (إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ٦ ، ٥٤ (١) .

ح) (بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٢ ، السندوبي ، رقم ٢٨ .

ط) (يعتقد السندوبي أن هذا الكتاب هو كتاب العباسية ذاته . وعلى كل حال يسم الكاتب أن يبرر وصول العباسيين إلى الحكم .

## ٢٤- إمامة معاوية بن أبي سفيان .

ب) (إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ٦ ، ٥٧ (٢) .

ج) (بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٩ ، السندوبي ، رقم ٢٧ .

ط) (كتب × جويدي في R.O.S. ، ١٣ ، ٢٣٣ . « ورد في مروج الذهب اسم كتاب إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، وأنه يؤيد فيه بني أمية ضد الشيعة » . ونحن يمكننا أن نكون فكرة عن موقف الجاحظ تجاه الأمويين من قسم من النابتة . وقد وصلنا رسالة للجاحظ من يد السيد م . عبد الوهاب ( تونس ) ، يمكن أن تكون قسماً من كتاب إمامة معاوية ، يحدد فيه المؤلف حجج انتصار معاوية ويبدأ بتفضيها في المتخبات الباقية . وسيظهر هذا القسم في المشرق (انظر رقم ١٥) .

أ) المسعودي : « كتاب إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان في الانتصار له من علي بن أبي طالب (رضى) وشيعته الرافضة ، يذكر فيه رجال الرواية ويؤيد فيه إمامة بني أمية وغيرهم » .

---

١- ابن التميم ، ٢١٠ . (إمامة بني العباس) .

٢- عنه ، ٢١٠ .

٢٥- كتاب الدلالة على إن الإمامة فرض .

ب) الإرشاد ، ٦ ، ١٧٧/١٧ ، ١٠٨ ، الكتيب ، ١٥٤ (١) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٠ ، السندوي ، رقم ٦٧ .

ح) ضمن وجوب الإمامة .

٢٦- كتاب الإمامة على مذاهب الشيعة .

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٦/١٦ ، ١٠٧ ، الكتيب ، ١٥٣ ، الصفدي ، ١٣٤ (٢) .

ج) بروكلمان ، السندوي ، رقم ٢٦ .

ح) يمكن التساؤل مع السندوي عما إذا لم يكن هذا الكتاب هو عين الكتيب

المعروف بعنوان بيان مذاهب الشيعة .

٢٧ - كتاب الجوابات في الإمامة .

ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٢ .

د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و) النصوص .

ح) ضمن رقم ٤٦ .

كتاب استحقاق الإمامة ، أنظر « شيعة » .

٢٨- كتاب وجوب الإمامة .

ب) الحيوان ، ١ ، ١٢ ، إرشاد ، ٦ ، ٧٦/١٦ ، ١٠٧ ، الكتيب ، ١٥٤ ،

الصفدي ، ١٣٤ .

---

١- عنه ، ٢١٠ .

٢- ابن التميم ، ٢١٠ (الإمامة على مذهب الشيعة) .

ج) السندويي رقم ١٥٦<sup>(١)</sup>.

ح) النصوص تميز كتاب الدلالة على إن الإمامة فرض وكتاب وجوب الإمامة ، وهذا ما يقوله الجاحظ بهذا الصدد : « فهلا عبتني بحكاية مقالة من أبي وجوب الإمامة ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدى بلا رادٍ عليهم ومملا بلا رادع ربح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنية الأجل ، وأن تركهم نشرًا لانظام لهم أبعد من المفاسد واجمع لهم على المرشد » .  
رسالة في امتحان عقول الأولياء ، أنظر عقول .

٢٩- كتاب الإنسان .

أ) قبل عام ٢٤٠ هـ .

ب) البيان ، ١ ، ١٨٦ .

٣٠- كتاب الرد على من زعم أن الإنسان جزء لا يتجزأ .

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٩ الكتيب ، ١٥٤<sup>(٢)</sup> .

ح) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٣ ، السندويي ، رقم ٧٨ .

٣١- كتاب الاسم والحكم .

أ) قبل عام ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٣٠٦ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٣ .

ح) ضمن كتاب الأسماء ، لكن يجري الكلام هنا عن نعوت حكمية .

---

١- عينه ، ٢١٠ (وجوب الإمامة) .

٢- ابن النديم ، ٢١١ .

٣٢- كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب .

(أ) إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٩ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ (١) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٦ ، السندوي ، رقم ١٤ .

كتاب استحقاق الوعد ، أنظر وعد .

٣٣- كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (٢) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٦ ، السندوي ، رقم ١٥ .

٣٤- رسالة في الاستعطاف .

(ب) سرح العيون ، ١٧٦ .

(و) جمهرة ، ٦ ، ٥٠-٥٢ .

٣٥- كتاب استطالة الفهم على المعجز .

(ب) الخفاجي ، الطراز ، ١٠٨ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٧ ، السندوي ، رقم ١٦ .

(د) برلين ، ٨٧٢٧ ، الموصل ، ٣٠ .

(و) الحصري ، الجمع ، ٩١ .

(ح) مؤلف معروف لابن مسكوية الذى اكتشف وجوده جاودان هيرد الذي

قرط الجاحظ . أنظر ( . أ.أ. د ١٩٢٩ ، ١٢٩ .

كتاب الاعتزال وفضله ( عن الفضيلة )

---

١- حقه ، ٢١١ .

٢- حقه ، ٢١١ .

ب) إرشاد، ٦، ١٦/٧٧، ١٠٨، الكتبي ١٥٤ ب<sup>(١)</sup>.

ج) السندوبي، رقم ٢٢.

ط) إنه كتاب آخر عنوانه فضيلة المعتزلة.

٣٦- كتاب أحدوثه العالم.

ب) إرشاد، ٦، ١٦/٧٧، ١٠٩، الكتبي ١٥٤ ب<sup>(٢)</sup>.

ج) بروكلمان، ٢٤٥، رقم ١٤، السندوبي، رقم ٧.

ح) يجب قراءته هكذا: حدوث.

رسالة في بني أمية، أنظر نابغة.

٣٧- كتاب أمهات الأولاد.

ب) إرشاد، ٦، ١٦/٧٧، ١٠٨، الكتبي ١٥٤ ب<sup>(٣)</sup>.

ج) بروكلمان، ٢٤٥، رقم ٥١، السندوبي، رقم ٣٣.

٣٨- كتاب الأنس والسلوك.

ب) إرشاد، ٦، ١٦/٧٧، ١٠٩، الكتبي ١٥٤ ب<sup>(٤)</sup>.

ج) بروكلمان، ٢٥٤، رقم ٣٩، السندوبي، رقم ٣٤.

٣٩- مقالات في أصول الدين.

ب) ابن خلكان، ٢، ١٠٨، اليافعي، الجنان، ٢، ١٦٢.

---

١- ابن النديم، ٢١١.

٢- حبه، ٢١١.

٣- حبه، ٢١١.

٤- حبه، ٢١١.

٤٠ × - رسالة في البلاغة والإيجاز .

ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٨ .

د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و) نصوص .

رسالة في بني أمية ، أنظر ثابتة .

كتاب بصيرة غنام المرتد ، أنظر غنام .

٤١ × - رسالة في تفضيل البطن على الظهر .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٧ .

د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و) نصوص .

رسالة في بيان مذاهب الشيعة ، أنظر شيعة .

٤٢ × - كتاب كتاب البيان والتبيين .

أ) قبل ٢٤٠ هـ .

ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٦ العسكري : الصناعتين ، ١٠٥ البغدادي ،

الخزانة ، ١ ، ٣٤ ، نهج البلاغة ، ٣ ، ١٨٤ .

ج) بروكلمان ، ٢٤١ ، ١٥٩ ، السندوي ، رقم ٣٩ .

د) أنظر بروكلمان .

هـ) طبعة م . أفندي الفاكحاني ، القاهرة ، ١٣١١ - ١٣١٣ / ١٨٩٣ -

١٨٩٥ . جزآن ، طبعة محب الدين الخطيب ، القاهرة ، ١٣٣٢ / ١٩١٤ ،

رقم ٣ ، ٣ أجزاء ، طبعة حسن السندوي ، القاهرة ، ١٩٢٦ - ٢٧ ، ٣ أجزاء

( طبعة ثالثة ١٩٤٧ / ١٣٦٦ ) ، طبعة ع . س . هارون ، القاهرة ، ١٣٦٧ -

٦٠/١٩٤٨-٥٠ ، ٤ أجزاء (١) .

(و) منتخبات البيان والتبيين ، القسطنطينية ، ١٣٠١/١٨٨٣ ،  
القاهرة ، ١٩١٠ .

(ز) منتخبات ريشتر ، ٢٢-٤٠ .

٤٣ × × - كتاب القول في البقال (ومنافعها) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٦ .

(د) داماد ، ٩٤٩ ، موصل ، ٢٦٥ .

(هـ) طبعة بيلا ، القاهرة ، ١٣٧٥/١٩٥٥ (٢) .

٤٤ × - كتاب البخلاء .

(أ) حوالي ٢٤٥-٢٥٠ هـ . على الرغم من ذكره في الحيوان ، ١ ، ٤ .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٦/١٦ ، ١٠٧ (٣) .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، السندوبي ، رقم ٣٦ .

(د) أنظر بروكلمان .

(هـ) طبعة فان فلوتن ، ليد ، ١٩٠٠ ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٣ ، طبعة

القاهرة ، ١٣٢٥ ، طبعة دمشق ١٣٥٧/١٩٣٨ ، طبعة علي عبد الكريم

وأحمد العوامري ، القاهرة ، ١٣٥٧-١٣٥٨/١٩٣٨-٣٩ في جزأين ، طبعة

---

١- ابن النديم ، ٢١٠ .

وطبعة دار الفكر للجمع ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ٤ أجزاء .

٢- طبعة عبد السلام هارون (ضمن رسائل الجاحظ) الجزء الثاني ، ٢١٥-٣٧٨ .

٣- ابن النديم ، ٢١١ .

ثالثه الحاجري، القاهرة، ١٩٤٨<sup>(١)</sup>، طبعة بيروت، ١٩٥٥، في جزأين،  
طبعة دمشق ١٩٥٥.

(و) الجمهرة، ٤، ٧٥-٩٨ (رسالة أبي الناص)، ٩٨-١٣٧ (رسالة ابن  
التوأم)، طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ١٠٩-١٢٤.

(ز) متخبات ريشر، ٢٦٦-٤٨٤، ترجمة بلا الفرنسية، باريس ١٩٥١،  
وأرايكا، ٢/١٩٥٥، و ترجمة إيطالية جزئية بقلم ف. كبريالي في ر.ل. أبار-  
حزيران، ١٩٥١.

(ح) و. مارسيه، تأملات، في Melanges رينه مارسيه، ٢، باريس،  
١٩٢٥، ٤٣١-٦١، م. مبارك، فن القصص في كتاب البخلاء، دمشق  
١٩٤٠/١٣٥٨.

٤٥ × - كتاب البلدان.

(ب) إرشاد، ٦، ٧٧/١٦، ١٠٨، الكتبي، ١٥٤ ب، ياقوت،  
البلدان، ٢، ٩٣-المسعودي، التنبيه، طبعة الصاوي، ٤٩ نفسه، مروج  
الذهب، ١، ٢٠٦-٢٠٧، المقدسي، ٣/٢٤١<sup>(٢)</sup>.

(ج) بروكلمان، ٢٤٦، رقم ٩٠، ٢٤٤، رقم ٥٩، ٢، ١٥٨، السندوبي  
رقم ٣١ ورقم ٣٨.

(د) المتحف البريطاني، ١١٢٩.

(و) نصوص، اعتياداً على المتحف البريطاني، ١١٢٩، وياقوت، المعجم

الخ. . (٣)

---

١- طبعة الحاجري الرابعة، دار المعارف بمصر، ١٩٧١.

٢- ابن النديم، ٢١١.

٣- طبع في مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠ م.

ط ( عنوان الكتاب يطرح موضوعا لا يبدو من الصعب معالجته . يميز بروكلمان بين كتاب البلدان وكتاب الأمصار وعجائب البلدان ، وعبد الوهاب يلجأ الى التمييز ذاته في طبعة كتاب التبصر بالتجارة ، ٣٢٤ ، بينما يعتبر السندوي أن الجاحظ لم يكتب سوى بحث واحد تحت هذا العنوان عن خصائص المدن والبلدان . ونأمل في نشر الصفحات التي استطعنا جمعها بالإضافة الى منتخبات المتحف البريطاني قريبا .

٤٦ - كتاب البرهان .

ب ( ابن حزم ، الفصل ، ٤ ، ١٩٥ .

ط ( هذا ما يقوله ابن حزم : (ورأيت للجاحظ في كتابه البرهان : لو أن سائلا سأله وقال : أيقدر الله على أن يخلق قبل الدنيا دينا أخرى ، فجوابه : نعم بمعنى انه يخلق تلك الدنيا حين خلق هذه فتكون مثل هذه ) .

كتاب تعبير الرؤيا .

ب ( حاجي خليفة ، ١ ، ٢٢٢ .

ط ( يوجد هنا التباس ، أو نسبة خاطئة .

٤٧ - كتاب التفكير والاعتبار .

ب ( إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤<sup>(١)</sup> .

ج ( السندوي ، رقم ٤٧ .

ط ( على عكس الدلائل والاعتبار ، يبدو هذا العنوان حقيقيا . وذكر الكتبي كتاب التفكير وكتابا آخر هو الاعتبار .

xx كتاب التاج في أخلاق الملوك .

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٦ / ١٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ب ، الصفدي ١٣٤ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١ السندوي ، ص ١٤٥ - ١٥٢ .

د) أنظر بروكلمان والطبعات .

هـ) طبعة أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩١٤ (١) .

ز) ترجمة فرنسية ، بيلا ، باريس ، ١٩٥٤ .

ح) منتجات ريشر ، ٢٦٣ - ٦٦ ، ف. كبريالي ، في ر. س. أ ، ١١ ، ٢٩٢ .

- ٣٠٥ .

ط) رغم حجج الناشر ، النص مزور بالتأكيد .

كتاب تهذيب الأخلاق ، أنظر أخلاق .

٤٨ - كتاب تخزين ( تخزِيل ؟ ) الامول .

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٧ / ١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٠ ، السندوي ، رقم ٤١ .

كتاب التمثيل .

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٧ / ١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (٢) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٦ ، السندوي ، رقم ٤٨ .

كتاب تنبيه الملوك والمكائد .

ج) بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٣ ، السندوي ، ص ١٥٢ .

د) كوبرلي ، ١٠٦٥ .

ح) ر. أ. د. ٩ ، ٢٤١ ، بين أحمد زكي باشا ٢٢٦٢٢١ في طبعته التاج أن

هذا الكتاب منسوب للجاحظ (٣) .

---

١ - وطبعة فوزي عطوي ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٢ - ابن النديم ، ٢١١ .

٣ - تبين لي من قراءة مخطوطة مصورة في الجامعة الأميركية ببيروت أن الكتاب منقول لأن أسلوبه يختلف من أسلوب الجاحظ ، ولأنه يتحدث عن رجال عاشوا بعد عصر الجاحظ .

٤٩××- كتاب التريبع والتدوير .

(أ) بين سنتي ٢٢٧-٢٣٠ .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ١٥٤ ب ، الصفدي ، ١٣٤<sup>(١)</sup> .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٦٤ ، السندوبي ، رقم ٤٢ .

(د) الزاهرية ، ١٢٥ .

(هـ) طبع على هامش الكامل للمبرد ، ١ ، ٤٠-٩٧ ، أوبسكولا (فلوتن) ٨٦

-١٥٧ ، رسالة ، ٨٢-١٤٧ ، طبعة م . مسعود ، القاهرة ، ١٣٢٤ ، رسائل ،

١٨٧-١٢٤٠ ، طبعة بيللا ، دمشق<sup>(٢)</sup> .

(و) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، ٨٨-٩٩ .

(ز) منتخبات ريشر ، ٢١٢-٢٣٥ .

(ح) م . بهنيني ، في الثقافة المغربية ، أيلول ، ١٩٤١ .

× رسالة في الترجيع والتفضيل .

(ب) الاربلي ، الكشف .

(و) نفسه .

(ط) النص نفسه المعروف بعنوان فصل هاشم على عبد شمس ، أنظر لغة

العرب ، ٩ ، ٦٣٣<sup>(٣)</sup> .

---

١- ابن النديم ، ٢١١ .

٢- وطبعة فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، ١٩٦٩ .

٣- ونشرت في آثار الجاحظ ص ١٩٣ - ٢٤٠ ، بيروت ، ١٩٦٩ ، طبعة عمر أبو النصر ، بعنوان فضل هاشم علي عبد شمس .

xx٥٠- رسالة في نفي التشبيه الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد.

(أ) نحو سنة ٢٢٠هـ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٦ .

(د) داماد ، ٩٤٩ ، موصل ، ٢٦٥ .

(و) طبعة بلا في المشرق ، ١٩٥٣<sup>(١)</sup> .

(ط) أنظر مشبهة .

كتاب في تفصيل حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل لصوص الليل .

(ب) البخلاء ، ١ .

(ط) أنظر كتاب اللصوص .

كتاب تصويب علي ، أنظر علي .

٥١- كتاب المخاطبات (الخطاب) في التوحيد .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٦/١٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ، الصفدي ، ١٣٤<sup>(٢)</sup> .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٥ ، السندوبي ، رقم ١٢٤ .

xx٥٢- كتاب التبصر بالتجارة .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٤ ، ٢ ، ١٥٩ .

(هـ) طبعه . ح . ح . عبد الوهاب ، في ر . أ . أ . د . ، ١٢ ، ٣٢٦-٣٥٧ .

(ز) ترجمة فرنسية ، بلا ، في أرابيكا ، ١٩٥٤/٢ ، ١٥٣-١٦٥ .

(ح) ر . أ . أ . د . ، ١٣ ، ٢٨-٩٥ ، ١٤ ، ٢٣-٢٥ .

---

١- في رسائل الجاحظ ، الجزء الأول ص ٢٨٣-٣٠٨ .

٢- ابن النديم ، ٢١٠ .

(ب) إرشاد، ٦، ٧٧/١٦، ١٠٩، الكتبي، ١٥٤، (١).

(ج) بروكلمان، ٢٤٦، رقم ٨١، السندوي، رقم ٤٤.

٥٤- رسالة في مدح التجار (التجارة) وضم عمل السلطان.

(ج) بروكلمان، ٢٤٤، رقم ٤٧، السندوي، رقم ١٢٥.

(د) المتحف البريطاني ١١٢٩.

(و) طبع على هامش الكامل، ٢، ٢٤٦-٢٥١، ١١ رسالة، ١٥٥-١٦١.

(ز) منتخبات ريش، ١٨٦-١٨٨.

(ط) في الطبعة، نجد النص مقطعا ومزوجا برسالة في المعلمين ضمن السلطان.

٥٥- رسالة في مناقب الترك (فضائل الأتراك) وعامة جند الخلافة، إلى الفتح ابن خاقان.

(أ) بين ٢١٨-٢٢٧.

(ب) إرشاد، ٦، ٧٦/١٦، ١٠٨، (٢).

(ج) بروكلمان، ٢٤٣، رقم ١٨، السندوي رقم ١٤٥.

(د) باريس ٦٠١٣، داماد، ٩٤٩، المتحف البريطاني ١١٢٩،

الموصل، ٢٦٤.

(هـ) طبع على هامش الكامل، ٢، ١٦٦-٢٧٥، ويسكولا (فلوتن) ١-

٥٦، طبعة إبراهيم مويلحي، القاهرة، ١٨٩٨، ١١ رسالة، ٢-٥٣،

طبعة جديدة بدور التحضير (٣).

---

١- ابن النديم، ٢١١.

٢- عنه، ٢١١.

٣- وطبعة عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ الجزء الأول، ص ٥-٨٦.

(ز) مستخبات (ريشر)، ٢٠٧-٢١٠، ترجمة تركية في ترك بردى، ١٣٢٩، ٣،  
 ٨١٤ ترجمة إنكليزية، ت. هرلي-ولكر، في، ١٩١٥، ٦٣-٩٧، ترجمة  
 المانية يعلم أو-ريشر في أوريان فركن، ١٩٢٥ بترجمة فرنسية بطور الإعداد.  
 (ج) ريشر، في عالم الشرق، ١٩٢٥، ١٣٤، ملانج بيروت، ٥٢٩، ٥.  
 ٥٦- كتاب الرد على الجهمية (في الإدراك).

(أ) قبل عام ٢٣٢ هـ.

(ب) الحيوان، ١، ١٠.

(ج) بروكلمان، ٢٤٤، رقم ٨، السندوبي، رقم ٧٣.

٥٧- كتاب جهرة (جمهور) الملوك.

(ب) إرشاد، ٦، ١٦/٧٧، ١٠٨ بالكتبي، ١٥٤ ب<sup>(١)</sup>.

(ج) بروكلمان، ٢٤٥، رقم ٣٣، السندوبي، رقم ٤٩.

٨- كتاب الجوابات.

(أ) قبل ٢٣٢ هـ.

(ب) الحيوان، ١، ٩.

(ج) بروكلمان، ٢٤٦، رقم ٩٢، السندوبي، رقم ٥٠.

(ط) ضمن المعرفة، يمكن أن يكون كتاب الجوابات في المعرفة.

كتاب جوابات كتاب المعرفة، أنظر معرفة.

٥٩- كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان.

(ب) إرشاد، ٦، ١٦/٧٦، ١٠٧، الكتبي، ١٥٤ ب، أبو الفداء،

١- ابن النديم، ٢١١ (جهرة الملوك).

تاريخ، ٢، ٥١<sup>(١)</sup> الغزولي، مطالع، ١، ٢٧٠.

(ج) بروكلمان، ٢٤٣، رقم ٢٢، السندوي، رقم ٥٢.

(د) داماد، ٩٤٩، موصل، ٢٦٥.

(هـ) نصوص<sup>(٢)</sup>.

٦٠- كتاب الجوارح.

(أ) بعد كتاب البيان الذي ألف قبل ٢٤٠ هـ.

(ب) البيان، ١، ٩٤.

(ط) من الممكن تقريب هذا العنوان من ذوي المعاهات وكتاب العرجان. وهذا

هو النص الوارد في البيان: « وهذا الباب (صغر الرأس وصغر الكف) يقع في

كتاب الجوارح مع ذكر البرص والعرج والعسر والأدر والصلع والجذب والقرع

وغير ذلك من علل الجوارح. وهو وارد عليكم ان شاء الله بعد هذا الكتاب.

xx٦١- رسالة في الجذ والمزل.

(أ) قبل ٢٣٢ هـ.

(ب) إرشاد، ٦، ٧٧/١٦، ١٠٨، الكتبي، ١٥٤ | (٣).

(ج) بروكلمان، ٢٤٣، رقم ٣٩، السندوي، رقم ١٢٩.

(د) الموصل، ٢٦٥، داماد، ٩٤٩ برلين، ٣٢، ٥ (انظر أوريان،

١٩٥٤، ٨٦) المتحف البريطاني ١١٢٩.

(هـ) مجموع، ٦١-٩٨<sup>(٤)</sup>.

---

١- عيته، ٢١٠ (الجواري).

٢- طبعة عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ الجزء الثاني، ص ٩١-١٣٧.

٣- ابن التميم، ٢١١ (المزاج والجذ).

٤- وطبعها عبد السلام هارون، ضمن رسائل الجاحظ، الجزء الأول، ص ٢٣١-٢٧٨.

وطبعها محمد علي الزهبي بعنوان فلسفة الجذ والمزل مع المعاد والمعاش، وكان فير وحفظ اللسان، وفصل ما بين الصلوة والجذ، بيروت، منشورات حد، دون تاريخ.

ط) رسالة معروفة أيضا بعنوان المزج والجد .

كتاب نوادر الجن .

ب) الكتيب ، ١٥٤ ب .

ط) يمكن أن يكون الاسم ناتجاً عن قراءة خاطئة ، أنظر نوادر الحسن .

٦٢- فرق ما بين الجن والإنس .

أ) قبل ٢٣٢ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٦ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٢ ، السندوبي ، رقم ١٠٤ .

ط) الحيوان ، ٦ ، ٤٩٦ ينص على فضل الإنس على الجن ، الحيوان ، ١ ، ٦ :

« وكتاب فرق ما بين الجن والإنس وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول في معرفة الهدى واستطاعة العفريت . وفي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك العلم ، وما تأويل قولهم كان عنده اسم الله الأعظم » . أنظر أيضا فضيلة الملاك على الإنسان .

رسالة إلى المعتصم (المتوكل) في الحث على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع

الأدب ، أنظر القواد .

كتاب الحجر والنبوة .

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٨ ، الكتيب ١٥٤ (والفتوة) .

ج) السندوبي ، رقم ٥٧ .

ح) من الممكن أن تكون تقريباً « الرسالة ذات العنوان » « حجج النبوة » .

رسالة الحلية ، أنظر الحلية .

٦٣××- رسالة الحنين إلى الأوطان .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٣ . رقم ٢٩ ، السندوي ، ص ١٥٣ .

(د) الموصل ، ١٣٦ ، ٢٦٥ ، داماد ، ٩٤٩ .

(هـ) طبعة طاهر الجزائري ، القاهرة ١٣٣٣<sup>(١)</sup> .

(ز) منتخبات (ريشر) ٤٨٨ - ٤٩٧ .

ط) يشك السندوي في هذه الرسالة . ولكن ينبغي اعتبارها صحيحة حتى

يثبت العكس .

٦٤- حانوت عطار .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤<sup>(٢)</sup> .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٨ ، السندوي ، رقم ٥٤ .

٦٥- كتاب نواذر الحسن .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ب (نواذر الجن)<sup>(٣)</sup> .

(ح) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١٠ ، السندوي رقم ١٥٤ .

ط) من المسموح به التساؤل إذا كان هذا العنوان صحيحا ، وإذا كان ينطبق

على الحسن البصري .

٦٦- رسالة في الحاسد والمحسود .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ب ، الصفدي ١٣٤<sup>(٤)</sup> .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٠ ، السندوي ، رقم ٥٣ .

---

١- ابن النديم ، ٢١١ .

٢- هينه ، ٢١١ .

٣- هينه ، ٢١١ .

٤- بدأ بتأليفه قبل ٢٣٢هـ . ولكنه لم يكمله إلا حوالى سنة ٢٥٠ .

(د) أزهار ، أدب ، ٧٠٤٦ ، متحف بريطاني ١١٢٩ .

(هـ) هامش الكامل ، ١ ، ١٧-٢ ، ١١ رسالة ، ١-١٣ .

(ز) متخبات (ريشر) ١٨٠-١٨٢ .

xx٦٧- كتاب الحيوان .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ<sup>(١)</sup>

(ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٥ ، ١٠٦ ، البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ الخ . .<sup>(٢)</sup>

(ج) بروكلمان ، ٢٤١-٢٤٢ ، نفسه ، ١٥٩ ، السندوبي ، رقم ٦٣ .

(د) أنظر بروكلمان وط .

(هـ) طبعة القاهرة ، ١٣٢٣-١٣٢٥/١٩٠٥-١٩٠٧ ، ٧ أجزاء ،

طبعة ع . س . هارون ، القاهرة ، طبعة ثانية ، ٧ أجزاء .

(و) الروائع ، رقم ١٨-٢٠ ، الرفاعي ، عصر المأمون ، ٣ ، ٨٤-١٢٧ .

(ح) أنظر بروكلمان ، أضف مدام دي لاسال ، الجاحظ ، القزويني والدميري في كتبهما حول الحيوانات ، في الثريا ، رقم ١ ، كانون الأول ، ١٩٤٣ .

(ط) عمل عبد اللطيف البغدادي خلاصات عن هذا الكتاب (أنظر ابن أبي

أصبيعة ، ٢ ، ٢١٢) وابن سناء الملك (إرشاد ، ٧ ، ٢٣٦) .

ان نص الطبعة الأخيرة قيم في مجمله ، ويمكن أن يحسن بفضل المخطوطة

المشهورة (تاريخها ١٠٢٤ هـ) التي أشار إليها أو . لوفغرين . . . ، أو بسلا

لينبرغ ١٩٤٦ .

---

١- ابن النديم ، : « الحيوان في سبعة أجزاء ، أضاف إليه كتاب النساء أو الفرق بين الذكر والأنثى وكتاب اليمال ، ورأيت هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى بن سليمان ويكنى أبا يحيى وراق الجاحظ ، وقد أعيد إليه كتاب الأبل وهو ليس من كلام الجاحظ » ص ٢٠٩ .

٢- عنه ، ٢١١ .

٦٨- كتاب الحزم والعزم.

(ب) إرشاد، ٦، ١٦/٧٧. ١٠٩، الكتبي، ١٥٤ ب<sup>(١)</sup>.

(ج) بروكلمان، ٢٤٥، رقم ٤١، السندوبي، رقم ٥٨.

٦٩×- كتاب الحجاب وذمه.

(ج) بروكلمان، ٢٤٣، رقم ٤٢، السندوبي، رقم ٥٥.

(ب) الخفاجي، الطراز، ٧٢-٩٧.

(د) الموصل، ٢٦٥، داماد، ٩٤٩.

(و) الخفاجي، أعلاه، رسائل، ١٥٥-١٨٦.

(ز) منتخبات، ٥٣٣-٥٥٠.

(ط) يشك السندوبي في حقيقته<sup>(٢)</sup>.

٧٠- رسالة في الحلبة.

(ب) إرشاد، ٦، ١٦/٧٨. ١٠٩، الكتبي، ١٥٥ أ (الحلبة)<sup>(٣)</sup>.

(ج) بروكلمان، ٢٤٦، رقم ٧٦، السندوبي، رقم ٦٠ (الحلبة).

(ح) لا نعرف إذا كان يجب أن نقرأ حلبة أو حلبة.

كتاب فرق ما بين الحيل والمخارق. أنظر نبي.

٧١- كتاب الحجة في تثبيت النبوة أنظر نبوة.

---

١- هينه، ٢١١.

٢- وطبعة عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ، الجزء الثاني، ص ٢٩-٨٥.  
ولا داع للشك في نسبه للجاحظ.

٣- ابن النديم، ٢١٢.

٧٢- كتاب خصومة (خصام) العول (الحول) والعور (الأعور)

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٨/١٦ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ ب<sup>(١)</sup>.

ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١٨٧ أورد خطأ (القول والعور) ، السندوبي ، رقم ٦٥ .

٧٣- كتاب خبر الواحد .

ب) الباقلاني ، ٢ ، ١٤٤ .

٧٤- رسالة في الخراج لل أبي النجم .

أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) الجذ والهزل ، ٦١ ، إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٩<sup>(٢)</sup>.

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٩ ، السندوبي ، رقم ٦٤ .

ح) مجموع ، ٦١ .

٧٥- كتاب الموازنة بين حق الخزولة والعمومة .

أ) قبل ٢٣٢ هـ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٥٢ .

ج) بروكلمان ، رقم ٦١ .

xx- كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير .

ج) بروكلمان ، ٢٤٧ ، رقم ٥ ، ٢ ، ١٥٩ ، السندوبي ، ص ١٥٣ .

---

١- عنه ، ٢١٢ .

٢- عنه ، ٢١١ .

(د) المتحف البريطاني ، ٦٨٤ .

(هـ) طبعة م . راغب الطبايع ، حلب ، ١٣٤٦ / ١٩٢٨ .

(ح) كزنكو في ر.أ.أ.د. ، ٩ ، ٥٥٨-٥٦٢ .

(ط) هذا الكتاب واضح النحل ، ويعتقد السندوي انه ينبغي نسبته الى المحاسبي ، أنظر العبر .

كتاب الدلالة على أن الإمامة فرض ، أنظر الإمامة .

٧٦- كتاب فصل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث <sup>(١)</sup> .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٤ .

(ج) بروكلمان ٢٤٥ ، رقم ٤٦ ، السندوي ، رقم ١٠٨ .

(د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

(هـ) رسائل ، ٢٦٦-٢٧٥ (النساء) <sup>(٢)</sup> .

(ح) من المحتمل أن الصفحات المطبوعة مع رسالة في العشق بعنوان العشق والنساء تنتمي الى هذا الكتاب الذي قال عنه الجاحظ (الحيوان ، ١ ، ٤) : « وعبثني بكتاب فصل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث وفي أي موضع يغلبن ويفضلن ، وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب ، وأي عمل هو بين اليتيم ، وأي صناعة هن فيها أبلغ » <sup>(٣)</sup> .

---

١- آثار الجاحظ ، ص ١٠٠-١٠٦ .

٢- يقول ابن النديم ص ٢٠٩ ، إن كتاب النساء هو نفسه كتاب الفرق بين الذكر والأنثى .

٣- ابن النديم ، ٢١٠ .

٧٧- كتاب الزرع والنخل والزيتون والأحباب .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٤ ، البيان ، ١ ، ٢٣٠ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٦ ،  
الجد ، ٦١ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٠ ، السندويي ، رقم ٨٢ .

(ح) اهدي هذا الكتاب الى إبراهيم بن عباس الصولي الذي أجاز الجاحظ  
بخمسة آلاف دينار .

٧٨- كتاب في ذم الزمان .

(ب) العقد ، ١ ، ٣١٦ (طبعة ١٩٤٠ ، ٢ ، ١٧٥) .

(و) العقد ، أعلاه ، رسائل ، ٣١٠-٣١١ ، الجمهرة ، ٤ ، ٥٥-٥٣ ،

الرفاعي ، عصر المأمون ، ٣ ، ٨٠-٨٢<sup>(١)</sup> .

(ز) ترجمة فرنسية في ت أم ، الجزائر ، ١٩٤٧ .

معارضات الزيدية .

(ب) الحيوان ، ١ ، ٩ .

(ج) السندويي ، رقم ١٣٧ .

(ح) الحيوان ، ١ ، ٩ يشير الى موقف سياسي ديني ، لا الى عنوان كتاب :

«وعبت معارضتي للزيدية وتفضيلي الاعتزال على كل نحلة» .

٧٩- كتاب حكاية قول أصناف الزيدية .

(أ) قبل ٢٣٢ هـ .

---

١- وآثار الجاحظ ، ص ١٦٩-١٧١ .

ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، بالكتبي ١٥٣ ب ، الصفدي ١٣٤ (١) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٨ ، السندوبي ، رقم ٥٩ .

٨٠- كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة .

أ) قبل ٢٣٢ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٢ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ب ، الصفدي ١٣٤ (٢) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٥ ، السندوبي ، رقم ٦٨ .

د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و) طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٩١-٣٠١ .

٨١- كتاب ذم الزنا .

ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٦ أ (٣) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٢ ، السندوبي ، رقم ٧٠ .

سلوة الخريف في المناظرة بين الربيع والخريف .

ب) الصفدي ، ١٣٤ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٧ ، ٤ ، السندوبي ، ص ١٥٣-٥٥ .

د) أنظر بروكلمان .

هـ) طبعة القسطنطينية ، ١٣٠٢ / ١٨٨٤ ، طبعة بيروت ١٣٢٠ .

و) شيخو ، علم الأدب ، ١ ، ١٩١٤ ، ٢٤٤-٢٤٦ .

---

١- ابن النديم ، ٢١٠ .

٢- عنه ، ٢١٠ .

٣- ابن النديم ، ٢١١ .

ط) بما أن الجاحظ كتب مناظرة بين الصيف والشتاء (أنظر شتاء) فهذه يمكن بسهولة أن تنسب إليه . ان العنوان وحده يكفي ، بقافية ليظهر صفة النحل .

كتاب سر البيان .

ج) بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٦٠ .

د) كوبرلي ، ١٢٨٤ .

ط) هذا النص هو عمل الجاحظ الصغير .

٨٢×× - كتاب كتمان السر وحفظ اللسان .

ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ . ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ أ<sup>(١)</sup> .

ج) بروكلمان ٢٤٣ ، رقم ٣٧ ، السندوبي ، رقم ١٢٠ .

د) داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ، ٢٦٥ ، برلين ٥٠٣٢ (أنظر أوربان ١٩٥٤ ، ٨٥)

هـ) مجموع ، ٣٧ - ٦٠<sup>(٢)</sup> .

٨٣×× - كتاب فخر السودان على البيضاء .

ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ، الصفدي ١٣٤ ،

المسعودي ، مروج ، ١ ، ١١<sup>(٣)</sup> .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ١٩ ، السندوبي ، رقم ١٠٠ .

د) داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ، ٢٦٥ .

---

١ - ابن النديم ، ٢١١ (رسالة في كتمان السر) .

٢ - رسائل الجاحظ ، الجزء الأول ص ١٣٥ - ١٧٢ .

٣ - ابن النديم ، ٢١١ (السودان على البيضاء) ،

(هـ) أوبسكولا (فلوتن) ٥٧-٨٥ ، ١١ رسالة ، ٥٤-٨١<sup>(١)</sup> .

(ز) منتخبات (ريشر) ٢١٠-٢١٢ ، ترجمة المانية بقلم أو. ريشر في أوريان

مجلن ، ٢ ، ١٤٦-١٨٦ .

مفاخرة السودان والحرمان .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٦ ، السندوبي ، رقم ١٤١ .

ط) يستتج من الصفحة المثبتة أدناه (أنظر الصرحاء) انه لا ينبغي أن نرى هناك مؤلفاً مستقلاً .

٨٤- رسالة في إثم السكر .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٨/١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥<sup>(٢)</sup> .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٤ ، السندوبي ، رقم ٣ .

٨٥- كتاب السلطان وأعمال أخلاق أهله .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤<sup>(٣)</sup> .

(ج) بروكلمان ٢٤٥ ، رقم ٥٧ ، السندوبي ، رقم ٨٣ .

٨٦- كتاب شرائع المروة .

(ج) الألوسي ، البلوغ ، ٢ ، ١٨٧ .

٨٧- رسالة في الشارب والمشروب .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٦/١٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤<sup>(٤)</sup> .

---

١- المصدر عينه ، ٢١١ ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ص ١٧٣-٤٤٦ .

٢- عينه ، ٢١١ .

٣- عينه ، ٢١١ .

٤- عينه ، ٢١٠ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٥ ، السندوبي ، رقم ٨٤ .

د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و) طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٥١-٢٦٩ ، رسائل ، ٢٧٦-٢٨٤<sup>(١)</sup> .

ز) منتجات (ريشر) ١٦٣-١٦٨ .

٨٨× - رسالة في بيان مذاهب الشيعة .

ب) العقد ، ١ ، ٣٥٤ .

ج) بروكلمان ، ٤٢ ، ٢ ، السندوبي ، رقم ٤٠ .

د) المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و) ١١ رسالة ، ١٧٨ ، ١٨٥ .

ز) منتجات (ريشر) ١٩٧-٢٠٤ .

ط) ان قسم الرسالة المطبوع تحت هذا العنوان يوجد في خطوط المتحف

البريطاني مع العناوين : استحقاق الإمامة ومقالة الزيدية . وهذا يعني التأكيد

ان الكتاب واحد .

الشهاب في الشيب والشباب .

هـ) طبعة اسطنبول ، ١٣٠٢ .

ز) منتجات (ريشر) ٤٩٨-٥٢٧ .

ط) العنوان وحده يظهر أن الكتاب مزيف .

كتاب الشعر والشعراء .

---

١ - آثار الجاحظ ، ص ١١٤-١٢٤ .

ب) البغدادى ، الخزانة ، ١ ، ٣٤ .

ط) يذكر البغدادى في عداد مصادره البيان وكتاب المحاسن وكتاب الشعر  
والشعراء للجاحظ ، ولكن من المحتمل إنه يريد الكلام كتاب ابن قتيبة .

٨٩- كتاب افتخار الشتاء والصفى .

ب) الجوارى ( ٦٤ أب = ٦ من طبعتنا التي هي قيد التحضير ) ، (١) .

إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ .

ج) السندوي ، رقم ٢٣ .

٩٠- كتاب أخلاق الشطار .

ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ (٢) .

ج) بروكليمان ، ٢٥٤ ، رقم ٦٧ بالسندوي ، رقم ١٠ .

٩١- كتاب الشعوية .

ب) البخلاء (أرابيكا ، ٢/١٩٥٥ ، ٣٢٣) .

٩٢- كتاب الصوالة .

ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (٣) .

ج) بروكليمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٤ ، السندوي ، رقم ٨٧ .

القول في الفرق بين الصدق والكذب .

أ) قبل ٢٣٢ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٤ .

---

١- ابن النديم ، ٢١٠ .

٢- ابن النديم ، ٢١٢ .

٣- حقه ، ٢١١ .

ط) الحيوان : « والقول في الفرق بين الصدق إذا كان ضاراً في العاجل والكذب إذا كان نافعاً في الآجل ، ولم جعل الصدق أبداً محموداً والكذب أبداً مذموماً . من المحتمل انه لا يعني مؤلفاً مستقلاً ، بل يعني الإشارة فقط الى صفحة من كتاب البخلاء حول الصدق والكذب .

٩٣- كتاب غش الصناعات .

(أ) قبل ٢٣٢

ب) الحيوان ، ١ ، ٢ ، إرشاد ، ٦٨ / ١٦ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ ،  
البغدادى ، الفرق ، ١٦٣ ، الإسفراييني ، ٩٩ (١) .

ط) هذا ما قاله عنه الإسفراييني : « ومن كتبه ما صنغه في غش الصناعات  
أفسد بذلك على المفسدين (التجار) أموالهم وحث بذلك الناس على الغش  
والخيانة » .

كتاب صناعة الكلام ، أنظر كلام .

٤٩- أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات .

(أ) قبل ٢٣٢ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٤ .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٢ ، السندوبي ، رقم ٢٥ .

ط) أنظر الزرع .

٩٥- كتاب الصرحاء والمهجناء .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب) الحيوان ، ١ ، ٤ ، ٣ ، ٥١٠ ، السودان ، ٧٥ ، إرشاد ، ٦ ، ٧٧ / ١٦

١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (٢) .

---

١- مينه ، ٢١٢ .

٢- ابن التميم ، ٢١١ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٥ ، السندويي ، رقم ٨٥ .  
(ح) الحيوان ، ٣ ، ٥١٠ : « فأما المهجناء والمدح ومفاخرة السودان والحميران فإن ذلك كله مجموع في كتاب المهجناء والصرحاء » .

#### ٩٦- نقض الطب .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ اب ، ابن أبي أصيبعة ،  
١ ، ٣١٦ ، ٢ ، ٢٢ ، ابن القفطي ، ٤٣٨<sup>(١)</sup> .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٢ ، السندويي ، رقم ١٥٣ .

(ح) هير شفلد ، ٢٠٢ ، وستفلد ، أرتر ، ٤٥ رقم ٦٠ .

(ط) نقض من قبل أبي بكر الرازي وابن مندويه (ابن أبي أصيبعة وابن القفطي  
أعلاه) .

#### ٩٧- كتاب الطفيلين .

(ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الصفدي ١٥٤ ب<sup>(٢)</sup> .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٤ ، السندويي ، رقم ٨٩ .

#### ٩٨- كتاب في العباسية .

(أ) قبل ٢٣٢ .

(ب) الحيوان ، ١ ، ١٢ ، الخياط ، ١٧٢ ، النهج ، ٤ ، ٩٧-٩٨ .

(ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ١٧ ، السندويي ، رقم ٩١ .

(و) النهج ، ٤ ، ٩٨-٩٩ ، رسائل ، ٣٠٠-٣٠٣ .

---

١- ص ٢١١ .

٢- ص ٢١١ .

ط) من المحتمل أن يكون مؤلفا يحمل عنوان الإمامة ولد (بني) العباس .  
الحويان ، ١ ، ١٢ : « عبتني بكتاب العباسية ، فهلا عبتني بحكاية مقالة من  
أبي وجوب الإمامة الخ » .

×٩٩- كتاب فضل ما بين عبد شمس وبني هاشم .

(أ) قبل ٢٤٨ .

ب) البلدان ، ٢٠٨ ب ، إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ١٥٤ ب .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣ ، السندوبي ، رقم ١٠١ (١) .

×١٠٠- رسالة في فصل ما بين العداوة والحسد .

ج) بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٤١ .

د) الموصل ، ٢٦٥ ، داماد ، ٩٤٩ .

هـ) مجموع ، ٩٩-١٢٤ (٢) .

١٠١- رسالة في العفو والصفح .

ب) إرشاد ، ٦ ، ٧٨ (١٦ نافضة) ، الكتبي ، ١١٥٥ (٣) .

ج) بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٨ ، السندوبي ، رقم ٩٧ .

١٠٢- كتاب ذوي العاهات .

ب) إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١١٥٥ (٤) .

ط) ضمن الجوارح والعرجان .

عالم ، أنظر أحدثه العالم .

---

١- نشر في آثار الجاحظ ، ص ١٩٣-٢٤٠ .

٢- رسائل الجاحظ ، الجزء الأول ، ص ٣٣٧-٣٧٣ .

٣- ابن النديم ، ٢١٢ .

٤- حبه ، ٢١١ .

١٠٣x- كتاب تصويب علي في تحكيم الحكّمين .

ب- إرشاد ، ١٦/٧٦٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ٥٣ اب (تصويب علي في أمر .) (١).

ج- بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٥ ، السندوي ، رقم ٤٣ ، ZDMG ، ١١٤ ، ٧٧ .

د- أنظر مستناريو امري ، ١ ، ٤٠٣-٤٠٤ .  
هـ- نصوص . (٢).

و- السندوي ، ص ١٢٨ (عشرة أسطر).

ح- غريفي ، في مستناريو ميشال امري ، ١ ، ٤٠٣-٤٠٤ (في الحكّمين وتصويب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) ، لغة العرب ، ٩ ، ٤٩٧-٥٠١ (في إثبات أمير المؤمنين . . .).

ط- قدم السندوي ، ١٢٨ ، منتخبات دون ذكر المصدر، ومن الممكن أن تكون المخطوطة المذكورة تحت رقم ٧٠ التي تحوى قسما من كتاب إمامة معاوية، منتخبات من تصويب علي ، إننا نتوخى بهذا الصدد التفتيش عن أوسع الأيضاحات .

١٠٤- كتاب العالم والجاهل .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١١٥٥ (٣).

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٢ ، السندوي ، رقم ٩٠ .

---

١- ابن النديم ، ٢١٠ .

٢- نشرت في مجلة للشرق ، ١٩٥٨ ، تحقيق شارل بلا .

٣- ابن النديم ، ٢١١ .

ذم عمل السلطان ، أنظر كتاب السلطان .

١٠٥- رسالة في من يسمى من الشعراء عمرا .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٨ / ١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ١١٥٥<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٩ ، السندوي ، رقم ١٤٦ .

ط- يعتقد بروكلمان انه يوجد التباس مع الكتاب الحامل للعنوان ذاته لصاحبه

م- بن داود بن الجراح (أنظر بروكلمان ، ١ ، ٢٢٥) ولكن ليس من المستحيل

أن يكون الجاحظ الذي يسمى عمرو قد ألف هذا الكتاب .

١٠٦- كتاب التسوية بين العرب والعجم .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ١ ، ٥ ، إرشاد ، ٦ ، ٧٦ / ١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ب<sup>(٢)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٩ ، السندوي ، رقم ٩٣ .

ط- النص الوارد في الحيوان ، ١ ، ٥ ، يظهر أن هذا الكتاب يختلف عن

التالي : « وعبتي بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول في فرق ما بين

العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالي والعرب ، ونسبتي إلى التكرار

والترداد ، وإلى التكثير والجهل بها في المعاد من الخطل وحمل الناس المؤن » .

١٠٧- كتاب العرب والموالي :

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٥ ، العقد ، ٢ ، ٢٦٢ ، البغدادي ، الفرق ، ١٦٢

(فضل العرب على الموالي) .

١- عينه ، ٢١١ .

٢- لين النديم ، ٢١١ .

ج-بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٨ ، السندويي ، رقم ٩٤ .

و-العقد ، ٢ ، ٢٦٢ .

ط-الحويان ، ١ ، ٥ : « وعبثني بكتاب العرب والموالي وزعمت اني بخست المولي حقوقهم كما اني أعطيت العرب ما ليس لهم » . وفي النابتة : « كتبت كتاباً في رد المولي الى مكانهم من الفضل والنقص والى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلاً بينهم وداعية لى صلاحهم » .

١٠٨-رسالة في وصف العوام .

ب-الخفاجي ، الطراز ، ٢ ، ١٧٥-١٧٦ .

و-نفسه .

ز-منتخبات (ريشر) . ٥٥٠-٥٥٢ .

كتاب العبر والاعتبار .

ج-بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١١ .

ح-إنه عنوان آخر للكتاب المنحول المدعو « الدلائل والاعتبار » ، ولكن بـ  
روكلمان يميز بينهما تمييزاً لا مبرر له<sup>(١)</sup> .

١٠٩-كتاب فضل العلم .

ب-إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٨ ، الكتيب ١٥٤ ب<sup>(٢)</sup> .

ج-بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٩ ، السندويي ، رقم ١٠٩ .

xx باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس .

---

١-إين التديم ، ٢١١ (الشكر والاعتبار) .

٢-هينه ، ٢١١ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٥ .

د- ليد ١٢١٠ .

هـ- طبع ك. إنستراتنسف ، في زايشي الفرع الشرقي ستارسبول ١٨ ، سان

بترسبورغ ، ١٩٠٧ .

ز- ترجمة روسية ، نفسه .

ط- هذا المؤلف واضح النحل .

١١٠- كتاب العرس والعروس .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢١ .

١١١×- رسالة في العشق .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٥ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١١٥٤ ، الصفدي ،

١٣٤ .

بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٠ ، السندوبي ، رقم ٩٦ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و- هامش الكامل ، ١ ، ٣٠-١١٦ ، ١١ رسالة ، ١٦١-١٦٩ ، رسائل ،

٢٦٦-٦٧٥ (كتاب في النساء) المستطرف ، ٢ ، ٢١٧ .

ز- منتخبات (ريشر) ، ١٨٨-١٩٤ .

ط- أن كاتب الأصل المعتمد من قبل مختلف الناشرين مزج بوضوح عدة

رسائل ، وبصورة خاصة الرسالة في العشق والرسالة في النساء اللتين كانتا

مستقلتين (أنظر رقم ١٤٦) .

كتاب عصام المريد . (أنظر غنام المرتد) .

ذم العلوم ومدحها .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٤ .

د- الفاتح ، ٣٨٩٨ .

هـ- طبقة بلا في المشرق ١٩٥٦ .

ط- الأمر بكل تأكيد نسبة خاطئة .

١١٢- رسالة الى ابي الفرح بن نجاح في امتحان عقول الأولياء .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ١١٥٥ أ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٠ ، السندوبي ، رقم ٢٩ .

١١٣ × - كتاب المرجان والبرصان والقرعان .

أ- قبل ٢٤٠ .

ب - البيان ، ٣ ، ٧٤ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، السيوطي

البغية ، ٣٦٥<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٣ ، السندوبي ، رقم ٩٥ .

ط - ضمن الجوارح . (٢) .

١١٤ × - كتاب (مقالات) العثمانية .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٢ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ، ابن

قتيبة ، مختلف ، ٧١ ، النهج ، ٣ ، ٢٥٣ ، المسعودي ، مروج ، ٤ ، ٥٦ . (٣) .

---

١- ابن النديم ، ٢١٠ (المرجان والبرصان) .

٢- طبع في دار الاعتصام للنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

٣- ابن النديم ، ٢١٠ (العثمانية) .

- ج- بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٨ ، السندوبي ، رقم ٩٢ .
- د- المتحف البريطاني ، ١١٢٩ ، كوبرلي ، ٨١٥ .
- هـ- طبعة ع . س . هارون ، القاهرة ، ١٣٧٤ / ١٩٥٥ .
- و- النهج ، إعلاء ، رسائل ، ١-١٢ (مع نقض الإسكافي المستخرج من النهج) .
- ط- أنظر أرايكا ١٩٥٦ / ٣ . أثر نقدي .
- ١١٥- كتاب مسائل العثمانية .
- ب- المسعودي ، مروج ، ٦ ، ٥٧ .
- ج- السندوبي ، رقم ١٣١ .
- ط- إنه تمتع للكتاب السابق . يقول المسعودي : « يذكر فيه ما فاتته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين علي ومناقبه فيما ذكرنا (أقرأ : كما ذكرنا) » .
- ١١٦- كتاب الرد على العثمانية .
- ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ١٥٣ ب ، الصفدي ١٣٤ (١) .
- ج- السندوبي ، رقم ٧٩ .
- ١١٧- كتاب بصيره غنام المرتد .
- أ- قبل ٢٣٢ .
- ب- الحيوان ، ١ ، ٩ إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ (عصام المرتد) ،
- الكتبي ، ١٥٣ ب (عصام المرتد) (٢) .

---

١- ابن النديم ، ٢١٠ .  
٢- حينه ، ٢١٠ . (غنام المرتد) .

ج- بروكلمان ٢٤٥ ، رقم ١٧ ، السندوبي ، رقم ٣٧ .

ط- إنه مرتد حرق في عام ٨٣٩/٢٢٤ ، أنظر RSO ، ١٣ ، ١٤٤ ،

الحيوان ٩ : « ثم عبت أفكاره بصيرة غنام المرتد وبصيرة كل جاحد وملحد وتفريقي بين اعتراض الغمر وبين استبصار الحق » .

١١٨- القول في الفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة .

ب- الحيوان ، ١ ، ٤ .

ط- إن نص الحيوان الذي ذكرت فيه هذه الدراسة حول الغيرة ورد بعد ذكر كتاب البخلاء حيث يعالج بالتأكيد هذا الموضوع ولكن دون أن يعطيه التوسيع الذي يفترضه ما يلي : « الفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة وبين الإفراط في الحماية والأنفة وبين التقصير في حفظ حق الحرمة وقلة الاكتراث لسوء القلة ، وهل الغيرة اكتساب وعادة الخ . » . ويمكن أن نفكر بوجود مؤلف مستقل . كتاب مفاخرة الغلمان والجواري ، (أنظر الجواري) . كتاب غش الصناعات ، أنظر صناعات .

١١٩- كتاب فضل الفرس على الحملاج .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ ب<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٧ ، السندوبي ، رقم ١١٠ .

ط- في الإرشاد ، الذي أورد : كتاب فضل الفرس ، كتاب على الحملاج ، يجب أن نقرأ الفرس ونحذف كلمة كتاب .

كتاب في فرط جهل الكندي (أنظر كندي)

١٢٠ كتاب في الفرق الإسلامية .

ب- أبو الفداء ، التاريخ ، ١١ ، ٥٠ .

١٢١- كتاب الفتيان .

ب- الإرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ١٥٤ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، السندوبي ، رقم ١١ .

ط- في كتاب التاج ، أنظر ترجمة بلا ، ١٣ ، ٢٨ ، إشارة الى كتاب أخلاق

الفتيان وفضائل البطالة ، وهو لا يزال موضع شك .

١٢٢- رسالة في فنون شتى مستحسنة .

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٦١ .

د- أنظر بوكامان .

١٢٣- كتاب أصول الفتيان (والأحكام)

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٩ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ،

البغدادى ، الفرق ، ١٦٢<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٤ ، السندوبي ، رقم ٢١ .

ط- الحيوان ، ١ ، ٩ : « وعبث كتابي في القول في أصول الفتيان والأحكام »

البغدادى ، ١٦٢ : « وهو مشحون بطعن أستاذه النظام على أعلام الصحابة » .

---

١- عينه - ٢١١ . (الفتيا) .

١٢٤ × - رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الأبادي ، يخبره فيها بكتاب الفتيا .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٤٠ .

د- داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ، ٢٦٥ .

هـ- طبعة د. جليبي ، في لغة العرب ، ٨ ، ٦٨٦-٦٩٠<sup>(١)</sup> .

١٢٥ × - كتاب القحطانية والعدنانية .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٤ ، النابتة ، ترجمة بلا ، ٣٢٥ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ،

١٠٧ ، الكتبي ، ١١٥٤ ، البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٧ ، السندوي ، رقم ١١٤ .

ط- السودان ، ٨٥ ، أوردت العنوان التالي : كتاب مفاخر القحطانية والكنانية

وسائر العدنانية . ونقرأ في الحيوان ، ١ ، ٤-٥ : « وعبتي بكتاب القحطانية

(وكتاب) العدنانية في الرد على القحطانية ، وزعمت أني تجاوزت فيه حد

الحمية إلى حد العصية ، واني لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتقص

القحطانية »<sup>(٢)</sup> .

وجاء في كتاب النابتة : « كتبت كتاباً في مفاخرة قحطان وفي تفضيل عدنان » .

وهذا ما يشير افتراضاً بأن الجاحظ هو مؤلف عدة كتب حول هذا الموضوع .

١٢٦ - رسالة في الرد على القولية .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠<sup>(٣)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢١ ، السندوي ، رقم ٧٤ .

---

١- رسائل الجاحظ ، الجزء الأول ، ص ٣٠٩-٣١٩ وهي رسالة إلى أحمد بن أبي دؤاد يخبره فيها بكتاب الفتيا .

٢- ابن النديم ، ٢١١ (فخر القحطانية والعدنانية) .

٣- حينه ، ٢١١ .

١٢٧- كتاب في القحطاب .

ب- البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ ، الإسفراييني ، ٤٩ ب .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤٧ ، السندوي ، رقم ١١٣ .

ط- أنظر كتاب .

١٢٨ xx - رسالة القيان<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥١ ، السندوي ، رقم ١١٨ .

د- داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ، ٢٦٥ .

هـ- ٣ رسائل (فنكل) ٥٣-٧٥<sup>(٢)</sup> .

ز- منتخبات (ريشر) ، ٧٨-١٠٠ ، ترجمة فرنسية قيد الأعداد .

١٢٩- كتاب إحالة القدرة على الظلم .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١١٥٤ أ<sup>(٣)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٣ ، السندوي ، رقم ٥ .

١٣٠- كتاب في القضاة والوزراء والولاة .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٨/١٦ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١١٥٥ أ<sup>(٤)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٥٥ ، السندوي ، رقم ١١٥ .

ط- ضمن أخلاق الوزراء .

١٣١- كتاب القرآن

ج- السندوي ، رقم ١٣٣ .

---

١- ابن النديم ، ٢١٠ .

٢- رسائل الجاحظ ، ١٤٣-١٨١ ، آثار الجاحظ ، ٦٦-٩٤ .

٣- ابن النديم ، ٢١١ .

٤- عنه ، ٢١٢ .

ط - أنظر مسائل القرآن .

١٣٢ - كتاب آي القرآن .

أ - قبل ٢٣٢ .

ب - إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ (١) .

ج - بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ١٢ ، السندوي ، رقم ١٢ .

ط - الحيوان ، ٣ ، ٨٦ : ٥ ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الخ . . .

١٣٣ × ~ كتاب خلق القرآن .

أ - قبل ٢٣٢ .

ب - الحيوان ، ١ ، ٩ .

ج - بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤ ، ٢ ، ١٥٩ ، السندوي ، رقم ٦٦ .

د - المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

و - نصوص (٢) .

١٣٤ - كتاب مسائل القرآن (٣) .

ب - إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ .

ط - يمكن أن يكون كتاب المسائل . أنظر أعلاه .

---

١ - عيه ، ٢١١ (القضاة والولاة) .

٢ - آثار الجاحظ ، ٢٧١ - ٢٧٤ .

٣ - ابن التميم ، ٢١٠ (كتاب المسائل في القرآن) .

١٣٥- كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن.

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٩ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، فهرست ٧٥ ،

الباقلاني ، ٦ ، الكتبي ١٥٣ ب ، الخياط ، ٢٢ ، ١٥٤ <sup>(١)</sup> .

ج- بروكليمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥ ، السندوبي ، رقم ٦ .

ط - أنظر ما قاله الباقلاني : « وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه

على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكتشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى » .

وجاء في الحيوان ، ٩ : « عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه

وبديع تركيبه » <sup>(٢)</sup> .

١٣٦- كتاب مفاخرات قریش .

ب- النهج ، ٣ ، ٢٣ .

و- نفسه .

ط - من المحتمل أن يكون هو المؤلف ذو العنوان : كتاب فضل هاشم على عبد

شمس .

١٣٧ × - رسالة في صناعة القواد .

أ- قبل ٢٢٢ و ٢٢٧ .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الحصري ، الجمع ، ١٤٢ - ١٤٨ <sup>(٣)</sup> .

ج- بروكليمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٣ ، السندوبي ، رقم ١١٧ .

١ - ابن النديم ، ٢١٠ (نظم القرآن) .

٢ - نشر قسم منه في آثار الجاحظ ، ص ٢٦٤ - ٢٧٠ .

٣ - ابن النديم ، ٢١٠ . (القواد)

د- داماد ، ٩٤٩ .

و- الحصري ، أعلاه ، رسائل ، ٢٦٠-٢٦٥ ، د ، جلبي ، في لغة

العرب ٢٦٠، ٣٨ .

ز- منتخبات (ريشر) ، ٥٢٧-٥٣٣ .

ط- الكتيب نفسه يحمل العناوين التالية : ذم القواد ، طبائع القواد ، ورسالة  
للى المتصم في الحظ على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب (أنظر  
بروكلمان ، ٢ ، ١٥٩) .

١٣٨ × - كتاب فضيلة (فضل) الكلام .

ب - الصفدي ، ١٣٤ ، ابن أبي أصيبعة ، ١ ، ٣١٦ ، ابن

القفطي ، ٢٧٤<sup>(١)</sup> .

ج- نقض من قبل أبي بكر الرازي كما أشار ابن أبي أصيبعة وابن القفطي .

١٣٩ - كتاب صناعة (صياغة) الكلام .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٦/١٦ ، ١٠٧ ، الكتيب ، ١٥٤ ، المسعودي ، مروج ،  
٨ ، ٤٣١ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٢ ، السندوبي ، رقم ٤٥ ورقم ٨٦ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و- هامش الكامل ، ٢٣٨٢-٢٤٦ .

ز- منتخبات (ريشر) ١٥٩-١٦٣ .

ط- ان الحيوان ، ١ ، ٧ ، يذكر الرسائل الهاشمية دون أن تتمكن من تثبيت

---

١- عنه ، ٢١٠ (صنامة الكلام) .

محتواها . بينما يعلن المسعودي ، ٨ ، ٤٣١ ، أن كتاب الجاحظ في تفضيل صناعة الكلام معروف باسم الرسائل الهاشمية .

١٤٠ × - رسالة في الكرم الى أبي الفرج بن نجاح .

ب - إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ،<sup>(١)</sup> .

ج - بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٣ ، السندوي ، رقم ١٢١ .

ح - بين لفي دلا فيدا ، في RSO ، ١٢ ، ٤٤٥ - ٤٥١ ، أن الرسالة المطبوعة تحت هذا الاسم ليست رسالة في الكرم وإنما هي طلب جوائز (أنظر رقم ٣ أعلاه) .

١٤١ - كتاب الكبر المستحسن والمستقبح .

ب - إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٤ ب<sup>(٢)</sup> .

ج - بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٤ ، السندوي رقم ١١٩ .

ط - من المحتمل أن يكون هذا عنوانا آخر للكتيب المشار اليه في الرقم ١٢٨ .

١٤٢ - كتاب الكلاب .

ب - البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ ، الاسفرايني ، التبصير ، ٤٩ ب .

ج - السندوي ، رقم ١٢٢ .

ط - البغدادي يقول : « كتبه في القحاب والكلاب واللاطة » .

١٤٣ - كتاب (كتبان) الكيمياء .

ب - إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ ، الصفدي ، ١٣٤<sup>(٣)</sup> .

ج - بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٧١ ، السندوي ، رقم ١٢٣ .

---

١ - ابن التديم ، ٢١١ .

٢ - عنه ، ٢١١ .

٣ - عنه ، ٢١١ (رسالة في كتاب الكيمياء) .

١٤٤- رسالة في فرط جهل يعقوب بن إسحق الكندي .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٨/١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ ، الصفدي ١٣٤<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١٠٢ ، السندوبي رقم ١٠٣ .

ط - يعني الفيلسوف الكندي . أنظر رسالة في كتمان السر ، أنظر سر .

١٤٥ x - رسالة في ذم أخلاق الكتاب .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٨/١٦ ن ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ ، عبد الله البغدادي ،

كتاب الحجاب ، طبعة سورول ، في BEO ، دمشق ١٤ ، ١٩٥٢-١٩٥٤<sup>(٢)</sup>

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٠ ، السندوبي ، رقم ٦٩ .

د- داماد ، ٩٤٩ ، الموصل ٢٦٥ .

هـ- هامش الكامل ، ٣ رسائل (فنكل) ٤٠-٥٢<sup>(٣)</sup> .

ز- منتخبات (ريشر) ٦٧-٧٧ ، ترجمة فرنسية ، بيلا ، في

هسبري ، ١٩٥٦ ، ٢٩-٥٠

ح- لغة العرب ، ٩ ، ٦٢٠-٦٢١ .

ط - النص الذي انتهى إلينا لا يمثل الرسالة الأصلية ، إنه مقتطفات لا يوجد

فيها سوى بضع صفحات للجاحظ .

١٤٦- رسالة في مدح الكتاب :

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٨/١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥<sup>(٤)</sup> .

---

١- هـ ، ٢١١ .

٢- ابن النديم ، ٢١١ .

٣- رسائل الجاحظ ، ٢ ، ١٨٣-٢٠٩ .

٤- ابن النديم ، ٢١١ .

ج- السندوي ، رقم ١٢٦ .

رسالة في فضل اتخاذ (مدح) الكتب .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٥ ، السندوي ، رقم ١٠٧ .

د- أفكاف ، ٣٤٤٨ .

ط- إنه مجرد متخبات من كتاب الحيوان ، ١ ، ٣٨ .

١٤٧- رسالة في الكلام .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٧ ، السندوي ، رقم ١١٦ .

١٤٨- رسالة الى كليب المغربي .

ب- سرح ، ١٧٥ .

و- نفسه ، الجمعة ، ٤ ، ٥٧-٥٨ (٤ أسطر) .

١٤٩- رسالة في ذم اللواط .

ب- البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٣ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

هـ- هامش الكامل ، ١ ، ٣١-٣٢ ، نصوص .

ز- متخبات (ريشر) ١٠٨-١١١ .

---

١- عين ، ٢١١ (رسالة في فضل إيجاد الكتب) .

كتاب الفرق في اللغة .

ج - بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٧ .

د - قروين ، ١٢٦١ .

ط - يوجد خطأ ، الكاتب هو ثابت بن أبي ثابت .

١٥٠ × - كتاب حيل اللصوص .

أ - قبل ٢٣٢ .

ب - الحيوان ، ٢ ، ١٥٦ ، البخلاء (في تصنيف حيل لصوص النهار وفي

تفصيل حيل سراق الليل) ، إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي :

١٥٣ ب ، البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ ، الاسفرايني ١٤٩ ، ياقوت ، البلدان ،

٤ ، ٢٣١<sup>(١)</sup> .

ح - بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٥ ، السندوي ، رقم ٦١ .

د - الموصل (حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم) .

و - البيهقي ، المحاسن ، ٥٢١ - ٥٢٣ ، ياقوت ، البلدان ، ٢ ، ٦٨٠ .

هذا ما يقوله الاسفرايني : « كتاب حيل اللصوص يعلم اللصوص فيه الحيل

التي يتوصلون بها الى الفساد ، يمدحهم بالشطارة ويزعم انها من مروتهم ،

ويمدحهم باختيارهم الغلمان على النسوان وبانهم يلعبون بالنرد والشطرنج ،

ويحتمهم على القمار ويزعم انه من المروءة ومن الآداب المرضية ومن عدة الرغادة

والشطارة في المروءة وزينها وحث عليها ، فقد خالف الشريعة والمروءة لأن

المسلمين أطبقوا على أن من كانت هذا طريقته كان مذموماً في الشريعة والمروءة ،

١٥١ × × - رسالة المعاد والمعاش في الأدب وتذير الناس ومعاملاتهم .

---

١ - ابن النديم ، ٢١٠ (اللصوص) .

أ- التحرير الأول بعنوان في الأخلاق المحموده ، قبل ٢٣٢ ، التحرير الثاني بعنوان المعاد والمعاش بعد هذا التاريخ .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٨ ، الكتيب ١٥٤<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٦ ورقم ٣٨ ، السندوي ، رقم ١٣٥ .

دالموصل ، ٢٦٥ داماد ، ٩٤٩ ، برلين ٥٠٣٢ (أنظر أوربان ١٩٥٤ ، ٨٥ ،

المتحف البريطاني ١١٢٩ .

هـ- مجموع . ١-٣٦<sup>(٢)</sup> .

١٥٢- كتاب المعادن .

أ- قبل ٢٣٢ . ٣١ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٦ .

بروكلمان ، ٢٤٦ رقم ٧٩ ، السندوي ، رقم ١٣٦ .

ط- الحيوان ، ١ ، ٦ : « وعبتي بكتاب المعادن والقول في جواهر الأرض وفي اختلاف أجناس الفلز والأخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويبطئ عن بعضها وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا يصبغ . وبعضها ينصبغ ولا يصبغ وبعضها يصبغ وينصبغ وما القول في الإكسير والتلطيف » .

٣١٥- كتاب المعارف .

ب- البغدادي ، الفرق ، ١٣٣ ، ١٨٢ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، ٩٤ .

---

١- ابن النديم ، ٢١١ (المعاد والمعاش) .

٢- رسائل الجاحظ ، الجزء الأول ٨٧-١٣٤ ، (بمعنوان المعاش والمعاد) .

ب- البغدادي ، الفرق ، ١٥٨ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٩ ، السندوبي ، رقم ١٣٤ .

xx- كتاب المحاسن والأضداد والعجائب والغرائب .

ب- البغدادي ، الخزانة ، ١ ، ٣٤ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٢ ، السندوبي ، ص ١٥٥-١٥٨ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٨ ، مراد ملا ، ١٨٤٢ .

هـ- طبعة ج . فان فلوتن ، ليد ، ١٨٩٧ ، طبعة الخانجي ، القاهرة ،

١٩٠٦/١٣٢٤<sup>(١)</sup> .

ز- منتخبات (ريشر) ٢٦٢-٢٦٣ ، ترجمة المانية أو . ريشر ، ١ ،

القسطنطينية ، ١٩٢٦ ، ٢ مستوغرات ، ١٩٢٢ (أنظر مجلة أفريقية ، ١٩٢٣ ،  
١٦٨-١٧٥) .

ط- منحول .

كتاب مكاييد الملوك ، أنظر تنبيه الملوك .

كتاب فرق ما بين الملائكة والجن .

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٣ ، السندوبي ، رقم ١٠٥ .

ط- النص الوارد في الحيوان ، ١ ، ٦ (حول الجن) يبعث على التفكير بأنه لا

يجب ، كما فعل السندوبي وبعده بروكلمان ، التمييز بين كتاين واحد عن الجن  
والناس والآخر عن الجن والملائكة .

كتاب في فضيلة الملاك على الإنسان والإنسان على الجن .

أ- قبل ٢٣٢ .

(١) طبعة دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٠

ب- الحيوان ، ٦٥ ، ٧ .

ط- يحتمل أن يكون مطابقاً لرقم ٥٠ .

١٥٥- كتاب المعرفة .

ب- الحيوان ، ١ ، ٩ ، الإرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٦ ، الكتبي ، ١٥٣ ، اب ،

الصفدي ، ١٣٤<sup>(١)</sup> .

ج- السندوي ، رقم ١٣٨ .

١٥٦- كتاب مسائل المعرفة .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ، اب ، الصفدي ، ١٣٤<sup>(٢)</sup> .

ج- بروكلمان ٢٤٣ ، رقم ٢٦ ، السندوي ، رقم ١٣٢ .

١٥٧- كتاب جوابات كتاب المعرفة .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ، اب ، الصفدي ، ١٣٤ .

ج- السندوي ، رقم ٥١ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و- نصوص .

١٥٨- كتاب المسائل .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٩ ، البخلاء ، ٤ .

ج- بروكلمان ٢٤٦ ، رقم ٩٣ ، السندوي ، رقم ١٣٠ .

---

١- ابن النديم ، ٢١٠ .

٢- حنه ، ٢١٠ (مسائل كتاب المعرفة) .

ط - من الممكن أن يكون الجاحظ قد كتب كتاب المسائل والجوابات في المعرفة بعد كتاب المعرفة ، وأن يكون ثمة كتابان بدل أربعة . ولكن نقرأ في الحيوان ، ٩، ١ : « عبت جملة كتيبي في المعرفة » .

١٥٩- رسالة في المودة والخلطة الى أبي الفرج الكاتب .

ج - بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٢٨ .

د - المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و - هامش الكامل ، ٢ ، ١٩٩-٢١٢ ، رسائل ، ٣٠٣-٣١٠ .

كتاب المولي والعرب ، أنظر : العرب والمولي .

كتاب في فضل المولي على العرب .

ب - البغدادي ، الفرق ١٦٢ .

ط - تحقيق واحد ، عند محقق لا يجب الجاحظ ، لعنوان غير معقول .

١٦٠- رسالة في موت أبي حرب الصغار البصري .

ب - إرشاد ، ٦ ، ٧٨/١٦ ، ١١٠ ، الكتيب ، ١٥٥/٣٢ (١) .

ج - بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٤ ، السندوبي ، رقم ١٤٧ .

د - برلين ٣٢ ، ٥ (آذار أوردان ، ١٩٥٤ ، ٨٥) .

هـ - طبعة الحاجري ، في الكاتب المصري ، ٣ ، رقم ٩ ، حزيران ١٩٤٦ ،

٣٨-٤٤ .

كتاب احتجاج صاحب المعز والضأن .

ب - الجواري ، ٦ .

ط - بدون شك ، إنه تلميح بسيط لنص وارد في الحيوان ، وليس كتاباً مستقلاً .

١٦١ - رسالة في الميراث .

ب - إرشاد ، ٦ ، ٧٨ / ١٦ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ (١) .

ج - بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٦ ، السندوبي ، رقم ١٤٨ .

١٦٢ - رسالة في مفاخرة المسك والرماد .

ب - الصفدي ، سرح لامية العجم .

ج - بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٢ ، السندوبي ، رقم ١٤٢ .

١٦٣ x - كتاب المعلمين .

ب - إرشاد ، ٦ ، ٧٦ / ١٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ، ب ، الأبيهي ، ٣١٨ ، ٢ (٢) .

ج - بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥٢ ، السندوبي ، رقم ١٣٩ .

د - المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و - هامش الكامل ، ١ ، ١٧ - ٣١ ، نصوص .

ز - منتخبات (ريشر) ١٠١ - ١٠٨ .

ح - هيرشفلو ، ٢٠٢ - ٢٠٩ ، ر . بشه ، ١٠٠١ حكاية ، ٢ ، ١٥٩ - ١٦٠ .

بلا ، الوسط البصري ، ٦٢ .

١٦٤ x - رسالة في طبقات المغنين .

أ - في بغداد عام ٢١٥ .

---

١ - ابن التميم ٢١١ .

٢ - هبه ، ٢١٠ .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥ ، الإسفرايني ، ٤٩ ب<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٩ ، السندوي ، رقم ٨٨ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و- هامش الكامل ، ١ ، ١٢٠ - ١٣٠ ، ١١ رسالة ، ١٨٦ - ١٨٩

ز- منتخبات (ريشر) ٢٠٤ - ٢٠٦ .

١٦٥ × - (مجاه) محمد بن الجهم البرمكي .

د- برلين ٥٠٣٢ (أنظر أوريان ، ١٩٥٤ ، ٨٥) .

هـ- طبعة الحاجري في الكاتب المصري ، شباط ١٩٤٧ ، ٥٥ - ٦٢ .

١٦٦ - كتاب حيل المكدين .

ب- البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ ، الإسفرايني ، ٤٩ ب .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٦ ، السندوي ، رقم ٦٢ .

ط - يمكن أن يكون فصلا مخصصا للمحتالين في البخلاء ، ضمن البيهقي ،

المحاسن ، ٦٢٢ - ٦٢٧ .

١٦٧ - كتاب الى إبراهيم بن المدبر في المكاتبه .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٧ - ١٦ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤ ب<sup>(٢)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٨٤ ، السندوي ، رقم ١ .

١٦٨ - كتاب الملح والطرف .

أ- قبل ٢٣٢ .

---

١ - عنه ٢١٢ (المغنين) .

٢ - ابن النديم ، ٢١١ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٣ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ١٠٠ ، السندوي ، رقم ١٤٣ .

ط- الحيوان ، ١ ، ٣-٤ : وعجتي بكتاب الملح والطرف وما حر من النوادر

وبرد ، وما عاد بارده حارا لفرط برده حتى أمتنع بأكثر من إمتناع الحار .

١٦٩- الملوك والأمم السالفة والباقية .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٨/١٦ ، ١١٠ ، الكتبي ، ١٥٥<sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٥ ، السندوي ، رقم ١٤٤ .

كتاب أخلاق الملوك . أنظر تاج .

١٧٠- كتاب المغنين والغناء .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٧/١٦ ، ١٠٨ ، بالكتبي ١٥٤<sup>(٢)</sup> .

ط- بها أن ياقوت والكتبي يذكران بعد قليل كتاب طبقات المغنين يبدو من

الضروي عدم تصحيح المقينين بالمغنين ، واعتبار الجاحظ مؤلف كتاب حول

ملاك العبيد المغنين (المقيني) الغناء والموسيقى .

١٧١ x- كتاب الرد على المشبهة .

أ- نحو ٢٢٠ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٤ إرشاد ، ٦ ، ٧٦/١٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ، ب ،

الخطاط ، ٢٢ ، الصفدي ، ١٣٤<sup>(٣)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤ ، ٢ ، ١٥٩ ، السندوي ، رقم ٨٠ .

---

١- عينه ، ٢١٢ .

٢- عينه ، ٢١١ .

٣- ابن النديم ، ٢١٠ .

ط - أنظر تشبيه .

١٧٢ - كتاب فضيلة المعتزلة .

أ - قبل ٢٣٢ .

ب - الحيوان ، ١ ، ٩ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦ / ٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٣ ب ،  
الخياط ، ١٠٣ .<sup>(١)</sup>

ج - بروكلمان ، السندويي ، رقم ٢ ، (الاعتزال وفضله) ، رقم ١١١ .

ط - كتب نيرج في مقدمة طبعة الخياط (٢٣ - ٢٤) : « ويظهر أن مثل هذه  
التجارب مما دعا عمرو بن بحر الجاحظ أحد رؤسائهم وأعيانهم الى وضع كتابه  
الذي سماه فضيلة المعتزلة ، فإن الغرض الذي رعى اليه الجاحظ بتأليفه لم يكن  
الثناء على المعتزلة ، وعد فضائلها فقط ، بل قصد أيضاً الى الرد على الرافضة  
والطعن فيهم ووصف فضائلهم كما هو مبين من جدول أبواب الكتاب الذي  
نقله الخياط في كتاب الانتصار وضمن كلام ابن الروندي وكما يلوح من القطع  
الباقية منه لفظاً أو معنى الواردة في المناقشة بين الخياط وابن الروندي ، وكان  
الطعن في الرافضة من أهم ما كلفت المعتزلة نفسها به منذ ابتداء أمرها . . .  
وكان الجاحظ عالماً كبيراً وكاتباً بليغاً مليحاً أديباً ، فلا بد وأن يكون كتابه هذا  
توجهت اليه أبصار الخاصة والعامة وصار له بلا شك نفوذ وتأثير في الرأي العام  
فكان من المحتم ظهور ردود عليه من جهة الرافضة ، ولقد ظهر جواب ذلك ،  
وهذا الجواب هو كتاب فضيحة المعتزلة لأحمد بن يحيى الروندي الذي كان قد  
انتسب الى المعتزلة وتعرف بمذاهبهم ثم انتقل الى الرافضة وصار من أنصارهم »  
رسالة في المزاخ والجد ، أنظر جد .

١٧٣ - كتاب فرق (فصل) ما بين النبي والمتنبي .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ١٠ ، ٤ ، ٣٧٨ ، إرشاد ، ٦ ، ٧٣ ، ٧٥ / ١٦ ، ١٠١ ،  
٦١٠ ، الكتبي ، ١٥٣ ، الصفدي ، ١٣٤<sup>(١)</sup> .

ج — بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٩ ، السندوي ، رقم ١٠٦ .  
ط — لا مجال لتمييز هذا الكتاب عن كتيب آخر عنوانه فرق ما بين الحليل  
والمخاريق وهذا ما يظهر في النص التالي (الحيوان ، ١ ، ١٠) : « وكتاب فرق  
ما بين النبي والمتنبي والفرق ما بين الحليل والمخاريق وبين الحقائق الظاهرة  
والأعلام الباهرة ، ثم قصدت الى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه  
والاعتراض على لفظه والتحقير لمعانيه ، فزريت على نحته وسبكه كما زريت  
على معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض الذي اليه نزعنا والغاية التي اليها  
قصدنا على انه كتاب معناه أنه من اسمه وحقيقة أتق من لفظه الخ . »  
ويظهر ذلك بشكل خاص من هذه السطور القليلة (الحيوان ، ٤ ، ٣٧٨) :  
« وقد كتبنا قصة (أي قصة مسيلمة) وقصة ابن النواحة في كتابنا الذي ذكرنا فيه  
فصل ما بين النبي والمتنبي ، وذكرنا جميع المتنبيين وشأن كل واحد منهم على  
حدته ، وبأي ضرب كان يحتال ، وذكرنا جملة احتيالاتهم والأبواب التي تدور  
عليها مخاريقهم ، فإن أردت أن تعرف هذا الباب فاطلب هذا الكتاب فإنه  
موجود » .

١٧٤ - كتاب ذم النبيذ .

ب- إرشاد ، ٦ ، ٧٧ / ١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ١٥٥<sup>(٢)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، السندوي ، رقم ٧١ .

١- ابن النديم ، ٢١٠ .

٢- عينه ، ٢١١ .

١٧٥× - رسالة في مدح النبيذ وصفة أصحابه .

أ- قبل ٢٣٥ .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١١٥٥ ، الفهرست ، ٢٢(١) .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٤ ، السندوبي ، رقم ١٢٧ .

د- المتحف البريطاني ، ١١٢٩ برلين ٥٠٣٢ (أنظر أوربان ، ١٩٥٤ ، ٨٦) .

و- طبع على هامش الكامل ، ١ ، ٩٧-١٢٠ ، رسائل ، ٢٨٥-٢٩١ .

ز- منتخبات (ريشر) ، ١١١-١١٢ .

١٧٦× - رسالة في النابتة .

أ- نحو ٢٢٥ .

ب- ابن قتيبة ، مختلف الحديث ، ٩٥ ، تاج العروس .

ج- بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ٧ ، السندوبي (في بني أمية) .

د- داماد ، ٩٤٩ .

هـ- طبعة ج. فان فلوتن ، المجلد ١١ من أوربان ، باريس ١٨٩٩ ، ١١٥-١٢٣ ، طبعة د. جلبي في لغة العرب ، ٨ ، ٩٢-٣٩ ، طبعة الرفاعي ، في

عصر المأمون ، ٣ ، ٧٢-٨٠ ، الجمهرة ، ٤ ، ٦٠-٧٥ ، رسائل ، ٢٩٢-٢٩٩(٢) .

ز- ترجمة فرنسية ، بلا ، في A I E O الجزائر ، ١٩٥٢ ، ٣٠٢-٣٢٥ .

ح- فان فلوتن ٩٩-١١٥ ، ج. ليفي دلا فيدا ، R S O ، ٨ ، ٢٩١-٢٩٦ .

ط- ان جميع الطبقات الشرقية تحمل عنوانه : في بني أمية .

١- عينه ، ٢١١ . (رسالة في مدح النبيذ) .

٢- ورسائل الجاحظ ، الجزء الثاني ، ص ٧-٢٣ .

× رسالة في نفي التشبيه . أنظر تشبيهه .

١٧٧- كتاب النعل .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٥ ، ١٠٦ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٧٣ ، السندوي ، رقم ١٥٢<sup>(١)</sup> .

١٧٨- كتاب النرد والشطرنج .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤/٣٦٠ .

بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٧٥ ، السندوي ، رقم ١٥٠ .

١٧٩- كتاب الناشي والمتلاشي .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤<sup>(٢)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٦ ، السندوي ، رقم ١٤٩ .

١٨٠×- كتاب الرد على النصارى واليهود .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٩ ، ٤ ، ٢٨ ، إرشاد ، ٤ ، ٧٢ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٠ ،

١٠٧ ، الباقلاني ، ٢ ، ١٤٤<sup>(٣)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٣ ، السندوي ، رقم ٧٥ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

هـ- طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ١٤٨-١٩٩ ، ٣ رسائل (فنكل) ١٠-

٣٨ .

ز- منتخبات (ريشر) ٤٠-٦٧ ، ترجمة إنكليزية بقلم فنكل في (١٩٢٧) ،

٣١١-٣٣٤ ، ترجمة فرنسية بقلم ا. س. ألونش في إسبري ١٩٣٩ ، ١٢٩-

١٥٥ .

ط- يبدو انه لا يجب أن نعتبر كتاباً آخر إسمه كتاب على النصارى واليهود ،

---

١- ابن النديم ، ٢١٢ .

٢- عينه ، ٢١١ (العاشق الناشي والمتلاشي) .

٣- ابن النديم ، ٢١٠ (الرد على النصارى) .

كما فعل بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٥ ، والسندوبي ، رقم ١٥١ .

١٨١- كتاب النواميس .

ب- البغدادي ، الفرق ، ١٦٢ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٥ ، السندوبي ، رقم ١٥٥ .

ط- اليك ما يقوله البغدادي : « وهي ذريعة للمحتالين يبتلبون بها ودائع الناس وأموالهم » .

- كتاب في نظم القرآن . أنظر قرآن .

١٨٢- كتاب الرد على أبي إسحق النظام .

ج- بروكلمان ، ٢ ، ١٥٩ .

د- المتحف البريطاني ، ١١٢٩ .

ح- هيرشفلد ، ٢٠٠ .

و- نصوص .

رسالة في النساء . أنظر رجال .

١٨٣- كتاب في النبل والتنبل وذم الكبر .

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٦ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و- نصوص .

ط- ان النص يدعو الى الظن بأنه الكتيب الذي يحمل العنوان : الكبر

المستحسن والمستفيع (أعلاه ، رقم ٨٨) .

١٨٤× - كتاب الحجة في تثبيت النبوة.

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٩ ، ٤ ، ٢٠٠ ، إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٣ ، ١٠١ (دلائل

النبوة) ٤ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ (الحجر والنبوة) <sup>(١)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٢ ، السندوي ، رقم ٥٦ .

د- المتحف البريطاني ، ١١٢٩ ، برلين ٥٠٣٢ (أنظر أوربان ، ١٩٥٤ -

٨٦) .

و- طبع على هامش الكامل ، ١ ، ٢٧٥-٢٠٦ ، ٢ ، ١-٤٨ ، رسائل ١١٧

- ١٥٤ <sup>(٢)</sup> .

ز- منتخبات (ريشر) ١١٢-١٥٩ .

كتاب النبوات .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ٤ ، ١٦٤ .

ط - يبدو انه الكتاب السابق أو الكتاب المسمى فرق ما بين النبي والمتنبي .

١٨٥× - رسالة في تفضيل النطق على الصمت .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣١ السندوي ، رقم ٤٦ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و- طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٢٧-٢٣٨ ، ١١ رسالة ١٤٨-١٥٤ .

---

١- ابن النديم ، ٢١١ .

٢- آثار الجاحظ ، ص ٢٤١-٢٧٥ ، بعنوان «حجج النبوة» .

ز- منتخبات (ريشر) ١٨٢-١٨٦ .

كتاب الهدايا .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ، ١٠٨ ، الكتبي ١٥٤ ب<sup>(١)</sup> .

ج- السندوبي ، ص ١٥٨ .

ط- أشار ياقوت الى انه منحول .

١٨٦ × - كتاب فضل هاشم على عبد شمس (فرق ما بين هاشم وعبد شمس) .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٦ ، النهج ، ٣ ، ٢٥٢-٢٩٩ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٢ ، رقم ١٠ ، السندوبي ، رقم ١٠٢ .

و- طبعة د. جلبي في لغة العرب . ٩ ، ٤١٤-٤٢٠ ، رسائل ، ٦٧-١١٦ ،

محتمل انه اعتمد على النهج ، وبها أن ابن أبي الحديد أكمل نص الجاحظ ، فإن

السندوبي لم يحذف الإشارات الى الأعمال اللاحقة<sup>(٢)</sup> .

الرسائل الهاشميات . أنظر كلام .

كتاب المهجناء والصرحاء ، أنظر صرخاء .

١٨٧ × - رسالة في استحقاق الوعد .

ج- بروكلمان ، ٢٤٣ ، رقم ٣٢ ، السندوبي ، رقم ١٧ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ ، برلين ، ٥٠٣٢ (أنظر أوريان ، ١٩٥٤ ، ٨٥)

و- طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٢٠-٢٢٧ ، ١١ رسالة ، ١٧٣-١٧٧ .

ز- منتخبات (ريشر) ١٩٥-١٩٧ .

---

١- ابن النديم ، ٢١١ (منحول) .

٢- وفي آثار الجاحظ ، ص ١٩٣-٢٤٠ .

١٨٨- كتاب الوعد والوعيد .

أ- قبل ٢٣٢ .

ب- الحيوان ، ١ ، ٩ ، العداوة ، ٩ (فصل الوعد) ، إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٧ ،

١٠٨ ، الكتبي ، ١٥٤<sup>(١)</sup> .

بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٣٧ ، السندويي رقم ١٥٧ .

١٨٩- رسالة في مدح الوراق (والوراقة) .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ٩١٠ ، الكتبي ، ١٥٥<sup>(٢)</sup> .

ج- بروكلمان ، السندويي ، رقم ١٢٨ .

رسالة في ذم الوراق (والوراقة) .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٨ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥ .

ج- بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٦٩ ، السندويي ، رقم ٧٢ .

١٩٠×- رسالة في الوكلاء والموكلين .

ب- إرشاد ، ٦ ، ١٦/٧٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤<sup>(٣)</sup> .

ج- بروكلمان ، ٢٤٤ ، رقم ٤٨ ، السندويي ، رقم ١٥٨ .

د- المتحف البريطاني ١١٢٩ .

و- طبع على هامش الكامل ، ٢ ، ٢٢٠-٢٢٧ ، ١١ رسالة ، ١٧٠-١٧٢ .

ز- منتخبات (ريشر) ١٩٤-١٩٥ .

١٩١- كتاب أخلاق الوزراء .

ب- العداوة ، ٩٩ .

---

١- ابن النديم ، ٢١١ (الوعيد) .

٢- حبه ، ٢١١ (رسالة في مدح الورقين) .

٣- ابن النديم ، ٢١٠ .

د - برلين ، ٥٠٣٢ ، (أنظر أوربان ، ١٩٥٤ ، ٨٦) .

١٩٢ - كتاب الرد على اليهود .

ب - إرشاد ، ٦ ، ٧٧ / ١٦ ، ١٠٧ ، الكتبي ، ١٥٤ ، الصفدي ، ١٣٤<sup>(١)</sup> .

ج - بروكلمان ، ٢٤٥ ، رقم ٢٤ ، السندوبي ، رقم ٨١ .

ط - ضمن النصارى التي يشكل معها بدون شك كتاباً واحداً ، ونقرأ مع ذلك

في الحيوان ، ١ ، ٩ : « كتابي على النصارى واليهود » .

١٩٣ - الرسالة التيمية .

ب - إرشاد ، ٦ ، ٧٨ / ١٦ ، ١٠٩ ، الكتبي ، ١٥٥<sup>(٢)</sup> .

ج ——— بروكلمان ، ٢٤٦ ، رقم ٩٨ ، السندوبي ، رقم ١٥٩ .

حاولنا في الصفحات السابقة تنظيم كشف كامل حسب الامكان بآثار

الجاحظ ، ولكن لانحننا تشتمل أيضاً على اخطاء وثرغات (وتكرار بدون شك)

، لأنه يستحيل معرفة جميع مصنفات كاتبنا الخصب بشكل صحيح ، من بين

ما يتي عنوان مرقمة اعتماداً على تحقيقات ليست أكيدة أبداً — إذ نجد المؤلف

الواحد يذكر مرات عديدة تحت عناوين مختارة بصورة اعتباطية — ثلاثون منها

فقط تنطبق على مؤلفات أو رسائل محفوظة يمجملها ، وخمسون منها كتابات

حفظت جزئياً ، وما بقي منها يعطي فكرة عامة عن محتواها ، أما الباقي كله

فيستدعي منا دراية عظيمة طالما أن مخطوطات جديدة لم تكتشف بعد<sup>(٣)</sup> .

---

١ - حينه ، ٢١١ .

٢ - حينه ، ٢١١ .

٣ - في لائحة ابن النديم ثلاثة كتب لم ترد في كشف ييلاهي : الأخبار ، ص ٢١١ ، ورسالة في الفلم ، ص ٢١١ ،  
وتحسين الأموال ص ٢١٢ .



## فهرس المصادر والمراجع

- ابن أبي طالب (علي —) ، نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد ، دار المعرفة ، بيروت ، د. ت .
- ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم —) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٥ م .
- ابن الأنباري نزعة الألباء في طبقات الأدباء ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، ١٩٧٠ م .
- ابن الجوزي ، (الحافظ أبو الفرج —) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، خاتمي وحمدان ، بيروت ، ١٣٤٩ هـ .
- ابن حجر العسقلاني ، ابن خلدون ، (عبد الرحمن —) لسان الميزان ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٩٧١ م .
- ابن خلكان ، (أحمد —) المقدمة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، د. ت .
- ابن رشد ، (محمد بن أحمد —) وفيات الأعيان ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط . ١ ، ١٩٤٨ م .
- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من إتصال ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ م .
- مناهج الأدلة ، دار العلم للجميع ، بيروت ، ١٩٣٥ م .

ابن سينا، (الحسين بن عبد الله -

ابن طفيل ، (أبو بكر -)

ابن طباطبا أو ابن الطقطقي (محمد

ابن علي -)

ابن عبد ربه ،

ابن عدي ، (يحيى -)

ابن فارس ، (أحمد -)

ابن المرتضى ، (أحمد بن

يحيى -)

ابن المقفع ، (عبد الله -)

ابن نباتة (جمال الدين -)

ابن النديم ،

أبو ريده ، (محمد عبد الهادي -)

أرسطو ،

الإشارات والتنبيهات ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ م.

حي بن يقظان ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٢ م.

تاريخ الدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ م.

العقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،

١٩٥٣ م.

تهذيب الأخلاق ، تحقيق فؤاد حفي ، مطبعة دير مار مرقس

للسريان ، القدس ، ١٩٣٠ م.

الصاحمي في فقه اللغة ، مطبعة جبران ، بيروت ، ١٩٦٣ م.

طبقات المعتزلة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١ م.

كليلة ودمنة ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٠ م.

شرح العيون ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٤ م.

الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ.

مطبعة دانسكاه ، طهران ، ١٩٧١ م.

إسراهم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية ، لجنة

التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٤٦ م.

طبائع الحيوان ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٧ م.

(ترجمة يحيى بن البطريق ، تحقيق عبد الرحمن البدوي).

أجزاء الحيوان ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٨ م.

(ترجمة يحيى بن البطريق ، تحقيق عبد الرحمن البدوي).

كون الحيوان ، مؤسسة دى فوى ، لندن ، ١٩٧١ م.

(ترجمة يحيى بن البطريق ، تحقيق يان بروخان).

الخطابة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦ م.

الشعر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨-١٩٤٩ .

(تحقيق عبد الرحمن البدوي).

النفس ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٤٩ م.

(ترجمة جورج قنواث).

الابانة عن أصول الديانة ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ،

حيدرآباد ، ١٩٤٨ م.

الأشعري ، (أبو الحسن -)

- مقالات الإسلاميين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط .  
١٩٦٩ م .
- أمين ، (أحمد —) فجر الإسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،  
١٩٤٥ م .
- ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .
- ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- تحرير المرأة ، مكتبة الترقى ، القاهرة ١٨٩٩ م .
- أمين ، (قاسم —) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ،  
القاهرة ، ١٩٤٠ م .
- تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ م .
- الروائع (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت  
١٩٢٨ م .
- تاريخ بغداد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٣١ م .
- الفروق بين الفرق ، دار الأفاق ، بيروت ، ١٩٧٣ م . ط ١ .
- اصالة الجاحظ ، مطبعة الدال ، الرباط ، ١٩٦٢ م .
- الجاحظ ويجمع البصرة ، (ترجمة إبراهيم الكيلاني) ، مطابع  
فى العرب ، دمشق ، ١٩٦١ م .
- مذهب الذرة عند المسلمين (ترجمة أبو ريده) ، لجنة التأليف  
والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .
- البحلاء (تحقيق طه الحاجرى) ، دار المعارف بمصر ،  
١٩٧١ .
- البرصان والمرجان والعميان والحولان ، دار الاعتصام للنشر  
والطبع ، القاهرة ، ١٩٤٥ م .
- الحويان (تحقيق عبد السلام هارون) ، مطبعة مصطفى الحلبي ،  
القاهرة ، ١٩٤٥ م .
- رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون) ، مكتبة الخانجي  
بمصر ، ١٩٦٥ م .
- أثار الجاحظ (تحقيق حمير أبو النصر) ، مطبعة النجوى ،  
بيروت ، ١٩٦٩ م .
- بروكلمان ، (كارل —) البستاني ، (فؤاد أفرايم —) البغدادي ، (أبو بكر —) البغدادي ، (عبد القاهر —) بلا ، (شارل —) بيتيس ، الجاحظ (عمرو بن بحر —) ،

البيان والتبيين ، دار الفكر للجميع ، بيروت ، ١٩٦٨ م.  
الترريح والتدوير ، (تحقيق فوزى عطوى) ، الشركة اللبنانية  
للكتاب ، بيروت ، ١٩٦٩ م.

العثمانية (تحقيق عبد السلام هارون) دار الكتاب العربي بمصر  
١٩٦٥ م.

رسالة في الحكمين ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٨ م.

كتاب البلدان ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٧٠ م.  
مجموعة رسائل — الجاحظ — (محمد سامي) ، مطبعة التقدم  
بمصر ، ١٣٢٤ هـ.

رسائل الجاحظ (تحقيق حسن السندوي) ، الرحمانية بمصر ،  
١٩٣٣ م.

ثلاث رسائل (تحقيق فنكل) ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٤ هـ.  
مجموع رسائل الجاحظ (تحقيق الحاجرى وكراوس) ، لجنة  
التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٣ م.

الحنين الى الأوطان ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ.  
التبصر في التجارة ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٦٦ م.  
الفصول المختارة على هامش كتاب الكامل للمبرز ، مطبعة  
التقدم ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ.

رسالة في الرد على النصارى ، المطبعة السلفية ، القاهرة  
١٣٤٤ هـ.

الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ، المطبعة العلمية ، حلب  
١٩٢٨ م.

تهذيب الأخلاق (تحقيق محمد كرد على) ، المطبعة الارثوذكسية ،  
دمشق ١٩٢٤ م.

التاج ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، ١٩٧٠ م.  
التاج (تحقيق أحمد كمال زكي) المطبعة الأميرية ، القاهرة ،  
١٩١٤ م.

- المحاسن والأضداد ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ،  
١٩٦٩ م .
- الأمل والمأمول ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
- المعتزلة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- أرسطو والأرسطية عند العرب (دائرة المعارف ، مجلد ٩) ،  
المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٤٥ م .
- الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،  
١٩٦٨ م .
- الجاحظ ومجتمع عصره ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت  
١٩٥٨ م .
- الجاحظ معلم العقل والأدب ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ،  
١٩٤٢ م .
- التعريفات ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ .
- الجاحظ : حياته وآثاره ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ م .
- من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ م .
- معجم الأدباء ، دار المشرق ، بيروت ، د . ت .
- أبو عثمان الجاحظ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط . ١ ،  
١٩٧٣ م .
- كشف الظنون ، المطبعة الإسلامية ، طهران ، ١٣٧٨ هـ .
- الانتصار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٥ م .
- أصل الأنواع (ترجمة إسماعيل مظهر) ، مكتبة النهضة ، بيروت  
- بغداد ، ١٩٧٣ م .
- كشف الظنون ، المطبعة الميمنية بمصر ، ١٣٠٥ هـ .
- تاريخ الفلسفة في الإسلام (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة) ،  
لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .
- رسائل فلسفية ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٧ م .
- تاريخ علم النفس (تعريب علي زيمور) ، دار الأندلس ،  
بيروت ، ط . ٣ ، ١٩٧٨ م .
- جار الله (زهدي —)
- جبر (الأب فريد —)
- جبر (جميل —)
- جبري (شفيق —)
- الجرجاني (علي بن محمد —)
- الحاجري (طه —)
- حسين (طه —)
- الحموي (ياقوت —)
- خفاجة (محمد عبد المنعم —)
- خليفة (حاجي —)
- الخياط (أبو الحسين —)
- دارون (تشارلز —)
- دميري ،
- دي بور
- الرازي (أبو بكر —)
- روكلن (موريس —)

- مطاهب علم النفس ، دار الأندلس ، بيروت ، ط. ٢٠ ،  
١٩٧٧ م.
- الزهر في علوم اللغة وأنواعها (تحقيق محمد أحمد جاد المولى) ،  
دار احياء الكتب العربية ، ط. ٣ ، القاهرة.
- النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ ، دار المعارف بمصر ،  
١٩٦٤ م.
- الملل والنحل ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ،  
١٩٦١ م.
- طبقات الأمم ، مطبعة السعادة بمصر ، د. ت.
- الفن ومذاهبه في الشر العربي ، دار المعارف بمصر ط. ٣٠ ،  
١٩٦٠ م.
- تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ م.
- الفهرست ، المكتبة المرتضوية ، النجف ، ١٩٣٧ م.
- قصة التطور ، مكتبة النهضة ، القاهرة د. ت.
- المغني في أبواب العدل والتوحيد ، مطبعة مصر ، د. ت.
- الفرق المفترقة بين أنواع الزيغ والزنقة ، مطبعة النور ،  
المنقذ من الضلال ، مطبعة عطايا ، مصر ، د. ت. ط. ٣٠.
- المنطق الحديث ومناهج البحث ، مكتبة الانجلو المصرية  
القاهرة ، د. ت. ، ط. ٣
- الرسالة القشيرية ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م.
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، مصر  
١٣٢٦ هـ.
- فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية (ترجمة الأب فريد  
جبر والشيخ صبحي الصالح) دار العلم للملايين ، بيروت ،  
١٩٦٧ .
- تاريخ الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر  
القاهرة ، ١٩٥٨ م.
- الرجال ، مؤسسة الأعلمي ، كربلاء ، د. ت.
- زيعور (علي —)
- السيرطي
- شلت (الأب فكتور —)
- الشهرستاني
- صاعد الأندلسي
- ضيف (شوقي —)
- الطبري (محمد بن جرير —)
- الطوسي (محمد بن الحسن —)
- عبد العليم (أنوار —)
- عبد الجبار (القاضي —)
- العراقي (عثمان بن عبد الله —)
- الغزالي (محمد —)
- قاسم (محمد —)
- القشيري (عبد الكريم —)
- القفطي (يوسف —)
- قناتزي وغرديه ،
- كرم (يوسف —)
- الكشي (محمد بن عمر —)

محمود (زكي نجيب —)  
متز (آدم —)

المعقول واللامعقول في تراثنا ، دار الشروق ، بيروت ، د.ت .  
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، دار الكتاب  
العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ م .

المرتضى (علي بن الحسين —)  
مردم (خليل —)  
المسعودي (أبو الحسن —)

أمالى المرتضى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ م .  
الجاحظ ، حلب ، ١٩٣٠ م .

مروج الذهب ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ،  
١٩٧٣ م .

المفيد ، (محمد بن النعمان  
المعكبري —)

فلسفة المعتزلة ، دار نشر الثقافة ، إسكندرية ، ١٩٥٠ م .  
الجاحظ والحاضرة العباسية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد  
١٩٦٥ م .

نادر (البيروني —)  
النجم (وديعه طه —)

فرق الشيعة ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٠ م .

النوبختي (الحسن بن  
موسى —)

نوادير المخطوطات ، القاهرة ، ١٩٥١ م .  
مرآة الجنان وعرة اليقظان ، دائرة المعارف النظامية ، حيدر  
آباد ، ١٣٣٩ هـ .

هارون (محمد عبد السلام —)  
اليافعي ،

التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ م .

اليقروبي (أحمد —)

## مجالات عربية :

- لغة العرب ، بغداد ،  
مج ٨/١ (١٩٣٠) ، ص ٣٢-٣٩ ، داود جليبي ، رسالة في  
النبأنة .
- ٨/٨ (١٩٣٠) ص ٥٧٢-٥٧٥ ، داود جليبي ، رسالة إلى أبي  
الفرج بن نجاح .
- ٩/٨ (١٩٣٠) ص ٦٨٦-٦٩٠ ، داود جليبي ، رسالة الفتى .
- مج ٩/١ (١٩٣١) ص ٢٦-٣٨ ، داود جليبي ، رسالة في ذم  
القواد .
- ٢/٩ (١٩٣١) ص ١٧٤-١٨٠ ، أبو عبد الله الزنجاني من  
كتاب «الأخبار» .
- ٦/٩ (١٩٣١) ص ٤١٤-٤٢٠ ، أبو عبد الله الزنجاني ،  
تفصيل بني هاشم على من سواهم .
- ٧/٩ (١٩٣١) ص ٤٩٧-٥١٠ ، أبو عبد الله الزنجاني ،  
رسالة في اثبات إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .
- مج ٤/٦ (١٩٢٤) ص ٢٤٣-٣٤٩ ، محمد كرد علي ، كتاب  
تهذيب الأخلاق للمجاهد .
- ٧/٤ (١٩٢٤) ص ٣٤٨-٣٤٩ ، محمد كرد علي ، إشتدراك  
على كتاب تهذيب الأخلاق .
- مج ١٢/١ ، ٢ (١٩٣٢) ص ٤٠-٥١ ، شفيق جبري ، تهكم  
المجاهد .
- ١٢/١ ، ٢ (١٩٣٢) ص ٨٩-١٠٥ ، شفيق جبري ، مذهب  
المجاهد في النقد .
- ١٢/٥ ، ٦ (١٩٣٢) ص ٢٩٨-٣٠٨ ، شفيق جبري ، من  
المجاهد .
- ١٢/٥ ، ٦ (١٩٣٢) ص ٣٢٦-٣٥١ ، كتاب التبر  
بالتجارة .
- مج ٢٦/٧ (١٩٢٨) ص ٥٣٢-٥٣٩ ، فؤاد أفرام البستاني  
- المشرق ، بيروت ،

الجاحظ ، المفكر والكاتب .

٨/٢٦ ، ٩ (١٩٢٨) ص ٦٦٢ - ٦٧١ ، فؤاد أفرام البستاني ،

الجاحظ .

مج ٣/٦٣ (١٩٦٩) ص ٣٠٦ - ٣٢٦ ، شارب بلا ، من كتاب

المسائل والجوابات في المعرفة .

مج ٣/٣ (١٩٧٤) ص ٢٠٧ - ٢٢٠ ، محمد المعيد ، شعر

- المورد ، بغداد ،

الجاحظ .

مج ١/٤ (١٩٧٥) ص ٢٩ - ٣٢ ، أحمد التكريتي ، النزعة الدينية

في كتاب الحيوان .

مج ٢/٤ (١٩٧٥) ص ٢٦٧ - ٢٩٦ ، علي جواد ، ترجمة مصادر

الجاحظ .

ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ، غربي الحاج أحمد ، الحنين الى الأوطان .

مج ٤/٥ (١٩٧٦) ص ٣١٢ - ٣١٤ ، محمود الجليلي ، حول

مخطوطة رسائل الجاحظ .

## دوائر المعارف والمعاجم :

دائرة المعارف ، بإدارة فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٧١ .

دائرة المعارف الإسلامية ، نقل إبراهيم خورشيد وغيره ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

القهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر  
القاهرة ، ١٩٦٣ .

ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، دار لسان العرب ، بيروت ، د . ت .

Encyclopedie de l'islam , Nouvelle edition, Paris,1965.

Encyclopedia universalis , Paris, 1er publication, Paris,1970.

Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, 8eme  
edition, paris,1960.

## كتب ومجلات أجنبية :

- Pellat , ch                      Le Milieu Basrien et la formation de Gahiz  
Paris,1953.
- Le Livre do la Couronne attribue a Gahiz ,  
Paris,1954.
- Le Livre des avares , Paris,1951.
- Rosenthal, Y.                The Political Thought in Medieval Islam,  
Cambridge,1962,
- Arabica                        Vol. I { 1954 } pp.153-165.
- Pellat , Gh., < Le Kitab Al - Tabassur Bilti-  
gara attribue a Gahiz>
- Vol. III { 1956 } , pp.147-180.
- Pellat , Gh., <Essai d'inventaire de l'oeuvre  
Gahisienne>, Vol. X { 1963 } , pp.121-147.
- Pellat, Ch., <Les Esclaves chanteuses de  
Gahiz>.

Vol. XIV {1967} , pp.259-283.

- Pellat , Ch., "Un Risala de Gahiz sur le snobisme et l'orgueil".

Vol. XV {1962} , pp.23-53.

Studia Islamica -Pellat, Ch., "Limamat dans la doctrine de Gahiz".

Vol. XXIV {1966} , pp.19-33.

- Vajda , G., "La Connaissance naturelle de Dieu selon Al - Gahiz critique par les Mu'tazilites>

Vol. XXXIX {1974} , pp.25-57.

Bernand , M. , <Le Savoir entre la volonté et la - spontanéité selon An-Nazzam et Al-Gahiz".

# الفهرس

المقدمة : في معنى المناحي الفلسفية عند الجاحظ والغاية من البحث وصعوباته ..... ٩

## الباب الأول : المؤثرات العامة

الفصل الأول : بيتا البصرة وبغداد من التاحتين الطبيعية والاجتماعية ..... ٣٣

الفصل الثاني : عصر الجاحظ ..... ٥١

الفصل الثالث : مناهل فكر الجاحظ ..... ٧٩

الفصل الرابع : أصل الجاحظ وشخصيته ..... ١١٩

## الباب الثاني : المنحى الطبيعي

الفصل الأول : الجاحظ فيلسوف طبيعي ..... ١٣٣

الفصل الثاني : عالم الجماد : الكمون - الجزء الذي لا يتجزأ، العرض والجهر ..... ١٣٩

الفصل الثالث : عالم الحيوان : الحيوان بين ارسطو والجاحظ ، علم نفس الحيوان ، التطور .. ١٥١

الفصل الرابع : عالم الإنسان : العقل - النفس - النزعة الانسانية ..... ١٧١

### الباب الثالث : المنحى الكلامي

الفصل الأول : علم الكلام ..... ١٨٩

الفصل الثاني : الاعتزال : معناه ومبادئه ونشأته ..... ١٩٧

الفصل الثالث : الجاحظية : الله - النبوة - الامامة - المعرفة ..... ٢٠٥

الفصل الرابع : موقف الجاحظ من الفرق : الشيعة - أهل السنة - الخوارج - الدهرية -

المجوس ..... ٢٨٧

### الباب الرابع : المنحى الجمالي

الفصل الأول : الجمال ..... ٣٠٥

الفصل الثاني : البلاغة ..... ٣١١

الفصل الثالث : الخطابة ..... ٣٢٣

الفصل الرابع : الشعر ..... ٣٣٥

### الباب الخامس : المنحى اللغوي

الفصل الأول : أصل اللغة وخصائصها ..... ٣٥٥

الفصل الثاني : عناصر البيان وعيوبه ..... ٣٧٥

### الباب السادس : المنحى الخلقي والاجتماعي

الفصل الأول : الأخلاق : أسسها - الفضيلة - الخير والشر - الاخلاق العملية ..... ٣٩١

الفصل الثاني : الاجتماع : أسسه - طبقات المجتمع - السياسة - الاقتصاد - الأسرة ..... ٤١٧

### الباب السابع : منهجية الجاحظ

الفصل الأول : المنهج الفكري : النقدية - الجدلية - الاستقرائية - الشكية - الشمولية - الاستطردية -

الواقعية - العقلانية ..... ٤٥٥

الفصل الثاني : المنهج التعبيري : الطبعية - مرونة العبارة - الترادف - الفصاحة - ملاءمة

اللفظ والمعنى - الإسهاب ..... ٤٧١

الخاتمة ..... ٤٧٩

### الملحق

كشف كتب الجاحظ ..... ٤٨٥

فهرس المصادر والمراجع ..... ٥٦١

